المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين

- دراسة تحليلية نقدية مقارنة -

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث

إعداد الطالبة

عواطف محمد يوسف نواب

إشراف الأستاذ الدكتور

يوسف بن علي بن رابح الثقفي

المجلد الأول

عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)
إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية
بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عواطف بنت محمد بن يوسف نواب الكلية : الشريعة والدراسات الإسلامية قسم : التاريخ

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : التاريخ الحديث

عنوان الأطروحة : **كتب الرحلات في المغرب الاقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ـ دراسة تحليلية نقدية مقارنة ـ**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشراف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد ،

بناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه ، والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ١٤٢٠/٧/٢٥هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تمّ عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ،،

والله الموفق ،،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الأول	المناقش الثاني
الاسم : أ . د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي	أ. د. تركي بن عجلان الحارثي	أ. د. نبيل عبدالحي رضوان
التوقيع : ١٤٢٠/١٢/٢٥	التوقيع : ١٤٢١/١/٢١	التوقيع :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الاسم : أ . د. ضيف الله بين يحي الزهراني

التوقيع :

* يوضع هذا النموذج أمام النسخة المقابلة لنسخة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من لانبي بعده محمد ﷺ ... وبعد

إن موضوع البحث هو كتب رحلات المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة . قسم البحث لمقدمة وتمهيد و٧ فصول وخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث وملاحق أحتوت على ٢٤ مصور توضيحي للناحية العمرانية بالحجاز . أما المقدمة فُبين بها أهمية البحث وسبب اختياره وعرض موجز لأهم المصادر التي أفادته . وتناول التمهيد أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ والتواصل بين الحجاز والمغرب الأقصى من خلال كتب الرحلات المغربية . وتناول الفصل الأول التعريف بأشهر الرحلات المغربية التي أعتمد عليها البحث مع ذكر مقتطفات عن حياة الرحالة المغاربة . أما الفصل الثاني سلط الضوء فيه على منهج الكتابة التاريخية عند الرحالة المغاربة واندرج تحته عدة مباحث هي الإعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة ودقة الوصف والاستفادة من الرحلات السابقة والمقارنة والنقد . واشتمل الفصل الثالث على الأحوال السياسية في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية واحتوى على حدود إمارة الحجاز وبداية علاقات العثمانيين بالإشراف أمراء الحجاز ومناطق نفوذهم والحالة السياسية بمكة المكرمة والمدينة المنورة وجُدة والطائف وينبع وبعض مدن وقرى الحجاز وحال قبائل أعراب الحجاز الدينية وطباعهم الخُلقية وحالة الأمن في المدن وبعض قرى الحجاز وأسباب اختلال الأمن بدرب الحجاز . وتحدث الفصل الرابع عن النشاط البشري في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية وطُرق الحج والتجارة والأسواق وأهم السلع والصناعات المحلية واليدوية ومواطن الزراعة ومصادر المياه ومشاريعه . وتناول الفصل الخامس الأحوال الاجتماعية بالحجاز والعناصر السكانية والعادات والتقاليد والرشوة والبدع والخرافات . أما الفصل السادس فتناول عوامل ازدهار الحركة العلمية في الحجاز وأماكن التعليم وأهم العلوم وأشهر العلماء ومؤلفاتهم . واشتمل الفصل السابع على المشاهدات العمرانية والآثار في الحجاز وعمارة المسجد المكي والمدني والمشاعر المقدسة والمساجد الأخرى بمكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن الحجاز الأخرى ودرب الحجاز ونمط عمارة المنازل السكنية والأسوار والقلاع . أما الخاتمة فاشتملت على أهم ما توصل إليه البحث من نتائج في عدة جوانب منها :

الجانب العلمي :

اثبتت الدراسة ظهور أسماء رحالة مغاربة اتقنوا فنون الرحلة وأدابها ، كما وجد بالحجاز المذاهب الإسلامية بعلمائها الذين دفعوا بالحركة العلمية قدماً . كما لمع فيهما أسماء علماء كانوا ينتقلون للمجاورة فترة بمكة المكرمة وأخرى بالمدينة المنورة بدون مضايقات . كما ظهر علماء مخترعين في علم الميكانيكا صنفوا فيها مؤلفات . كما لم تكن حلقات العلم تعقد باللغة العربية وحدها بل كانت هناك لغات أخرى كالتركية والفارسية مثلاً .

الجانب الديني :

اظهرت الدراسة ضعف الحالة الدينية بالحجاز وظهور بدع وخرافات انفرد بها عن غيره من الأقطار الإسلامية . كما أوضحت الدراسة تفشي عادة التبرك بالقبور . وأن أغلب ما نسب من أماكن للصحابة رضوان الله عليهم إنما الحقت نسبتها إليهم بعد فترات طويلة مما يؤكد عدم صحة النسبة.

الجانب الإجتماعي :

برهنت الدراسة على تعدد الأجناس في المجتمع الحجازي وتميز أهل المدينة المنورة بالحياة المترفة وتفوق نفوذ المرأة على الرجل بها .

الجانب السياسي :

اثبتت الدراسة أن الأضطراب السياسي عم الحجاز داخلياً في بعض فترات البحث بسبب تصارع الأمراء الاشراف على السلطة . كما تصارع الأشراف مع أمراء الحج وباشوات جُدة وكان لباشوات جُدة ومصر اليد الطولى في تسيير أمور الحجاز وكذلك أمراء الحج حتى كان بإمكانهم عزل وتعيين الأمراء الأشراف كما كان اقليم الحجاز يتمتع بمميزات لا يتمتع بها سائر اقاليم الدولة العثمانية .

الجانب الاقتصادي :

برهنت الدراسة ان استمرارية وصول الأعطيات والصدقات وهطول الأمطار يعقبه رخاء اقتصادي مع هبوط في الأسعار . كما وجدت جالية مغربية زاولة الزراعة والف بعضهم الكتب فيها وامتلكوا الأراضي واستصلحوها وخاصة بالمدينة المنورة .

الجانب العمراني :

اثبتت الدراسة عناية سلاطين آل عثمان الفائقة بكل ما يتعلق بالمسجدين المكي والمدني وتمهيد طرق الحج وحفر الآبار لتسهيل أمور الحجاج . كما عُرفت أنماط معمارية تلائم بيئة كل مدينة .

ومما استنتج عن الرحالة المغاربة أنفسهم :

كان معظم الرحالة المغاربة أهل علم قوبلوا بالاحترام في المدينتين المقدستين وتصدر بعضهم للتدريس كما ظهر الرسم إلى جانب الوصف لتقريب ما أرادوا توضيحه لا سيما للمسجدين المكي والمدني وبعض الأماكن المأثورة والمشهورة . كما اعتادوا الخروج للحج ومعهم رفيق أو قريب كما لم يكونوا وقت خروجهم للحج صغاراً في السن . واعتنى بعضهم بكتابة رحلته عن هيئة أبواب وفصول يندرج تحتها عناوين للتسهيل على القارىء استخراج ما أراد .

إنتهى ..

اسم الطالبة
عواطف بنت محمد يوسف نواب

اسم المشرف
الأستاذ الدكتور/ يوسف بن علي بن رابع الثقفي

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الأستاذ الدكتور/ محمد بن علي العقلا



﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ



سورة الاسراء ، آية : ٨٥

صدق الله العظيم

إهــداء

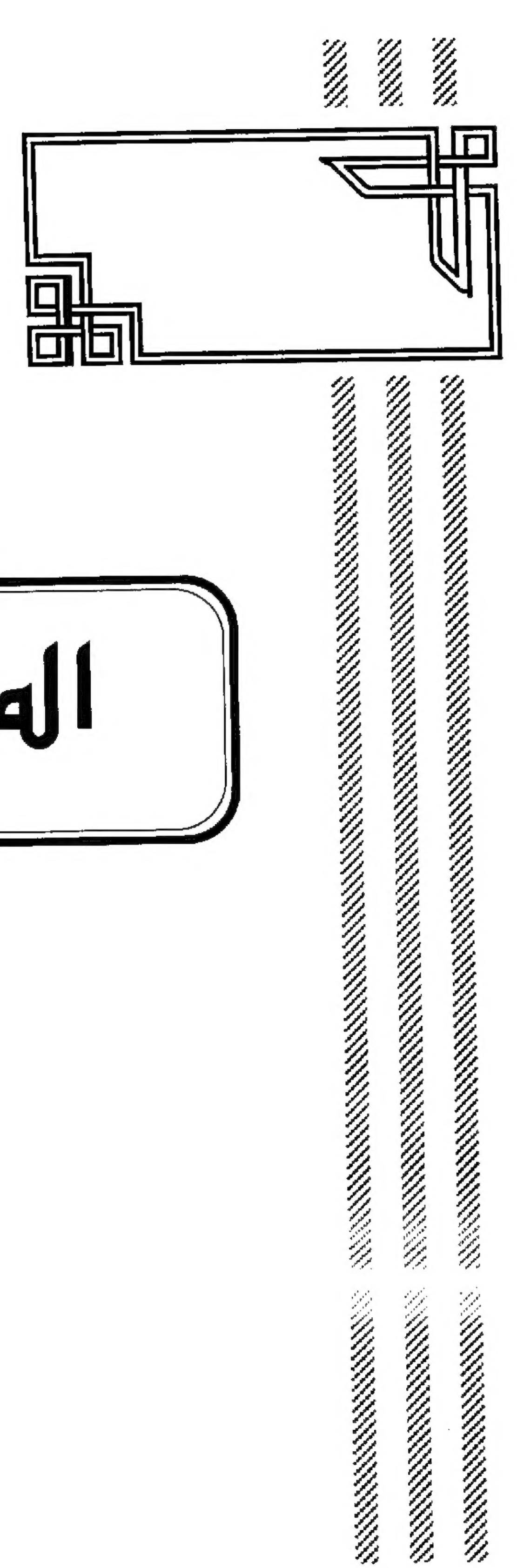
● إلى اللذين عِشتُ في فيء ظلّهما وسهرا الليالي لأنام ، وتعبا من أجل راحتي وسعادتي ، فلهما الفضل كل الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في خروج هذا العمل المتواضع للنور .

● إلى أمي وأبي مع العرفان بالجميل وإلى قرة عيني ابني محمد الذي أتمنّى أن يكون عملي هذا حافزاً له على نيل أعلى الدرجات العلمية .

● وإلى كل من ساندني طوال فترة البحث .

● وإلى كل قارىء لرسالتي ارجو منه أن يدعو لوالديّ بالصّحة وطول العمر ، ولإبني بالمزيد من الهداية والصّلاح والنّجاح والفلاح .

الباحثة



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد

أعتنى المؤرخون بتدوين أخبار الحجاز يوم أن كان عاصمة للدولة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين . فلما إنتقلت عنه العاصمة إنتقل معها إهتمام المؤرخين إلى العواصم الجديدة (دمشق ثم بغداد ثم القاهرة) ، وقبع الحجاز لا يلق إهتماماً إلا من قلة من المؤرخين . كما أن بعض أخباره جاءت نتفاً مبعثرة في كتب التاريخ العام والتراجم لكنها لا تفى بغرض ولا تروى غلة باحث ، فهي تكاد تقتصر على ذكر من تولى إمارة مكة المكرمة والحج ، وما حدث في مواسمه من فتن ، مع إشارات طفيفة إلى بعض النواحي السياسية والإقتصادية والعلمية .

ولا يعنى هذا أنه لم يظهر من أبناء الحجاز من أرخ له ، فقد برز في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي مؤرخان هما الأزرقي المتوفي عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م والفاكهي المتوفي عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م [١] . وبعدهما دخل الحجاز في دائرة النسيان وأصبح تاريخه في الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري مبعثراً بين طيات المصادر التاريخية .

وفي القرن الثامن الهجري ظهر المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي الذي أخذ على عاتقه سدّ هذا الفراغ التاريخي للحجاز وذلك بتأليفه كتباً عن أحوالها ، وأهمها العقد الثمين في أخبار البلد الأمين وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . وبالرغم من ذلك فمؤلفاته لا تفى بالغرض خاصة وأنها فترة طويلة لم يشهد أحداثها .

وتبعه أيضاً ابن فهد في كتابه اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، وابن ظهيره وكتابه الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ،

---

١ ـ عبدالله عقيل عنقاوي : المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، بحث القي في الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ضمن مجموعة أبحاث مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

وعبدالملك العصامي وكتابه سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي ، والسنجاري وكتابه منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ، والطبري وكتابه اتحاف فضلاء الزمن بأخبار ولاة بني الحسن ، وابن الضياء وكتابه تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، والأسدي وكتابه إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ، وغيرهم .

وكان إلى جانب المؤرخين الذين اعتنوا بتاريخ الحجاز عدد من الرحالة المسلمين على إختلاف أجناسهم ومقاصدهم ، وبالأخص الرحالة المغاربة والتي عُرفت رحلاتهم بأسم الرحلات الحجازية .

فالحجاز كان منذ فجر الإسلام ولا يزال وسيظل إن شاء الله تعالى مهوى لأفئدة المسلمين ومُشداً لرحالهم . لذا أقبل جماعة من الرحالة المغاربة وعكفوا على تدوين أخبار رحلاتهم ووصف مشاهداتهم في تلك البقاع بصدق وعفوية ، فأعتبرت مدوناتهم من أمتع الكتب وأكثرها إستهواء لتنوع مباحثها وأساليبها ، لا سيما وأن هؤلاء الرحالة كانوا رجال علم ودين وأدب .

وما كتبه الرحالة المغاربة حمل طابع الواقعية عن الحجاز في مواضيع كثيرة ، فلقد كتبوه وهم متلبسون بنسك يؤدونه مما جعل عملهم خالصاً لوجه الله تعالى وبعيداً عن الميل والهوى والإنحراف في معظم الأحيان ، كما أنهم لم يكونوا تابعين لجهة سياسية معينة تسير أعمالهم وتوجه كتاباتهم ، بل إعتمدوا على تسجيل الواقع والمشاهد والإتصال المباشر للتعرف على خصال البشر وأحوال المجتمع من خلال ما رصدوه من عادات وتقاليد وتقصى للجوانب السياسية والإقتصادية والاجتماعية والعلمية والعمرانية قدر الإمكان ، مما قل وجوده في كتب غيرهم .

لذا فلكتابة تاريخ صحيح ومتكامل عن الحجاز ، لابد له من الإعتماد على كتب الرحلات المغربية كمصدر من مصادر تاريخه ، وتناولها بالتحليل والنقد ، ومقارنتها بما ورد في المصادر التاريخية الأخرى للخروج بالنتائج السليمة والصحيحة .

ومن هنا كان سبب إختياري لموضوع (**كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة**) لأنال به درجة الدكتوراه ، خاصة وأنه قد سبق لي وأن تقدمت بموضوع نلت به درجة الماجستير وعنوانه (**الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة**) .

ووجدت أن القرون التالية لفترة بحث الماجستير قد حفلت برحلات مغربية كثيرة ، لا سيما خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، وهي لا تقل في أهميتها عن رحلات القرنين السابع والثامن الهجريين بما تضمنته من أخبار عن الحجاز في جوانبه السياسية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية والدينية والعمرانية .

وقد أخذت في الإعتبار النقد والتحليل والمقارنة للمعلومات التي أوردتها كتب الرحالة المغاربة ، وتوثيقها قدر الإمكان مع ما جاء في بعض مصادر التاريخ العامة والخاصة وكتب التراجم ، إلى جانب إلقاء الضوء الكافي على منهجية هؤلاء الرحالة المغاربة من مدوناتهم ، وأسلوب معالجتهم للقضايا التي طرحوها . علاوة على أني لم أجد على حد علمي المتواضع مَنْ تصدى لبحث هذا الموضوع من قبل ، وعليه أحسب أنه من الموضوعات الجديدة التي لم تنل ما تستحقه من البحث والدراسة ، لا سيما وأن الرحالة المغاربة كانوا معاصرين لأحداث تلك الفترة فسجلوها بالصورة التي وقعت ، بعكس من سجلها بالسماع أو النقل . لأنه كما هو معروف ربما يزاد عليه أو ينقص منه أو يحرف فلا يأتي الحدث بالصورة التي وقع فيها .

ولكل ذلك وجدت في نفسي ميلاً لبحث هذا الموضوع ، خاصة بعد إطلاعي على بعض كتب الرحلات المغربية لتلك الفترة ، والتي وجدت فيها معلومات غزيرة تنتظر الإخراج والبحث والدراسة . وكلي أمل أن أكون قد وفقت في إختياره ووفقت في التوصل لنتائج مرضية تثري البحث وتضيف الجديد إلى تاريخ الحجاز من جميع جوانبه ، وتظهر أهمية كتب الرحلات لإعتمادها مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الحجاز .

أما أهم الصعوبات التي واجهتني ، فبادىء ذي بدىء عدم تمكني من الحصول على أية رحلة من الرحلات المغربية في المملكة العربية السعودية ، لوجودها بالمملكة المغربية ، فقمت بزيارتها برفقة والدي أطال الله في عمره وأمده بالصحة والعافية ، وتمكنت من إحضارها ، أما الصعوبة الأخرى التى واجهتنى فكانت صعوبة قراءة الخط المغربي ، والذي أخذ منى الجهد والوقت الطويل حتى تمكنت بتوفيق الله تعالى من اجتياز تلك الصعوبة . وصعوبة ثالثة وهي تسجيل الرحالة المغاربة لأسماء بعض العلماء بالحجاز بأسمهم الأول أو بكناهم ، وكما نعلم وجد الكثير مِمَّن يحملون الأسم نفسه أو الكنية ، واستطعت بحمد الله أيضاً إجتياز هذا الأمر . واستأنفت صياغة موضوعي وفق الشروط والقواعد المتبعة في كتابة البحوث والدراسات العلمية ، والتي أرشدني إليها إستاذي الفاضل . فأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ، وتمهيد ، وسبعة فصول ، وخاتمة ، على النحو التالي :

المقدمة : بينت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره ، إضافة إلى عرض موجز لأهم المصادر التي أفادت البحث .

التمهيد : واشتمل على أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ . والتواصل بين الحجاز والمغرب .

الفصل الأول : تناولت فيه التعريف بأشهر الرحلات المغربية التي اعتمد عليها البحث ، وهي عشرة رحلات ، رتبتها على حسب تاريخ قدوم أصحابها للحجاز وهم :

القيسي – والعياشي – والرافعي – واليوسي – والقادري – والدرعي – والحضيكي – والغنامي – وأبومدين – والزبادي . وقد سلطت الضوء على مقتطفات من حياتهم ، ومكانتهم العلمية والإجتماعية ، وأهم مؤلفاتهم ، ثم خصائص ومميزات رحلاتهم وأهميتها أو قيمتها العلمية .

الفصل الثاني : تحدثت فيه عن منهج الكتابة التاريخية عند الرحالة المغاربة ، وأدرج تحته عدة مباحث ، وضحت فيها أن الإعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة من أهم المناهج للكتابة التاريخية لدى الرحالة المغاربة ، وذلك لاهتمامهم بدقة الوصف . وكذلك الإستفادة من الرحلات السابقة عليهم ، كما بينت إهتمامهم بالنقد والمقارنة لما سجلوه .

الفصل الثالث : أفرد هذا الفصل للحديث عن الأحوال السياسية في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية ، وتحدثت فيه عن مناطق النفوذ في بلاد الحجاز الخاصة بالأشراف والعثمانيين والقيت الضوء على طغيان نفوذ بعض القبائل في الحجاز ، ثم تطرقت إلى موضوع الأمن في المدن والبوادي ، وما حدث من فتن خلال تلك الفترة .

الفصل الرابع : شمل هذا الفصل مباحث عدة ، منها طرق التجارة والحج في ذلك الوقت ، بالإضافة إلى الحديث عن أهم الأسواق والسلع ، وكذلك النقود المستعملة في تلك الفترة ، وطريقة التعامل بها وصرفها . وأشرت إلى الأراضي الزراعية وأهم حاصلاتها ، وأشرت أيضاً إلى أهم مصادر المياه التي كان اعتماد أهل الحجاز عليها . وتطرقت للصناعات التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وأهم الصناعات التي زاولها السكان .

الفصل الخامس : أفردت فيه الحديث عن الأحوال الإجتماعية في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية ، والذي تناولت فيه أهم عناصر المجتمع ، وأماكن تجمع السكان التي شاهدها الرحالة ، علاوة على العادات والتقاليد التي لفتت نظرهم الحسنة أو السيئة ، والتي كان منها الرشوة والبدع والخرافات .

الفصل السادس : حفل هذا الفصل بالحديث عن الحياة العلمية في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية ، والتي منها : عوامل إزدهار الحركة العلمية ، وأماكن تلقى العلم ، وأهم العلوم ، وأشهر العلماء ، وأهم مؤلفاتهم . وقد ألقيت فيه الضوء على مكانة الحجاز العلمية في ذلك الوقت .

الفصل السابع : إشتمل هذا الفصل على النواحي العمرانية في الحجاز من خلال كتب الرحلات المغربية ، وتحدثت فيه عن مشاهدات الرحالة المغاربة للعمائر ، والتي شملت بطبيعة الحال الحرمين الشريفين وأهم المساجد المأثورة . وتناولت فيه أيضاً ما لفت إنتباههم ، من منازل وتخطيط للمدن . كما تناولت الحديث عن عمارات المنشآت الحربية ، من أسوار وقلاع وحصون ، تلك التي شاهدها الرحالة .

أما الخاتمة : فقد إشتملت على أهم ما توصل إليه البحث من نتائج ، تلاه الملاحق وثبت للمصادر والمراجع والفهارس .

وفيما يلي عرض مختصر لأهم المصادر التي استخدمت في البحث :

لقد قمت بالإستعانة ببعض المصادر التاريخية التي كتبت عن تاريخ الحجاز إلى جانب كتب الرحلات ، التي أفردت لها فصلين هما : الأول والثاني ، وتكلمت فيهما عن الرحالة المغاربة ، وأهمية ما جاء من معلومات في رحلاتهم ، لذا لا لزوم لإعادة القول عنها . ونكتفي بالإشارة إلى أهم المصادر والمراجع المساندة لتلك الرحلات والتي اعتمدت عليها في المقارنة والتوثيق والتي امدتني في الوقت نفسه بمعلومات لم يذكرها الرحالة المغاربة توضح ما غمض في بعض الموضوعات أو تحدث الرحالة عن طرف منها مما يجعل الغموض يكتنفها ، وبمساندة هذه المصادر استطعنا إزالة الغموض وتوضيح ما خفي على الرحالة المغاربة إظهاره ، فمن هذه المصادر التي استفدت منها :

١ ـ **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** ، لعبدالقادر ابن محمد الجزيري :

واستفدت منه بصفة خاصة بما أورده عن طريق الحج المصري ، وما تم فيه من إصلاح وإنشاء وأسماء المنازل التي كان الحجاج يخصّونها بالنزول والتي لم تتغير إلى عهد الرحالة المغاربة ، وكذلك استفدت منه في تحديد أماكن الماء والمراعي وأنواع المزروعات .

٢ ـ **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى** ، لنور الدين علي السمهودي :

فهذا المصدر يعتبر من الكتب المهمة في تاريخ المدينة المنورة للنواحي العمرانية والإجتماعية والسياسية ، واستفدت منه بصفة خاصة في وصف المسجد النبوي ، لا سيما قبل حريقه الثاني ، حيث أبرز هذا المصدر التغيرات التي حدثت به بعد عمارته ، والتجديدات التي استحدثت . كما استفدت منه في تحديد أماكن المساجد المأثورة في المدينة المنورة وتاريخها .

٣ ـ **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم** ، لتاج الدين بن تقي الدين السنجاري :

وقد استعنت به في المقارنة والتوثيق ، وتكملة النواحي السياسية والإجتماعية والعلمية ، لا سيما ان السنجاري عاصر فترة تاريخية من عصر الرحالة المغاربة.

٤ ـ **اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن** ، لمحمد بن علي الطبري :

واستفدت منه في النواحي السياسية والعلمية ، وخاصة للمقارنة والتوثيق ، فهذا المؤلف من المعاصرين لفترة من تاريخ الرحالة المغاربة .

٥ ـ **قرة العين في أوصاف الحرمين** ، لابي عبدالله محمد المحجوب :

استفدت من هذا المخطوط في التوثيق لمساجد المدينة المنورة المأثورة ، فقد أورد مؤلفه أموراً لم أجدها إلا عنده . وكذلك في المقارنة .

٦ ـ **معجم معالم الحجاز** ، لعاتق بن غيث البلادي .

وهو من المراجع المهمة التي كان لها الفضل في توضيح كثير من الأمور وخاصة في النواحي الجغرافية .

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والدعاء والثناء الجزيل لله عز وجل الذي اعانني ووفقني ، كما ادعوه جل ثنائه أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذا البحث ، خاصة وأنه يمس جزءاً عزيزاً على قلب كل مسلم .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لى يد العون ، وخاصة استاذي المشرف الاستاذ الدكتور يوسف بن علي بن رابع الثقفي ، على ما قام به من جهد وتوجيه طيلة فترة البحث ، برغم مشاغله وأعماله . كما أتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور محمد أحمد حسب الله الذي واكبني خلال فترة إختيار الموضوع ووضع عناصـــره ، واقتطع لى خلال ذلك الكثير مـــن وقته وجهده ، فجـــزاه الله عني كل خير . وأتقدم بالشكر الخاص والممزوج بالاعتراف

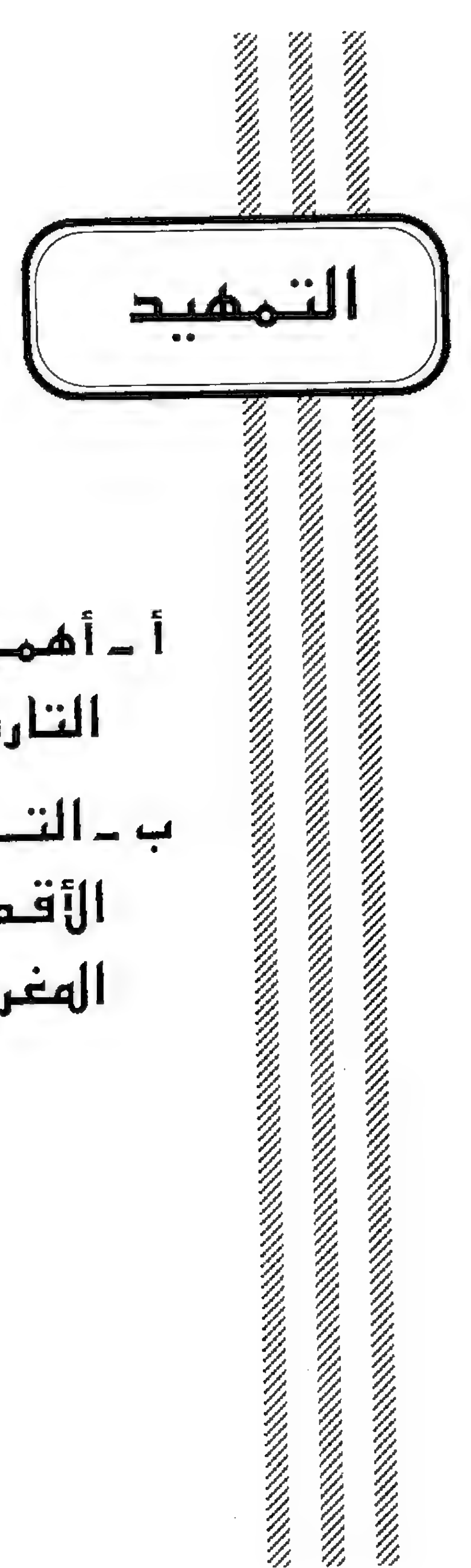
بالجميل لاستاذي السابق سعادة الدكتور فواز بن علي الدهاس الذي وضعني على أول طريق البحث العلمي في مرحلة الماجستير وحثني على اكمال المشوار ولم يبخل عليّ بالمعلومات كما وضع كامل محتويات مكتبته العامره تحت تصرفي فجزاه الله عني كل خير . كما أشكر الاستاذ الدكتور حسن الوركلي الذى قام بأهدائي نسخة مصورة من رحلة الرافعي . كما أشكر مكتبة الملك فهد الوطنية التي قامت مشكورة بإرسال نسخة مصورة من رحلة القادري . وأشكر أيضاً الاستاذ محمد بن راضي الشريف على ما قدمه من معلومات حديثة عن المواقع التاريخية بالمدينة المنورة ، وبعض صور لها تُحدد أماكنها فجزاه الله كل خير . كما ابتهل الله تعالى أن يتغمد برحمته وواسع مغفرته الأستاذ الدكتور جميل عبدالله المصري على ما قدم لى من معلومات كُنت في أمس الحاجة إليها ، كما قام رحمه الله بإهدائي بعض الكتب فرحم الله هذا العالم الفاضل واسكنه فسيح جناته إنه سميع الدعاء . كما اشكر سعادة الاستاذ الدكتور مصطفى عمر معمر والاستاذ محمد حسين اسكندراني على ما قدماه لى من عون في إخراج صور الملاحق التوضيحية فجزاهما الله كل خير .

كما أتقدم بالشكر لجامعة أم القرى التى اتاحت لى فرصة اكمال تعليمي ممثلة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية وعمداءها ، وقسم الدراسات العليا التاريخية ، الذين وقفوا وساندوا طلاب وطالبات الدراسات العليا التاريخية ويسروا أمورهم العلمية فجزاهم الله خير الجزاء .

ولا بد لى هنا من إرجاع الفضل لأهله والإعتراف بفضل اساتذة أفاضل بالمملكة المغربية ، قدموا لى كل عون ومساعدة وقت أن كنت هناك ، فمنهم على سبيل المثال الاستاذ الدكتور عبدالسلام الهراس ، الذي صحح لي بعض أخطاء كنت اعتقد صحتها ، والاستاذ الدكتور عباس الجراري الذي منحني من وقته الكثير ، ووهب لى نسخة مصورة من رحلة الدرعي ، وهناك الاستاذ خالد السقاط الذي لم يألُ جهداً في تقديم العون والمساعدة ، وكذلك الاستاذ عبدالمجيد عينيه ، الذي قام جزاه الله خيراً بنسخ رحلة الغنامي بخط يده واهداني إياها فجزاه الله كل خير .

كما أتقدم بالشكر الخاص لأوحد علماء بلده والمعول عليه بالمغرب الاستاذ محمد المنوني اطال الله في عمره لما خصني من وقته وما وهبني من كتب فجزاه الله عنى خير الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين فهو نعم المولى ونعم المعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



التمهيد

أ - أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ .

ب - التواصل بين الحجاز والمغرب الأقصى من خلال كتب الرحلات المغربية .

أ - أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ :

أطلقت نداءات ودعوات متعددة ، مفادها وجوب أن تحظى كتب الرحلات بالاهتمام والدراسة والبحث والنشر ، وأن تلقى ما تستحقه من العناية بدلاً من بقائها مبعثرة في مكتبات العالم ، بل ذهبوا لأبعد من ذلك ، إلى الدعوة لتدريسها وتقديمها على موائد البحث ومقاعد الدراسة . [١]

وهؤلاء الكتّاب والبحّاثة لم يطلقوا دعواتهم ونداءاتهم جزافاً ، بل قدموا ما يؤيد طلبهم ودعواهم ، بأدلة توضح أهميتها وما وجد فيها ، ومن ذلك : أن كتب الرحلات حوت مادة غنية ومثيرة للدهشة ، إذ ليس هناك شك في أنها قدمت إسهامات بالغة الأهمية في الجغرافيا ، والتاريخ ، والأدب ، والإقتصاد ، والأخبار ، والسير ، والاجتماع ، والسياسة وفوق هذا هي ذات تشويق ،

---

١ - خالد بن عيسى البلوي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، جـ١ ، ص ٩١ ، مقدمة وتحقيق الحسن السائح ، صندوق إحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ، والإمارات العربية المتحدة ، د. ت ؛ محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي ، ص ١١، ١٨ ، عرض وتلخيص حمد الجاسر ، ط ٢ ، دار الرفاعي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م د. م ؛ فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي ، ص ١٠ - ١١ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مكتبة الشباب ، ١٩٩٥م ؛ د / أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ١٧ ، دار الشباب العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، د. ت ؛ د / معن زيادة : الرحلات العربية والرحّالات ، ص ٦ ، ٨ ، بيروت ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٥١، السنة ٩ ، الإنماء العربي ؛ د / زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١٧٩ ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م ؛ د / حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، مجلة عالم المعرفة ، ١٣٨ ؛ د / رشدي فكار : عن الحوار الحضاري من بُعد واحد - الأثنوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف في مدخلهما برحالة الإسلام ، عرض مع نصوص مختارة للتدليل والإستشهاد عبر فترة ممتدة أكثر من ألف عام ، ص ٣٣ ، بيروت ، منشورات دار الآفاق الحديدة ، ط ١، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ؛ عمر علوي أمراني : الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم ، ص ١٣ ، أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، سلسلة الندوات ، مكناس ، ١٩٩٣م ، جامعة المولى اسماعيل ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

لأن الرحالة مولع بنقل كل ما يسمع أو تقع عينه عليه ، وكثيراً ما يبالغ في ذلك لإضفاء المزيد من التشويق ، فراوي الرحلة هو صاحبها ومجربها والعارف بأحداثها والمحيط بتفصيلاتها ، وقد عاشها بجماع فكره وإحساسه .[١]

وقد ثار جدل حول تصنيف الرحلات ، في أي جانب من العلوم هي ؟ أهي جغرافية ؟ أم أدبية ؟ أم تاريخية ؟ أم إقتصادية ؟ أم سياسية ؟ أم إجتماعية ؟ أو هي مزيج من تلك العلوم مجتمعة ؟

ونشير هنا إلى أن الرحلة ذات علاقة مباشرة بالأدب ، لأن الأسلوب الذي استخدم في صياغتها ارتفع إلى عالم الأدب ، إذ أن أبرز ما يميز الرحلات أسلوب الكتابة القصصي ، المعتمد على السرد المشوق ، والمُؤثر للتعبيرات السهلة المؤدية للغرض . ولذلك فتصنيفها خاص بكتب الرحلات .

فالرحلات مصدر فريد لكثير من النصوص الأدبية شعراً كانت أم نثراً ، لإنفرادها برواية الكثير من النصوص ، فالرحالة بدورهم حرصوا على أن تضم رحلاتهم النوادر ، فأدرجوا فيها الكثير من قصائدهم الشعرية ورسائلهم النثرية مما له إرتباط بظروف الرحلة ، وهذا الأمر جعل الرحلات ذات أهمية أدبية خاصة ، فأكثر الرحالة لم تعرف لهم أشعار أو كتابات إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم ، لذا اعتبرت بمثابة دواوين لأصحابها ، ومجاميع ضمت ألواناً من إنتاج علماء عصرهم وأدبائه .[٢]

---

١ ـ فؤاد قنديل : أدب الرحلة ، ص ٩ ـ ١٠ ، ١٢ .

٢ ـ فؤاد قنديل : أدب الرحلة ، ص ٢٠ ، ٢٧ ؛ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، جـ٢ ، ص ٦٦٠ ، منشورات عكاظ ، د. ت ؛ عمر علوي أمراني : الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة ، ص ٣٤٩ ، سلسلة الندوات ٥ ، أدب الرحلة في التواصل الحضاري .

ولا شك أن الرحلات غنية بموضوعاتها ، فالرحالة تحملوا عبء رحلاتهم كاملة من مال وجهد ، لذا عُدت جهداً ذاتياً وإجتهاداً شخصياً ، قائم على إبداعهم وفكرهم وتأملاتهم وآرائهم وأحاسيسهم ، وعلى ما أعجبوا به ونقلوه وعلقوا عليه بالإيجاب أو بالسلب ، أو مما تمثلوه وصاغوه بأسلوبهم الخاص ، فالرحالة أديب وجغرافي متنقل ، ومؤرخ وفقيه وعالم اجتماع ، وقد يطغى جانب على آخر بحسب ميل الرحالة ، فبعضهم شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة أثناء رحلتهم ، لا سيما عند فراقهم لوطنهم ، وتوديعهم للأهل والأصحاب ، وعند ملاقاة العلماء ، أو الحنين للوطن وربوعه ، أو عند الإقتراب من مكة المكرمة أو المدينة المنورة ، وكل هذا كان متجسداً في رحلة العياشي على سبيل المثال . ومن لم يكن شاعراً تمثل قوله في الإستشهاد ، كالرافعي .

لذا كانت الرحلة تتأثر بشخصية كاتبها ، الذي لم يكن همه فقط إيراد الحقائق بل والتأثير على قارئها ، فظهرت شخصيات الرحالة ، وطبيعة أمزجتهم ، ونفسياتهم ، من خلال ما سجلوه ، وهذا من مميزات الرحلات العديدة . [١]

ولا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سُجلت فيها جوانب متعددة فيما يخص الجوانب الحضارية على إمتداد فترات متتالية ، فالرحلة تتطلب إتساع المعارف وتنوعها ، لأنها تستخدم الجغرافيا ، وتستند إلى التاريخ ، عند التعرض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور ، بل ورصد الظواهر الاجتماعية الغير مألوفة لديهم ، وكذلك الاقتصادية ، ويتبعها السياسية بنسب متفاوتة وعُرض ذلك بزي الأدب وطابعه : فكل باحث يجد ضرباً من المعرفة يستخرجه ويقدمه وهو مطمئن لنتائج بحثه ، بشرط دراستها بشكل وافٍ ، وببصيرة نافذة ، ومقارنة

١ ـ د / زكي حسن : الرحالة المسلمون ، ص ١٧٩ ؛ فؤاد قنديل : أدب الرحلة ، ص ٦٨ . ولمزيد من المعلومات عن مميزات وخصائص الرحلات انظر عواطف محمد يوسف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ـ دراسة تحليلية نقدية مقارنة ، ص ٧١ ـ ٩١ ، الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

جيدة ، فهي وثائق تقدم لنا صورة حية عن المجتمع الإسلامي وتطوره أو تأخره ، وأسباب ذلك . [١]

فنجد الرحلات مزيجاً من تلك العلوم مجتمعه ، وبالتالي لا يمكن تصنيفها في جانب على حساب الجانب الآخر ، فكل ناحية تنتظر الإخراج للإستفادة منها وكثيراً ما أظهرت الرحلات أسماء علماء لم تكن لتظهر لولاها . [٢]

وإذا أمعنا النظر فيها ، وجدناها عباره عن قصة تحكي أحداثاً مستمدة من الواقع ، وبشخصيات حقيقية ، وهي بذلك تقدم صورة تاريخية لفترة نابضة بطبيعة العصر الذي عاش فيه الرحالة ، مما يؤدي إلى التعرف على واقع البيئة التي شاهدها والمجتمع الذي اختلط فيه ، فالرحلة بذلك تجسد بعض الحقائق المعرفية عن الفترة التاريخية التي عايشها الرحالة .

والرحلة عادةً ما تحفل بالمقومات الأساسية للقصة من فكرة رئيسية ، وبناء ، وحبكة ، وبيئة زمانية ومكانية ، وشخصيات ، وبطل للقصة ، علاوة على اللغة والأسلوب ، فالفكرة موجودة ومجريات الرحلة هي بنائها وحبكتها والبيئة الزمانية والمكانية محددة ، والشخصيات لعبت دورها واقعياً ، وبطلها الرحالة نفسه . ونأتي إلى اللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع ، المستند إلى الواقع ، والكثير من الخيال في المواضيع التي يطلق فيهاالرحالة العنان لخياله .

---

١ ـ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٩٠ ؛ عمر أمراني . الرحلة كوثيقة ، ص ١٣ ، سلسلة ندوات أدب الرحلة ؛ د / رشدي فكار : عن الحوار الحضاري في بُعد واحد ، ص ٣٣ ؛ د / زكي حسن : الرحالة المسلمون ، ص ١٧٩ .

٢ ـ المراجع السابقة بأرقام صفحاتها .

ونلحظ أن كل من كتب عن الرحلات قد مهّد الطريق ، وأسهم في الكشف عن جوانب مجهولة فيها . ونستطيع القول أن ثمار الرحلة يتعذر حصرها ، لا سيما إذا كان الرحالة متمتعاً بقوة الملاحظة ، وشهوة التطلع ، ويقظة الحواس ،والرغبة في التحصيل ، والحرص على التدوين والتسجيل . [١]

وكل من طرق سبيل دراسة الرحلات ، ذكر أن لها خصائص ومميزات سواء في الأسلوب أو في النواحي التي تطرقت لها والتي انطوت في وحدة موضوعية واحدة [٢] ، فدارس الرحلات لا يسعه تناولها كلها بالبحث والدراسة ، لأن ذلك يحتاج إلى موسوعات [٣] ، لذلك نرى أن من ألف حولها كرر ما كتبه سابقه بطريقة أو بأخرى ، ولم تفرد مؤلفات خاصة عن مزاياها وخصائصها في مؤلفات مستقلة ، إذ حصرت في أُطر ضيقة ، فهي ليست باباً من أبواب المعرفة وحسب ، بل تجاوزت كل ذلك ، فهي أداة ثقافية وحضارية في المقام الأول . [٤]

وطبيعي أن الرحلات ليست كلها في مستوى جيد ، فالرحالة نقلوا ما شاهدوه ولو بصورة جزئية لكنها ثمينة [٥] ، فتعاقب على فترات كم من المعارف والأوصاف والصور لسائر مظاهر الحضارة . [٦]

---

١ ـ فواد قنديل : أدب الرحلة ، ص ١٩ .

٢ ـ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٩٧ ؛ نواب : الرحلات المغربية ، ص٧١ ـ ٩١ .

٣ ـ أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة ، ص ١٧ .

٤ ـ د / معن زيادة : الرحلات العربية والرحّالات ، ص ٦ ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٥١ ، السنه ٩ .

٥ ـ د / نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٦ ، ط ٣ ـ بيروت ، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م .

٦ ـ د / أحمد أبو سعد : مظاهر الحضارة والعمران وتجلياتها من خلال كتب الرحّالات ، ص ٤٣ ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٥١ ، السنه ٩ .

وتأتي قيمة الرحلات التاريخية لأنها أساساً قامت على التجربة والملاحظة المباشرة ، فهذا الأمر كان واضحاً جلياً في جميع الرحلات ، فالرحالة قد اعتنوا بالمسالك وقياس مسافات الطرق ، وهم بذلك جغرافيون من حيث لم يعلموا ، فقد أودعوا في مدونات رحلاتهم الشيء الكثير عن أخبار رحلاتهم ، فلم يفت عليهم وصف الطُرق التي سلكوها وتسجيل المسافات التي قطعوها ، والمعالم التي شاهدوها ، بالإضافة إلى الصعوبات التي واجهوها ، والمحطات التي نزلوها ، كما بادروا بالتحذير في مناطق الأخطار ونصحوا بسلوك طريق الأمان ، فيتجلي من كل ذلك خلاصة التجربة التي مروا بها ، ومن ثم قاموا بتقديمها .

كان إعتقاد الرحالة أن من حق خلفهم عليهم أن يبينوا لهم خير الطُرق وأفضلها للوصول إلى الأماكن المقدسة ، ويشرحوا لهم المخاطر ليستعدوا لها ، وما يمكن أن يلقوه من مصاعب ليتغلبوا عليها . لذا دونوا مشاهداتهم وذكروا المواقف المتباينة ، والمعاناة التي لاقوها ، وهم يجولون في البلاد ويتنقلون بين الأقطار . [١]

ولا يغرب عن بالنا أن اعتقاد الرحالة هذا نابع من إحساسهم بأهمية العلم ، وعدم كتمانه ، وهذا المبدأ العلمي إبتغوا من ورائه الحرص على تطبيق أوامر الرسول ﷺ المتمثلة في قوله ﷺ (ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتي به يوم القيامة ملجماً بلجام من النار) . [٢]

وكما إهتموا بوصف الطُرق ومعالمها والمسالك ومخاطرها ، تصدروا لتسجيل أحوال الناس الذين صادفوهم وأنماط حياتهم ، فأثنوا على الحسن من عاداتهم ، واستقبحوا الشاذ منها ودعوا إلى البعد عنه [٣] . فكانوا في هذا الجانب علماء إجتماع من حيث لا يدرون .

---

١ ـ فؤاد قنديل : أدب الرحلة ، ص ٢٧ ـ ٦٧ .

٢ ـ الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه : السنن ، جـ١ ، ص ٩٦ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، د. ت .

٣ ـ د / نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات ، ص ١٦ .

ولا شك أن الرحلات إلى الحجاز لاداء فريضة الحج شهدت فترتين متباينتين عرفت في الأولى الإزدهار ، فتكاثرت وتطورت في أشكالهاومضامينها ، وخاصة الرحلات الحجازية ، وفي الثانية اعتراها الفتور الذي كان مرده الظروف الأمنية .[١]

ومما يؤسف له أنه لم يكشف إلى الآن إلا عن القليل من هذه الرحلات ، في حين حفظت لنا كتب التراجم والتاريخ بل والرحلات أسماء رحالة لا نعرف عن رحلاتهم شيئاً ، إما لفقدانها ، أو لأنهم لم يقوموا بتدوينها ، وربما يظهر لنا في القريب ما يشفى الغليل منها . وحتى ما وجد الآن من مخطوطات لا يزال أكثره رهين رفوف المكتبات ، ويفتقر إلى التحقيق والنشر .[٢]

ومما لا ريب فيه أن أسلوب كتابة الرحلات في زمان ما ، إنما يعبر عن أدبيات ذلك الوقت ، فدراسة رحلات معينة في فترة ما إنما تمد المعنيين بالأدب عن أسلوب وطريقة التأليف والكتابة والفكر الأدبي عموماً لتلك الفترة بمعين طيب ، لأن أغلب الرحالة الذين تصدروا لتدوين رحلاتهم ، كانوا على قدر لا بأس به من العلم والأدب يكفي للحكم على أهل تلك الفترة في إجادتهم أو قلتها ، ومن لم يكن منهم أديباً حاكى غيره في صياغتها .

فالعياشي مثلاً كان المثال الذي احتذى به الرحالة الذين أتوا بعده خلال فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، فرحلته كانت النموذج الذي سارعليه الرحالة سواء في الأسلوب ، وطريقة الصياغة ، وتركيب الرحلة ،

---

١ ـ الحسن الشاهدي : أدب الرحلة بالمغرب ، جـ٢ ، ص ٦٥٧ .

٢ ـ فؤاد قنديل : أدب الرحلة ، ص ٩ ، ٦٨ .

فالعياشي كان محدثاً وصوفياً [١]. وهو بالتالي لا يستطيع أن يقدم لنا سرداً عن

---

١ ـ (الصوفية) اختلف في أصل الكلمة ومصدر إشتقاقها ، ولا يزال الإختلاف إلى الآن ، فقيل (صفوي) فاستثقلت فقالوا صوفي .

وقيل سميت (صوفية) لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقيل (صوفي) لمن صفت لله عز وجل معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته ، وقيل (صوفية) لأنهم من الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم اليه واقبالهم عليه ووقوفهم بسائرهم بين يديه ، وقيل (صوفية) لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفة وقيل (صوفية) للبسهم الصوف الذي عبر عن ظاهر حالهم .

ونجد أن أقوال المشائخ في ماهية التصوف تزيد عن الألف بل وقيل الألفين وقد تضاربت الأقوال في التصوف فقيل هي اسم مستحدث والتصوف يزيد عن الزهد الذي لم يذمه أحد بينما ذموا التصوف.

وقيل ان لا علاقة للتصوف بالإسلام فهو أجنبي الأفكار والفلسفات المأخوذة من اليهودية والمسيحية والمانوية والمجوسية والمزدكية والهندوكية والبوذية والهندية والزرادشتيه والإفلاطونية ، وكان أول من وضع نظاماً للصوفية الإيراني محمد أحمد الميهمني المتوفي عام ٤٣٠هـ/١٠٣٨م والمعروف باسم ابي سعيد . ونجد أنه غالباً ما تسمي الطريقة باسم مؤسسها أوبأسم خاص مميز لها .

والطريقة الصوفية تعنى أولاً النسبة لشيخ معين والذي يزعم غالبهم أنهم من نسل الرسول ﷺ ويزعم أيضاً الترقي في ميادين التصوف والوصول الى رتبة الشيخ المربي أو أحد رتب الصوفية والتي منها القطب ـ الغوث ـ الوتد ـ البدل .

ومن مزاعمهم قولهم التلقي عن الله عز وجل مباشرة أو كتابة ، أو من الرسول ﷺ في اليقظة أو في المنام ، أو التلقي عن الخضر عليه السلام . والنزوع الى التصوف ليس وليد المصادفة لأن لكل ظاهرة أسبابها ، ونجد أن الجميع خلال القرون السابقة تصوفوا إما نظرياً وإما عملياً .

أما أسبابه فردها البعض إلى :

١ ـ افتقاد العدل الإجتماعي ٢ ـ الخراب الإقتصادي ٣ ـ الخطر الذي تعرض له العالم الإسلامي من الخارج .

وقد تعددت الطرق الصوفية والتي منها التيجانية والرفاعية والبكتاشيه والبطائحية .

ومما سبق نجد أن الصوفية تزعم أنها تكمل في الدين مع أن الدين قد كمل بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، والقائل بغير ذلك فهو كفر صريح . أنظر لمزيد من المعلومات حول التصوف وطُرقه ومبادئه وما يتعلق به في إحسان الهي ظهير : التصوف المنشأ والمصادر ، ص ١١ ، ١٥ ـ ١٦ ، ٢٠ ـ ٢١ ، ٣٦ ـ ٣٧، ٣٩ ـ ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٢١ ، باكستان ، إدار ترجمان السنة ، ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ؛ عبد الرحمن عبد الخالق : الفكرالصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٥٣٩ ـ ٥٤١ ، ٥٦٢ ، ٥٩٩ ، ٦٥٧ ، الطبعة ٥ مزيدة ومنقحة ١٤٠٤هـ/١٩٩٤م ، القاهرة ، دار الحرمين للطباعة ؛ عبد العال الحمامصي : البوصيري مادح الرسول الأعظم، ص٢٤ ـ ٢٥ ، ٢٧ ، مكتبة الهداية ، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م؛ السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي : مختارات من كتاب المرجع معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصرة ، قدم له محمد زكي إبراهيم ، ط ٤ ، مصر ، مؤسسات العشيرة المحمدية والطريقة المحمدية ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م ؛ محمد زكي إبراهيم : أبجدية التصوف الإسلامي بعض ماله وما عليه ، مكتبة الآداب ، ط ٥ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م .

رحلته يماثل رحلة ابن جبير ، أو رحلة ابن بطوطة ، فالعياشي وجه إهتمامه بالدرجة الأولى للحديث عن الأولياء ، والعلماء ، والدراويش ، وأهل التصوف ، دون أن يهمل ذكر الأقطار التي اجتازها والمدن والقرى التي توقف فيها . كما يغلب على عرضه أحياناً طابع متعدد الألوان ، لمادة متنوعة من جغرافيا وعادات ، ولكن يسجل ما سمعه من تفاصيل حياة الأولياء والعلماء والمتصوفين الذين تحدث إليهم أو سمع عنهم ، مما يدل على إهتمامه بهذا الجانب .

وهكذا نجد أن رحلته إشتملت على أنواع مختلفة من المعارف ، جغرافية ، وأخلاق ، وفقه ، وحركة صوفية ، ونشاط أهل الحديث في القرن الحادي عشر الهجري . علاوة على فائدة ما كتبه عن الناحية التاريخية ، على الرغم من أن أوصافه عموماً جافة وتفتقر إلى الحيوية . أما أسلوبه الأدبي فيشهد على الإنحطاط العميق الذي إعترى هذا النمط من النشاط الأدبي ، ولكنه يتميز بالبساطة رغم إنعدام الرشاقة فيه ، ولكنه يقع أحياناً في الغموض عندما يعالج الموضوعات الصوفية ، فيلجأ إلى لغة متكلفة مغلقة ، وتكثر الإستطرادات عنده لدرجة تنقطع فيها خيوط روايته أحياناً . (١)

وتعتبر كتابات الرحالة عن الجوانب الإقتصادية في الأماكن التي مروا بها رافداً فياضاً لدارسي الإقتصاد في المجتمعات البشرية . فالرحالة تحدثوا عن الصناعات ، وطرق التجارة ، وأنماط التعاملات والمعاملات والنقود وجودتها أو زيفها بقدر جيد ، وهو في نفس الوقت كان كافياً للمس التطور الحادث في الأمور الاقتصادية .

وكتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب العلمي ، فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم ، وسجلوا النشاط العلمي للعلماء الذين أخذوا عنهم والمراكز الثقافية والمدارس التي تلقوا فيها علمهم .

---

١ ـ د / عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٦٤٥ ـ ٦٤٧ ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م د . م .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ملاحظة الرحالة عن الأحوال السياسية في البلاد الإسلامية التي مروا بها ، كشف لنا الكثير من الأمور ، فمن ذلك مثلاً علاقة الممالك الإسلامية ببعضها ، أو بالدولة العثمانية ، أو بالممالك النصرانية التي كان لها نشاط واضح في القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط .

وهكذا تأتي القيمة العلمية التاريخية للرحلات ، فهي مصادر دونت بواسطة شهود عيان ، عاصروا الحدث وقاموا بتسجيله في حينه ، فدراسة الناحية التاريخية للرحلات مفيدة في التعرف على الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية والإقتصادية ، بل وحتى السياسية ، فهذه الجوانب كلها كتبت بحسب ما شاهده الرحالة ولمسه ولا شك أن هكذا أمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة ، والتي انصب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية .

ونستطيع القول أن المتمعن في كتب الرحلات يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملاحظاتهم ، وإهتماماتهم ببعض النواحي دون البعض . لذا كان لزاماً علينا دراسة الرحلات كوحدة واحدة متسلسلة ، حتى نستطيع الخروج بالنتيجة الصحيحة المرجوة .

فمثلا نجد أن فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، كانتا عصر سيادة التصوف ، وشيوع الزهد في الحياة ، وتعدد الطرق الصوفية ، وبدراسة الرحلات في تلك الفترة نستطيع رصد هذا الجانب الذي لم تخل منه رحلة ، سواء في الحديث عن كرامات الأولياء والصالحين ، أو إثبات أسماء المشائخ وروايات أسانيدهم .

ب ـ التواصل بين الحجاز والمغرب الأقصى من خلال كتب الرحلات المغربية .

الحجاز مركز استقطاب المسلمين على مدارالتاريخ الإسلامي ، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها ، فكل مسلم على استعداد لتحمل المشاق في سبيل الوصول إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، ونتيجة لذلك ظهرت ما يسمى بالرحلات الحجازية ، والتي هي وسيلة من وسائل التواصل بين المسلمين .

فبرغم بُعد القُطرين ، فإن ما بينهما من أرض ، هي أرض إسلام ، وسكانها مسلمون ، فكان الركب المغربي يمر عبرها سنوياً في أوقات معلومة ، فظهر عبر السنين حجاج مغاربة دونوا ملاحظاتهم ، وما لاقوه من عنت ومشقة ، ووصفوا البلاد وعادات السكان ، وتطرقوا إلى النواحي السياسية والاقتصادية بقدر ما يقتضيه الحدث الذي تكلموا عنه ، علاوة على تسجيلهم للنشاط العلمي عندما نوهوا بأسماء العلماء الذين تعرفوا عليهم ، وعرض بعض الإجازات التي تبادلوها معهم .

فهؤلاء الحجاج الذين قاموا بتسجيل وقائع رحلاتهم ، عُرفوا باسم الرحالة ، وعُرف مؤلفهم باسم الرحلة ، والتي تميزت بمنهجية خاصة متضمنة إرتسامات الرحالة المغاربة عما شاهدوه في مسارهم الطويل ذهاباً وإياباً .

وعلى حد علمنا لم يفرد مؤلف تناول علاقة الشعوب بعضها ببعض ، إذ كان جُل ما سجل علاقات الدول ، أما الشعوب فأغفل أمرها . وظهور هذا النوع من الرحلات ، ونعني بها الرحلات الحجازية سدت هذه الفجوة نوعاً ما ، بما سجله الرحالة المغاربة من إشارات قليلة ولكنها متتابعة عن علاقة الشعب الحجازي بالشعب المغربي خلال الفترة التي ارتادوا فيها الحجاز مما يعطينا تصوراً عن حقيقة الروابط التي كانت تجمع بينهم .

وعند حديثنا عن الروابط التي كانت تربط بين الحجاز والمغرب ، لا بد لنا من القول : أن القطرين جمعهما عدة روابط منها الدين والنسب واللغة ، إضافة إلى انتساب الأسرتين الحاكمتين بالحجاز والمغرب لجد واحد ، هو الحسن بن علي رضي الله عنهما فالأسرتان في الأصل أسرة واحدة .

أما نظرة المغاربة لأهل الحرمين الشريفين فقد اتسمت بالإجلال والتوقير ، بالرغم من انتقادهم لبعض تصرفات بعض الحجازيين أحياناً [١] . بينما نجد أن نظرة بعض سكان الحرمين الشريفين العوام للمغاربة على أنهم أهل سحر وحيل . [٢]

ومع بُعْد القطرين ، كانت أخبار المغرب ترد إلى الحجاز عبر ميناء جُدة بواسطة المسافرين ، فالعياشي عندما زار جُدة حرص على الذهاب لمينائها ليتحسس أخبار موطنه عند ورود السفن منها . [٣]

وارتبط عدد من المغاربة بالمصاهرة مع أهل الحجاز [٤] ، وكما شملت المصاهرة جزءً من الشعب الحجازي والمغربي ، شملت أيضاً جزءً من أسرة الأشراف الحاكمة بالحجاز مع أسرة الأشراف الحاكمة بالمغرب [٥] ، فتأكدت روابطهما وتواصلهما مرة ثانية بالمصاهرة .

---

١ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح : أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ﷺ ، ص ١٢٥ ، تحقيق محمد الفاسي ، فاس ـ ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ؛ أبو سالم عبد الله العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٢ ، مخطوطة بالخزانة الحمزاوية ، رقم ١٨٢ ، بالمغرب ولدينا نسخة مصورة منها ؛ محمد بن علي الرافعي : المعارج المرقية في الرحلة المشرقية ، ص ١٣٣ ، مخطوطة مكتوبة على آلة كاتبة بمكتبة الدكتور حسن الوركلي ؛ أبو عبد الله محمد بن أبي علي اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/ ب ـ ٩٣ / أ ، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ١٤١٨ ، ، محمد بن أحمد الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ـ رقم ٨٩٦ . ولا تزال هذه النظرة الى الآن .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٩ . ولا تزال هذه النظرة إلى الآن .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

٤ ـ المصدر السابق، ص ١٣٥ ، أبو القاسم الزياني : الترجمانة الكبري في أخبار المعمور براً وبحراً ، ص ٢٥٧ ، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي ، الرباط ، دار المعرفة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م .

٥ ـ أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ٨ ، ص ٣٤ ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ١٩٥٦ م ؛ أحمد زيني دحلان : أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ حتى الشريف الحسين بن علي ، ص ٢٦٨ ، بيروت ـ لبنان ، الدار المتحدة للنشر ، د. ت .

وامتد الترابط إلى حد الإستقرار بالحجاز وامتلاك الأراضي واستصلاحها وفلاحتها [١] . وتطالعنا بعض كتب التراجم الحجازية بأسماء عائلات ذات أصول مغربية ممن استقروا بها ، وظهر في بعضهم نبوغ في بعض النواحي ، فأستحقوا أن تسطر تراجمهم على قدم المساواة مع نظائرهم ممن نبغ من أهل الحجاز [٢] . إذ لم يكن في ذلك الوقت حواجز تحول دون الانصهار والإندماج ، فما دام الإنسان مسلماً يحق له العيش في أي بقعة شاء من أرض المسلمين .

وفي مقابل تسطير مؤرخي الحجاز تراجم لبعض أعلام أُسر ذات أصول مغربية استقرت به ، وجدنا أن بعض مؤرخي المغرب دونوا تراجم بعض علماء مشارقه ، وخاصة علماء الحجاز ضمن ما دونوه لعلمائهم [٣] . وعملهم هذا كان نتيجة عمق العلاقات بينهما ، ونظرتهم الإسلامية الشاملة والتي فحواها ، أن أرض الإسلام واحدة بصرف النظر عن تعدد الدول الإسلامية وتباعدها .

وساعد على هذا التواصل الرحالة المغاربة ، إذ اعتمد المؤرخون المغاربة في معظم تراجمهم المشرقية على كتب الرحلات ، فقد نقلوا منها نصوص ترجمات كاملة توضح هذه الحقيقة ، وأحياناً أخرى مختصرة . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٦٢ ؛ عبد الرحمن الأنصاري : تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ، ص ٧٠ ، ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ ١٤٧ ، تحقيق محمد العروسي المطوي ، تونس ، المكتبة العتيقة ، ١٩٧٠م .

٢ ـ محمد المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، جـ١ ، ص ٤٤ ، د.ت ، بيروت ، دار صادر ؛ الأنصاري : تحفة المحبين ، ص ١٣٤ ، ١٤٧ ، ٢٢٣ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٤٢٩ ؛ مؤلف مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري : تراجم أعيان المدنية المنورة ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ، ٦٢ ـ ٦٣ ، حققه وعلق عليه د / محمد التونجي ، ط ١ ، دار الشروق ـ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٣ ـ انظر على سبيل المثال في مؤلفي محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، الرباط ، نشر وتوزيع مكتبة الطالب ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ؛ محمد بن الطيب القادري : التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق العلوي القاسمي ، بيروت ، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ؛ د / عبد العلي الودغيري : التعريف بابن الطيب الشرقي ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، منشورات عكاظ ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٩٠م .

٤ ـ انظر على سبيل المثال رحلة العياشي والتقاط الدرر .

ولنا أن نشير إلى أن علاقة المغاربة بالحجاز لا تنقطع بعودتهم إلى موطنهم ، فقد كان هناك تواصل مستمر بينهم ، فمن فاته إجازة أو خبر ، كتب بشأنه لمن عرفه بالحجاز ليكون على اطلاع [١] . بل وصل حرصهم على تبادل الرسائل لإعلامهم ممن توفي من مشائخ الحرمين الشريفين . [٢]

وظل البعض ممن لم يسعفهم البقاء في الحجاز في تواصل علمي مع شيوخهم ، حيث بعد عودتهم إلى المغرب ، تصلهم الإجازات التي تحصلوا عليها . [٣]

ومما ساعد على هذا التواصل المستمر ، مجيء ركب الحاج المغربي سنوياً بدون انقطاع حتى في أشد الظروف حرجاً [٤] . فقد كان مجيء الركب المغربي إلى الحجاز في نظر المغاربة لغاية سامية لا بد من أدائها سنوياً ، ألا وهي حج بيت الله الحرام [٥] . مضافاً إليه الإعلان عن المغرب وإظهارها بمظهر الدولة القوية [٦] .

إذ كثيراً ما يرغب الركب المصري في المسير معه للتقوي والاستظهار به على قطاع الطرق [٧] . وكان بعض الحجاج المصريين يفضلون السير مع الركب المغربي ، لما كان ينعم به في كنفه من الأمن والطمأنينة . [٨]

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٨ ، ٥٤٥ ، ٦٢٠ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٩٨ .

٣ ـ المصدرالسابق والصفحة ؛ أبو سالم عبد الله العياشي ، اقتفاء لأثر بعد ذهاب أهل الأثر ، ص ١٩ ، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، رقم خ ع، ق ٢١٨ ؛ عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي : بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، رقم ك ٣٩٨ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

٥ ـ محمد المنوني : من حديث الركب المغربي ، ص ٧ ـ ٨ ، تطوان ، مطبعة المخزن ، ١٩٥٣م .

٦ ـ عبد الهادي التازي : أمير مغربي في طرابلس [ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي] ، ص ١١٥، مطبعة فضالة ، د. ت .

٧ ـ الوزير الإسحاقي : رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي إلى الحج سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م ، ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠ ، مجلة العرب ، جـ١١ ـ ١٢ ، السنة ١٩ ، جماديان ، ١٤٠٥ هـ / شباط ـ آذار (فبراير / مارس ١٩٨٥م) .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد، ص ١٣٥ .

وليس أدل على أهمية أداء فريضة الحج بالنسبة للمغاربة ، حرصهم على وجود جالية مغربية بالمشرق مهمتها الأساسية تسهيل أداء المغاربة لمناسكهم ، ومد يد العون لهم إذا ما احتاجوا إليه [١] . علاوة على دعم حكام المغرب المادي والمعنوي للركب المغربي ، والمتمثل في بذل الأموال ، وحفر الآبار ، وإيقاف الأوقاف على الإبل المخصصة لهذا الركب ، وتزويد أمراء الركب برسائل تسلم إلى أمراء الحجاز لتقديم المساعدة لهم . [٢]

وكان المغرب يستعد لمناسبة الحج ، وذلك باستنفار كافة خطباء المساجد للحث على الحج في خطبهم ، وعند خروج الركب المغربي يخرج الجميع لتشيعهم بمن فيهم السلطان أحيانا[٣] . ويبدو أن مظاهر الاستقبال والتشييع كانت تقابل الركب حتى في الحجاز ، فمثلاً عند نزول الركب المغربي في ينبع يخرج أشرافها لاستقبالهم وتهنئتهم بسلامة الوصول . [٤]

ومن ضمن التسهيلات التي كانت متاحة للمغاربة ، اختصاصهم في الجامع الأزهر برواق خاص بهم [٥] . بالإضافة إلى ما وجد بمصر من أوقاف تصرف على طلبة العلم [٦] ، كما أقيم رباط بمكة المكرمة عرف برباط المغاربة أو الموفق أعد لنزولهم . [٧]

---

١ ـ ويظهر أنها البدايات الأولى لترتيب مهنة الطوافة .

٢ ـ أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفافي في مآثر موالينا الشرفا ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، تحقيق د / عبد الكريم كريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية ، د.ت ، د.م ؛ أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري : نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس ، ص ٨٦ ، مخطوطة بمكتبة الملك فهد الوطنية رقم ٢٥٦٦٧٢ ؛ الناصري : الاستقصا ، جـ٥ ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

٣ ـ المنوني : من حديث الركب المغربي ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٤ ـ الوزير الإسحاقي : رحلة الإسحاقي ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٦ ، مجلة العرب ، جـ١١ ـ ١٢ ، السنة ، جماديان ١٤٠٥ هـ / شباط ـ آذار (فبراير / مارس) ١٩٨٥ م .

٥ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٥٦ .

٦ ـ القيس : أنس الساري ، ص ٤٨ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥١٠ .

وكان ملوك المغرب يخرجون الأموال الطائلة التي تحمل سنوياً برسم توزيعها على أهل الحرمين الشريفين وأشرافه [١] . إضافة إلى الهدايا العينية الثمينة التي كانت تخصص للمسجد النبوي . [٢]

ولا يفوتنا التنويه بما كانت ترسله المغرب للحجاز من كتب علمية برسم الوقف على طلبة العلم [٣] ، علاوة على ما يحمله الركب المغربي من كتب علمية ترافق المشائخ والعلماء ، وقد يترك بعضها ويستبدل بها غيرها عند الحاجة . [٤]

وكان الرحالة المغاربة يشيرون الى كبار علمائهم بالحجاز عند عودتهم إلى المغرب ، كما كانوا يذكرون علمائهم ومكانتهم عند مجيئهم للحجاز . فكان من يقدم منهم للحج يقابل بالحفاوة والإكرام والتقدير ، بل وينشدون القصائد الشعرية لمدحهم وبيان مقامهم [٥] . ونتج عن ذلك معرفة علماء الحجاز للكثير من علماء المغرب فكان لذلك الأثر الكبير في التواصل الثقافي بين القطرين .

كما كان يحدث أن يستقر بعض علماء المغرب في الحجاز [٦] . حيث تولّى بعضهم بها مناصب مهمة وصلت إلى حدّ التأثير في أموره ، وفاقت سلطة بعضهم سلطة الشريف نفسه ، كما حدث في زمن محمد بن سليمان الروداني[٧]،الذي أثر كثيراً في توجيه أمور الحجاز ، بحيث كان الشريف لا يخرج عن أمره وطوعه . [٨]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٣ ؛ الوزيرالإسحاقي : رحلة الإسحاقي ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥ ؛ الناصري : الاستقصا ، جـ٨ ، ص ٥٧ ، ٧٠ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٣ .

٣ ـ الناصري : الاستقصا ، جـ٨ ، ص ٧٠ ، المنوني : من حديث الركب المغربي ، ص٢٧ .

٤ ـ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الناصرية ، جـ١ ، ص ٣٢ ، الطبعة الحجرية .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٠١ ، العباس بن ابراهيم السملالي : الإعلام بن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، جـ٢ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٧٦ م .

٦ ـ الودغيري : التعريف بابن الطيب الشرقي ، ص ٨٥ .

٧ ـ انظر فيما بعد ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٧ .

٨ ـ المحبي : خلاصة الأثر ، جـ٤ ، ص ٢٠٥ .

وعند قدوم علماء المغرب إلى أرض الحجاز ، كانوا يقابلون بالاحترام والتقدير ، ويقدّموا للتدريس [١] ، وكثيراً ما يتبادل العلماء مؤلفات بعضهم كهدايا [٢] ، وأحياناً بالشراء [٣] . وبهذا حملت كتب كثيرة إلى المغرب ولم يعرف بعضها في المشرق ، إلا من خلال ما وجد في كتب ومؤلفات المغاربة والأندلسيين ، الذين استفادوا منها [٤] ، وكان لهم فضل حفظ تلك المؤلفات .

ونجد أنه عندما كان يصل مؤلف لأحد علماء الحجاز إلى المغرب ، يبادر العلماء هناك لنقده وتقريظه وتقويمه ، وإذا وجدت أغلاطاً نبهوا عليها ، وخاصة فيما يتعارض مع العقيدة [٥] ، فهم بذلك على إطلاع دائم بما ألف في الحجاز .

ولا يفوتنا هنا التنويه إلى أن بعض مخترعات علماء الحجاز ، مثل آلة توقيت دخلت إلى المغرب من قبل الرحالة المغاربة الذين قدموا إلى الحجاز [٦] . فكانوا بذلك مواكبين لإخوانهم الحجازيين في العلوم التي وصلو إليها .

ونخلص مما سبق إلى أن العلاقات المغربية وصلاتها مع الحجاز ، قامت على أساس المساواة في المكانة ، وليس كتابع ومتبوع ، بل حافظ كلٌّ على شخصيته دون الذوبان في الآخر ، فكل منهم نظر إلى الآخر نظرة الند المساوي له في المكانة

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٠١ ؛ السملالي : الأعلام بن حل مراكش ، جـ٢ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ .

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٦ .

٣ ـ الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبدالسلام ، ص ١٤٤ ؛ محمد الصغير بن محمد بن عبد الله المراكشي الأفراني : صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، ٢٢١ ، الطبعة الحجرية ؛ القادري : نشر المثاني ، جـ٣ ، ص ٢٣٤ ، السملالي : الأعلام بن حل مراكش ، جـ٢ ، ص ٣٥٧ ؛ عبد الحي عبد الكبير الكتاني : فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، جـ٢ ، ص ٦٧٧ ـ ٦٧٩ ، اعتناء د / إحسان عباس ، بيروت ـ لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ ـ/ ١٩٨٢ .

٤ ـ أبو علي الهجري : أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ، ص ١٠ ـ ١٢ ، تقديم حمد الجاسر ، الرياض ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، د. ت .

٥ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٢٥٦ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٥٨ .

والعلم ، وإن اعترف بعض العلماء المغاربة بفضل علماء الحجاز وسعة علمهم [١] . ومنهم من كان يرى أنه ليس له نظير. [٢]

وعلى كل فقد سار الجميع وفق مصدر واحد ، أنهم أمة واحدة لها تاريخها المشترك وحضارتها ولغتها ودينها ، علاوة على ذلك جميع أرضها دار إسلام ، بحيث لا يمكن إلغاء أحدها .

ولا يسعني هنا إلا القول : أن الرحلات عبرت التاريخ والأرض ، وأضاءت جوانب لم تكن معرفة إلا من خلالها .

من أخبار المغرب التي سجلها الرحالة المغاربة في متون رحلاتهم :

بث الرحالة المغاربة أحزان وأشجان المغاربة عموماً ، بما سطروه في ثنايا رحلاتهم ، وكأن لسان حالهم تعريف من لم يعرف حالهم لحثهم على الجهاد [٣] وهذا نوع من أنواع التواصل ، والأخوة بين المسلمين لمد يد العون لهم بما يقدرون عليه ، تحقيقاً لقول الرسول ﷺ (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائرجسده بالسهر والحمى) . [٤]

حمل الرحالة المغاربة هموم موطنهم ، وما كان يجري فيه من حروب داخلية ، وهجمات صليبية خارجية على سواحله ، فذكروا شطراً من تلك الأحداث في رحلاتهم .

---

١ ـ أحمد بن عبد الله بن محمد بن القاضي بن أبي محلي : الأصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، تقديم وتحقيق عبد المجيد القدوري ، منشورات عكاظ ؛ العياشي : اقتفاء الأثر ، ص ٢ .

٢ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، جـ٢ ، ص ١١٥٦ ـ ١١٥٧ ؛ عباس الجراري : عبقرية اليوسي ، ص٤٢، الدار البيضاء ، دارالثقافة ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م .

٣ ـ ابن أبي محلي : الأصليت الخريت ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

٤ ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، جـ٤ ، ص ٥٣ ، بيروت ـ لبنان ، دارالمعرفة ، أعيد طبعه بالأوفست ١٩٧٨م .

فمن الأحداث الداخلية التي بثت في ثنايا رحلة العياشي ، ما ذكره في عام ١٠٦٩هـ/١٦٨٤م في المغرب من إستفحال فتنة بين الخاصة والعامة ، انقطعت على أثرها السبل ، ومادت الأرض بأهلها وضاقت بما رحبت ، ولم تزل تتفاقم ويشتد سعيرها ، إلى أن هدأت وكفى الله المسلمين شرها .[١]

ولم يفصح العياشي عن أمرها ، بل آثر الصمت وعدم الإفصاح ، إما لما كان عليه المغرب من وضع مؤلم ، أو بسبب شيوع أمره ففضل عدم الحديث عنه ، وبالرغم من ذلك كان شديد القلق من الأوضاع هناك ، فانتهز فرصة زيارته لجُدة ، وأخذ يستطلع الأخبار من السفن الواردة منه .[٢]

ونحن إذا أمعنا النظر في المصادر التي كتبت عن أوضاع المغرب في تلك الفترة ، نجد أنه كان يعيش فترة إنتقالية من أواخر حكم السعديين[٣] ، وأوائل حكم العلويين[٤] . حيث بليت المغرب بحروب طاحنة لتثبيت دعائم سلطة كل من الأشراف السعديين والأشراف العلويين . إلى أن انتهى الأمر بنهاية دولة السعديين ، وذلك بموت آخر ملوكهم المولى أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان[٥] عام

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

٣ ـ (السعديون) أصلهم أشراف بن ينبع النخل بالحجاز ، ويرجع نسبهم إلى محمد ذو النفس الزكية ، وأول من ملك منهم بدرعة المولي زيدان بن أحمد . انظر الناصري : الاستقصا ، جـ٥ ، ص ١ .

٤ ـ (العلويون) أصلهم أشراف من ينبع النخل بالحجاز ، ويرجع نسبهم إلى محمد ذو النفس الزكية ، وأول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم ، وأول من ملك منهم بسلجماسه محمد بن علي . انظر المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٣ ـ ٤ .

٥ ـ أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان ، تولى بعد وفاة أبيه عام ١٠٦٤ هـ/١٦٥٣م أو ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م ، وطغى في عهده نفوذ أخواله من الشبانات وقويت شوكتهم ، فضيقوا عليه وحصروه بمراكش أشهر ثم قتلوه بعد أن تمكنوا منه عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م أو ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م . انظر الناصري : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م بمراكـــش [١] . ومن ثم بدأ الأشراف العلويون بشن الغارات لتدعيم سلطتهم ، بعد أن تفكك المغرب إلى دويلات صغيرة ، حتى استقر الأمر أخيراً للمولى الرشيد . [٢]

أمـا أحـوال مـدن المغرب التــي وقعت تحــت نير الإحــتلال الصليبي ، فـذكـر الرافـعي عندما عـيره أحـد المصريـــين بسماح المغاربـة للكفــار بأخـذ ثغـور الإسلام المغربـية وامتلاكها جهاراً ، والذي يعتــبر أمراً قبيحــاً فـــي حق المغـاربة ومـعـرة للإسـلام ، لأنهم لم يأخـذوها إلا نكاية في الإسـلام ، فانبــرى الرافعي عند ذلك مدافعاً عما نسب للمغاربة بعد أن أقر بالأمر الواقع وهـــو إحتلال الكفار لها ، وتغنى بأمجاد السلطان المولى إسماعيل [٣] ، وكيف أن الله تعـالـــى مَنّ على المغـاربـة بأن وحـد صـفـوفــهم تحــت راية هـذا السلطان العظـــيم ، والذي استطــاع أن يسترد ثغور المغرب الواحـد تلـو الآخـر ، بل وتمنـــى أن يستطـــيع المولى إسـمـاعيل اسـترجـاع الأندلس أيضـاً مع بقـــية الثغـــور ، وحـــدد الرافـعي الثغـور الإسلامية المسترجعـــة ، طنـــجة [٤] ،

---

١ ــ (مَـرَاكُشُ) بالفـتح ثم التـشـديد ، أعظم مـدينة بـالمغـرب أسـسـهـا يوسف بن تاشـفين سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م وكـانـت قبل ذلك مكان قطع الطريق حتى قيل أن معني إسمـها بالبربرية أسرع المشي ، كناية عن الخوف في هذا المكان ، كـان أهـلا يشربون من الآبار حـتى جلب إليـهـا الماء من ناحية أغمات ، انظر شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرمي البغدادي : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٩٤ ، دار صــادر ودار بـيروت : ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م ؛ عبد العزيز بنعبدالله : الموسـوعـة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة المدن والقبائل ، ملحق ٢ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠ ، ط ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م .

٢ ــ الرشيد بن الشريف بن علي ، تولى الملك بعد وفاة أخيه المولى محمد عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م ، وهو الذي جمع شتـات مدن المغرب في دولة واحدة وقضي على منافسيه وخصومه توفي بمراكش عام ١٠٨٢ هـ/١٦٧١م . انظر المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٢٨ ـ ٤٣ .

٣ ــ اسماعيل بن الشريف بن علي أخو الرشيد ، ووارث ملكه ، كان من أعظم ملوك المغرب ، تولى عام ١٠٨٢هـ/١٦٧١م خلفاً لأخيه فساس المغرب وأنشأ جيشـها وفتح به المعمورة والعرائش وطنجة ، وحصن البلاد وقضى على الثوار فـأطمئنت البلاد في عهده وعمـها الرخاء وأهتم بالبناء والتعمير والتنظيم . توفى عام ١١٣٩هـ/١٧٢٦م . انظر المصدر السابق والجزء ، ص ٤٥ ـ ١٠١ .

٤ ــ (طنجة) ميناء يقع أمام جبل طارق وكانت عاصمة الدولة ، وهي من ضمن مدن المملكة المغربية الآن. انظر بنعبد الله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ .

والمعمــورة [١] ، والتي فرح بعودتها للمسلمين أيما فرح ، واعتبر رجوعها فتحاً مبيناً للمسلمين وقـال : « إنها استردت ضحوة الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨١ م . [٢]

وكان القادري قد تحدث عن إسترداد المولى إسماعيل لثغر العرائش [٣] عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م عنوة من أيدي النصارى ، واستيلائه على ما كان فيها من أموال وأسرى ، بعد أن حاصرها مدة ثلاثة أشهر ، دمر خلالها جزءاً من سورها بالبارود ، ومن ثم قام بتعميرها بعد أن دخلها وأستقر فيها المسلمون ، كما أشار إلى أنها وقعت في قبضة النصارى في أوائل رمضان عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م . [٤]

وكان بدأ أمر استيلاء الإسبان على المعمورة ، والتي تعرف باسم المهدية أيضاً ، في حدود العشرين بعد الألف ، فأحكموا القبضة عليها وبنوا فيها القلاع الحصينة والأسوار ، واستمر وجودهم إلى عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م . وهي السنة

---

١ ـ (المعمورة) أو المهدية أو حلق أسبو ، حاصرها أسطول البرتغال عام ٩٢١ هـ ١٥١٥ م واحتلوها ومكثوا بها خمس سنوات ، ثم استعادها المغرب ، واستولى عليها الأسبان عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م ، ثم استردها المولى اسماعيل عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م . وهي الآن خراب ولا تزال انقاضها موجودة . انظر بنعبد الله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ .

٣ ـ (العرائش) ثغر مغربي علي المحيط الأطلسي جنوب طنجة ، تأسست عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، طمع فيها الأسبان ، وحاولوا الاستيلاء عليها مراراً حتى نجحوا عام ١٠١٩ ه / ١٦١٠ م ، وبقيت بأيديهم حتى تم استعادتها في عهد المولى إسماعيل عام ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م . ا نظر القادري : نشرالمثاني ، جـ٣ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ مولاي عبد الرحمن بن زيدان : المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، تقديم وتحقيق د/ عبد الهادي التازي ، الدار البيضاء ، مطبعة أديال ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م ؛ عبد اللطيف الشادلي ، الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن ١٧م ، ص ٢٧ ـ ٣٠ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، ط ١ ، اطروحات ورسائل ، ١٩٨٢م ؛ بنعبد الله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣١٠ ـ ٣١٢ .

٤ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٢٢ .

التي استردّ فيها المولى إسماعيل المعمورة ، فقد افتتحها عنوة بعد حصارها يوم الخميس ١٤ ربيع الثاني عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م [١] ، وأسر مَنْ بها من النصارى ، ولم يصب أحد من المسلمين وقد حضر المولى إسماعيل فتحها بنفسه ، وأمر بعمارتها وإصلاح ما تهدم منها . [٢]

أما طنجة فقد حاول البرتغاليون الإستيلاء عليها عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧م ، وردوا عنها خائبين بعد هزيمتهم وأسر زعمائهم ، وعاودوا الكرة في سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٤م ، فتمكنوا من الاستيلاء عليها ، واستمرت بأيديهم مائتين وخمس سنين ، ثم بذلوها كمهر لملك انجلترا عام ١٠٧٤ هـ/١٦٦٣م ، عندما تزوج أميرة برتغاليه [٣] . وحكمها الانجليز إلى ربيع الأول سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٣م ، وهي السنة التي أعد فيها المولى إسماعيل جيشاً ووجهه لحصارها ، فضيقوا على النصارى ، الذين لم يجدوا بداً من الهرب عنها ، وتركوها خاوية على عروشها ، بعد أن خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها ، فدخلها المسلمون بدون قتال ، وشرعوا في بناء ما تهدم من أسوارها وأبراجها ومساجدها . [٤]

أما العرائش ، فقد كان سبب استيلاء الأسبان عليهاوأخذها بدون قتال مواطئة الشيخ المأمون بن المنصور [٥] . لهم على أخيه زيدان [٦] ، وأطمعهم في

---

١ ـ لاحظ الفارق في الأيام بين الناصري والقادري الذي كان معاصراً لفتحها. القادري : نسمة الآس ، ص ٢٢ .

٢ ـ الناصري : الاستقصا ، جـ٧ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٩٥ ، ٩٨ .

٤ ـ المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٦٧ .

٥ ـ الشيخ المأمون بن المنصور السعدي ، نازع أخاه في الملك ، وواطن الأسبان على أخيه لينصروه وسلم لهم العرائش ثمناً لمناصرته . توفي قتيلاً بالقرب من تطاوين خامس رجب عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م ، انظر المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١ ـ ٢٣ .

٦ ـ زيدان ابن المنصور السعدي ، بويع بعد وفاة والده المنصور ولم ينتظم أمره لكثرة الخارجين عليه ، توفي فاتح المحرم سنة ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ في مراكش انظر المصدر السابق والجزء ص ١ ـ ٧٢ .

العرائش إذا ما ناصروه ، وسلمها لهم رابع رمضان عام ١٠١٩ هـ/١٦١٠م [١] ، وبقيت بأيديهم إلى أن استعادها المولى إسماعيل يوم الأربعاء ١٨ محرم سنة ١١٠١هـ/١٦٨٩م ، بعد معاناة شديدة في حصارها الذي استمر ثلاثة أشهر وقيل خمسة أشهر ، وكانوا أثناء ذلك يحفرون الخنادق تحت أسوارها المواجهة للبحر وملئها بالبارود ، ومن ثم اشعلوا فيها النار فلم يلبث أن سقط جزء من السور ، دخل منه المسلمون ، وأسروا مَنْ بها من النصارى الذين كان عددهم قبل الاستيلاء عليها ثلاثة آلاف ومائتين ، قتلوا منهم ألفاً ومائتين ، وغنم المولى إسماعيل ما بداخلها من بارود وعُدد ، ومن ثم التفت إلى تعميرها والعناية بها وتحصينها. [٢]

وكان الرحالة المغاربة قد تحدثوا عن طرفٍ من أخبار بعض الثغور الواقعة على طول البحر الأبيض المتوسط ، والتي احتشد فيها المجاهدون المسلمين للذب عن مدن الإسلام الإفريقية والذين كان منهم بعض المسلمين الخارجين من الأندلس وأصولهم [٣] ، كما وصف الرحالة المغاربة ما كان بها من تحصينات حربية ، لصد هجوم القراصنة الذين كانوا منتشرين في ذلك الوقت ، فوهران [٤] . كان تحت عبء الإحتلال النصراني منذ عام ٩١٥ هـ/١٥٠٩م [٥] ، فقد ذكر الرافعي أن مينائها شحن بالمدافع والسفن الحربية ، التي كانت تخرج لاقتناص

١ ـ الناصري : الاستقصا ، جـ٦ ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ، وما ذكره الناصري متطابق تماما مع ما ذكره القادري سابقا .

٣ ـ المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٢ .

٤ ـ (وهران) مدينة حصينة ذات مياه جارية وبساتين ، وبها مسجد جامع ، وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلس البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق مع نفزة وبني مسقن ، خربت عام ٢٩٧ هـ / ٩٠٩م ، أعيد بنائها أحسن مما كانت ثم خربت مرة أخرى ثم عمرت . انظر أبي عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، ص ٦٩ ، بغداد مكتبة المثنى ، وتقع وهران الآن في الجزائر ، غرب العاصمة الجزائر .

٥ ـ جلال يحيى : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، جـ٣ ، ص ١٥ ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

السفن الإسلامية ، فأشار إلى أنه أثناء مروره خرجت سفينتان قصدهما النيل من السفينة التي كان يستقلها ، ولكن سلمهم الله ، واستطاعت سفينته الهرب بسبب الريح التي هبت ساعتئذ فساعدتهم على الإفلات وعدم الوقوع في قبضتهم . [١]

ونزل الرافعي في مرسى مستغانم [٢] ، ويبدو أنها كانت ضمن الثغور التي رابط فيها المجاهدون في تلك الفترة ، ووصفه بأنه من الموانيء المأمونة ، والتي يقوم على حراستها مراكب المجاهدين الحربية ، وعاين في ليلة وجوده بمستغانم وصول مركب حربي أخذ يطلق النيران ، فخشوا أن تكون أحدى سفن النصارى ، ولكنهم تأكدوا بعد ذلك أنهاإحدى سفن المجاهدين القادمة بالبشرى لهم لوصول المدد للمجاهدين المرابطين بمدينة الجزائر ، والمؤلف من عشرة سفن حربية مشحونة بالعتاد والمجاهدين المسلمين لمواجهة القراصنة .

أما عن تحصينات الجزائر التي شاهدها ، أبراجها المشيدة بالحجارة المنحوتة ، كما شاهد المرسى وقد ازدحم بالسفن الكبيرة والكثيرة الكاملة العدُة والمستعدة للإنطلاق في أي لحظة ، وكل ذلك إرهاباً للعدو المتربص بها وبغيرها من الثغور الإسلامية .

وقد أحصى الرافعي ثلاثة أبراج للجزائر ، وحصناً كبيراً ممتد في البحر ومحاط بحصون أخرى ، وسمى أعظم حصونها بحصن الفنار ، والذي كان قوي البناء شديد التحصين ، وبه كافة العُدد والمجاهدين الأبطال ، وأشار إلى أن الجزء الموالي للبر ويسمي باب الجديد وباب الوادي والقصبة ، كان معداً كملجأ لأهل الجزائر ، إذا ما هوجموا . [٣]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٢ ـ (مستغانم) على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ، يزرع فيها القطن الجيد ، وهي بقرب مصب نهر شلف على البحر ، انظر أبي عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٦٩ ، ويبدو أنها كانت في تلك الفترة ذات شأن في حركة الجهاد البحري والدفاع عن المسلمين وتقع ضمن مدن دولة الجزائر الآن .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٥ ، ٢٥ .

وعندما أزمع الرافعي مغادرة الجزائر ، ركب إحدى سفن المجاهدين المسلمين ، وهو مركب رئيسهم ، ووصفه بأنه من المراكب الكبيرة والسريعة ، وهذا المركب كان من ضمن عشرة مراكب أخرى كانت قاصدة تونس لصد عدوان القراصنة عنها ، وكان عدد المجاهدين على متن هذه السفن خمسة الآف فنزلوا بموقع سماه عناب [١] ، ومنه أكمل المجاهدون سيرهم براً إلى تونس .

وتابع الرافعي سيره إلى جزيرة رودس [٢] للتزود بالمؤن ، وشاهد بمرساها سفناً للمسلمين ، وقد خرجت إحداها لتنذرهم بسرعة الهرب ، لوجود بعض سفن للكفار تتربص بالميناء ، وقد استطاعوا الإفلات منهم بعد تحذيرهم ، وذكر أنه بالرغم من وجود السفن الإسلامية والمجاهدين هناك ، إلا أنهم لا طاقة لهم على صد عدوان الكفار ، لعدم توفر المدد وتواليه . [٣]

ووصف الرافعي ميناء رشيد بمصر ، بأنه في غاية التحصين بأبراجه وحصونه المنيعة [٤] ، كما رأى ميناء الاسكندرية وسورها المنيع وكثرة المراكب الراسية بمرساها. [٥]

---

١ ـ (عنابة) تقع الآن في الجزائر ، مر عليها الزياني وكانت من المدن العامرة في زمنه . انظر الزياني : الترجمانه الكبري ، ص ١٦٣ .

٢ ـ (رودس) بضم أوله جزيرة في البحر من الثغور الشامية بينها وبين الإسكندرية أربعة أيام . انظر محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٢٧٨ ، تحقيق د/ إحسان عباس ، ط ٢ ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤م . وكانت هذه الجزيرة تتبع الدولة العثمانية وبها جمهورية مستقلة تدفع الجزية للسلطان العثماني . انظر محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العليه العثمانية ، ص ٨٠ ـ ٨٢ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٣٤ ـ ٣٩ .

٤ ـ المصدرالسابق ، ص ٤٩ .

٥ ـ المصدرالسابق ، ص٢٢٤ .

أما ثغر طرابلس الغرب ، فقد أشار العياشي إلى بأسها على الكفار وشهرتها في النكاية بهم ، وذكر أن فيها يجتمع المجاهدون ، كما شاهد أسوارها العالية ، ورأى بها بابين الأول موالي للبحر ، والآخر مواجه للبر ، وكان البحر يحيط بطرابلس ، وجزء من حصنها المعد لإقامة أميرها متصل بالمدينة من جهة بابها البري ، فالحصن متوسط بين الباب البري والبحري .

وشهد العياشي لأميرها ببسالته ، وقدرته على النيل من الكفار ، كما شاهد الكثيرمن سفن المجاهدين التي كانت راسية بمرساها ، ومجهزة لشن الغارات والجهاد في البحر ، وذكر أنها قلما تسافر وترجع بغير غنيمة ، وكذلك قلما تؤسر للمجاهدين سفينة وإنما التي تقع في أيدي النصارى تكون سفن التجار . (١)

وسجل الدرعي في رحلته عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م محاصرة الكفار لطرابلس الغرب ، فقد عاين وصول ثلاثة سفن للكفار ، وتتابع وصول غيرها إلى أن أصبح عددها اثنتان وعشرون سفينة فضربت الحصار على طرابلس أربعة أيام من يوم الثلاثاء إلى الجمعة ، وكان أهل طرابلس خلال هذه الأيام منهمكين في نقل متاعهم ونسائهم وأطفالهم إلى خارج المدينة ومنطقة سماها المنشية ، فعاب عليهم هذاالأمر وكلم رؤسائهم في عملهم هذا ، والذي عده بأنه غير لائق فهو يعبر عن الجزع والجبن والوهن وإظهار الخوف من أعداء الله الكفرة وقد ردّوا عليه قائلين : (إن فعلهم هذا ليس جزعاً ، وإنما لا طاقة لهم بما أعدوه من المدافع التي ما إن تسقط على شيء إلا دكته) . (٢)

ويبدو أن الدرعي لم يعهد مثل هذه المدافع ، ولم يرى نتائج ما تحدثه من أضرار ، لذا قال قوله ذلك ، ولكنه وعى سبب فعلهم وتصرف بعد ذلك عندما اشتد ضرب المدافع على طرابلس ، وعلم أن فعلهم هذا ليس جبناً ، وإنما هو عين الصواب واحتياطاً من دمار كل شيء .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٦٠ ـ ٦١ .
٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، جـ١ ، ص ٦٥ .

وتابع الدرعي وصف أيام الحصار ، والتي لم ينم أهل طرابلس خلالها لإنشغالهم بالمراقبة والحراسة والطواف حول المدنية خوفاً من المباغتة وليلة السبت اقترب الكفار بسفنهم ومدافعهم وأخذوا يمطرون المدينة بوابل من القذائف التي قال عنها الدرعي : « ورأينا من ذلك ما لم نر قط ولا سمعنا به » ، إذ خرجت نيران المدافع تحاكى الشهب ، فكانت ترسل قنابلها وقذائفها تباعاً ، وحالما تقع على الأرض يسمع لانفجارها صوت هائل يصم الآذان ، ووصف وقوع هذه القذائف وما كانت تحدثه من دمار ، فهي عندما تقع على موضع تتفرق فيه ويتصدع ، وإذا وقعت علـى بناء هدمته ، وإذا وقعت على بسيط حفرته ، وعند وقوعها على اسطوانة تهدمها ، وإذا صادف وقوعها على شجرة إما حرقتها أو قلعتها .

ووصف الدرعي حالهم تلك الأيام ، بأنهم لم يكتحلوا بنوم قط ، فعندما تخرج قذيفة من أحد المدافع يظنوا انها واقعة عليهم لا محالة ، فهي تارة تقع حذاءهم وتارة تمر عليهم ، وكان أكثر وقوعها بالمدنية أو بالبحر أو قرب المدينة ، وقد اشتد الضرب والرمي في إحدى الليالي ، حتى قيل له أن أزيد من تسعمائة كورة قد دمرت ، ولم يتوقف الرمي إلا بعد هبوب الرياح فتوقفوا عندئذ ، ولم يلبثوا أن عاودوا الضرب بالمدافع ، وتصدى لهم المجاهدون الذين باعوا أنفسهم لله تعالى في برجين ، حتى استطاعوا دحرهم فنكصوا على أعقابهم . وكان قد توافد المجاهدون من كل حدب صوب وتهيئوا للدفاع ، فتراجع الكفار وخرجوا للبر ، وقد اجتمع لهم ألوف مؤلفة من المجاهدين الأبطال وبادروهم بالشدة والحزم والعزم وعند ذلك جرى صلح بينهم ، ووصفه الدرعي بالغبن والغيظ ، إذ كان من ضمن بنوده أن يطلق المسلمين للكفار جميع ما عندهم من أسرى ، وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك ، كما شرط الكفار على المسلمين أن يردوا ما أخذوه من غنائم من قبل في هجماتهم البحرية وقدره مائتا ألفا ريال [١] . كرملية ، وقد قبل المسلمون بذلك .

١ ـ (الريال) أصله أسباني ، فالأسبان هم أول من أجراه في السوق والتجارة ، واسمه عندهم Real ومعناه الملكي ، وقد شاع استعماله في جميع بلاد الشرق الأدنى ، وكان يسك من الفضة ، وقد اختلف سعره وأنواعه واسماؤه في طول البلاد وعرضها . انظر عمر أفا : النقود المغربية في القرن الثامن عشر ـ أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس ـ مع تحقيق رسالتين في النقود والأوزان لعمرعبد العزيز الكرسيفي ، ص ٦٣ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م ؛ الأب انستاس الكرملي : النقود العربية والإسلامية وعلم النميات ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ٢ ، ١٩٨٧م ، د.م .

وبعدها دخل الكفار طرابلس للتسوق ، وربما أغلظوا القول على بعض المسلمين بسبب توعد أمير طرابلس العثماني لمن يسيء لأحد الكفار ولو بكلمة بالعقاب الشديد ، فأغرى ذلك الكفار على المسلمين ، وذكر الدرعي أن أهل طرابلس تحملوا ذلك وصبروا .

وأشار الى أن المغاربة أغلظوا على الكفار وافحشوا لهم القول ، وربما ضربوهم ، فرفع الكفار أمرهم إلى أمير طرابلس ، الذي وصف المغاربة بأنهم شداد على النصارى ، ونصحهم بعدم التعرض لهم ، لأنهم لن يتورعوا عن قتلهم ، كما أنه لا يد له عليهم فهم ليسوا من رعاياه ، وحثهم على تحمل ما يصدر منهم وتركهم وشأنهم . (١)

إن ما كان يحدث من هجمات على الشمال الإفريقي المسلم من قبل الأسبان وغيرهم ، لا يمكننا إلا أن نصفه بالهجمات الصليبية ، وقد وصف بعض الرحالة المغاربة جزءاً بسيطاً من معاناة هذه المدن وأهلها وما كان يحدث عليهم من هجمات صليبية همجية شرسة هدفها القضاء على الإسلام أولاً ، ومن ثم التنعم بإقتصاديات هذه المنطقة التي كانت توصف بأنها أرض الذهب ، إذ أنه بعد سقوط الأندلس وتشتت شمل المسلمين الذين كانوا الدعامة الاقتصادية بها تعطل الإنتاج وأصبحت أسبانيا الصليبية في وضع اقتصادي رهيب ، ولا يخرجها عما كانت عليه لتكسب عيشها إلا اللصوصية البحرية المسلحة ، فإندفعوا يزرعون الموت والدمار ويعودون إلى بلادهم محملين بالغنائم ، إضافة إلى أن أسبانيا الصليبية أصبحت تطمح إلى سيادة الدنيا فهي لا تتحمل رؤية دولة أخرى تنازعها السيادة والسلطان ، إذ أحس الأسبان ببزوغ شمس دولة إسلامية قوية هي الدولة العثمانية ، لذا سارعت لسبقها إلى الشمال الإفريقي بعد أن أصبح خطر العثمانيين البحري عظيماً ، إذ كان الهدف المسيحي هو السيطرة على الشمال الأفريقي حتى قبل ظهور الدولة ومحاولتها حماية الأراضي الإسلامية .

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، جـ١ ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وكان مماساعد مدن الشمال الإفريقي المسلمة ، على التصدي للهجمات الصليبية وقرصنة الأسبان مهاجروا الأندلس الثغريون المسلمون العارفون بالملاحة وفنونها والماهرون في صناعة السفن ، فتعاونوا مع أخوانهم المسلمين في الشمال الإفريقي وأنشأوا السفن الحربية فصدوا عدوان القرصنة الصليبية وقابلوا عدوانهم بالمثل . [١]

وهكذا نشأت حركة الجهاد الإسلامي البحري في الشمال الإفريقي ، لصد عدوان القرصنة الصليبية ، فعاش المسلمون هناك ملحمة إسلامية مليئة بالبطولات والتضحيات التي كان قوامها الشعب المسلم بمساندة الدولة العثمانية ، التي كان المغاربة يدعون لسلطانها بالنصر على النصارى ، بل ويرسلون له القصائد الشعرية لحثه على الجهاد ، بل لقد كان المجاهدون يزرعون الدعاة بين المسلمين لحثهم على الانخراط في صفوفهم ومساندتهم . [٢]

---

١ ـ أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ ـ ١٧٩٢ م ، ص ٧٤ ـ ٨٩ ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ـ ط ٣ ، ١٩٨٤م ، ولمزيد من التفاصيل راجع الكتاب نفسه .

٢ ـ ابن أبي محلى : الأصليت الخريت ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .



الفصل الأول

تعريف بأشهر الرحلات المغربية التي اعتمد عليها البحث

* محمد بن أحمد بن مليح القيسي .
* أبوسالم عبدالله بن محمد العياشي .
* محمد بن علي الرافعي .
* أبوالعباس أحمد بن عبدالقادر القادري .
* أبوعبدالله محمد بن أبي علي اليوسي .
* أبوالعباس أحمد بن أبي عبدالله بن ناصر الدرعي .
* عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي .
* محمد بن أحمد الحضيكي .
* أبو مدين عبدالله ابن الصغير الدرعي .
* عبدالمجيد بن علي الزبادي المنالي .

إن المتأمل في أسباب قيام الرحالة المغاربة بالرحلات إلى الحجاز في فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، يجد أن الباعث الأساسي لها هو أداء فريضة الحج ، فكانوا – رحمهم الله – يتجشمون الصعاب للوصول إلى الحجاز وأداء الفريضة ، ومن ثم النهل من منابع العلم فيها ، وكان الرحالة المغاربة ينتهزون فرصة قدومهم فألفوا كُتباً في وصف الطُرق التي سلكوها وفي وصف المدينتين المقدستين ، وعلى ذلك فإن على الباحثين في تاريخ الحجاز لتلك الفترة البحث عن مدونات تلك الرحلات التي تُعد مصادر جيدة وشاملة لتاريخ تلك الفترة ، وهي نوع من التواصل الدائم بين الغرب الإسلامي والحجاز [illegible] ومن ثم [illegible] يزال على أرفف المكتبات العامة أو الخاصة ولا يعرف قيمتها إلا القليل .

وقد تم في هذا البحث إعتماد كُتب عشرة رحلات مغربية بإعتبارها مصادر لدراسة تاريخ الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، تلك التي أستطعنا الحصول عليها ، ومنها نستخلص الكثير من المعلومات عن الحجاز ، وسنقوم بدراستها بإعتبارها من مصادر تاريخ الحجاز ، كما نقوم بالتعريف بمؤلف كل منها على حسب الترتيب الزمني :

(محمد بن أحمد بن مليح القيسي)
كان حياً حتى عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م

نسبه وصفاته :

محمـد بن أحمد بن عبدالعزيز بن محمد القيسي الشهير بالسراج والملقب بابن مليح [١] المراكشي ، وقد حلاّه السملالي « بالشيخ الفاضل العالم العلامة » . [٢]

ومع أهمية رحلة القيسي وفائدتها ، إلاّ أن المؤرخين وأصحاب التراجم لم يترجموا له ، ولم يرد عندهم ذكر رحلته أيضاً التى حُفظت من التلف فوصلت إلينا فدلّتنا هذه الرحلة على شخصية مؤلفها .

فمن خلال هذه الرحلة نلمس تضلعه في التاريخ واللغة ، فأسلوبها سهل شيق جميل مليء بالقصائد الشعرية ، ومواضيع هذه الرحلة اتسمت بالتنوع ، فدلّت على غزارة علمه وسعته .

ولم يصلنا إلا ترجمة وحيدة للقيسي في مؤلف السملالي والذي إعتمد فيها على ما ورد في الرحلة ، إذ لخصها في بضع وريقات . كما أبدى تشككاً في اسمه أهو ابن مليح أو ابن فليح [٣] ، مع أن القيسي كتب اسمه بوضوح تام في طرة رحلته وفي مقدمتها [٤] . فمحقق الرحلة ذكر أن أصل مخطوطتها عليها تملك لشخص يدعى محمد في سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م ، ويليه تملك لشخص آخر [٥] . وأضاف أن القيسي صرح بأنه من أهل مراكش ، ورجح من نسبته القيسية أنه من أصل عربي، وأن أسلوبه المنمق المؤيد بالأحاديث النبوية والأشعار

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ط .

٢ ـ السملالي : الأعلام بمن حل مراكش ، ج ٥، ص ٢٥٩، .

٣ ـ المصدر السابق والجزء والصفحة ، هامش (٢) .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ب ، ط .

٥ ـ المصدر السابق ، ص أ ـ ب ، ٢.

وإطلاعه علـى الكثـير مـن الأخـبار وتراجـم الرجال يدل على تمتعه بثقافة إسلامية لا بأس بها . [١]

ويمكننا تعليل إغفال المصادر عن الترجمة للقيسي بأنه كان من عامة المتعلمين المثقفين في ذلك الوقت ، كما لم يكن من المشتغلين بالوظائـف العلـمية أو الديوانية ، وأنه ألف رحلته لنفسه ولم يقصد من ورائها شـهرة ، وربما أيضاً وافاه الأجل سريعاً بحيث لم تظهر له مشاركات في فنون العلم الأخرى بحيث يبرز من خلالها .

ويبدو أنه أزمع على كتابة رحلته بعد عودته من سفره حيث قال : « فلما زعزعتني رياح الإشتياق ، وطار القلب بأجنحة الأشواق إلى مشاهدة تلك الآفاق ، ومنَّ الله علي بالمسير على مراكب التيسير إلى ذلك الجناب الخطير ، وساعدت المقـادير في الموارد والمصـادر محـفـوفاً في الذهاب والإياب بسيـاج الكرامـة ، ومكتـوفاً بسرادق العـافية والسـلامة ، صـرفت همـتي وفكرتي إلى ضبط رحلتي ونقلـتي ، وذكـر مـباديـها ومنتـهاها بالنص على عدد المراحل وأسـماء المنازل والمناهل ، فـألفت هذه الرحلة وسميتها أنس السـاري والسـارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلم » . [٢]

ومما لا شك فيه أنه [illegible]
[illegible] مشاهدات بنى عليها تأليف رحلته بعد عودته مع تنقيحها وكتابتها بالصورة التي وصلت إلينا ، إذ كتبها على هيئة فصول معنونة [٣] ، كشفت عن دقته وترتيبه .

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ب .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ل .
٣ ـ المصدر السابق ، ص هـ .

وكما لمسنا الدقة في شخصية القيسي لمسنا أيضاً شاعريته ، فهو أديب شاعـــر علـــى عادة أغلب الرحالـة المغاربة حيـث إنتثرت له أبيات شعرية في رحلته [١] . علاوة على ثقافته الإسلامية الجيدة الميالة إلى التصوف الظاهر في رحلته . وهذا ليس عيباً في شخصية القيسي أو تقليلاً من شأنه ، لأن النزعة الصوفية كانت الغالبة في الفترة التاريخية التي عاش فيها ، فلا يُعد المسلم مسلماً بحق إلا بهذه النزعات والتي كانت لها سلبياتها على العالم الإسلامي بأجمعه .

مؤلفاته :

لا يعرف له كتابات أو مؤلفات غـير رحلـته ، التي إلتـزم في كتابتـها بما رسمه لنفسه من منهج لم يحد عنه قيده في بداية رحلته . وقد استغرقت رحلته حوالي السنتين ونصف ، إذ أرخ لبداية خروجه من مراكش في آخر صفر عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م ، ولكنه لم يؤرخ لدخولها مرة ثانية [٢] . فقد كان آخر تأريخ له في رحلته هو يوم السبت الثالث من شوال عـام ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م عند وصوله لوادي درعة [٣] . وبهذا تكون رحلته قد إستغرقت سنتين ونصف السنة .

ونجد أن بداية التأريخ للرحلة هي من أساسيات فن الرحلة المغربية [٤] ، إضافة إلى الإلتزام بكتابة خطبة البداية ، وسبب التأليف ، وتسمية الرحلة ، والاستخارة المتكررة عند النية على الرحلة ، ووصف المنازل والمناهل والقرى والمدن وسلوكيات سكانها ، وتعاملاتهم الإقتصادية ، ونظامهم السياسي ، وحالتهم العلمية ، وغير ذلك مما قد يسترعي إنتباه الرحالة من أمور مستجدة أو غريبة

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٢، ٦، ٧٨ ، ٩٤ على سبيل المثال .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص١٣٥؛ (درعة) مدينة مغربية صغيرة في جنوبها الغربي ، ويبدو أنها كانت تقع على نصف الطريق بين عكة والريصاني، وربما بالقرب من زاكورة فهي مجموعة من نخل وقرى . ودرعة تكتب ذرعة بالمعجمة ولكن المشهور أنها بالمهملة . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢، ص ٤٥١ ؛ عبدالعزيز بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

٤ ـ نواب : الرحلات المغربية ، ص ٧٦ ـ ٩١ .

فيبادر إلى تسجيلها . وهذه النواحي العلمية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية والجغرافية والتاريخية نجدها عامل مشترك في جميع الرحلات المغربية ، إذ تعتبر من مقومات فن كتابة الرحلة المغربية ، وربما يطغى جانب على آخر بحسب شخصية الرحالة وميله ودقة ملاحظته لجانب دون آخر .

وعموماً فرحلة القيسي تعد من الرحلات المغربية الغزيرة الفائدة ، المنتثر فيها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأمثال المشهورة ، والأبيات الشعرية في أماكنها للدلالة على ما أراد قوله ووصفه وتوضيحه .

سبب الرحلة :

صرح القيسي بأن سبب رحلته كان لأداء فريضة الحج [١] ، فهو لم يسبق له القدوم إلى الحجاز إلا في عام رحلته فقط .

حالته الإجتماعية :

لا نعلم شيئاً عن حياته الإجتماعية أو مكانته العلمية ، ولا سنة مولده أو وفاته وكل ما عرفناه ، أنه كانت له زوجة وأولاد ووالدين وإخوة ، ففي شعره الذي قاله قبل سفره وفيه يستودعهم الله تعالى ، وأغلب الظن أنه كان ذا جاه وعلم إذ قال : [٢]

أستودع الله أولادي وأُمّهمُ ... والدينُ والمالُ والآباء والجسدا

والعلم والجاه والإخوان كُلَّهمُ ... والصحْبَ والصِّهر والجيران والبلدا

وكل ما أنعم الباري عَلَيَّ به ... فهو الحفيظُ لما استودعته أبدا

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ل .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢ .

وفاته :

ذكرنا سابقاً أنه أرخ لوصوله درعة ثالث شوال عام ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م ، وترحم في رحلته على سلطان عصره بالمغرب الوليد بن زيدان [١] ، عندما تحدث عن الهدية التي أهداها للمسجد النبوي [٢] . وقد توفي السلطان الوليد يوم الخميس ١٤ رمضان عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م [٣]، وبهذا نستطيع أن نرى تقديراً بأن وفاته حدثت بعد هذا التاريخ .

١ ـ الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور السعدي بويع له يوم مقتل أخيه عبدالملك يوم الأحد سادس عشر شعبان عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م وأقتصر ملكه على مراكش وأعمالها، وعظمت الفتنة في أيامه بفاس وكان الوليد لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة، كان مولعاً بالسماع قاتلاً للأشراف إخوته وبنى عمه حتى أباد أكثرهم، وكان مع ذلك مُحباً للعلماء متواضعاً لهم قتله بعض جنده عندما قصر عن دفع مرتباتهم يوم الخميس الرابع عشر من رمضان عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م. انظر السملالي : الأعلام بمن حل مراكش ، ج ١٠، ص ١٨٩ ـ ١٩٠، ترجمة رقم ١٥٦٩. ط ٣ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٣.

٣ ـ هامش رقم (١) .

(أبوسالم عبدالله بن محمد العياشـــي)
١٠٣٧ ـ ١٠٩٠هـ / ١٦٢٧ ـ ١٦٧٩م

نسبه وصفاته :

أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، نعت بالشيخ الإمام الرحالة الأديب الماهر الحافظ الحجة [١] . ونسبته العياشي ترجع إلى آيت [٢] عياش إحدى القبائل البربرية المقيمة على حدود الصحراء في الجنوب الشرقي للمغرب [٣] . ويقال : أن العياشي عربي الأصل ينتهى نسبه إلى الأدارسة [٤] . ولد لليلة بقيت من شعبان عام ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م في قرية تازروفت الواقعة في الاطلس [٥] الكبير على ضفة أحد روافد نهر زيز . [٦]

وحلى بنعوت أخرى تدل على علو مكانته العلمية والاجتماعية ، فقد وصفه الأفراني أنه من القلائل الذين أحييت بهم طريقة الرواية [٧] بعد أن أوشكت شمسها على المغيب . [٨]

---

١ ـ أبو سالم عبدالله العياشي : ماء الموائد، ج ١، ص ٣، الطبعة الحجرية ؛ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٩١ .

٢ ـ كلمة بربرية بمعنى آل . انظر محمد أمحزون : المدينة المنورة في رحلة العياشي دراسة وتحقيق ، ص ٤٧، الكويت ، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣ ـ الكتاني: فهرس الفهارس ، ج ٢، ص ٨٣٢ ، ترجمة رقم ٤٧٢ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون (الادارسة) ينسبون إلى ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى . الناصري : الاستقصاء ،ج١ ، ص ١٥١ .

٥ ـ (الأطلس) : اسم يطلق على جبال افريقيا الشمالية من المغرب إلى تونس وتنقسم إلى ثلاث أقسام وهي أطلس الكبير والمتوسط والصغير . بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣٧ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٧ ، هامش ٤ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق : أمحزون .

٧ ـ (الرواية) : هو علم يشتمل على أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، ورواياتها ، وضبطها ، وتحرير ألفاظها ، أنظر جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي ، ص ٤٠ ، تحقيق ومراجعة عبدالوهاب عبداللطيف ، بيروت ــ لبنان ، ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، دار إحياء السنة النبوية .

٨ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٩١.

كما وصفه أبو على اليوسي [١] : بالبـارع الفاضــل [٢] .

واتصف العياشي بحب الحديث ، وسعيه لطلب علو الاسناد حتى قـال حفيده أبوعبدالله محمد عنه : « كان كلفاً بالرواية ، مستريحاً إليها من أثقال الدراية [٣] ، علماً منه أن علو الإسناد مرغب فيه عند جميع النقاد » . [٤]

كان العياشي شديد التعصب للمذهب المالكي ، منكراً ورافضاً لمذهب الشيعة والروافض [٥] ، كما كره وأستنكر المكوس [٦] والإتاوات [٧] التي تؤخذ من الحجاج ظلماً . [٨]

١ـ نور الدين أبو على الحسن بن مسعود اليوسي شيخ مشائخ المغرب ، متفقاً على علمه وصلاحه ، أخذ على علماء عصره مثل محمد بن ناصر وعبدالقادر الفاسي وأبي سالم العياشي، له مؤلفات عديدة وقصائد بديعة دالة على غزارة علمه، له رحلة إلى الحجاز عام ١١٠٢هـ/١٦٩٠م وتوفى بعد عودته من الحج أنظر الأفراني : صفوة من انتشر، ص ٢٠٦ ـ ٢١٠ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٢.

٣ ـ (الدراية) علم يعرف منه حقيقة الرواية ، وشروطها، وأنواعها ، وأحكامها ، وحال الرواة ، وشروطهم ، وأصناف المرويات وما يتعلق بها. انظر السيوطي : تدريب الراوي ، ص ٤٠ .

٤ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ٢ ، ص ٨٣٣ .

٥ ـ قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن على سنه ١٢١هـ/٧٣٨م، كانوا بايعوه ثم قالوا له : ابرأ من الشيخين نقاتل معك ، فأبى وقال : كانا وزيري جدي فلا أبرأ منهما ، فرفضوه ، فسموا رافضة. انظر أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري : لسان العرب ، ج ٧، ص ١٥٧، دار صادر، بيروت، د.ت .

٦ ـ (المكس) الضريبة التي يأخذها الماكس وأصلها الجباية . وأول مكس فرض على الحجاج المسلمين كان من قبل القرامطة سنة ٣٢٧هـ/٩٣٤م وهي أول سنة مكس فيها الحاج ولم يعهد ذلك في الإسلام . أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ٦، ص ٢٩٦ ؛ ابن منظور : لسان العرب، ج ٦، ص ٢٢٠ ؛ النجم عمر بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ ، تحقيق فهيم شلتوت ، ط ١، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، د. م .

٧ ـ (إتاوة) رشوته والإتاوة الرشوة والخراج . وهي كل ما أخذ بكره . ابن منظور : لسان العرب ، ج١٤، ص ١٧ ـ ١٨ .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢، ١٧٧، ٢٠٨ .

وبرغم تمسكه بتعاليم المذهب المالكي ، إجتهاداً منه نجد مخالفته لهذا المذهب مثل خروجه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة عند إقتراب شهر رمضان ، وتكراره العمرة في السنة الواحدة ، ودخوله مكة المكرمة بدون إحرام عند مقدمه من جُدة . [١]

حياته العلمية والاجتماعية :

كان طالب علم لا يقنع باليسير ، فقال حاكياً عن نفسه : « وكنت في أول معاناتي للطلب ، وتشبثي بأذيال الأدب ، كلفاً بالرواية ومستروحاً إليها من أثقال الدراية ، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلاً ، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلاً ، ولا أبرأ عليلاً ، لأنهم استغنوا عما غاب بما ظهر ، فأقتصروا من الكتب على مااشتهر ، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار » . [٢]

لذا شدّ العياشي عصا الترّحال ، ويمم شطر المشرق في ثلاث رحلات للحج [٣] ، فمنها الرحلة الأخيرة للبلدان المشرقية ، مبتدئاً بطرابلس ، والإسكندرية ، والقاهرة ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبيت المقدس ، فأخذ على العلماء الذين يسر الله تعالى له الإلتقاء بهم ، فكان يتلقى العلم ويتصدر أحياناً للتدريس ، فقدم للتدريس بالمدينة المنورة . [٤]

وكان خلال تلك الفترة يُعد من العلماء الأعلام ، كما كان يتبادل الإجازات العلمية مع أمثاله من العلماء . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩١، ٣٩٧، ٤٠٥ .

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١، مخطوطة .

٣ ـ المصدر السابق والصفحة .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد، ص ٢٠١ ؛ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٩٢ .

٥ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٩ .

وقد حفلت رحلة العياشي بالكثير الذي يدل على حبه للبحث عن العلماء ومجالستهم في كل بلد وصل إليه ، وشغفه بجمع الكتب ، والبحث عن غريبها ونادرها في خزائن الكتب التي مر عليها . كما برزت شخصية الأديب ، الشاعر ، الناثر ، الفقيه ، المحدث ، المناظر في القضايا التي لا تتفق مع العقيدة في أسلوبه الذي كتب به رحلته . [١]

كما اشتهر العياشي بتعظيم الصوفية [٢] كعادة علماء عصره في المغرب وفي غيرها آنذاك فالتف حوله المريدون والاتباع وطلبة العلم .

وتظهر نزعة العياشي الصوفية جلية في معظم ما ورد في رحلته ، وكما ذكرنا سابقاً فهذه النزعة الصوفية ، لا تعيب رحالتنا ، لأنها كانت السمة التي تميزت بها هذه الفترة التاريخية في العالم الإسلامي أجمع ، وإن كنا لا نتفق مع نزعته وميله لمخالفتها في كثير من الأمور التي درج عليها السلف الصالح .

وفي رحلته تظهر شاعريته ، التي تتضح في المواقف التي تثير وجدانه وتدفعه لقول الشعر ، فزخرت بالكثير من الأبيات والقصائد الشعرية له أو لغيره ، ومن نماذج شعره ما قاله عند وداعه لأهله : [٣]

أَحِبَّةُ قلبي لا ضرارُ ولا ضَرَرْ … ولكننا نرضى بما ساقَهُ القدر

سأَنْفعكُمْ في غيبتي بالدعاءِ في … مواقف حجي حيث أَصفو من الكدر

ولَسْتُ بناسٍ عهدَكُم ووِدادَكُم … وإِنْ طالتِ الأيامُ واتصلَ السَّفَر

يذكَرْنيكُمُ كلُّ حسنٍ رأيتُه … ولا سيما بردُ العشيةِ والسحر

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩ .

٢ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٩٢ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٨ .

ومن شعره أيضاً قصيدة بعثها إلى أشياخه وإخوانه بفاس [١] عند وصوله إلى طرابلس منها : [٢]

أحبتنا أهل التقى والمَبرهْ ... بفاس بقيتم دائماً في مسرَّهْ

ودام لكم سلما زمان محارب ... ولازلتم في نعمة مستمرَّهْ

تسيمون ما بين القمور كأنكم ... بدور أضاءت في خلال المجره

وله أيضاً في وصف الكعبة المشرفة ، عندما شاهدها مشمرة أثوابها : [٣]

فكأنه لما بدا متشمراً ... والطائفون به جميعاً أحدقوا

ملك همام ناهض للقاء مَنْ ... قد زاره وله إليه تشوق

فتبادر الغلمان رفع ديوله ... حتى إذا رجعوا جميعاً أطلقوا

ومن قصيدة وصف بها منى : [٤]

لا شيء أذهب للجرم ... من أن تنيخ لدى الحرم

حيث القباب البيض تلمع مثل نار في علم

بين المحصب [٥] والحجون بذاك درياق السقم

---

١ ـ (فاس) مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة المغرب وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش ، بها عمارة عظيمة وعيون كثيرة وقلعة كبيرة ، وفاس عبارة عن مدينتين مفترقتين سورتين ، هما عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣٢٧ ـ ٣٣٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٧٠ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٢.

٤ ـ المصدر السابق ، ص١٥٧ . وعلى العموم فالعياشي كان شاعراً سلس الأسلوب ، واضح المعاني . ومن أراد الاستزادة من شعره الرجوع إلى الرحلة ، إذ فيها قصائد شعرية كثيرة لو جمعت لألفت ديواناً بأكمله .

٥ ـ (المُحصب) : بالضم بين مكة المكرمة ومنى وهو إلى منى أقرب ، ويعرف اليوم بمجرّ الكبش ، وهو يلي العقبة الكبرى إلى جهة مكة المكرمة ، ويليه مباشرة الابطح . أنظر عاتق بن غيث البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ٨ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، دار مكة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، د.م .

ولما توفي والده ، عزم العياشي على السفر إلى الحجاز للمرة الثالثة ، فزار قبره ، وودع والدته ، وعمه ، اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة [١] . وترك بموطنه إبناً وإبنة ، كما يظهر في شعره عند وداعهما: [٢]

إبنى إني ما تركتك عن قلى ... منى وأختك ما قللت وصالها

لكما بقلبي رحمة ومودة ... بنياط قلبي قد عقدت حبالها

لكن من طلبي العزيز يلذّ لي ... تركى العزيز بهائه وجمالها

ولا نعرف إن كانت زوجته على قيد الحياة آنذاك ، فهو لم يشملها في الوداع .

سبب الرحلة :

كان العياشي قد عزم على التوجه للحج والمجاورة ، منذ سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م ، وواظب على الإستخارة ، ولكن منعه من التوجه للحج في تلك السنة والسنوات التي تلتها، فتنة حدثت بالمغرب ، وصفها بقوله : « دبت في مغربنا عقارب الفتن ، وهاجت وماجت الأرض بأهلها ومادت » [٣] . ولما إستقرت الأمور سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م ، عزم على التوجه للحج ، بعد أن يسر الله له ذلك ، وخرج مع الركب المغربي يوم الخميس، أول ربيع الثاني عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م [٤]، واستغرقت رحلته حوالي السنة والنصف ، فقد عاد إلى المغرب يوم الأربعاء ١٧ شوال عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٧ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٠ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢ ؛ انظر تفاصيل الفتنة التي وقعت بين أهل فاس القديمة والجديدة للتصارع على السلطة والتي وصفت بالشر الكثير في القادري : نشر المثاني ، ج ٢، ص ٥١ ـ ٦٨ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٧ .
٥ ـ المصدر السابق ، ص ٦٥٠ .

سبب تأليف الرحلة :

سبق للعياشي القيام برحلتين للحجاز ، الأولى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ، والثانية عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م [١] . وقد اكتسب من هاتين الرحلتين الخبرة اللازمة ، التي جعلت منه عالماً وخبيراً بمسالك ومنازل الطريق ، فأفرد تأليفاً عنه ، زود به تلميذاً له ، ليكون له معيناً [٢] . وبهذا يكون العياشي قد أدى أربع حجات ، إثنتان في سنوات متفرقة ، وهي الأولى والثانية ، وإثنتان في سنتين متتابعتين هما الثالثة والرابعة في عامي ١٠٧٢ ـ ١٠٧٣هـ/١٦٦١ ـ ١٦٦٢م .

لقد حدد العياشي قصده ومنهجه من تأليفه لرحلته ، فقال : « وقصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم ، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها ، سيما وإن كان صاحب تلوين ، وأما صاحب التكوين فلكل شيء عنده موقع ونفع، لا يوجد في غيره والله المسئول » . [٣] (هكذا)

وبما أن العياشي سبق له أن قدم الحجاز مرتين ، فقد أعدّ كل ما يلزم فقال : « وتوجهت على بصيرة ، وأعددت لفوائد الرحلة عدداً كثيرة » [٤] . فجاور بالحرمين الشريفين عاماً ، فتمكن من الإجتماع بالعلماء ، فقال : « فاتسع المجال في لقاء الرجال ، ومذاكرة الإخوان في كل أوآن ، ومحاضرة الأدباء ، ومجالسة الظرفاء » . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج ١ ، ص ٤ ـ ٥ ، الطبعة الحجرية .
٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ٢ ـ ٣ .
٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٦٧ .
٤ ـ المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥ ، الطبعة الحجرية .
٥ ـ المصدر السابق والجزء والصفحة .

فأختمرت في ذهنه فكرة تدوين رحلته ، وعزم على تجميع ما حصله في مؤلف مستقل سماه « إقتفاء الأثر في ذهاب الأثر » فقال : « فعزمت على تدوين ذلك في مجموع ، تحصل به الإفادة لمن طلب الإستفادة ، فإذا زبدة ما فائدته وثمرة عائدته أسماء المشائخ ومروياتهم ، وذِكْر شيئاً من مصنفاتهم ، وقد إستوفيت جُلّ ذلك لمن طلبه منّي ، ورام أخذه عنّي في كتاب (إقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر) فإنصرف العزم عن كتابة ما سواه ، إذ هو بدونه قليل جدواه » . [١]

القيمة العلمية للرحلة :

أودع العياشي رحلته الكثير من الموضوعات المتنوعة، مما أكسبها أهمية بالغة لدارسي تلك الفترة ، فقد سجل العياشي تراجم العلماء ، ووصف طريق الحج ومنازله ، وأورد العديد من النبذ الفقهية والأدبية ، والقصائد الشعرية ، فضلاً عن اللمحات التاريخية ، وعوائد السكان الاجتماعية في المناطق التي مر عليها . لذا عُدت رحلة العياشي من الرحلات الشاملة ، وأصبحت مثالاً اقتدى بها الرحالة المغاربة ممّن أتوا بعده .

وصف مخطوطة الرحلة :

تقع في الخزانة الحمزاوية رقمها (١٨٢) وهي بخط المؤلف وتضم (٧٧٦) صفحة بمعدل (٢٥) حتي (٤٦) سطر في الورقة وبمعدل (١٥) كلمة في السطر الواحد . ومكتوبة بخط مغربي يختلف رقة وغلظاً من ورقة لأخرى .

مشايخه :

استهوى العياشي العلم ، فانكب على تحصيله ، فجال في المغرب ، وأخذ عن علمائه ، الذين لازم حلقاتهم واستفاد من دروسهم ، ومن أشهر مشايخه المغاربة الذين تتلمذ عليهم ، والمعروفين بالإسناد العالي :

والده محمد بن أبي بكر العياشي [٢] ، تلقى على يديه الكثير من العلوم والمعارف ، ودرس وحفظ القرآن الكريم عى يديه . [٣]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج ١ ، ص ٥، الطبعة الحجرية .

٢ ـ الشيخ الصوفي أبو عبدالله محمد بن أبى بكر العياشي ، كان خيراً ديناً ، أدرك جماعة من الشيوخ ، توفى عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م . أنظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

٣ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ٢ ـ ٤ .

العلامة عبدالقادر بن علي الفاسي [١] ، الذي أفاده كثيراً في الفقه ، والحديث ، والتفسير، والنحو ، والبيان ، والأصلين والتصوف . [٢]

الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الأبار [٣] ، أفاده في المختصر ، وفي شيء من صحيح البخاري ، وكتب له إجازة بخط يده . [٤]

محمد بن أحمد مياره [٥] .

والشيخ الرحالة أبو بكر بن يوسف السجتاني المراكشي . [٦]

---

١ ـ الشيخ الإمام أبو محمد عبدالقادر بن الفقيه الصوفي علي بن أبي المحاسن الفاسي ، ولد يوم الاثنين ثاني رمضان سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م ، تعلم القرآن الكريم والعربية على أبيه ، استوطن فاس وأخذ على علمائها ، ونبغ واشتهر، وتصدر لنشر العلم بها، وأخذ عليه علماء أعلام ذاع صيتهم بعد ذلك ، توفي بعد ظهر الأربعاء ثامن رمضان عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م . انظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٨١ ـ ١٨٤ .

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ٧ .

٣ ـ الخطيب أحمد ، المدعو حمدون بن محمد بن موسى اللبار الفاسي ، إشتغل أول أمره بالتجارة ، ثم اتجه إلى التعليم والتعلم ، كان إماماً في الفقه ، توفي ثالث وعشرين جمادي الأولى عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م . أنظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ض ١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ١٤٨، ترجمة رقم ٢٤٢ .

٤ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ٨ .

٥ ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد مياره الفاسي ، أخذ على علماء أجلاء ، وأخذ عنه الكثير ، له باع كبير في علم الأحكام والمطالعة والتقييد ، توفي يوم الثلاثاء ثالث جمادي الثانية عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م. أنظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٤٠؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، ترجمة رقم ٢٤٦ .

٦ ـ أبو بكر بن يوسف السجتاني ، يعرف في مراكش بالمغارتي المراكشي ، مكث بمصر سنين عديدة ، ودخل القدس ، وحج عدة مرات ، أخذ على علماء مشارقة ومغاربة ، كان عارفاً بفن القراءات ، توفي عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م . أنظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١١٢ ـ ١١٤؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ١٣٣، ترجمة رقم ٢٢٣ .

محمد بن ناصر الدرعي [١] ، الذي عرف عنه سعة علمه وثقافته الأدبية والدينية واستفاد منه في علم التفسير والنحو والحديث . [٢]

ومن العلماء المشارقة ، الذين صادفهم **الشيخ زين العابدين أبو الحسن علي الأجهوري** شيخ المالكية بمصر [٣] . استفاد منه ، وأجازه في ثلاثيات البخاري، وعشاريات ابن حجر، وثلاثيات إبن ماجه، ومسلسلات ابن الجزري . [٤]

الشيخ إبراهيم بن شمس الدين الميموني الذي حرص على لزوم مجلسه [٥] ، طوال فترة إقامته بمصر ، وأجازه بسائر مروياته في الحديث . [٦]

---

١ ـ أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن ناصر بن عمر، إشتهر بابن ناصر ثم الدرعي الأغلاني ، شارك في فنون العلم المختلفة ، مثل الفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث ، توفي عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م ، أنظر الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٧٣ ـ ١٧٧ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ١٩٦، ترجمة رقم ٢٩٩ .

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٠، ٢ .

٣ ـ على بن زين العابدين محمد بن أبي محمد زين الدين عبدالرحمن بن علي ، أبو الإرشاد نور الدين الأجهوري ، نسبة إلى أجهور الورد ، قرية بريف مصر ، المالكي شيخ المالكية ، برع في الفقه والعربية والأصلين والبلاغة والمنطق ، درس وصنف وألف ، عمر طويلاً ، ورحل الناس إليه للأخذ عنه ، توفي عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وكان مولده سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٣ ، ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .

٤ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١١ .

٥ ـ إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي ، الملقب برهان الدين الميموني ، البارع في علوم التفسير والعربية ، والعلوم العقلية والنقلية ، وعلم المعاني والبيان ، ألف وصنف الكثير ، ولد عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م . توفي عام ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر رمضان ، ونسبته الميموني للميمون بالصعيد . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج ١ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٦ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١١ ـ ١٢ .

شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي [١] ، وقد أجازه بجميع مروياته ومؤلفاته في الحديث والتفسير والشعر . [٢]

أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري [٣] ، كان قد التقى به في أول رحلاته ببسكرة [٤] ، ولم يأخذ عنه شيئاً، ثم لقيه في رحلته الثانية بمصر ، واستفاد منه كثيراً في الحديث ، ومنحه إجازة عنه [٥] ، ولقيه في رحلته الثالثة بالحجاز ، وأكثر من أخذ الحديث عنه، كما كتب له الإجازات بكل مروياته . [٦]

حرص العياشي على الأخذ عن علماء الحرمين : ومنهم ، **الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي المصري** [٧] ، الذي أخذ عنه شيئاً من الحديث ، وأجازه إجازة عامة . [٨]

---

١ ـ أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة، شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي ، ترجم لنفسه ، والخفاجي نسبة إلى ابيه خفاجي ، توفي يوم الثلاثاء لإثنتي عشرة خلت من شهر رمضان عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م ، انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج ١، ص ٣٣١ ـ ٣٤٣.

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٣ .

٣ ـ أبو مهدي عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن عامر أبو مكتوم المغربي الجعفري الثعالبي الهاشمي ، جاور المدينة المنورة ثم بمكة المكرمة ، أتقن فنون العلم المختلفة ، كان زاهداً ورعاً ، توفي يوم الأربعاء لست بقين من رجب سنة ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م . ودفن بالحجون . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

٤ ـ (بسكرة) بكسر الكاف ، بلد بالمغرب من نواحي الزاب. ذات نخل وزيتون ، كانت دار علم وفقه ، سكنها العلماء . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٢٢ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ، وهي من مدن الجزائر الآن .

٥ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٦ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٧ ـ ٤٢٢ .

٧ ـ محمد بن علاء الدين أبو عبدالله شمس الدين البابلي القاهري الأزهري الشافعي ، نزيل مكة المكرمة ، أحد أعلام الحديث والفقه ولد عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م وتوفي سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م . أو ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٤ ، ص ٣٩ ـ ٤٢ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ١٦٨، ترجمة رقم ٢٧٢ .

٨ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٧ .

الشيخ تاج الدين المكي الأنصاري المالكي [١] مفتي المالكية ، أخذ عليه وأجازه إجازة عامة . [٢]

الحسين الطبري [٣] ، شيخ الحرم المكي زين العابدين ابن الشيخ محي الدين عبدالقادر بن محمد الحسيني الطبري أخذ عنه الحديث ونال إجازة منه . [٤]

أبو الحسن علي بن عبدالقادر الحسيني الطبري [٥] ، شيخ الحجاز ، وإمام الحديث ، ومفتي الشافعية ومدرسها ، والخطيب والإمام بالمقام ، ونال منه إجازة أيضاً في الحديث . [٦]

---

١ ـ القاضي تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم بن تاج الدين بن محمد بن تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب ابن جمال الدين محمد بن يعقوب بن يحي بن يحي بن عبدالوهاب المالكي المدني ثم المكي ، يعرف بان يعقوب ، ولد وبمكة المكرمة نشأ بها ، أخذ على أكابر علماء عصره ، تصدر للتدريس بالمسجد الحرام، له عدة مؤلفات توفي بمكة المكرمة ثامن من شهر ربيع الأول عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٤٥٧ ـ ٤٦٤ .

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٧ .

٣ ـ زين العابدين بن عبدالقادر الطبري الحسيني المكي الشافعي ، إمام المقام الإبراهيمي . ولد بمكة المكرمة ليلة ثامن عشر ذي الحجة سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م . أخذ عن والده وأكابر علماء عصره بالحرمين وأجازوه ، له شعر لطيف ، توفي بمكة المكرمة يوم الأثنين ١٤ رمضان سنة ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٢ ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

٤ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٧ .

٥ ـ علي بن عبدالقادر الطبري الحسيني المكي الشافعي ، إمام المقام ، ولد ونشأ بمكة المكرمة ، تلقى العلم على يدي والده وأكابر علماء عصره ، أكب على التدريس والإفتاء وتصنيف الكتب منها الأرج المسكي والتاريخ المكي ، له شعر حسن ، توفى بمكة المكرمة عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٣ ، ص ١٦١ ـ ١٦٦ .

٦ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٨ .

الشيخ أبو الحسن علــي بن محمد الربيع الشيباني اليمني الزبيدي [١] .

إلتقاه العياشي في حجته الثانية [٢] ، ثم في الثالثة [٣]، مما يعنى أن ما أورده المحبي من خبر وفاته عام ١٠٦١هـ/١٦٥٠م [٤] ليس صحيحاً، فالعياشي صرح بأنه إلتقاه بالمسجد الحرام عشية يوم الأحد الموافــي عشريــن ذي الحجـة عـام ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م [٥] ، كما التقاه مرة أخرى في حجته الثالثة ، وختم على يديه القرآن الكريم بالمسجد النبوي في شهر صفر عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م واجازه في القراءات والحديث . [٦]

أبو سالم إبراهيم بن الشيخ عبدالرحمن بــن علــي بــن موســى بن خضـر الخيـاري الشافعــي المدنــــي [٧]، التقــى بـــه بالمدينة المنورة ومنحه إجازة عامة . [٨]

---

١ ـ السيد على بن محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن علوي الشبيه ابن عبدالله بن على بن عبدالله باعلوي الشهير بشيبان ، كان كثير التلاوة للقرآن الكريم ، صحب الكثير من الأعلام . توفي عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٣ ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ . والصحيح ما ورد في المتن في تاريخ وفاته . أنظر فيما بعد ، ص ٥٥٠ ـ ٥٥٢ .

٢ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٨ ـ ١٩ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

٤ ـ المحبي : خلاصة الأثر ، ج٣ ، ص ١٩٢ .

٥ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ١٩ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٩٨ .

٧ ـ الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن على بن موسى بن خضر الخياري المدني الشافعي المحدث الأديب والمؤرخ والشاعر ، تلقى العلم على أبيه وجمع غفير من علماء وشيوخ عصره ، ألف رحلة سماها تحفة الأدباء وسلوة الغرباء قام بها إلى الشـام والقسطنطينية والقاهرة ، ولد يوم الثلاثاء ثالث شهر شوال عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م وتوفي ليلة الأثنين ثاني رجب عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٢٥ ـ ٢٨ .

٨ ـ العياشي : إقتفاء الأثر ، ص ٢٠ .

تلاميذه :

وتتلمذ على يد العياشي الكثير نبغ منهم إبنه **حمزة بن عبدالله العياشي** [١] ، و**محمد بن عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي** [٢] ، و**أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي** [٣] ، و**الحريشي الفاسي** . [٤]

مؤلفاته :

ترك العياشي الكثير من المؤلفات التي لا تزال مخطوطة [٥] ومنها : « منظومة في البيوع وشرحها » ، « وتنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية » ، « وتأليف في معنى لو الشرطية » ، وكتاب « الحكم بالعدل والإنصاف الدافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الإختلاف » ، « واقتفاء الأثر وتحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء » ، ورحلته « ماء الموائد » [٦] ، « وإظهار المنة على المبشرين بالجنة » ، « والمدائح النبوية » [٧] . وغيرها من المؤلفات التي تدل على سعة علمه وتنوعه .

وفاته :

توفي العياشي ضحى يوم الجمعة ١٨ ذي القعدة عام ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م ، متأثراً بمرض الطاعون عن ٥٣ سنة وعدة أشهر . [٨]

---

١ ـ حمزة بن عبدالله العياشي ، اعتنى بزاوية أبيه بما تيسر له من الثروة والجاه ، فجمع الكتب التي لا توجد في غيرها ، توفي بالزاوية عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م . أنظر القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٧ .

٢ ـ أبوعبدالله محمد بن الحافظ أبي زيد عبدالرحمن بن عبدالقادر الفاسي ، تلقى العلم عن أبيه ، وعلماء عصره من المغرب والمشرق ، توفي خامس جمادى الثانية عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م . أنظر القادري : التقاط الدرر ، ص ٣٢٣ ، ترجمة رقم ٤٨٢ .

٣ ـ انظر ترجمته بالتفصيل فيما بعد ، ص ٧٧ ـ ٨٢ .

٤ ـ أبوالحسن على بن أحمد الحُريشي الفاسي ، تلقى العلم على عبدالقادر الفاسي وولديه ، له بعض مؤلفات ، توفي بالمدينة المنورة عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م بعد حجه . أنظر القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٣ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٧ ، هامش ٤ ـ ٥ ، ص ٥٨ ـ ٦٠ بهوامشها ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٦ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ١٩٢ .

٧ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٨٣٤ .

٨ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٨٣٣ .

(محمد بن علي الـرافعـــي)

١٠٤٠هـ /١٦٣٠م - كان حياً حتى عام ١١٢٥هـ/١٧١٣م

نسبه وولادته :

محـمـد بن على بن مـحـمـــد بن أحـمـد بن على الرافـعي [١] ، اللخـمي الأندلسي الأصل ، التطواني ، منشـأً وداراً ، أبو عبـدالله من فـقـهـاء تطوان [٢] وأدبائها . [٣]

ولد عـام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م ، ولا نعرف سنة وفاته على وجـه اليقين ، ولكنه كان حياً حتى عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م . [٤]

صفاته وأخلاقه :

لم نجـد ترجـمـة للرافـعي فـي المصـادر التى بين أيدينا ، لذا سنحـاول أن نستشف ما تمتع به من أخلاق وصفات من خلال ما سجله بقلمه في مدونة رحلته، عندما تحدث عن نفسه ، أو عن أمور أخرى .

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٣ .

٢ ـ (تطـوان) مدينة من مدن المغرب ، ومعنى تطـوان بالبربرية « تـط » وتعني العين « وويـن » كناية عن المخاطب . أنظر بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق٢ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٦ .

٣ ـ خـير الدين الزركلي : الاعـلام قـامـوس تراجم لأشـهـر الرجـال والنسـاء من العرب والمسـتـعـربين والمسـتـشـرقين ، ج٦ ، ص ٢٩٥ ، بيـروت ـ لبنان ، دار العلم للمـلايين ، ط٧ ، ١٩٨٦م ؛ د/ حسن الوركلي : رحلات تطوانية إلى البلد الأمين ، ص ٣٩ ، مجلة البلد الأمين ، دورية تصدر عن نادي مكة الثقافي الأدبي ، السنة ٢ ، العدد ٣ ، ذو الحجة ١٤١٦هـ/ مايو ١٩٩٦م .

٤ ـ عبدالسلام بن عبدالقادر ابن سودة المري : دليـل مـؤرخ المغـــرب الأقصـــى ، ج٢ ، ص ٣٦٥ ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ط٢ ، ١٩٦٠م .

فالرافعي أديب ، أحسن تصوير خلجات نفسه أصدق تصوير من لوم ومعاتبة ، وصبر على قضاء الله تعالى [١] ، وكل ذلك بأسلوب منثور جميل . كما كان يقرض الشعر [٢] ، ولكنه ليس بشاعر .

وكان الرافعي يظهر حبه لوطنه وحنينه الدائم إليه وإلى أهله ، فتثور أحاسيسه التي يعبر عنها بأبيات شعرية مثل :

تطوان ما أدراك ما تطوان ... سالت بها الأنهار والخلجان

قل إن لحاك مكابد في حبها ... هي جنةٌ فردوسها الكتمان [٣]

كما كان يثير وجدانه وتظهر فرحته وسروره كمسلم ، عندما يصل إلى أسماعه ويعلم أن بعض المدن المغربية قد عادت إلى أيدي المسلمين ، فيسارع بترجمة تلك الفرحة والسرور بأبيات شعرية، ويبادر بإرسال الكتب والرسائل بالبشارة . [٤]

وفي رحلته ظهر الرافعي دقيق الملاحظة والوصف حين وصف بناء الكعبة المشرفة ، والمسجدين المكي والمدني وصفاً تفصيلياً متتابعاً ، لم يهمل الجزئيات ، مع محاولته إبداء وجهة نظره [٥] . وسجل لنا الرافعي وصف كسوة الكعبة المشرفة التي استرعت انتباهه [٦] فحفظ لنا بذلك شكلها في تلك الفترة .

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٤٩ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٢ ـ ٤٥ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨٩ ـ ٩١ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩٥ .
٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٣ .
٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٠١ .

وفي أثناء تدوينه لرحلته أرخ لاسترداد مدينة المعمورة في ضحوة الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م . ‹١›

وكان الرافعي حريصاً على زيارة أشهر الأماكن والوقوف عليها ، وأجاد وصفها بشكل دقيق . ‹٢›

ويبدو الرافعي الأب الشفوق الشديد الخوف على ابنه الذي افترق عنه أثناء تبديل السفن في طريقه من الجزائر لمصر ‹٣› ، فقد خرج معه في رحلته للحج إبنان ، أحدهما يدعى أحمد وهو الذي افترق عنه ، والثاني يسمى محمد ‹٤› . فنراه يتنقل من مكان لآخر متحسساً لأخبار إبنه ، لاسيما في الأماكن التي كان يرجو فيها سماع خبر عنه ، وهو في كل حاله حسن الظن بالله تعالى ، وأنه سيعيده إليه سالماً . ‹٥›

وكانت شخصية الرافعي معتدلة ، فقد كان قليل الغضب لأنه وصل لسن خبر فيها أخلاق الناس ، حيث صادف من الناس من يبجله ويجله لعلمه ومكانته ، معترفاً بفضله ، ومنهم المستهزىء به وبشخصه ، على عادة الجهال الذين لا يعرفون أقدار العلماء ، فهو في هذه المواقف لا يثور لنفسه، بل يمضي في طريقه غير مكترث بهم ولا غاضب . ‹٦›

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٩٥ ـ ٩٧ ؛ أنظر أخبار إستردادها في القادري : نشر المثاني ، ج٢ ، ص ٣٠١ .

٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٤٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٩٧ .

حياته الاجتماعية :

عندما قدم الرافعي للحج ، كان يبلغ من العمر ٥٦ عاماً [١] ، وقد توفيت زوجته منذ سنين ، أنجب منها العديد من البنين والبنات منهم ولداه أحمد ومحمد صحباه في رحلته ، وكان وفياً لذكراها ويدعو لها بالمغفرة والرحمة [٢] . ولا نعرف غير هذا القدر عن حياته الاجتماعية .

رحلته :

ألف الرافعي رحلته التي سماها « المعارج المرقية في الرحلة المشرقية » [٣] ، عام ١٠٩٦هـ/١٦٥٨م [٤] ، فقد كان خروجه من تطوان يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى وفرغ من تأليفها في شهر رمضان عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٩م [٥] . وقد خالف الرافعي الرحالة المغاربة في سلوك طريق الحج البري إلى مصر ، حيث ركب البحر من الجزائر إلى مصر [٦] ، وعانى من القرصنة المنتشرة وقتئذ في البحر الأبيض المتوسط [٧] . فأضطر إلى فراق أحد ولديه أثناء تبديل السفن في أحد الموانىء بالبحر الأبيض المتوسط لكي توصلهم إلى مصر [٨] ، وقد عانى من فراق إبنه قلقاً كثيراً ، ورعباً ، وخوفاً عليه ، إلى أن عاد والتقى به مجدداً بعد فترة من الزمن . [٩]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٥٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٢ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، ١٣ .

٥ ـ ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ج٢ ، ص ٣٦٦ .

٦ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٤٧ .

٩ ـ المصدر السابق ، ص ٨٠ .

حياته العلمية :

تلقى الرافعي علمه بموطنه بالمغرب ، فأخذ عن علماء عصره ، وقد طلب أحد الطلبة منه بمصر أن يخبره بروايتين في القراءة ، سمع أنهما وصلتا إلى المغرب ، فرغب أن يتعلمهما ويتلقاهما من الرافعي ، فأخبره بهما . [١]

ويبدو حرصه على حضور كل حلقات العلم والدرس [٢] ، وتفتيشه الدقيق في خزائن الكتب الخاصة والعامة . [٣]

وكان متأدباً مع علماء عصره الذين أخذ عليهم ، فنعتهم بالأوصاف اللائقة بهم ، مادحاً لهم ، مكيلاً لهم الثناء العطر ، محلياً لهم بالأوصاف الجزيلة الكثيرة الدالة على فضلهم ومكانتهم العلمية .

وفي تسجيل الرافعي لرحلته يظهر التحقيق والتدقيق ، حيث كان لا يقنع بما يراه في البلاد التي مرّ بها ، بل حرص على التقصي والتحري الشديد بالسؤال عن أحوالها من أفواه أكابر القوم وعليته العارفين بشئونه [٤] . كما كان ينقل عن الرحالة السابقين عليه [٥] ، كعادة الرحالة المغاربة من الإستفادة من كتب سابقيهم .

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٨٥ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٦٦ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩١ .
٥ ـ المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ١٥٧ ، ٢١٩ ، على سبيل المثال .

مشائخه :

تكرر في رحلته ذكر عددٍ من مشائخه ، من أشهرهم **أحمد بن ناصر** [١] ، **وعلى بركة** [٢] الذي كانت صلة الرافعي به قوية [٣] ، إذ كان يرسل له الرسائل أثناء رحلته [٤] . **ومحمد بن قريش** . [٥]

القيمة العلمية لرحلة الرافعي :

تعتبر رحلة الرافعي من الرحلات الحجازية القيمة، لما حوته من معلومات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية ، ومعلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية وعلمية ، سواء بسرد أسماء علماء أفاضل ، إلتقى بهم وترجم لهم ، أو أسماء كتب علمية إطلع عليها .

فرحلة الرافعي تضمنت مادة غنية ، كتبت بأسلوب سلس واضح ، فهي من الرحلات التي لا يستغنى عنها عند التأريخ للحجاز في القرن الحادي عشر الهجري ، إذ لاشك أن الرافعي قد تمتع بحاسة لاقطة مكنته من إلتقاط كل ما شاهده وسمعه ، ومن ثَمَّ سجله بأوضح صورة ، معتمداً في ذلك على أسس كتابة الرحلات المغربية والتي منها ، التأريخ لبداية الخروج ، ووصف المناهل والمنازل ، وأحوال العباد ، وتسجيل الحوادث المستجدة في أوانها ، والترجمة للعلماء . وغير ذلك .

---

١ ـ أنظر ترجمته فيما بعد ، ص ٧٧ ـ ٨٢ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

٢ ـ الشيخ الصالح العالم أبوالحسن على بن محمد ، الملقب بركة الأندلسي التطاوني . أخذ العلم بفاس على علمائها، وتصدر للتدريس بتطوان ، توفي عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م . أنظر القادري : التقاط الدرر، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ، ترجمة ٤٥٥ .

٣ ـ حسن الوركلى : أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادى عشر الهجري ، ص ٢ ـ ٤ ، بحث القى في ندوة مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، المغرب ، بجامعة تطوان ، عام ١٩٩٤م .

٤ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ٩٨ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٩ . الفقيه القاضي أبوعبدالله محمد بن العلامة سيدى محمد بن قريش ، التطواني ، توفى عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م . أنظر القادري : التقاط الدرر ، ص ٤٤٢ ، ترجمة رقم ٥٧٤ : حسن الوركلي : أصداء [illegible]

مؤلفاته :

ترك من آثاره التي لا تزال مخطوطة إلى الآن رحلته « المعارج المرقية في الرحلة المشرقية » ، « وديوان شعر » ، « ومجموعة رسائل » ، و « كتاب في الأدعية » .[١]

وصف مخطوطة الرحلة :

مكتوبة على الآلة الكاتبة وتقع في (٢٨٩) صفحة .

---

١ ـ حسن الوركلي : رحلات تطوانية إلى البلد الأمين ، ص ٣٩ ، مجلة البلد الأمين ، السنة ٢ ، العدد ٣ ، ذو الحجة ١٤١٦هـ/ مايو ١٩٩٦م ؛ حسن الوركلي : أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري ، ص١ .

(أبو العباس أحمد بن عبدالقادر القادري)
١٠٥٠ ـ ١١٣٣هـ / ١٦٤٠ ـ ١٧٢٠م

نسبه وولادته :

أبو العباس أحمد بن عبدالقادر القادري الحسني [١] ، حُلي بأوصاف تدل على علو مكانته منها : « الفقيه الوجيه ، الأعز ، الخير ، الدِّين ، الحاج ، الأبر ، الأديب ، الناظم ، الناثر ، ذو الأخلاق والمآثر ، أبو الفضل وأبو العباس » [٢] ، ومنها « العلامة ، الشيخ الصالح ، النسابه الفهامة » . [٣]

عرف بيت القادري بالعلم والفقه ، فوالده عبدالقادر بن علي بن محمد القادري الحسني إشتهر بالعلم والفقه [٤] . وقد تعهد إبنه منذ ولادته عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م بالعلم والمعرفة . [٥]

حياته العلمية :

تلقى القادري علمه على يد جمع غفير من أكابر وأعلام علماء عصره من المغاربة أو المشارقة .

فمن المغاربة **الحسن اليوسي** [٦] ، **وعبدالقادر الفاسي** [٧] ، **وأحمد بن عبدالله ابن معن** . [٨]

---

١ ـ ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ج٢ ، ص ٣٦٨ .

٢ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٣ ـ محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ص ٣٣٣ ، ترجمة رقم ١٣٠٦ ، دار الفكر ، د. ت ، د. م .

٤ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٤٨ .

٥ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥١ ؛ مخلوف : شجرة النور الزكية ، ص ٣٣٣ .

٦ ـ انظر فيما بعد ، ص ٧٣ ـ ٧٦ .

٧ ـ انظر ترجمته ، ص ٥٥ ، هامش (١) .

٨ ـ أبوالعباس أحمد بن محمد أبي النصائح بن عبدالله بن معن الأندلسي الأصل ، توفي ثالث جمادي الثانية عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م . أنظر القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ١٨٢ ـ ١٩٢ .

ومـن المشارقـة علـي الأجهـوري [١] ، وعبدالباقـي الزرقانـي [٢] ومحمد الخرشـي [٣] وغيرهـم . [٤]

رحل القادري في بدء طلبه للعلم إلى الزاوية الدلائية ، ومكث بها فترة من الزمن ، أخذ فيها العلم على مشائخ هذه الزاوية ، وتأثر بهم ، حتى في طريقة نظمه للشعر ، تعلم منها فنون الفروسية والقتال وأتقنها . [٥]

فكانت هذه الزاوية بمثابة كلية عسكرية في المغرب الأقصى ، تعد العلماء والمجاهدين الماهرين في فنون القتال ، لمواجهة حملات الأسبان والبرتغاليين الصليبية المتكررة ، ولمواجهة القرصنة البحرية التي كانت سائدة آنذاك ضد مدن المغرب الساحلية .

حياته الإجتماعية :

تزوج القادري ثمانية من النساء ، لم يطلق أياً منهن ، بل كان كلما توفيت زوجة تزوج مكانها ، وقد خلف من الأولاد ثمانية عشر توفي منهم ستة عشر ولداً في حياته وولدين بعد مماته ، أما الإناث فخلف منهن نحو العشرة . [٦]

---

١ ـ سبق الترجمة له ، ص ٥٦ ، هامش (٣) .

٢ ـ أبومحمد عبدالباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني تفقه على علماء عصره ، وأجازوه له مؤلفات كثيرة منها « شرح على المختصر » ، ولد بمصر سنة ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م . وتوفي في رمضان سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م . أنظر مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، ترجمة رقم ١١٧٧ .

٣ ـ سبق الترجمة له ، ص ٦٠ ، هامش (٤) .

٤ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٥٠ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٢٣ .

٥ ـ القادري : نشر المثاني ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

٦ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

امتهـن القادري التجارة ، ثم ترك الإشتغـال بها بعـد حجـته الأولى عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م ، إذ غـيرت هذه الحجة مجرى حياته، لأنه بعد عودته من تلك الحجـة ترك كل مـا يتصل بالدنيا من أسـباب . واتجه بعزم للعبـادة ، من صـيام وقيام وتلاوة للقرآن الكريم ، والأذكـار ، إلى جانب الجهاد فـي سـبيل الله ، حـيث كـان أحـد المتطوعين للجـهـاد فـي سـائـر ثغـور المغـرب ، والمعروفين بالشجاعة والفروسية وإتقان الرمي وفنون القتال ، مبلياً في ذلك كله البلاء الحسن .

وقد لزم القادري زاوية شيخه محمد بن عبدالله بن معن ، حيث كان يكثر من مطالعة الكتب ، فعرف وشـهر بأنه من الأوليـاء الصالحين . وعندمـا عزم على الحج للمرة الثانية عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م ، كان بصحبته شيخه أبو العباس محمد بن عبدالله ، ولشدة تعلقه وحبه له ، ألف رحلة في حجته هذه أسماها (نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس) . [١]

وهـذه الرحـلة أظهـرت بوضـوح مـدى تعلـق القـادري بشـيخه أبـي العباس ، وامتثاله لأوامـره ، فمن شـدة حرصه على إطاعـة كـل ما يأمره به . يحكى أن الشيخ أبا العباس طلب من القـادري استدعـاء شخـص لـه ، فلما ذهب إلى منزله وجده قد رحل إلى مكناسـة [٢] ، فسافر خلـفه ليحضـره إليه بفاس . [٣]

---

١ ـ القادري : نشر المثاني ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٣ .

٢ ـ (مكناسة) مدينة مغربية ، عبارة عن مدينتين على ثنية بيضاء ، إختط إحداهما أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، والأخرى قديمة جعلها المولى إسماعيل عاصمة مملكته ومركزاً لدعم سياسته ، والمدينة عبارة عن قلعة وأسوار مزدوجة ، بها ممرات مع قصور ، حول باحات ورياض غناء وأروقة ومنتزهات ومخازن للمؤن والعدد ، وإصطبلات للخيل ، وحول الجميع ساحات الكدال لرعي القطعان الملكية واستعراض الجيش ، وصهريج ماء واسع . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٨١ ؛ بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

٣ ـ القادري : نشر المثاني ، جـ٣ ، ص ٢٥١ .

القيمة العلمية للرحلة :

اقتبس القادري طريقة شيوخ الزاوية الدلائية ، فكان أسلوبه في رحلته أسلوب الأديب الناظم ، الشاعر[١] ، ومن أمثلة شعره في مدح شيخه أبي العباس : [٢]

ومجـــدد للديــن بعــد ذهابـــه
عنــد انقــراض القرن أعنى الحـاد

كــم آيـــة وكرامـــة ظهـرت لنـــا
ولغيرنـــا مـــن فعلـــه المحتـــــاد

ما سألها فـي عصرنـا أحـــد ولا
عرفـــت لمجتهـــد مـــن الأفـــراد

سيد الأكابـــر والأفاضـــل حازهـــا
وشمائـــل الأبـــدال والأوتـــــاد

وفـي رحلته على صغرها يظهر ميله إلى التصـوف وتعلقـه به ، وتلك سمة القـوم في تلك الأيام . وأراد في تصنيفها رصد ما كـان يفعله شيخه أبوالعباس في حجه [٣] . ولكن أثناء ذلك أورد كثيراً من المعلومات الهامـة عن أحوال الحجاز في ختام القرن الحادي عشر ، كما أورد العديد من أسماء علماء تلك الفتـرة . وخاصـة من رافقـهم في رحلة الحج ذلك العـام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م كالحسن اليوسي . [٤]

---

١ ـ القادري : نشر المثاني ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٣ .
٢ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٤٢ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ١ .
٤ ـ انظر ترجمته ، ص ٤٨ ، هامش (١) .

ومن المعلومات التاريخية الهامة في رحلته تأريخه لسنة إسترداد مدينة العرائش عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م من الأسبان وكيفية ذلك [١] . بالإضافة إلى إثبات حج أحد أبناء المولى إسماعيل [٢] وسماه المعتصم [٣] في سنة حجه [٤] . وغيرها من المعلومات .

وقد بدأ رحلته بخطبة البداية ، والحث على أداء فريضة الحج كعادة الرحالة المغاربة في تقييدهم لرحلاتهم ، وكان قد تغيب عن فاس نحو ستة أشهر وإحدى عشر يوماً ، إذ كان خروجه من فاس يوم الجمعة الرابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م ، وعاد إليها يوم الجمعة السادس من شهر ذي القعدة عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م . [٥]

مؤلفاته :

١ ـ « رحلته : نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس » .

٢ ـ « نظم رجز فيمن هاجر إلى الحبشة من الصحابة » .

٣ ـ « نظم في المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . [٦]

وفاته :

توفي يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م . [٧]

وصف مخطوطة الرحلة :

توجد نسخة مصورة لها بمكتبة الملك فهد الوطنية تحت رقم ٢٥٦٦٧٢ ، وهي مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة احياناً ، وتقع في (١٣٤) صفحة .

---

١ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

٢ ـ السلطان اسماعيل بن الشريف الحسني ، أُسبغ عليه الثناء الجزيل لما حواه من الصفات الجميلة . قام بالعديد من الأعمال الجليلة ، واستعاد في عهده المدن المغربية التي كانت في يد الأسبان . توفي ثاني يوم من شهر جمادي الأولى عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م . أنظر القادري : التقاط الدرر ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٨ ، ترجمة رقم ٤٩٤ ؛ ابن زيدان : المنزع اللطيف ، فهو يشمل سيرته .

٣ ـ ذكر ابن زيدان أن إسمه عبدالحفيظ ولا يعرف السنة التى توجه فيها إلى الحجاز ، ولا يعرف أكثر من هذا ، وقد حج مع الحسن اليوسي : ابن زيدان : المنزع اللطيف ، ص ٨٢ ، ١٦٥ .

٤ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣ ، ٦ ، ٧٣ ـ ٧٤ .

٦ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٥١ .

٧ ـ المصدر السابق والجزء والصفحة ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٣ .

(أبو عبدالله محمد بن أبي علي اليوسي)
٠٠٠٠ ـ ١١٠٧هـ / ٠٠٠٠ ـ ١٦٩٥م

نسبه ومولده :

أبو عبدالله محمد بن أبي على الحسن بن مسعود اليوسي [١] ، نسبة إلى بني يوسي القبيلة البربرية الملوية ، أصل الكلمة اليوسفي نسبة إلى جدهم يوسف ، إلا أن أهل تلك النواحي يسقطون الفاء في لغتهم [٢] ، ولا تعرف سنة مولده حيث لم تذكرها المصادر التي بين أيدينا .

حياته العلمية :

تلقى محمد اليوسي تعليمه على يد والده الحسن ، وتبع طريقته [٣] ، فقد كان والده يعتمد عليه كثيراً في قضاء أموره [٤] ، ولم يصل إلى درجة والده في العلم ولكنه عُد من جملة الفقهاء الموصوفين بالصلاح والمشهورين بالخير، إذ وصف بأنه من الفضلاء النبهاء . [٥]

ولاشك أنه أخذ على علماء عصره ، وإن لم تذكر المصادر ذلك . فرحالتنا ذو حظ قليل في كتب التراجم ، ولكن ما ذكر كان كافياً برغم قلته لتوضيح وضعه ومكانته العلمية ، لأن كل من جاء على ذكره حلاه بالفقيه الوجيه ... المشهور بالخير والصلاح . [٦]

حياته الإجتماعية :

---

١ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٧٤ .

٢ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٠٦ .

٣ ـ القادري : نشر المثاني ، جـ٣ ، ص ٧٤ ، القادري : التقاط الدرر ، ص ٢٦٩ .

٤ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٥ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٧٤ .

٦ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٧٤ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٥ .

حياته الإجتماعية :

كان اليوسي شاعراً ، يقرض الشعر ، فمن ذلك قوله : [١]

أعذر أخاك إذا رأيت زناده	من دون ما ترضى فهن صلود
عقل العقول إذا تطن ذبابه	وعلى أخيك أساد وأسود

ورحلته تدل على شاعريته وأدبه وعلمه ، أظهرت اسمه وميّز به عن باقي أبناء الحسن .

ومع أن البعض يظن أن الرحلة ليست من تأليفه ، بل من تأليف والده الحسن حيث حجا سوياً ، إلا أن ذلك الظن ليس له ما يبرره [٢] . إذ أن نمط الرحلة لا يدل على أنها مجموعة ، بل تدل على انفراد مؤلفها بتدوينها ، وكتابة مادتها التي بنيت على معلومات شاهدها وسمعها وقرأها بنفسه، وكل ذلك دل على شخصية وتفرد كاتبها ، واتيانه على ذكر أبيه وما فعله في بعض المواقف أثناء حجهما يؤكد نسبتها اليه . فحال محمد اليوسي في تأليف رحلته كحال القادري في تأليفه لرحلته . فالقادري ألف رحلته لرصد تحركات وأفعال شيخه أبي العباس ، واليوسي ألف رحلته ورصد فيها أفعال وأقوال أبيه ، وهذا نمط في كتابة الرحلات المغربية لم نعهده سابقاً ، ولم يبرز من قبل في الرحلات المغربية السابقة .

ولم نجد في رحلته أثراً لأخذ اليوسي عن علماء المشرق ، مخالفاً عادة الرحالة المغاربة من حيث حرصهم على التلقي من علماء المشرق ، وقد أبدى الكتاني تعجبه من الحسن اليوسي والد المؤلف الذي لم يحفل بالتلقي على علماء المشرق في رحلته للحج عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م ، والتي صاحبه فيها إبنه محمد مؤلف الرحلة ، وعلل ذلك بقوله « ولعل اليوسي وولده ما عرفا إلا من أتى إليهما ،

---

١ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٧٤ .

٢ ـ ابن سوده : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ج٢ ، ص ٣٤٤ .

فلم يقصدا أحداً، لذلك عميت عنهما مقامات رجال ذلك الدور » [١] . وأضاف في موضع آخر « ولعله لم يجد من يملأ عينه هناك » [٢] ، وبرر بعضهم فعله هذا فقال : « إذ لم يجد ما كان الناس يتحدثون عنه ، حيث يضخمون ذكرياتهم عن علمائه » [٣] .

ولعل اليوسي كان معتزاً بنفسه وعلمه ، فكان لا يرى من يوازيه أو حتى يقارب علمه ، فكيف بوجود من هو أعلى مكانة منه، لذا لم يكلف نفسه عناء الأخذ والبحث عن علماء المشرق . ولعل ذلك إنعكس على إبنه محمد مؤلف الرحلة الذي نَهَجَ نَهجْ أبيه الذي قيل فيه « كان آخر العلماء ، بل خاتمة الفحول من الرجال » ، وقيل « هو المجدد على رأس هذه المائة ، لما اجتمع فيه من العلم والعمل ، بحيث صار إمام وقته ، وعابد زمانه ، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي فيه :

من فاته الحسن البصري يصحبه   فليصحب الحسن اليوسي يكفيه » [٤]

وقد أسهب كل من تناول شخصية اليوسي وحياته الحديث عنه ، وقيل أن هناك عوامل أثرت في طبعه وتكوين شخصيته [٥] . ولعل هذا كله ورثه عنه إبنه مؤلف الرحلة وأثر فيه . فالحسن اليوسي كان من العلماء القلائل والمتصدرين لوعظ ونصح سلطان المغرب إسماعيل . [٦]

مؤلفاته :

لا يعرف له مؤلف إلا رحلته الحجازية التي قام بها بصحبة والده الحسن عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م . [٧]

---

١ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ١١٥٦ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١١٥٧ .

٣ ـ الجراري : عبقرية اليوسي ، ص ٤٢ .

٤ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

٥ ـ عباس الجراري : عبقرية اليوسي ، ص ٤٧ ـ ٤٩ .

٦ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٣١ ـ ٣٨ .

٧ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٦٩/ب .

القيمة العلمية للرحلة :

رحلة اليوسي من الرحلات الحجازية المهمة والتي زخرت بالعديد من المعلومات عن الحجاز في نهاية القرن الحادي عشر الهجري، من كافة النواحي ، وإن أغفل الناحية العلمية ، ولكنه سار على ما سار عليه غيره من الرحالة المغاربة من نمط رصدهم وتأريخهم لرحلاتهم ، من حيث البدء في التأريخ لبداية الرحلة ونهايتها ، وعند الوصول إلى كل منزلٍ ، كما شملت رحلته الإشارة إلى الناحية الاقتصادية في الحجاز وسائر المناطق التي مر عليها .

ومما يؤخذ عليه نقده اللاذع الذي لم يسلم منه شيء ، إضافة إلى إغفاله ذكر العلماء الأعلام الذين التقى بهم أثناء رحلته ، كالقادري وشيخه أبي العباس ، بالرغم من أن القادري سجل اللقاء به وبوالده مع شيخه في طرابلس الغرب . [١]

والرحلة مع هفواتها تعد حلقة أخرى من حلقات الرحلات المغربية التي أرخت للحجاز ، وما أورده اليوسي من آراء وما أصدره من أحكام إنما يرجع إلى رأيه الشخصي . وفيما عدا ذلك فقد كتب رحلته بأسلوب سهل سلس لا يخلو من السجع ، ولا يخلو من العناية برصد النواحي الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والعمرانية وغيرها من النواحي التي لابد من مقارنتها للخروج بالنتائج الصحيحة .

وفاته :

توفي محمد اليوسي سابع وعشرين من رجب عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م . [٢]

وصف مخطوطة الرحلة :

موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (١٤١٨) . وهي مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة في اماكن عديدة . وتقع في (١٠٥) ورقة . وبمعدل (٢٥) إلى (٢٦) سطر في الصفحة .

---

١ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٤٤ .

٢ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٢٦٩ ، ترجمة رقم ٤٠٥ .

(أبو العباس أحمد بن أبي عبدالله بن ناصر الدرعي)
١٠٥٧هـ/١٦٤٧م - ١١٢٨هـ/١٧١٥م

نسبه وولادته :

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد الحسين ابن ناصر بن عمر الدرعي الأغلاني [١] ، ولد منتصف ليلة الخميس الثامن عشر من رمضان عام ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م . [٢]

صفاته وحياته الاجتماعية :

كِيلَ الثناء والمديح للدرعي من قِبَل كل من تناول ذكره ، فمما قيل فيه ، الشيخ الصالح الناصح [٣] ، والعالم الشهير ، والولى الصالح ، النحوي ، اللغوي ، المؤرخ [٤] ، الإمام الكبير [٥] ، العمدة الكامل ، العامل ، القدوة ، الفاضل ، صاحب الكرامات الكثيرة والمناقب الشهيرة [٦] ، والعارف السني ، الحجة المحدث [٧] ، والإمام الأوحد . [٨]

وما قيل في حقه ، إنما يدل دلالة واضحة على عظم مكانته وارتفاع شأنه الإجتماعي ، وعلو قدره العلمي .

---

١ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ، ترجمة رقم ٢٥٤ .

٢ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ .

٣ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ .

٤ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٣١٣ .

٥ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ .

٦ ـ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٢ ، ترجمة رقم ١٣٠١ .

٧ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٧ .

٨ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ، ترجمة رقم ٢٥٤ .

ومما قيل فيه : كان الدرعي « إمام وقته علماً وعملاً ، قوالاً بالحق ، شديد الشكيمة على أهل البدع ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، متعاوناً ، مقبلاً على ما يعنيه ، متبعاً للسنة في أقواله وأفعاله ، حريصاً على إحياء السنن واجتناب البدع » . [١]

تزوج زوجتين [٢] ، ولكنه توفي ولم يترك عقباً بعده [٣] . وكان رأس أسرته المكونة من إخوته وأبنائهم والذين كانوا فيما يبدو منقادين له [٤] ، إضافة إلى أن الدرعي نِعَمَ ببحبوحة من العيش ، دل عليها كثرة ما أنفقه في رحلته الأخيرة [٥] ، وشراؤه نوادر الكتب الغالية الثمن . [٦]

حياته العلمية :

عرف عن الدرعي بأنه من العلماء الموسوعيين ، فهو « النحوي واللغوي والمؤرخ الذي يقيد الشوارد ويحفظ الفوائد » . [٧]

أقبل الدرعي على العلم منذ نعومة أظفاره ، فختم صحيح البخاري في السابعة من عمره [٨] ، وانصرف لمطالعة الكتب ولا سيما كتب الحديث .

---

١ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ .

٢ ـ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٩ ، الطبعة الحجرية ،

٣ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٨ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٩ .

٥ ـ المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٨٩ ، ج٢ ، ص ٨ ، ١٠٦ على سبيل المثال .

٦ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ،ص ٣٥٧ .

٧ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٣١٣ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ .

٨ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ .

ويحكى أنه قسم وقته لمختلف أنواع الطاعات ، من تلاوة ومطالعة ، وتقييد ونوافل ، علاوة على حفظه للسانه ، مستعملاً الجد في جميع أموره . وكان له اعتناء خاص بشراء الكتب واقتناء النادر منها مهما ارتفع ثمنه ، فهو الذي أثرى زاويته بنوادر الكتب التي سعى لجلبها ، من المغرب ومما أحضره معه من المشرق . [١]

وقد أخذ الدرعي العلم عن جمع غفير من علماء وقته فأخذ فنون القراءة وعلم الرسم وعلم التوقيت والفرائض [٢] ، وكان أول من تتلمذ على يدي والده **الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي** ، حيث تلقى عنه التفسير والحديث والعربية وأصول الدين وغير ذلك . وما تلقاه عن أبيه لاشك أنه أهلّه لأن يكُون الخليفة بعده في علمه ومكانته . [٣] ومن أهم شيوخه أيضاً **أبو سالم العياشي** ، الذي سمع منه وأجازه . [٤]

---

١ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٧ ـ ٦٧٩ .

٢ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٩ .

٣ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٩ .

٤ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢١ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٢ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٩ .

وعلى العموم فشيوخه كثيرون ، وكذلك تلاميذه ، وكعادة أتباع شيوخ الصوفيه بالغوا في تكريمه وكانوا ينسبون إليه الكرامات والخوارق [١] ، حتى قيل إن بعض طلبته كان من الجن [٢] ، وقد هرع الناس لأخذ العلم عنه وضربت له أكباد الإبل وتزاحمت على بابه الركبان ، ولما وصل إلى المدينة المنورة في رحلته للحج تصدر للتدريس بالمسجد النبوي[٣] ، وأسند إليه قراءة القرآن الكريم والحديث [٤] ، وبادر شعراؤها بمدحه . [٥]

وقد اعتذر الدرعي في رحلته الرابعة للمشرق لأداء فريضة الحج عن تقصيره في تتبع العلماء ، مرجعاً ذلك إلى كبر سنه وقلة قوته وضعف بدنه وهمته . [٦]

مؤلفاته :

ترك الدرعي العديد من المؤلفات نذكر منها أشهرها :

١ ـ كتاب الأجوبة .

٢ ـ تأليف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يقرب من كتاب دلائل الخيرات . [٧]

٣ ـ رحلته الحجازية التي تهمنا في هذا البحث .

---

١ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٤ .

٢ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢٢ ، وهذه من ضمن المبالغات التي نسبت إليه .

٣ ـ المصدر السابق والصفحة .

٤ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ .

٥ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥٨ .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦ .

٧ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٣١٣ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٣٢ ، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار لأبي عبدالله محمد بن سليمان ابن أبي بكر الجزولي المتوفي عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م . انظر عبدالله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، ج١ ، ص ٧٥٩ ـ ٧٦٠ ، بيروت ـ لبنان ، دار العلوم الحديثة ، د. ت .

القيمة العلمية للرحلة :

قام الدرعي برحلته الرابعة هذه إلى الحجاز ١١٢١هـ/١٧٠٩م فمزج فيها ما رآه في رحلاته السابقة عند حديثه عن المدن والحوادث ، تلك التي قام بها ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م مع والده ، والتى قام بها عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م ، والتى قام بها سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٧م [١] ، فضمت أخبار رحلته فوائد علمية كثيرة ، ولخص فيها كثيراً مما ورد في رحلة العياشي .

وكان مصاحباً لأحمد بن محمد الهشتوكي [٢] في حجته عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م . الأمر الذي لم يلحظه الأستاذ حمد الجاسر ، حين عرض رحلة الهشتوكي [٣] ، ورحلة الدرعي في مجلة العرب [٤] . لذا رأينا من واجبنا التنويه عن ذلك ، لاسيما وأن الأستاذ حمد ذكر أن كاتب الرحلة كان مرافقاً لشيخ لم يذكر عنه شيئاً . [٥]

ويمكن الاستفادة من الرحلة من جوانب متعددة ، إذ وجد بها الكثير من المعلومات التاريخية القديمة ، وتلك الأحداث التي عاصرها كضرب الأسبان وحصارهم لطرابلس الغرب عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م [٦] . وهناك فوائد علمية أخرى

---

١ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٥٨ .

٢ ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف المعروف احوزي الجزولي نسباً الهشتوكي شهرة ، قام برحلتين إلى الحجاز الأولى عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م والف فيها رحلته التي سماها هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام . أنظر ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب ، ج٢ ، ص ٣٧٠ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤ ، ١٧ ، ٦٧ ـ ٦٨ .

٤ ـ حمد الجاسر : في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج ، ص ٤٨ ـ ٦١ ، مجلة العرب ، ج١ ـ ٢ ، س ١٣ رجب وشعبان ١٣٩٨هـ ـ تموز / آب يوليو/ أغسطس ١٩٧٨م .

٥ ـ حمد الجاسر : في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج ، ص ٤١٩ ـ ٤٧٢، مجلة العرب، ج ٥ ـ ٦ ، س ١٢ ذو القعدة والحجة ١٣٩٧ ـ تشرين ٢ : (نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٧م) .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص٦٥ .

يمكن استقاؤها كالتراجم لمشاهير العلماء ، واستخراج القصائد الشعرية التي أبدعتها قريحة شعراء تلك الفترة ، علاوة على استنباط الأحكام الفقهية لمسائل مستحدثة وآراء الفقهاء حولها كمسألة شرب الدخان [١] والقهوة وبداية تاريخ خروج البن من اليمن وانتشاره وما وصل إليه من ثمن [٢] ، إضافة إلى المعلومات الجغرافية والعمرانية والإجتماعية وغيرها .

لذلك حوت رحلة الدرعي حوت معلومات غزيرة يعود تاريخها إلى الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري ، كما انتهج الأسلوب القصصي في رحلته المحتوية على الإثارة والتفخيم والمبالغة أحياناً [٣] . وهو فن برع فيه الرحالة المغاربة خاصة. ومن رحلة الدرعي أيضاً عرفنا أن مواكب الحج كانت عبارة عن مدارس متنقلة بعلمائها ومكتبتها وكان لهم الأثر الكبير على المناطق التي مروا بها ومن ذلك ترك الكتب في الأماكن التي تحتاج إليها . [٤]

وفاته :

توفي الدرعي في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ١١٢٨هـ/١٧١٥م [٥] وقيل ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م . [٦]

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٧ .

٣ ـ المصدر السابق ، ج١ ،ص ٤٤ .

٤ ـ المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٢ .

٥ ـ الأفراني : صفوة من انتشر ، ص ٢٢٣ .

٦ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٣ ، ص ٢٣٥ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ٣١٢ ؛ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٢ ، ص ٣٦٠ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ٦٧٧ .

(عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي)
كان حياً عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م

نسبه :

عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي . [١]

ضنت المصادر المغربية التي في متناول أيدينا عن كشف النقاب عن شخصية الغنامي ، وربما يكشف في القريب عنه ، لذا سنحاول أن نستشف شخصية هذا الرحالة المغربي من الأثر الوحيد الذي بين أيدينا ، وهي رحلته التي سماها « رحلة القاصدين ورغبة الزائرين » ، والتي ألفها عندما قصد الحج عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م [٢] . وهي رحلة قصيرة موجزة ، تناول خلالها ما صادفه ، من حيث الحديث عن منازل الحاج ، والملفت للنظر أنه خص بعض حديثه عن النشاط العلمي المصاحب للوفد المغربي . [٣]

وبالرغم من صغر رحلة الغنامي ، فهي رحلة غنية بالمعلومات ، ويبدأ على غير عادة الرحالة المغاربة من حيث البدء بالتسجيل من لحظة عزمهم على الحج ، فنجد الغنامي بدأ بالتسجيل من رابغ [٤] ، ولذلك لم يبيّن مبدأ رحلته ، وما هي المراحل التي قطعها إلى أن وصل رابغ .

وصف مخطوطة الرحلة :

موجودة بالمكتبة الملكية بالرباط ، تحت رقم (١٤٢٨) ، مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة في أماكن عدة لوجود طمس بها. وتقع في (٢٤) ورقة. وبأخرها بتر .

---

١ ـ عبدالرحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي : رحلة القاصدين ورغبة الزائرين ، ص ١ ، مخطوطة بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم ١٤٢٨ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٦ ، ٨ .

٤ ـ (رابغ) بلدة حجازية ساحلية بين جُدة وينبع على ١٥٥كم من جُدة شمالاً و ١٩٥كم من ينبع جنوباً وهي ميناء صالح لرسو السفن ، بها إمارة تابعة لمكة المكرمة وإدارة تعليم ، وهي آخذة في التقدم والعمران ، بالإضافة إلي أنها بلد زراعي ، ورابغ وادٍ يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص ٥ ـ ٦ .

القيمة العلمية للرحلة :

رحلة حجازية ذات مستوى أدبي جيد ، سجل فيها بعض نصوص شعرية ، منها ما أنشده عندما شاهد الكعبة المشرفة ، مسجلاً شوقه وانفعاله :

ياكعبة الحسن كم عاشق قتلا	شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا
قد يتّمت بعده الأولاد حين سرى	وصار يبكي بدمع فاض منهملا
فكم غريق في بحار هواك غدا	وآخر ضل في البيداء منجدلا
وأنتم معشر الزوار قربكم	إلى مقام به المنّ لمن دخلا
فلا تخافوا فأنتم في ضيافته	فهو الكريم الذي بالجود ما بخلا

كما سجل انفعاله عندما توجه إلى عرفات [١] ، وأظهر سروره عندما وصل إلى المدينة المنورة [٢] ، واستشهد بالأحاديث النبوية عند ذكره الحج وأدلى بخلفيته الفقهية عندما تحدث عن المناسك ، علاوة على سرده لبعض النواحي التاريخية القديمة مثل حديثه عن الكعبة [٣] . ونلحظ من بين سطور الرحلة شغفه في البحث عن الكتب التي ينصح بدراستها . [٤]

والرحلة برغم ايجازها مثلت صنفاً من الرحلات الحجازية ، التي احتفظت لنا بمعلومات عن حال النشاط العلمي في تلك الفترة .

ولنا أن نذكر أن الرحالة الغنامي لم يحظ إلا بالقليل من الترجمة والذكر في بعض المراجع المغربية الحديثة . [٥]

---

١ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ١ ، ٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١ ـ ٣ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٧ .

٥ ـ بن سودة : دليل مؤرخ المغرب ، ج٢ ، ص ٣٤٣ ؛ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ، ج١ ، ص ١٨٩ الرباط ، ط ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

(محمد بن أحمد الحضـــيكي)
١١١٨هـ/١٧٠٦م ـ ١١٨٩هـ/١٧٧٥م

نسبه وولادته :

محـمـد بن أحـمـد بن عبـدالله بن مـحـمــد الجـزولي قـبـيـلاً ، اللكوســي اليوسي الحضيكي شـهرة ، التارسـواطي المنوزي الشـاذلي طريقة [١] . ولد عام ١١١٨هـ/١٧٠٦م . [٢]

صفاته وحياته الاجتماعية :

الحضيكي رحـالة جال المغرب والمشرق ، وكاتب مَنْ لَمْ يَلْقَ من العلمـاء ، فـأصبح مـدار الإسـناد ، ووصـف بأنه « عـديم النظير في زمـانه ورعـاً ، ونزاهة ، وعلماً ، ونبـاهة ، له اليد الطولى في علم السير والحديث ، وإليه المفزع في ذلك ، وانفرد عن أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء وطبقاتهـم ومعرفة أيامهـم ، بحيـث لا يجارى في ذلك ولا يبارى ، شـديد الإتبـاع للسنة في سائر أحواله في لباسـه وأكله ، وفي أنواع العبـادات والعـادات ، مثـابراً على التـعليم ، مكباً على المطالعة ، قائمـاً على البـخاري وغيره من كتب الحديث ... آية من آيات الله في حفظ السيـر النبـوية والتنقيب على أحـوال الصـحابة والسلف الصـالح ، يوشح مـجلسـه بذلك » [٣] ، كـان مـجلسـه يعج بطلبـة العلم ، الذين بـادر بعضـهم بالتـأليف في مناقبـه ومـآثره الشيء الكثيـر الدال على علو مكانته وذيوع شـهرته ومحبتهم له .

---

١ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٨١ ؛ عباس الجراري : مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية ، ج٢ ، ص ٣٧٥ ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الندوة العالمية الأولي لدراسات تاريخ الجزيرة العربية من ٥ ـ ١٠ جمادي الأولي ١٣٩٧هـ/ ٢٣ ـ ٢٨ إبريل ١٩٧٧م ، مطبوعات جامعة الرياض ، ط ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٢ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٨٥ .

٣ ـ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج١ ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

ومما قيل في الحضيكي ، بأنه « الفقيه ذو الأسرار والكرامات والمواهب والبركات » [١] . وفي وصفه أيضاً ذكر أنه كان « متبعاً للسنة ، أخذ في كل فن من فنون العلم بنصيب ، وضرب له فيها بسهم مصيب ، عارفاً بالسير والحديث وعلوم الحقائق والمعارف ، جمع بين شرفي العلم والولاية ، معرضاً عن الدنيا ، وكان متجرداً من الأسباب لا يعرف كيف يدخل فيها ومع ذلك يطعم الواردين في داره ، شديد الشكيمة على أهل البدع ، متبحراً محصلاً بلغ الدرجة العليا في علم اللغة ، عارفاً بالتاريخ » . [٢]

حياته العلمية :

أخذ الحضيكي العلم على جل علماء عصره في المشرق والمغرب ، فقد حفظ القرآن الكريم ، ونبغ في الفقه والحديث والتفسير وعلم القراءات [٣] . علاوة على إشتغاله بالطب . [٤]

مؤلفاته :

خلف الحضيكي العديد من المؤلفات القيمة الدالة على سعة علمه وتنوعه فمنها في الفقه والتصوف واللغة والطب ورحلته التي نحن بصددها . [٥]

القيمة العلمية للرحلة :

اختار الحضيكي عنواناً لرحلته (رحلة إلى الحرمين الشريفين) تلك الرحلة التي قام بها عام ١١٤٢هـ/١٧٢٩م لأداء فريضة الحج ، وجعلها شاهداً على ما فعله ، ومَنْ لقيه ، وحدّد مقصوده من تأليفها بقوله : أنه أراد بها « ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر ، رجاء من الله تعالى عظيم البركة ، وشمول الرحمة عند ذكرهم والإنخراط في سلكهم ، لوفور محبتي لهم ، ولعظيم شوقي لذكرهم » . [١]

١ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٨٥ .
٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٨٤ .
٣ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٨٢ ـ ٨٥ .
٤ ـ عباس الجراري : مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية ، ج٢، ص ٣٧٧ .
٥ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٨٤ ؛ الكتاني : فهرس الفهارس ، ج١ ، ص ٣٥٢ ؛ عباس الجراري : مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية ، ج٢، ص ٣٧٧ .
٦ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين الشريفين ، ص ١ .

وقد التزم الحضيكي بما حدده لنفسه ، حيث استهل رحلته على غير عادة الرحالة المغاربة بأن سرد فهرسة مشيخته ، ومن ثم بدأ في رحلته وتقييدها .

والمتصفح لرحلة الحضيكي لابد وأن يلاحظ تشوقه لزيارة الحرمين الشريفين ولأداء فريضة الحج ، وحرصه على لقاء العلماء على عادة طلبة العلم في مسارعتهم للقاء العلماء وإرتياد مجالسهم للدراسة على أيديهم وأخذ الإجازات العلمية . كما لا يخفى على المتصفح للرحلة عناية الحضيكي الفائقة في إعطاء المعلومات الجغرافية والتاريخية والإقتصادية والإجتماعية ، لاسيما فيما يختص بأحوال الحجاز . إضافة إلى الموضوعات الفقهية مثل توضيحه لمناسك الحج .

وعموماً فرحلة الحضيكي مكتوبة بأسلوب سهل سلس ، يلجأ إلى السجع في بعض الأحيان ، وهو في كل كتاباته يوجه الخطاب لقاريء الرحلة بصيغ عدة مثل أخي ، أعلم ، إياك ، ولك ...

كما شُحنت بالأبيات والقصائد الشعرية كعادة الرحالة المغاربة ، ولهذا كله نجد أن رحلة الحضيكي ذات قيمة علمية كبيرة ، سواء من الناحية الأدبية أو الجغرافية أو الاجتماعية أو التاريخية أو العلمية أو السياسية أو الاقتصادية ، فكل متخصص في هذه المجالات يجد بعض ما يهمه عند تصفحها .

وصف مخطوطة الرحلة :

موجودة بالخزانة العامة بالرباط . تحت رقم (٨٩٦) مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة ، كما يوجد بها طمس في أماكن عدة وتقع في (٤٩) ورقة بمعدل (٣١) سطر في الصفحة .

وفاته :

توفي عشاء السبت التاسع عشر من رجب عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . [٢]

---

١ ـ السملالي : الاعلام بمن حل مراكش ، ج٦ ، ص ٨٥ .

(أبو مدين عبدالله بن الصغير الدرعي)
٠٠٠٠/١١٥٧هـ ـ ٠٠٠٠/١٧٤٤هـ

نسبه وولادته :

أبو مدين عبدالله بن أحمد بن الصغير الدرعي [١] السوسي [٢] الروداني الأصل [٣] . لا يعرف سنة مولده ، فقد أغفلت المصادر المغربية الحديث عنه ، وكل ما نعرفه عنه هو ما استطعنا الخروج به من رحلته التي دونها عند قيامه بها عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م .

صفاته وحياته العلمية :

دلت نصوص رحلته على عالم جليل القدر ، إذ وصف في بعض الإجازات التي نالها بمكة المكرمة « بالشيخ الفاضل ، المحدث الكامل » [٤] ، وفي إجازة أخرى وصف « من هو بالعلم موصوف والكمال معروف » [٥] . ولم تخرج هذه الصفات عن أبي مدين ، ففي ما دونه يدلنا على المحدث ، الفقيه ، وطالب العلم الذي يسعى إليه بكل جهده ، والباحث عن الكتب العلمية التي يملأ فراغ وقته بمطالعتها والاشتغال بها . وشخص بهذه الصفات لاشك أنه إنما وصل إلى هذه المرتبة من العلم بأخذه على علماء عصره سواء في موطنه أو عندما وصل إلى الحجاز .

---

١ ـ أبومدين عبدالله بن أحمد بن الصغير الدرعي : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠ ، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، رقم ق ٤٩٧ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٢ ؛ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ، ج١ ، ص ١٨٩ .

٣ ـ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ، ج١ ، ص ١٨٩ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٢ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

حياته الاجتماعية :

لا نعرف الشيء الكثير عنه ، إلا ما أشار إليه في رحلته ، ومنها : أنه كان يتعاطى مهنة التجارة [١] ، وقد حج مع أخيه وكان رفيقه في سنة مجاورته [٢] . ويظهر أن أبا مدين من أهل سوس ، إذ كان قلقاً على تأخر الركب السوسي من أن يكون أصابه سوء ، علاوة على تشوقه لمعرفة أخبار موطنه وأهله من هذا الركب . [٣]

القيمة العلمية للرحلة :

سجل أبو مدين أحداث ووقائع رحلته التي قام بها عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م، فحج في تلك السنة ، وجاور السنة التالية ، وحج فيها أيضاً ، لذا فسفره للحج للحجاز كان مرة واحدة [٤] ، وفيها ألف رحلته التى دمج فيها مقتطفات من رحلتي العياشي والدرعي وسار فيها على ما سار عليه العياشي والدرعي في طريقة التسجيل ، ويختلف أبو مدين عنهما بأن قسم رحلته إلى مقدمة وثلاثة أبواب ، وقسم الباب الأول إلى ثلاثة فصول ، وقسم الباب الثاني إلى أربعة فصول ، والباب الثالث إلى ثلاثة فصول . [٥]

وقد اشتملت رحلة أبي مدين على وصف البلدان التي مرَّ عليها ، ومشاهد الحرمين الشريفين ، والترجمة لمن التقى بهم من العلماء ، حيث وصف المسجد النبوي وصفاً متقناً ، ونقل عن كتب كثيرة وأرخ لكل منزل وصل إليه ، وقام بمناقشة بعض المسائل الفقهية وإن كان في بعض الأحيان لم يكن محدداً لمصدر معلوماته ، وعرف بالمواقع التي وصلها في وقته ، وهو في كل ذلك لا يخلو

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

٤ ـ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ، ج١ ، ص ١٩٠ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

أسلوبه وطريقة صياغته من الطريقة الأدبية التي تمتاز بالشعر والنثر . علاوة على أنه أَلْحَقَ نصوص إجازاته في رحلته بخط أصحابها .

ورحلته من الرحلات الحجازية المفيدة ، إذ ترقى لدرجة رحلة العياشي والدرعي ، حيث يجد بها الباحثون بعض ما يصبون إلى معرفته من أحوال مجتمع القرن الثاني عشر الهجري .

وفاته :

توفي أبو مدين بعد صلاة المغرب من ليلة الخميس الثالث عشر من جمادي الأولى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م شهيداً بالطاعون . [١]

وصف مخطوطة الرحلة :

موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ق ٤٩٧) مكتوبة بخط مغربي صعب القراءة ، وتحتوى على (٣٩٩) صفحة ، وتحتوى اسطر الصفحات على (٢٣) سطر غالباً في الصفحة .

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٨٠ .

(عبدالمجيد بن علي الزبادي المنالي)
٠٠٠٠ ـ ١١٦٣هـ / ٠٠٠٠ ـ ١٧٥٠م

نسبه ومولده :

عبدالمجيد بن علي بن محمد المؤذن ، الملقب بالزبادي ، ابن علي الصوفي ابن أحمد بن محمد المؤذن ابن علي بن محمد بن إدريس بن قاسم بن محمد المنالي ابن الحسين بن هاشم بن عبدالسلام ابن المهدي بن الحسين بن عبدالرحيم ابن عبدالعزيز بن هارون بن حيشون بن علوش بن منديل بن علي بن عبدالرحمن ابن عيسى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس بن إدريس ابن عبدالله الكامل ابن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ [١] ، الشريف الحسيني الإدريسي الفاسي . [٢]

فهذا النسب أورده صاحب الرحلة في رحلته ، كما ناقش بعض ألقاب عائلته التي تلقبت بها في فترات من الزمن فمن ألقابهم « الحسيني » ، و « الشريف المنالي » ، أو « الشريف الحسيني المنالي » وهو اللقب الأغلب عليهم . وقال : إن سبب تسميتهم « بالمنالي » نسبة إلى قرية من داخل السوس ، ويعرفون أيضاً « بالصوفي » بسبب أن أحد أفراد أسرته ويدعي محمد بن أحمد كان من خواص أصحاب محمد بن عبدالله بن معن [٣] ، صاحب زاوية المخفية فتواجد يوماً بحضرة هذا الشيخ فقال الشيخ: تبارك الله شريف صوفي ، فصارت لقباً له ولكافة أسرته .

ومن ألقابه أيضاً لقب « الدباغ » وهذه نسبة إلى حرفة امتهنها أحد أجداده ، ومن ألقابه كذلك لقب « المؤذن » ، حيث أن أحد أجداده وهو محمد بن

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٢ ـ ٣ .
٢ ـ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٥٣ .
٣ ـ سبق الترجمة له ، ص ٦٨ ، هامش (٧) .

محمد بن أحمد بن محمد بن علي كان مؤذناً في جامع القرويين ، وخلفه في ذلك جده محمد بن علي ، وخلفه عمه إدريس ، وخلفه أخوه محمد . وذكر المنالي أن أجداده كانوا يمارسون مهنة الآذان بجامع القرويين قبل ولاية السعديين . وأضاف أن لقب «الزبادي» الذي أطلق عليه وعلى أفراد أسرته من قبله لا يعرف له أصلٌ ، ولا يعرف لماذا لُقبوا به ، ولكن العامة من الناس تداولوا هذا اللقب وسموهم به . [١]

وذكر الزبادي أنهم من شرفاء الصحراء ، إذ كانوا أولاً يقطنون السوس الأقصى ثم رحلوا إلى سلا [٢] ، ثم منها إلى فاس ، وقال: إن هناك من ذكر أن أسلافه كانوا مستوطنين تافيلات [٣] ، وهم من أولاد عيسى بن إدريس . [٤]

ولا يعرف سنة مولد الزبادي ، إذ لم يذكره في رحلته ضمن ما ذكره ، كما لم يشر إليه أحد من المؤرخين .

أخلاقه وصفاته :

أجمع المترجمون في الثناء عليه وتحليته بالصفات التي تدل على ما تمتع به من حلو الشمائل وإن كان فيها مبالغات واضحة فمن ذلك وصفه . « بالعلامة الصوفي اللغوي العروضي » [٥] ، و« الأديب ...

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

٢ ـ (سلا) مدينة بأقصى المغرب ، يحاذيها المحيط من شمالها والنهر من غربها ، وفي غرب هذا النهر إختط عبدالمؤمن مدينة سماها المهدية ، وهي مدينة قرب الرباط على مصب نهر أبي رقراق ، وسلا الآن لا يفصلها عن الرباط فاصل . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢٣١ ؛ بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ٢٧٠ .

٣ ـ (تافيلات) منطقة الواحات ، حيث توجد سجلماسة المؤسسة عام ١٤٠هـ/٧٥٨م ، وتسمى بالبربرية تافيلات ، وقد سماها المؤرخون العرب تافلاله أو فلاله ، وهي التي استقر بها جد العلويين أو الشرفاء ، الفلاليين . أنظر بنعبدالله : الموسوعة المغربية ، ملحق ٢ ، ص ١٢٨ .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٤٥٩ .

٥ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٧٨ .

الناظم الشاعر »[١] ، و« الفقيه العلامة ، العلم ، ركن الشريعة المتسلم جامع شتات الفضائل والمفاخر ، ومنظم غرر المناقب والمآثر ، الصوفي اللغوي الأديب الناظم الناثر المشارك الأريب ، من بيت نبيه معروف بالفضل » .[٢]

كما عرف عنه الحلم ، وغزارة العلم ، وحسن الخلق ، والصبر ، والتواضع ، والتدين ، والكرم ، والفضل ، فقد كان مراعياً للذمم ، لطيفاً محباً لأهل العلم والدين ، رؤوفاً رحيماً بالضعفاء والمساكين » .[٣]

مكانته العلمية :

برع الزبادي في فنون عديدة من العلم منها العروض ، والفقه ، والتاريخ ، والتصوف ، والطب ، واللغة ، والشعر حتى أنه من غزارة شعره قيل « لو جمع ذلك لكان ديواناً »[٤] . ومن براعته في الطب ، يحكى أنه لم يرَ « مثله في الأوائل والأواخر ، فهو ممن يستحق أن تشد له الرواحل »[٥] . أما عن سبب تعلمه الطب فقيل : لإنه مرض مرضاً طويلاً ، ثم تضرع إلى الله إلى أن شُفى ، فآنكب عند ذلك على مطالعة كتب الطب .[٦]

وقد قرأ الزبادي على جمع غفير من علماء عصره[٧] ، كما كان له الكثير من الأتباع والأصحاب والتلاميذ .[٨]

---

١ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٥ .
٢ ـ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٥٣ ، ترجمة رقم ١٤٠٩ .
٣ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ،ص ٧٨ .
٤ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٦ ؛ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٧٨ .
٥ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٧٨ .
٦ ـ المصدر السابق والجزء والصفحة .
٧ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٨٠ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٥٣ .
٨ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٧٨ ، ٨٠ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٦ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ٣٥٣ .

حياته الاجتماعية :

كان والداه لا يزالان على قيد الحياة عندما قدم للحج [١] ، كما كان متزوجاً ، وقد رزق بمولود ذكر عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م ، أسماه عبدالقادر ، وله أخ أكبر منه سناً يسمى أحمد ، سبقه في الحج ، والمجاورة بالحرمين الشريفين ، وحج مرتين ، وتوفى ليلة الخميس الثامن من شوال سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م [٢] . ومن أخوته غير أحمد على الترتيب ، عبدالله ومحمد . [٣]

وكان الزبادي يود المجاورة ، ولكنه لم يستطع لأنه قطع عهداً لوالدته بعدم المجاورة حتى تسمح له بالحج . إذ يبدو أنه أظهر نية المجاورة قبل سفره ، فلم تسمح له والدته خوفاً عليه ، خاصة وأنها عانت من بُعد إبنها الأكبر عند مجاورته . وموقف الزبادي هذا من والدته يدل على بره الشديد بوالدته وطاعته لها. وقد صبّر الزبادي نفسه بعدم المجاورة لعدم انطباق شروطها عليه حتى لا يزداد حزنه من عدم مجاورته . [٤]

مؤلفاته :

ترك الزبادي العديد من المؤلفات ، التي منها تقاييد عدة في « التاريخ » و « التصوف » و « الفقه » و « اللغة » و « النظم » ، وتأليف في « علم العروض » ، وتأليف في « شرح الكلام المنسوب لشيخه السوسي » ، وتأليف في « التعريف بالشيخ ابن عباد »[٥] ، وله « عارضة في الشعر » [٦] . وألف رحلته « بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام » ملئت بالفوائد والفرائد والمسائل النفيسة والعلوم الجليلة [٧] ، عند حجه عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م . [٨]

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٤٥٧ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٤٥٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

٥ ـ أبوعبدالله محمد بن ابراهيم بن عبدالله ابن عباد الحميري الرندي ، من أهل الأندلس باحث متصوف، تنقل بين مدن المغرب ، واستقر بفاس خطيباً في جامع القرويين إلى أن توفي عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م. الزركلي : الأعلام ، ج٥ ، ص ٢٩٩ .

٦ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٣٦٩ .

٧ ـ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٦ .

٨ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩ .

القيمة العلمية لرحلته :

لم يسجل الزبادي أحداث رحلته إلا بعد فترة من قيامه بها ، حين طُلب منه ذلك ، والأرجح أنه كتب عناصرها في قصاصات ، ومن ثم أضاف عليها من الذاكرة ، ورتبها ، إذ لا يعقل أن يكتب بالدقة التي رأيناها في الرحلة بعد عودته بما يقرب من الأربع سنوات من ذاكرته ، خاصة وأنها ملئت بالمعلومات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية ، وقد قال الزبادي عند تقييدها : « لم أقيدها عند استفادتها ، ففقدت جملة منها عند تفقدها وإفادتها ، فهممت بتلافي ما بقي منها قبل غروب الذهن عنها ، فاستخرت الله تعالى في ذلك ، واستكشفته عما هناك ، فإذا الإخوان في الله كلهم يطلب ذلك ويتمنى ، فعزمت على ما به هممت وشرعت في رسم ما قد رمت ، ناحياً للإختصار والإيجاز والإقتصار آخذاً ما تيسر، وتاركاً ما تعسر، راجياً من الله تعالى إكماله وكماله ، ومستمداً عونه وتوفيقه وحفظه ونواله »[١] . وقد انتهى من تقييدها وترتيبها ضحوة يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الثاني عام ١١٦١هـ/١٧٤٨م . [٢]

ومن الملاحظ أن الزبادي قد استفاد من تقييدات رحلة سابقة لأخيه أحمد[٣] ، ولكن لا نعلم عنها شيئاً في الوقت الحاضر ، وقد استفاد منها الزبادي في عدة مواضع ، وخاصة فيما يختص بالحجاز . فقد نقل منها رسومات توضيحية أثبتها في رحلته ، وربما تكون رحلة أخيه على جانب عظيم من الأهمية لاعتماد الزبادي عليها.

وفاته :

توفي الزبادي بالطاعون في الثامن عشر من شعبان عام ١١٦٣هـ/١٧٥٠م . [٤]

وصف مخطوطة الرحلة :

موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك ٣٩٨) مكتوبة بخط مغربي جميل وواضح ، وتحتوى على (٤٧٧) صفحة وتحتوى كل صفحة على (١٥) سطر.

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥ ـ ٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٧٣ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١١٧ .

٤ ـ القادري : نشر المثاني ، ج٤ ، ص ٨٠ ؛ القادري : التقاط الدرر ، ص ٤١٥ .



الفصل الثاني

منهج الكتابة التاريخية عند الرحالة المغاربة

أ ـ الإعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة .

ب ـ دقة الوصف .

جـ ـ الإستفادة من الرحلات السابقة .

د ـ المقارنة والنقد .

أ ـ الإعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة

الرحـــلة قـديمة قـدم الإنسـان ذاته [١] . وأدب الرحـــلة لــون مــن ألوان الأدب العـربـــي ، بدأ انطلاقـــتـه منذ القـرن الثـالث الهـجـري ، فكتـبت الرحـلات بأشكال مـتعـــددة ، وبأسلوب أدبي وفني مـتـميز ، تناولـــت قضايا ومـوضـوعات مختلـفة ومتنوعة .

وقـد زخـر القـرنان الحـادي عشـر والثـاني عـشـر الهـجـريين بالـعـديد من الرحلات الحـجـازية التي كـان هدفـهـا الأسـاسـي أداء فـريضـة الحـج وزيارة الأمـاكن المقـدســة بمكة المكرمــة والمدينة المنورة والبـقــاع التي شــهـدت بدايات الدعـوة الإسلامية .

اهتم هـؤلاء الرحـالة المغـاربة بتـسـجيل رحـلاتهم من حين خـروجـهـم من موطنهم إلى حين عودتهم مرة أخرى ، في مدونات قد تطول أو تقصـر ، ولكنها في النهاية أصبحت وثائق تاريخية أدبية وجغـرافيـة واجتمـاعيـة واقتصـادية وعلميـة لمن أتي بعدهـم .

وهـي كـذلك مـتـعـددة الغـايات والأغـراض ، فـالأديب الرحـالة طوّع الأدب العربي ، وعبَّر من خـلالـه وفـــي قالبه عمــا أحس به وشـاهـــده وسـمـعه ، بشـعـر أو بنثـر ، ومـعظم مـا دُونَ من رحـلات لم يصلنا ، إمـا لضـيـاعـــه ، أو لعدم الكشف عنه بعـد [٢] ، ولكن الذي توفرّ لنا منـهـا يكفى للدلالة عليـهـا جمـيـعـاً بما تحـويـــه مــن علوم . [٣]

وتمكننا من تتبع أهم الأسس والمناهج التي سـار عليـهـا الرحـالة المغـاربة في تدوينهم لرحلاتهم :

---

١ ـ حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، ص ٢٢ ، سلسلة عالم المعرفة .

٢ ـ الحسن الشاهدي : أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، ج١ ، ص ٤٧ .

٣ ـ د/ حسني محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب ، ص ٦ ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، د.م .

أولاً : الإعتماد على المعاينة والمشاهدة والمشافهة :

هذا المنهج هو القاسم المشترك لجميع الرحالة المغاربة ، الذين ألفوا رحلاتهم الموسوعية ، ونخص منهم بعض الرحالة المغاربة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، حيث مدار هذا البحث حول رحلاتهم ، إذ اعتمدوا على المعاينة والمشاهدة والمشافهة بالإستفسار إذا اقتضى الأمر في ما لا علم لهم به .

فكانوا بمثابة العين الحساسة اللاقطة ، فوصفوا ما على بسيط الأرض من عمائر، وخرائب ، أو صحراء ، أو حدائق مليئة بالنخيل والأشجار وأوان ثمارها ، وأنواع المحاصيل التي تنتجها ، والطريقة المتبعة في زراعتها وريّها ، ومن يقوم على ذلك [١] . فاليوسي وصف حجم وطعم عنب وأجاص مدين [٢] ، بقوله : « كبير الحجم شديد الحلاوة » [٣] ، والعياشي ملأ أنفه شذى أزهار شم عبيرها بعُسفان [٤] ، فبادر بالسؤال عنها وتحقق من شكلها وإسمها [٥] .

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٥ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٦ ـ ٧٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ، ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ .

٢ ـ (مدين) بفتح أوله على بُعد ٧٣كم من البحر الأحمر ، بمحاذاة تبوك وعلى بعد ٢٢٠كم منها ، بها البئر الذي إستقى منه موسى عليه السلام ، ومدين إسم القبيلة ، وتسمى الآن البدع ، وهي ذات مزارع وسكان ومدارس . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٨ ، ص ٦٨ ـ ٧٠ .

٣ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب .

٤ ـ (عُسفان) بضم أوله سميت بذلك لتعسف السيل فيها ، وهي من مكة المكرمة على بُعد ٨٠كم ، وهي من مناهل الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، بها آبار عذبة قديمة ، وبها مركز إمارة تابع لمر الظهران ، وهي عقدة مواصلات هامة ، وفي الفترة الأخيرة حفر أهلها بئر غزيرة الماء عذبه . فكثرة زراعتها على ضيق أرضها . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٤٠ .

وتعجب الدرعي من كثرة شجر الكادي وانتشار رائحته بوادي فاطمة [١] ، فتحقق بالسؤال عنه من صاحب عريش هناك ، فأخبره أنه يشبه شجر النخيل ، وأتاه ببعض ورقه ، فوصفه بعد معاينته بأن ورقه عريض ، كما شم رائحة زهرته ، وأثنى عليها بالجمال [٢] . ونبه اليوسي على نوع من الحشائش ينمو بالحوراء [٣] ، ويبدو أنها صالحة للأكل ، إذ كان يقتات منها الركب ، ولكن هذه الحشائش قاتلة لمن لم يعرف خصائصها والطريقة السليمة لأكلها ، وقد أخبره شخص ممن خبر الطريق عن الكيفية الصحيحة لأكلها ، وأضاف أنه تحقق من قوله عندما شاهد أُناساً ماتوا ، عندما تناولوها بسبب عدم انطباق الشروط الصحيحة لأكلها . [٤]

فالاستفسار أسلوب حرص الرحالة المغاربة على الإلتزام به ، وحرصوا على إعطاء إجابات اعتقدوا صحتها ، للأمور التي أرادوا التحقق منها .

أما وصف الطريق بالمشاهدة والمعاينة المباشرة ، فجميع الرحالة المغاربة برعوا في وصفه ، فحفلت رحلتهم بالكثير من الأوصاف الدقيقة لدرب الحجيج ، والمناهل التي نزلوا بها ، وكأن القارىء لرحلاتهم يشعر وكأنه أحد

---

١ ـ (وادي فاطمة) يسمى مر الظهران بالفتح ، وهو موضع على مرحلة من مكة المكرمة ، ومر القرية والظهران هو الوادي به عيون كثيرة ونخل ، وهو من اكبر أودية الحجاز ويسمى أيضاً وادي الشريف نسبة إلى الشريف أبي نمي الذي كان يملك أكثره ، وينسب أيضاً لفاطمة زوجة بركات بن أبي نمي أو أمه ويذكر أن بالوادي حوالي ٣٠٠ عين لم يبق منها الآن إلا القليل وقرى مر الظهران اليوم تزيد على ٤٠ قرية. أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز، ج٨ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٤ .

٣ ـ (الحوراء) بفتح أوله مرفأ على ساحل البحر الأحمر الشرقي ، ترسو به سفن مصر إلى المدينة المنورة وكانت إحدى محطات الحجاج القادمين من مصر ، ولم يبق منها اليوم سوى آثار شمال أم لج على بعد ٣كم . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣١٦ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٧٦ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب .

أفـراد الركـب السائـر فيـه ، لمعايشته فيما قد يواجه من رخـاء وشـدة ، ينظر للموصوف متمثلاً أمامه من شدة براعة ودقة الوصف القائم أساساً على المعاينة والمشاهدة .

فقد تتبع الرحالة المغاربة أماكن وجود المياه من أبار وعيون أو أحساء[١]، فحددّوا مواقعـها وطريقة تناول الماء منها ، وهل هي أحباس [٢] أو من عمل الدولة ، مع تحديدهـم لنوع الماء ، سواء كـان عذباً فراتاً ، أو ملحـاً أُجاجاً ، وكـل ذلك مثبت من قبلهم بالتجربة ، فأبو مدين مثلاً يحدد أماكن وجود الماء ونوعـه والأماكن التي ينعدم فيـها أو يكون مالحـاً ، فينصح بحمله من المنازل التي يكون فيه الماء عذباً وكثيراً ، كمـا يُعرِّف بأماكن الرعـي الجـيدة التي شاهدها . [٣]

ولم يفت نظر الرحالة المغاربة أثناء سيرهم الموانىء العاملة العامرة ، الصالحة للملاحة على البحر الأحمر ، مثل ميناء العقبة ، والحوراء ، وينبع ، والموانـىء الأخـرى التي ترتـبط معـهـا ملاحياً مع تحـديـد نوع السـفن الراسية بها . [٤]

---

١ ـ (الحسي) الرمل المتراكم ، أسفله جبل صلد ، فإذا مُطر الرمل نشف ماء المطر ، فإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسك الماء ، ومنع الرمل حر الشمس أن ينشف الماء ، فإذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن ذلك الماء فنبع بارداً عذباً . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٤ ، ص ١٧٧ .

٢ ـ (الحُبسُ) ما وقف وقفة صاحبه وقفاً محرماً ، لا يورث ولا يباع ، يحبسُ أصله وقفاً مؤبداً ، وتسبل ثمرته تقرباً إلى الله تعالى . أنظر المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ـ ١١٦ ، ١٢١ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢ ـ ٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ـ ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ، ١٠٨ ـ ١٠٩ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ، ١٤٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ .

ووقع الرحالة المغاربة فيما وقع فيه أهل عصرهم من بدع تفشى فيه التبرك بالأولياء والصالحين ، سواء الأحياء منهم أو الأموات ، بالتردد على قبورهم والدعاء عندهم [١] . فكانوا يحرصون على المرور على القبور والدعاء عندها ، وتحديد أماكنها أثناء سيرهم وتسمية من دفن بها . [٢]

ووصف الحرمين المكي والمدني أخذ جزءاً لا بأس به في مدونات الرحلات بعد الوقوف عليها ومعاينتها ، فسجل القيسى وصف المسجدين المكي والمدني ، وحدد مقاسات الأخير بالذراع ، ناقلاً ما وجد به من نقوش ، فأستوعب في رحلته اكثر ما وجد من نقوش المسجد النبوي ، ولشدة ملاحظته عدد عراجين [٣] نخلة كانت مزروعة بصحن المسجد ، مخبراً أنها سبعة . [٤]

وأضاف كلٌ من العياشي والزبادي وأبو مدين إلى منهج المعاينة والمشاهدة ، رسم الشيء الموصوف ، لأنه أدعى إلى توضيح ما أرادوا وصفه ، وليكون قريباً من الحقيقة ، فالعياشي عندما وصف داخل الكعبة المشرفة ، عزز ذلك بالرسم زيادة في الإيضاح ، وكذلك فعل الزبادي عندما وصف الحجرة النبوية الشريفة أرفق وصفها برسم توضيحي للتقريب . وصاحب وصف أبي مدين لغار ثور رسم لداخله لإضفاء صورة حقيقية عنه . [٥]

---

١ ـ هذه من الأمور التي تنافي العقيدة ، ولا يجوز فعلها ، ولكنهم في زمن تفشى فيه مثل هذه الأفعال حتى أنها عدت من القربات ، فالدعاء لا يشترط به مكان معين أو زمانٍ معين كما كانوا يعتقدون .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ .

٣ ـ (العرجون) هو العذق عامة ، وقيل هو العذق إذا يبس وأعوج ، وقيل هو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٣ ، ص ٢٨٤ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، ٩٩ ـ ١٠٠ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٣٧ ـ ١٤٨ ، ١٨٢ ـ ١٨٨ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٦ .

وعندما تصدر الرافعي لوصف المسجد الحرام وصفه بدقه كأن القارىء ينظر لعين الموصوف ، فأستوعب كل ما فيه [١] . وكما أفاض في وصف المسجد الحرام ، أفاض أيضاً في وصف المسجد النبوي ، حتى أنه أورد مقاسات أدق الأشياء به ، مثل وجود نخلتين بصحن المسجد ، كما وصف المنبر والمحاريب الثلاثة بأدق التفاصيل . [٢]

واكتفى بعض الرحالة المغاربة بوصف جزء أو عدة أجزاء من المسجدين المكي والمدني ، لعدم تمكنهم من الوقوف على جميع أجزائه لقصر إقامتهم فاليوسي مثلاً أتى على ذكر ميزاب الكعبة المشرفة فقال : « وميزاب الكعبة المشرفة ، الموجود الآن ، صنعه السلطان أحمد بن محمود بن السلطان مراد أحد ملوك آل عثمان [٣] ، وهو من فضة مموه بالذهب منصوب فوق الحِجْر وذلك سنة إثنتين وعشرين ألف » . [٤]

فهو بذلك أعطى لمحة تاريخية لبعض الموجودات الموصوفة وذلك من المناهج التي قامت عليها كتابة الرحلة عند الرحالة المغاربة ، منذ أن وضع أسس فن كتابة الرحلة الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري وتبعه مَنْ بعده ، ولم يشذ أحد منهم عن ذلك .

فاليوسي الذي لم يسجل أوصاف المسجدين المكي والمدني أورد نبذاً مختصرة عن بعض معالم المسجدين الشريفين المكي والمدني مكتفياً بذلك . كما اكتفى الغنامي بتعداد أبواب المسجد الحرام [٥] ، أما الدرعي فكان من

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٣٧ ـ ١٤٨ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٢ ـ ١٨٨ .

٣ ـ السلطان أحمد بن محمد بن مراد أعظم ملوك آل عثمان ، ولد سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م ، كان محباً للعلماء ومتمسكاً بالسنة ، تولى السلطنة بعد وفاة والده عام ١٠١٢هـ/ ١٦١٣م وعمره أربعة عشر سنة ، له مآثر جمة بالحرمين ، وتوفي في شوال سنة ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٩٢ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٩/ب ـ ٩٠/أ ، ٩٢/ب .

٥ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ .

المعتنين بوصف كل ما شاهده من المعالم ، فمثلاً وصف الكعبة المشرفة ، وكذلك تعرض الحضيكي لوصف شاذروان [١] الكعبة المشرفة ، وألحق ما وصفه بلمحات تاريخية عنه ، وشدّ انتباهه المقامات الأربعة بالمسجد الحرام ، وناقش وجودها وتساءل هل تعتبر مساجد مستقلة أم مسجداً واحداً ؟ وفي النهاية أحال العلم إلى الله عندما ناقش صلاة الأئمة الأربعة بها [٢] . وعندما كان بالمدينة المنورة بادر بإعطاء لمحات تاريخية عما يعرفه من أمور تتعلق بالمسجد النبوي ، مثل المنبر . [٣]

وتصدر أبومدين لتسجيل كل ما يتعلق من أوصاف تخص المسجد النبوي ، فهو من الرحالة الذين استوفوا مشاهدته ومعاينته ، حتى أنه أحصى النخل الموجود بصحن المسجد النبوي [٤] . وكما فعل بالمسجد النبوي أسهب بوصف المسجد الحرام ، فهو عندما ذكر الكعبة المشرفة أعطى نبذة تاريخية عن عدد مرات بنائها [٥] ، فهو بذلك قد أعطى القارىء خلفية تاريخية سليمة وصحيحة عنها في موضع واحد .

---

١ ـ (الشاذروان) بفتح الذال ، جدار الكعبة المشرفة الذي ترك من عرض الأساس خارجاً ، يسمى تأزير، لأنه كالإزار للبيت والشاذروان الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المشرفة ، المحيطة من جوانبها الثلاثة ، أما الجانب المقابل للحِجْر ، ففيه درجة واحدة مسطحة ، وهي بطول جدار الكعبة المشرفة . أنظر أبوالوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ج١ ، ص ٣٠٩ ـ ١١٠ ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، مكة المكرمة ، ط٣ ، مطابع دار الثقافة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ؛ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي : المصباح المنير في غريب شرح الكبير ، ج١ ، ص ٣٦٣ ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ؛ حسين عبدالله باسلامه : تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها ، ص ١٤٣ ـ ١٤٨ ، الكتاب العربي السعودي ، ط٢ ، تهامة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، د.م ؛ محمد طاهر الكردي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ج٤ ، ص ١ ، مكتبة النهضة الحديثة ، ط١ ، ١٣٨٥هـ ، د.م .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٧ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

٣ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٩ ـ ٨٣ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٢ ـ ١٥٥ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٢ ـ ١٩٠ .

كما أفرد الزبادي صفحـات لوصف المسجـد الحـرام بدقائق أموره ، فهو أيضاً تصدر لإعطاء نبذاً تاريخية عن الكعبة المشرفة والعمارة التي توالت عليها ، كما عدَّد أسماء البيت الحرام [١] . وفعل الشيء نفسه عندما وصف المسجد النبوي ، وذهب إلى حد نقل نقوش كاملة على قدر استطاعته [٢] ، وأعطى نبذاً تاريخية مبسطة لبعض ما شاهده ، ومثل لبعض ما وصفه بالرسم ، نقله مـن كناشة [٣] لأخٍ له كان قد سبقه إلى القدوم للحجاز والمجاورة على حد قوله ، وعقب على سبب إيراده هذه الرسومات قائلاً : « فإن المراد منه إعانة مَنّ لم يره على تكييفه [٤] بذهنه ، فإن الإنسان إذا سمع شيئاً فإن ذهنه يريد تكييفه ، واللسان لا يكفي في ذلك ، إذ ليس الخبر كالعيان ، فجعلت التماثيل إعانة للأذهان وتأنيساً للولهان » . [٥]

والزبادي هنا يوضح أهمية المشاهدة ، ويحث ضمنياً على الرحلة لتفضيله المعاينة على السماع ، وبرع الرحالة المغاربة في تصوير ما يعتري النفس من خوفٍ وفرحٍ وغيره ، ومن ذلك وصف الرافعي لنفسيات الركب المغربي عندما نفد منه الماء ، بسبب سبق الركب المصري واستنزافه للماء فلا يجد الركب المغربي عند

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١١٧ ـ ١٢٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ .

٣ ـ (كناشة) : تجمع على كنايش وكنانيش هذا اللفظ يطلق عند المغاربة وفقاً لاصطلاح مذكرة ، تكون عند جل العلماء الذين لهم ولع بالتقييد ، فلا تجد واحداً منهم إلا وله كناشة خاصة به ، يذكر فيها ما وقع له من الحوادث ، أو ما شاهد وقوعها ، أو ما نظمه من الأشعار ، أو ماراج بينه وبين أشياخه وأقرانه من مذاكرات علمية ومساجلات أدبية ، أو الفوائد التي أعجب بها ويعسر الوقوف عليها ، وكثيراً ما توجد للفرد الواحد عدة كنايش لسعة إطلاعه ووفرة مباحثه ، فاعتناء المغاربة كبير بها ، حتى أن كثيراً من علمائها لا نجد لهم تأليفاً في موضوع خاص ، وتجد له عدة كنانيش ، أو مذكرات يخص فيها خلاصة أبحاثه وعصارة تفكيره . أنظر ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب ، ج٢ ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

٤ ـ يقصد تصويره بذهنه أو تصوره .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٦ .

وصوله ماء . فقال : « وللماء حراس بإزاء كل بندر ، ثلاثة أبيار من الماء البارد ، يجلبون منه الماء لتلك الفيافي ، فيرتوي منهم كل وارد ، كل ذلك معدّ إلى الركب المصري ، أما الركب المغربي فهو تبع ، فإن فضل عنه الماء يسرع إليه ويجري ، وإن نفذ ماؤهم كان للركب اضطراب ، ويلحق الجميع قنط وبؤس من الظمأ والإكتئاب » . وأورد طرفاً من شعور الحجيج أثناء سيرهم في درب الحجاز فقال : « وقد طال السفر وعم الناس البؤس والكدر ، وصار كل إنسان ينتقم حتى من نفسه ، ويهوله كل صعب أو هين في حينه ، كيف لا ؟! والدرب غول ، والتوغل فيه صعب مهول !! » . [١]

أما الدرعي الشيخ العالم ، الذي عركته السنون ، وخبر حال الدنيا ، واستفاد ممّا مرّ به ، خاصة وأنه حج أربع مرات [٢] ، فقد استعرض في تسجيله لرحلته في حجته الأخيرة ما مر به في حجاته السابقة من مواقف مشابهة ، فقال معبراً عما يقاسيه الحجاج في طريقهم ، ومصوراً نفسياتهم : « كأن الدرب أمامهم عدو لا يرحم ، وبحر لا يقتحم ، يترقبون مزاولته . . . تضيق الأخلاق ، وينحل وثاق الإنفاق ، ويتسلط الجمّال والعكام [٣] على الحجاج ، ويذلون لهما كما ذلّ أهل الكوفة للحجاج » . [٤]

وكما وصف الرحالة المغاربة المسجدين المكي والمدني ، وصفوا أماكن المساجد الأخرى ، التي مروا عليها في دربهم التى وردت الآثار بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيها ، فمن ذلك ما ذكره القيسي عن

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٦ ، ١١٨ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ .

٣ ـ (العكام) : ما عكم به ، وهو الحبل الذي يعكم عليه ، وهي هنا بمعنى من يعين على شد الحبال على الإبل . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٢ ، ص ٤١٥ ، وتسلطهم على الحجاج يكون بطلب زيادة في أجرة النقل . أو التهديد بتركهم مع أمتعتهم في ذلك الدرب .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٨ .

مسجد الغزالة [١] وقباء [٢] ، وتطرق العياشي لطريقة بناء المساجد التي شاهدها في طريقه مع ركب الحجيج ، ووصف مسجد الخيف [٣] ، بل ونقل ما شاهده من نقوش ، وحاول أن يحلل معتقد كاتب تلك النقوش من خلال شعره المسطرّ على جدار المسجد . [٤]

وممن أفاض في ذكر مسجد الخيف ، الرافعي والحضيكي ، وأتبع الحضيكي وصف مسجد الخيف بوصف مسجد عرفة [٥] . وأمدنا القادري بأوصاف لمسجد عرفة ، والمشعر الحرام ، ومسجد منى [٦] . وأتى الدرعي على ذكر مشاهد مفصلة عن مساجد مكة المكرمة [٧] ، وشحن أبو مدين رحلته بذكر المساجد التي رآها أثناء طريقه في الحجاز ، والمساجد التي مر عليها في طريقه بين مكة المكرمة والمدينة المنورة [٨] . كما تصدر الزبادي لذكر المساجد التي مرَّ عليها . [٩]

---

١ ـ (مسجد الغزالة) ويعرف أيضاً بمسجد المنصرف ، وسمى بذلك لأن من عنده ينصرف الطريق ، صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . أنظر نورالدين علي بن أحمد السمهودي : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى تاريخ المدينة المنورة ، ص ٤٢٢ ، تعليق إبراهيم الفقيه ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م طبعة جعفر الفقيه ، د. م .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ، ١٠٤ ؛ (مسجد قباء) أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المسجد الذي أسس على التقوى . أنظر نورالدين علي بن أحمد السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ج٣ ، ص ٧٩٧ ـ ٧٩٨ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، بيروت ـ لبنان ، دار إحياء التراث ، ط٤ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م؛ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ، ١٠٤ .

٣ ـ (الخَيف) بالفتح وهو ما إرتفع عن موضع مجرى السيل ، وسمى مسجد الخَيف لأنه في سفح جبلها . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٩ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ . وذكرنا هنا المعنى اللغوي وطريقة ضبط الكلمة للتنبيه على الخطأ الشائع في نطقها بكسر الخاء بينما الصحيح فتح الخاء .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ـ ١٤٥ ، ١٥٧ .

٥ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

٦ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٠ ـ ٨٥ .

٧ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٩ ـ٢٠٧ ، ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، ٢٣٧ .

٨ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٥ ـ ١١٧ ، ١٢١ ـ ١٢٢ ، ١٣٧ ـ ١٤٠ .

٩ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٤ ـ ٧٧ .

ومن أهم الأمور المنهجية التي حـرص الرحالة المغاربـة على إتباعها في الكتابة التاريخية في رحلاتهم ، هـي تسجـيل وقت رحيلهم ، ووصـولهـم للمـنازل التي يمـرون عليهـا بدقـة متناهية ، حيث حددوهـا بأوقـات اللـيل أو النهار . كالعياشـي الذي قـاس المسافات وقدرها بالفراسخ [١] فحدد المسافة بين أكرا [٢] ومنزل بين الدركـين [٣] بنحو فرسخـين [٤] ، وحـدد المسافة بين عقبة السكر [٥] وخليـص [٦] بثلاثـة أميال [٧] . كمـا حـدد المسافة بالأيـام ، إذ ذكر أن عمران ينبع [٨] متصل نحو ثلاثة أيام . [٩]

---

١ ـ (الفرسخ) يساوي ثلاثة أميال. أنظر أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمين ، ص ٦٠ـ٦١ .

٢ ـ (اكرا) مجموعة أبـار أسفل وادي الحمض جنـوب الوجه وبتعد عنها ٧٠كم . أنظر البـلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ١٣١ .

٣ ـ (بين الدركين) يقع بين اكرا والحوراء تقريباً ، ولم نجد له ذكراً في المصادر التي تناولناها .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ .

٥ ـ (عقبة السكر) : يطلق عليها المشلل وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر ، وتعرف اليوم بالقديدية نسبة إلي الوادي المعروف قديد ، وتشاهد يميناً اذا تجاوزنا القضيمة ذهاباً إلي المدينة المنورة ، وثنية المشلل بأسفل حرة يمر طريق مكة المكرمة إلي المدينة المنورة منها يميناً ، وإلى الجنوب منها مكان خيمتي أم معبد بها أكمة ، وتسمى عقبة السكر أو السويق ، لأن الحجاج اعتادوا على شربه هناك . أنظر عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي من أهل القرن العاشر الهجري : الـدرر الفرائـد المنظمـة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة ، ج٢ ، ص ١٤٦١ ـ ١٤٦٢ ، نشـره وأعده حمد الجاسر ، الرياض ، منشورات دار اليمـامـة ، د. ت ؛ البـلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٧١ ـ ١٧٣ .

٦ ـ (خُليص) : واد كثير الزرع والماء ، واسع على شكل مربع يقع شمال مكة المكرمة ، على ١٠٠كم يتكون من ٣٠ قرية وبه عين تجري وأبار ونخل كثير ومسجدين ينسبان للرسول صلي الله عليه وسلم ، الأول بخليص عند الحرة ، ويطلق على هذا المكان أيضاً اسم كديد . والثـانـي عند بئر يسمـى بخليـص . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

٧ ـ (الميل) يساوي ١٦٠٩,٣٥ أو ٣٠٠٠ ذراع هاشمي . أنظر أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمين ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

٨ ـ (ينبع) بالفتح تقع على يمين جبل رضوي ، فيها عيون عذبة غزيرة ، بها مسجد ، وهي قرية غناء ، بها حصن ونخل وماء وزرع . أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥ . وهي الآن مدينة عامرة وقد أنشيء بها صناعات حديثة كما أنشيء بها الهيئة الملكية . وهي ميناء مهم على البحر الأحمر من موانيء المملكة العربية السعودية .

٩ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٥ ، ١٤٩ .

وكانوا يستعلمون عن المسافات بين المنازل ، كما فعل اليوسي ، عندما استعلم عن المسافة بين أبيار على والمدينة المنورة [١] . وحرص الغنامي على تسجيل الوقت حتى عن وقت المكوث للراحة بالمنازل ، وحدده بأوقات الليل ، أو النهار ، مثل قوله : أنه أقام بالمويلح[٢] يوماً ، وأنه وصل إلى الدار الحمراء [٣] وقت الزوال [٤] . وكان الدرعي حريصاً على ذكر زمن وصوله لأي منزل ، فيؤرخه باليوم والشهر عربياً وإفرنجياً ، مثل تأريخه للخروج من مصر [٥] ، وعند نزوله بالدار الحمراء [٦] وغيرها [٧] ، ونجد الزبادي قد فعل الشيء نفسه وهكذا جميع الرحالة المغاربة في نهجهم . [٨]

ولقد انفرد الرحالة المغاربة بمنهجية ، لا نجدها إلا في كتب المعاجم الجغرافية المتخصصة ، وهي تعداد أسماء المواضع والمنازل التي نزلوا بها أو مروا عليها ، مثلما فعل العياشي عندما مرَّ على أرض مدين فقد وصفها وقت مروره عليها ، وأعطى لمحة تاريخية عن ماضيها [٩] ، وكذلك اليوسي عندما

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ .

٢ ـ (المويلح) تصغير مالح ميناء على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، شمال ضبا ، بها إمارة ، وقلعة أثرية لا تزال آثارها . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٨ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

٣ ـ (الدار الحمراء) : كانت تسمى قديماً أم سعد ، وهي المحطة الثانية من محطات الدرب ، وتقع في شرقي جبل الجيوشي ، وليس بها أشجار ولا ماء ، وينبت بها قليل من الحشائش التي ترعاها الجمال ، والطريق إليها سهلة بلا وعورة . أنظر : أبواسحاق الحربي : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، ص ٦٤٩ ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض منشورات وزارة الحج والأوقاف ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ؛ الشيخ أحمد الرشيدي : حُسن الصفا والإبتهاج بذكر مَنْ ولى إمارة الحاج ، ص ٣٩ ، تحقيق د/ ليلي عبداللطيف أحمد ، مصر مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م ؛ ويرجع اسمها للون تربتها . أنظر الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣٧ .

٤ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٧ .

٦ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٩ .

٧ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ على سبيل المثال .

٨ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

٩ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ١٤٧ .

مرّ على قديد [١] ذكر أن الموضع ، مكان لخيمتي أم معبد عندما مرَّ عليها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر في هجرتهما للمدينة المنورة [٢] . ولما وصل القادري مكة المكرمة دخلها من ثنية كداء ، وقال : إنها تسمى الآن عند العامة المعلى [٣] . وعندما مرَّ الحضيكي على الجبل الذي به غار حراء ، قال : إنه يعرف اليوم بجبل النور [٤] . ووصف الزبادي مدين عندما مرّ عليها ، وذكر جزءاً من تاريخها . [٥]

ولم يكتف الرحالة المغاربة بوصف المنازل ، بل تعدوا ذلك إلى تعليلهم لسبب تسمية بعضها ، كما فعل الزبادي عندما علل سبب تسمية بين الدركين . [٦]

أما تحديد أماكن ومواقع الأسواق التي تصادف ركب الحجيج ، وما يباع فيها ، ومكان مجيء السلع وكيفية حمل البضائع ، والقائمين على عمليات البيع والشراء ، فقد كانت موضع عناية الرحالة المغاربة فنقلوا صوراً عنها وما كانت تقدمه من خدمات لركب الحجيج ، فمثلاً : أشار القيسي إلى أسواق ينبع والمويلح، وأشار العياشي إلى أماكن أسواق الدرب بالحجاز ، والنقود المستعملة فيه . وأتى الرافعي واليوسي والغنامي وأبومدين والزبادي على ذكر الأسواق . [٧]

سجل الرحالة المغاربة كلَّ ما وقعت عليه أعينهم ، وما وصل إلى سمعهم ، وما لمسوه وأحسوا به من التقلبات الجوية ، فوصفوا حالة الجو ، فمنهم من كانت

١ ـ (قديد) سمي بذلك لذهاب سيله قدداً ، وقديد وادٍ كبير من أودية الحجاز ، خصب كثير العيون والمزارع ، تقدر عيونه بـ ٢٥ عيناً اندثر بعضها ، وكان قديماً يسمى المشلل ، وقديد إسم الوادي كله ، وبه قرى يزيد عددها على الأربعين ، ويقع هذا الوادي شمال خليص ، إذ هو بين خليص ورابغ . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٧ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب .

٣ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ .

٤ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ، ٤٥ .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ ، ٦٧ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٦٧ .

٧ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ، ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٤٠ ، ٤٠٧ ، ٥٠٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ـ ١١٦ ، ١٢١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي، ص ٩٧/ب ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٧ ـ ٦٢ ، ٧٥ ـ ٧٧ .

رحلته في أوان الحر كالعياشي ، فذكر شدة الحرّ واسبابه [١] ، فعندما مرّ بالمويلح ذكر أن الهواء كان وقتئذٍ بحرياً بارداً ، وعندما عبر وادياً تحدق به الجبال علل سبب اشتداد الحرارة فيه قائلاً : « فإذا أمتع النهار، واشتد الحر حجبت الجبال عنه هواء البحر ، فينعكس غربياً أو شرقياً ، صاعداً من الوادي أو هابطاً ، فيصير سموماً محرقاً » ، كما سجّل توقعات الفلكيين في تقلبات الجو وما يتوقعونه من طقس ، ولكنه لم يمل لتصديقهم فقال : « ذكر المنجمون : أن الشمس إذا كان رجوعها الطبيعي في أول الليل ، أو ما يقرب منه ، يكون العام بارداً ، وإذا كان في آخر الليل ، أو أول النهار ، يكون حاراً . وذكر لي بعض الإخوان بمصر ، أن المتقدمين ذكروا أن هذا العام معتدل حسن ، ونحن لا نعتمد في ذلك إلا على فضل الله وبركته » . [٢]

واسترعى إنتباه الرحالة المغاربة هطول الأمطار بمكة المكرمة ، فالعياشي مثلاً أرّخ لأمطار هطلت عليها ، أدت إلى دخول السيل للمسجد الحرام عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م ، ووصف الأضرار التي أحدثها هذا السيل ، وكان شاهد عيانٍ على كيفية إزالة الأحجار والأتربة والمياه ، وذكر أن بأرضية المسجد الحرام مجارٍ تفتح عندما تدخل السيول المسجد الحرام ، وفي تلك السنة بلغ إرتفاع الماء إلى باب الكعبة المشرفة ، ولفت انتباه العياشي أن الطواف لم ينقطع بالرغم من ارتفاع المياه ، إذ بقي مَنّ يطوف سباحة لمن يحسنها . [٣]

كما حرص العياشي على الاستفسار عن أمطار أخرى بلغت هذا الحد من الغزارة ، فقيل له إن أمطاراً هطلت عام ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م . ونتج عن دخول السيول المسجد الحرام سقوط الكعبة المشرفة . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .

٤ ـ علي بن عبدالقادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٤٣ ـ ١٤٩ ، تحقيق وتقديم اشرف أحمد جمال ، مكة المكرمة ، المكتبة التجارية ، ط ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ .

وسجل أبو مدين حادثة هطول أمطار بمكة المكرمة عام مجاورته بها سنة ١١٥٣هـ/١٧١٤م . وقال : إن السيول دخلت المسجد الحرام وملأته بالماء ، وشرح كيفية تنظيفه كما فعل العياشي . [١]

وعبر اليوسي عن إشتداد الحر في درب الحجاز فذكر : إنه قد أغمي عليه بسببه [٢] ، كما حيره كثرة الموت بسبب الحر ، بالرغم من شرب الماء ، فرأى طبيباً كان ضمن الركب ، يسقى مَنْ اشتد عطشه من شدة الحر دقيق الفول بالماء ، حيث أن شرب الماء الكثير لا يغني لإطفاء ذلك الظمأ ، بل إن مَنْ شرب الماء وحده مات ، فتعجب من فعل الطبيب وبادره بالسؤال عن ذلك ، فشرح له الأمر ، بأن الرياح الحارة « تخرق في الفؤاد ، فتُحْدِثُ ثقباً في الرئة فإذا شرب دقيق الفول مع الماء انسدت تلك الثقوب ، ولا يضره شرب الماء بعد ذلك ، وإذا شرب الماء وحده مات في الحين » . [٣] وهذا التعليل ليس صحيحاً ، لأن خلفيتهم الطبية لم تكن جيدة .

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٩٧ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨٦/أ ؛ إن ١٠٠جم من الفول يمد الجسم بطاقة تعادل تقريباً ٣٠٠ كالورى التي تمكن الجسم من القيام بوظائفه الحيويه . كما أنه يحتوى على بروتين ودهون وكاربوهايدرات واملاح ومعادن وفيتامينات . فهو يحتوى على الكالسيوم والفوسفور والحديد والصوديوم وفيتامين ب . ولذلك ربما ساعد خلط الماء بالفول بأمداد الجسم بجميع هذه العناصر بالإضافة إلى أنه معروف أنه في حالة إصابة الجسم بجفاف يعطى المصاب محلول الماء وبه املاح الصوديوم والكالسيوم بنسبة تقارب من نسبة وجوده في جسم الإنسان وبذلك يحدث التوازن بينهما .

أما في حالة اعطاء المصاب ماء فقط بدون املاح مضافة إليه فإن هذا الماء المعطى ذو التركيز الخفيف يندفع داخل خلايا الجسم بطريقة التشريح مما يؤدي إلى امتلاء الخلية بالماء وإذا حدث هذالخلايا الدماغ حدث ما يعرف (تورم الدماغ المائي) (Brainoedema) فيؤدي إلى التشنج ومن ثم الوفاة . وهذا ما يعرف بتسمم الماء (Water intoxication) فلذا يجب أن يضاف إلى [illegible] التي يحتوي على هذه الاملاح . فتتساوى نسبه الاملاح الموجوده في الخليه مع الماء فلا يحدث عمليه الترشيح التي تؤدي للوفاة . حصلنا على هذه المعلومات من الدكتوره آمال اسماعيل نواب .

لقد نقل الرحالة المغاربة صوراً نابضة بالحياة عما شاهدوه ، وسألوا عما لم يشاهدوه لتكتمل الصورة فيما سجلوه في رحلتهم ، ومثل ذلك سؤال العياشي بعض أهل ينبع عن القرى التي تتبعها ، وكذلك سؤاله عن البلدة التي قيل له أنها وراء الروحاء .[١]

ومن الأمور التي حرص الرحالة المغاربة على تسجيلها تحذيراً لغيرهم من خلال تجاربهم الخاصة ، ما ذكره العياشي عن طريقة حمل المؤن في درب الحجيج ، حيث تحمل بالكراء إلى أماكن متقدمة عن الركب يجدها عند وصوله فتخف بذلك المشقة [٢] . وذكروا أماكن خزن المؤن في درب الحجاز لحَين العودة ، كما فعل الرافعي مثلاً [٣] . وقد نبه الدرعي على حال الحجيج الذين يقدمون إلى الحجاز مع الأعراب أصحاب الجمال الذين يكاروهم عليها لحمل مؤنهم إلى منازل متقدمة ، وحكى عن غدر بعض هؤلاء الأعراب بالحجاج الذي يؤدي إلى فقدان المؤن وغلاء الأسعار ، وربما المجاعة في الركب [٤] . كما بينوا أسعار كراء الإبل والبغال ، وأشار الحضيكي على سبيل المثال إلى ذلك : إن الأسعار تتغير بتغير الناس والأزمنة . [٥]

ومن الأمور التي لاقت الاستحسان وأشار إليها الرحالة المغاربة بدرب الحجاز ، الحصون التي كانت تشَّيد في البنادر ، حيث بيّنوا طريقة بنائها ، وعددها ، وكيفية ترتيب الجند الموجودين بها ، والخدمات التي تقدمها أمثال تلك الحصون ، ومنها حماية الحجيج ، فحدد القادري مثلاً أماكن تلك الحصون [٦] ،

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ، ١٧١ . (الروحاء) قرية صغيرة على بُعد ٧٣كم من المدينة المنورة على طريق مكة المكرمة وسميت الروحاء لانفتاحها ورواحها . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٧٦ ؛ السمهودي : وفاء الوفا، ج٤ ، ص ١٢٢٢؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص ٨٥ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ـ ١١٦ ، ١٢١ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٦ .

٥ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٣ .

٦ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ١١٢ .

وأضاف العياشي والدرعي ، أن الجند لا يفارقها ، ومهمتهم حماية الطريق والحجاج ، وأن الحامية التي وجدت في تلك الحصون لها نظام لا يحيدون عنه ، وهو مكوثهم في الحصن سنة كاملة ، وبعدها تُغيَّر بحامية أخرى ، وتصرف للجند رواتب من بيت المال لقاء عملهم هذا ، فهم ذوو نفع كبير للحجاج ، وعبرا عن ذلك قائلين « ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق ، لما قدر أحد على سلوكها ، مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها » . [١]

ولفت انتباه الرحالة المغاربة الإزدحام ، وكثرة الحجاج بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، فالعياشي مثلاً أشار لازدحام الحجاج بالمسعى ، وانزعج من وجود الأسواق على جانبي المسعى وقال: « إنها السبب » ، وتمنى لو أن الولاة منعوا الناس من البيع والشراء في هذا المكان والزمان على الأقل [٢] . ونقل الرافعي وصف الإزدحام بالمسجد النبوي ، وهيئة الناس المبتهلين بالدعاء [٣] . وأدهش الغنامي ـ كثرة الحجاج بمكة المكرمة فسأل شخصاً ـ كان مجاوراً سنين عديدة ـ عن عدد أركاب الحجيج التي وصلت في تلك السنة ، فعدَّد له أسماء الأركاب التي علم وصولها [٤] . وعبر الزبادي عن الإزدحام بالمسجد النبوي واختلاط الأجناس قائلاً : « فصادفتهم عجباً ولا أفهمهم ولا يفهموني » . [٥]

أما عن دقائق الأمور التي تناولتها أقلام الرحالة المغاربة بالتسجيل ، طريقة الحلاقة لحل الإحرام بمنى ، والتي أشار إليها العياشي ، كما وصف كثرة الذبائح يوم النحر ، وسجل الغنامي ما تناوله من أطعمة بالمدينة المنورة . [٦]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٠ .
٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ .
٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٩١ .
٤ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٣ .
٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٤٣ .
٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

وسجل الرحالة المغاربة الأمور الدّالة على عناية الحكام بأمور الحرمين الشريفين، ودرب الحجاز لكل ما من شأنه خدمة الحجاج وتسهيل أمورهم فعندما تحدث أبومدين عن ثنية كدّا قال: « بالغت الولاة في حفرها، حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك لم تزل بها صعوبة » [١]، وتحدث العياشي عن مجاري عين زبيدة، من منابعها وإلى وصولها لمكة المكرمة، وطريقة صيانتها [٢]، ومن أنواع العمارات التي قامت بها الدولة العثمانية والتي منها الإهتمام بدرب الحجاز، ووضع علامات يستدل بها على الطريق الصحيح، وقد أعطى الدرعي وصفاً دقيقاً لدرب الحجيج وقال عن علاماته: أنه ربما علقوا على رؤوسها المصابيح ليلاً لكي تُرى بوضوح، وأنّ بين كل علامة وأخرى نحو فرسخ أو أقل، ولكنه أشار إلى أنّ هذه العلامات وقت رحلته قد انهار بعضها، ولم يَبْقَ منها إلا الأنقاض [٣]. ولم يشر الزبادي عندما ذكرها إلى خرابها [٤]، لاحتمال إعادة بنائها وصيانتها.

وذكر الحضيكي من المنشآت المعمارية التي أسهمت في تقديم خدمات للحجاج، وجود عين ماء بعرفة تصل لمكة المكرمة وتملأ منها بركة بالمعلى أعدت للسقي، كما وصلت تلك العين بسقاية بالمروة، وميضأة المسجد الحرام. [٥]

وحرص أولئك الرحالة المغاربة في كتاباتهم التاريخية لرحلاتهم، على تسجيل بعض العادات والتقاليد وطريقة الحياة، أي وصف الجانب الاجتماعي للمدن التي نزلوا بها، فالعياشي مثلاً سجل طرفاً من عادات أهل المدينة المنورة [٦]. واليوسي ذكر بعض أخلاق أهل مكة المكرمة الذين تعامل

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية، ص ١٢٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد، ص ٤١٠ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١، ص ١٥٠ .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٥ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين، ص ٤٣ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ٢٣٩، القسم الخاص بالمدينة المنورة، تحقيق أمحزون .

معهم ، وقارن ذلك بطبائع أهل المدينة المنورة ، ولم يتردد في إكالة الذم لأهل مكة المكرمة في حين غمر أهل المدينة المنورة بالثناء [١] . وحسب رأي اليوسي يبدو أنه جانب الصواب في تعميم رأيه ، لأنه لم يختلط إلا بقلة من أهل مكة المكرمة . وفي المقابل نرى الحضيكي يثني على أخلاق أهل مكة المكرمة [٢] ، حيث لمس وشاهد منهم ما أثلج صدره من حسن تعاملهم . وذكر الدرعي طرفاً من عادات أهل المدينة المنورة . [٣]

ويبدو من ذلك اهتمام أولئك الرحالة المغاربة بالجانب الإجتماعي وبراعتهم في عرضه .

وحرص الرحالة المغاربة على إبداء النصح والتوجيه ، وذكر تجاربهم في رحلاتهم ، ليستفيد منها مَنْ يأتي بعدهم ، فنجد اليوسي والدرعي يوصيان مَنْ أراد الذهاب للحجاز بما يجب حمله من نقود ، لكي تسهل معاملاته وأموره ، إضافة إلى توضيحهما للنقود الأكثر قبولاً وطريقة صرفها [٤] . أما أبو مدين فحذر من النقود المزيفة ، وأوصى بأن يحمل الشخص معه بضائع ، حدَّد أنواعها ليتم بها التقايض، «لأن هناك مناطق لا تتعامل بالنقود ، وإنما بتبادل السلع» . [٥]

وقد يجمع الرحالة المغاربة بين المشاهدة والخبر ، كما فعل القادري عندما وقف على المدَّعى بمكة المكرمة ، فوصف الموقع ، وذكر : إنه أخبر أنه المكان الذي دعا فيه إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ **ربنا إني أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيتي** ﴾ [٦] ، وأضاف بأن المدعى معروفة مشهورة لدى أهل مكة المكرمة ، ولما شاهد قبَّة فوق جبل عرفة سأل عنها فذُكر له أنها تسمى قبة داوود [٧] . وسجل اليوسي نبذة

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٣/أ ـ ٩٣/ب .

٢ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٥٣ ـ ٥٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٧/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٣٨ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٦ ـ سورة إبراهيم ، ١٤/٣٧ .

٧ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ .

تاريخية مختصرة ، تتعلق بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونزوله على أمّ معبد ، وإشارته إلى مكانها بعد وقوفه عليها ، وأحال مَنْ أراد الاستزادة من المعلومات إلى كتاب المواهب اللدنية . ‹١›

كما أحب الرحالة المغاربة تتبع أماكن الآثار والسؤال عنها وذكرها ذكر المعاين والمشاهد لها ، فقد وقف القادري على الضريح الذي يزعم أنه للسيدة خديجة رضي الله عنها فوصفه ‹٢› ، وكذلك دار مولد النبي صلى الله عليه وسلم ‹٣› . ودار السيدة خديجة رضي الله عنها ‹٤› ، ومسجد العمرة والبقيع ‹٥› . ووصف اليوسي مغارة شعيب عليه السلام ‹٦› ، ووقف الغنامي والحضيكي على

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/ب ـ ٨٨/أ ؛ كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية للشيخ الإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري ، وهو كتاب جليل مرتب على عشرة مقاصد في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . أنظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٨٩٦ .

٢ ـ غير صحيح وجود قبر لها في هذا المكان . أنظر فيما بعد ، ج٢، ص٤٧٢ ـ ٤٧٣ ، هامش ٤ .

٣ ـ تقع هذه الدار في زقاق الصوغ بالقشاشية بجوار البنك الأهلي سابقاً ، وهذه الدار لا تزال موجودة إلي الآن بالقرب من الساحة الخارجية للمسجد الحرام من جهة المسعى . وتعرف اليوم بمكتبة مكة المكرمة . أنظر عاتق بن غيث البلادي : معالم مكة التاريخية والأثرية ، ص ٢٧١ ، ط١ ، دار مكة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، د. ت .

٤ ـ وتقع هذه الدار في الوقت الحاضر في الزقاق المعروف بزقاق الحجر أو زقاق العطارين بسوق الليل المعروف بسوق الصاغة . وقد هدم هذا المنزل الآن ولا يعرف موقعه . أنظر فيصل عراقي : الأماكن المأثورة في مكة المكرمة ، ص ٥٦ ، مجلة المنهل ، المجلد ٥١ ، العدد ٤٧٥ ، الربيعان ١٤١٠هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩م .

٥ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٠ ـ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٣ ـ ١٠٥ .

٦ ـ هذه المغارة تقع بالقرب من عينونا ووادي القرى ويطلق عليها اليوم العلا وتقع غرب تبوك على ٢٢٠كم، وشرق ساحل العقبة على ٧٠كم ، وهي الآن آهلة بالسكان وبها زراعة وإمارة ومدارس ، وكانت محطة للحاج المصري وآثارها تشهد بازدهارها الغابر . أنظر حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ـ نصوص ـ مشاهدات ـ إنطباعات ، ص ٦٠٣ ، ط٢ ـ دار اليمامة ـ ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، د. ت ؛ محمد عبالحميد مرداد : مدائن صالح تلك الأعجوبة ، ص ٦١ ، ط٢ ، المكتبة الصغيرة ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، د.ت؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ١٩٣ـ١٩٤ .

غار المرسلات ، وتتبع الغنامي بالسؤال عن مواطن الصحابة رضوان الله عليهم وقبورهم ، حيث قال : « إلى أن أوقفني الله على رجل من أهل الخير . فسألته أن يمرّ بي إلى شعبة الأقصى بباب المعلا فأجابني » [١] . فأوقفه على قبر عبدالله بن الزبير ، وأمه السيدة أسماء ، وأخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ، والسيدة خديجة رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرها من القبور والدور [٢] . وحرص الغنامي على السؤال عن حقيقة وجود مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة المنورة ، فقيل له : إنه بداخل الحجرة النبوية الشريفة [٣] . وعقب بعد ذلك بذكر طرفٍ من الأحداث العصيبة التي مرت بها المدينة المنورة ، مثل مجاعة ذُكِرَتْ له ، وكيف أن الله سلم أهلها بوصول سفن محملة بالمؤن من مصر إلى المدينة المنورة . [٤]

ونستشف من هذا الخبر الذي أورده الغنامي ، مدى إرتباط أهل الحرمين بمصر اقتصادياً ، وتحمل الأخيرة عبء المساعدة إذا اقتضى الأمر ، وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية مصر في تموين أهل الحرمين آنذاك .

وأثناء وجود الغنامي بالمدينة المنورة ، ذكر من وقف على قبورهم بالبقيع ، كما سمى أبواب المدينة المنورة . [٥]

كما حرص الحضيكي على إعطاء الناحية التاريخية حقها ، وخاصة فيما يتعلق بالأماكن التي وردت قصصها في القرآن الكريم فأحب التحقق عنها ومعاينتها مثل القرية التي كانت حاضرة البحر [٦] . وبالعموم فالرحالة المغاربة

---

١ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٤ ـ ٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، والصفحتين ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

٣ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

٤ ـ المصدر السابق والصفحة ؛ ولم نستطع تحديد السنة التي حدثت فيها هذه المجاعة في المصادر التي تناولتها .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٧ ـ ٨ .

٦ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

حرصوا على تتبع الآثار بمكة المكرمة ، وخاصة التي لها إرتباط بالرسول صلى الله عليه وسلم .[١]

ومن دقائق الأمور التي تخفى على الباحث ولا يعرفها إلا بمطالعة كتب الرحلات المغربية ، مجالس الدرس وحلقات العلم التي كانت تقام في ركب الحجيج ، فسجل الغنامي ما أخذه في طريقه إلى المدينة المنورة من درس عن وقعة بدر ، وأكد على أنه أخذها قراءة وتحقيقاً وتدقيقاً [٢] . وهذا يوضح أن ركب الحجيج كان يضم بين جنباته علماء أخذوا على عاتقهم التدريس أثناء سيره ، فكانت مدارس علم متنقلة .

وهناك أمور تفاوت الرحالة المغاربة في ذكرها ، فمنهم من ذكرها ، ومنهم من أهملها ، مثل التدقيق في المسميات ، فنجد الغنامي يعدد أبواب المدينة المنورة بأسمائها [٣] . في حين حدد أبو مدين الأماكن الصالحة للرعي [٤] ، وأشار الزبادي إلى أماكن وجود المعادن بالحجاز [٥] ، كما حدد الأيام التي تعودت أركاب الحجيج الوصول فيها لمكة المكرمة من أقطار الأرض باليوم والشهر العربي والإفرنجي [٦] . وانفرد الزبادي بالتعريف لبعض مواضع مكة المكرمة فعدّد أسماءها إلى جانب تعداده لأسماء مكة المكرمة .[٧]

وأرخ الرحالة المغاربة لبعض العادات المستحدثة ، مثل تأريخ الدرعي لبداية ظهور البن وأول من صنع القهوة ، وطريقة إنتشارها ، وأتبع الخبر ذكر

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٠٧ ـ ١١٣ .

٢ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٥ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٩٤ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ١٠٦ .

أسعار البن في البلدان العربية والإسلامية ، وذيل خبره بفتاوى العلماء في ذلك الوقت فيها مثل فتوى إبن حجر الهيتمي [١] في إباحتها ، وكان قد إطلع عليها بمكة المكرمة . ويبدو أنها لم تـرق له تلك الفـتوى فقال : « لكـل جواد كبوة ولكـل صارم نبوه » [٢] ، وجاء على ذكر الدخان ومـا أثير حوله من اراء وأتبع ذلك برأيه . [٣]

ومن هنا يظهر لنا تصدر الرحالة المغاربة التأريخ للأمور المستحدثة والآراء والفتاوى حولها مع عرض آرائهم في ذلك .

ومما سبق يتبين لنا عظم ما دونه الرحالة المغاربة في رحلاتهم ، مع وقوعهم في كثير من الأخطاء نتيجة عدم تخصصهم ، فاليوسي مثلاً أخطأ عندما ذكر أن ماء ينبع من عين الزرقاء ، وأنّ مَنْ أجراها السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد[٤] ، وأصاب في ذكره تاريخ أعمال السيدة زبيدة الخيرية، والتي منها إجراء عيون الماء من وراء عرفة إلى مكة المكرمة ، ولكنه يسميها عين الزرقاء ومع أن عين الزرقاء هي من أهم عيون المدينة المنورة ، فإنه لم يأت على ذكرها في حديثه عن المدينة المنورة . [٥]

---

١ ـ رضى الدين بن عبدالرحمن بن الشهاب أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي ، أحد أفاضل المكيين ووجوه الشافعية ، تلقى العلم على يد كبار علماء عصره ، له مؤلفات كثيرة ، توفي بمكة المكرمة عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م ودفن بالمعلاه . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٢ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٣٧ ؛ انظر هذه الفتوى في لمياء أحمد عبدالله شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ٩٠٩هـ/١٥٥٣م ـ ٩٧٤هـ/١٥٦٦م ، ج٢ ، ص ٦٣٤ ـ ٦٤٩ ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، مقدمه لجامعة أم القري ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٤٨ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/أ ـ ٨٦/ب .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٨٦/ب .

ومن الرحالة المغاربة من يتحرج في إبداء الوصف ، لعدم الوقوف على عين الموصوف ، كالزبادي الذي ذهب إلى البقيع ، ولم يصفها كاملة لأنها على حد قوله : أولاً متباعدة ، وثانياً لخوفه أن يتخطى القبور وهو لا يدري فيقع في محظور . [١]

وما فعله الزبادي إنما يدل على شدة تمسكه بمنهج المعاينة والمشاهدة ليتمكن من الوصف إعتماداً على ما رآه .

ومن الملاحظ على مدونات الرحلات المغربية ، أن الرحالة المغاربة كانوا لا يكتفون بذكر الطريق قدوماً فقط ، بل تعداه إلى القفول أيضاً ، وكأنهم لشدة حرصهم على تسجيل كل ما يتعلق برحلتهم يخافون أن يكون قد فاتهم شيء في القدوم فيكملونه عند العودة ، وهذا النهج سار عليه جميع الرحالة المغاربة بدون استثناء .

ومن الملاحظ أيضاً حرصهم على مصاحبة العلماء مثل الغنامي [٢] ، وكذلك مصاحبة أخٍ أو قريب فالعياشي كان مصاحباً لأخيه [٣] ، والرافعي كان مصاحباً لإبنين من أبنائه [٤] ، واليوسي . كان مصاحباً لأبيه [٥] ، والقادري كان مصاحباً لشيخه أبي العباس [٦] ، والدرعي صحب أسرته معه [٧] . وأبومدين صحب أخاه وهنا تجدر ملاحظة تمسكهم بآداب الحج في اختيار الصحبة . [٨]

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٥٦ .

٢ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٣ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ .

٤ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٤٧ ، ١٠٨ .

٥ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/أ .

٦ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٢ .

٧ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٨ .

٨ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٨ .

ومـن الرحالة المغاربـة من أمدنا بلمحـات عن حياته كالرافعي [١] ، وفي رحلته أشـار إلـى التنافس الذي حـصل بين أمير الحاج المصري ، وأمير الحاج الشامي [٢] ، ولكنه لم يذكر الكثير عن معالم المدينة المنورة لأنه لم يمكث طويلاً فيها . [٣]

والخلاصة أن الرحلات المغربية تكشف التطورات والتغيرات وأسبابها في بلاد الحجاز ، فهي بذلك جديرة بأن تُعتَمد من بين مصادر تاريخ الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين . مما سيتضح بحثه خلال الفصول التالية من هذه الأطروحة .

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

ب ـ دقــة الوصف

اتصف وصف الرحالة المغاربة بالدقة ، وبأسلوب فني ، تأثر بالعوامل الجغرافية والتاريخية والإجتماعية والعلمية التي أشاروا إليها ، بالنواحي الشخصية لكل منهم من حيث التصور والتأثر والخبرة الشخصية والثقافة العامة ودقة الملاحظة التي يتفاوت فيها الرحالة المغاربة من شخص إلى آخر . فحاولوا الاعتماد على الواقع المشاهد ، والإبتعاد عن الخيال ، كما اعتمدوا على كتب الرحلات السابقة ، واستفادوا منها ، ثم أضافوا ما لاحظوه . وهم في طريقة تناولهم للموصوف قليلو التكلف في الأسلوب . فابتعدوا عن استعمال المحسنات البديعية والسجع خلافاً لمن سبقهم من رحالة المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين . [١]

وبهذا يمكننا القول أن ما تناولته أقلام هؤلاء الرحالة المغاربة بالوصف يُحدِثُ في النفس إثارة وتشويقاً لرؤية الموصوف عياناً أو تخيله . وسنحاول أخذ نماذج لمواضع ، تعاقب الرحالة المغاربة على مشاهدتها والمرور عليها ، وسنتلمس أسباب إختلاف رؤيتهم في تناولهم للموصوف أو إتفاقهم ، أو إغفالهم أمر وصفه ، وهذا يعود إلى شخصية الرحالة وملاحظته ، وإلى ما يلفت انتباهه .

فالقيسي مثلاً : إتسم أسلوبه في الوصف بالسلاسة ، والبعد عن التكلف والسجع ، مع إعطاء وصف عام غير مفصل ، ولكنه موفٍ بالغرض ، إذ تبدو شخصيته المنظمة من خلال رحلته المدونة بترتيب ، فقد وضع عناوين للموضوعات التي تكلم عنها .

---

١ ــ نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ١٤٠ .

ولتوضيح طريقة وصفه نورد ما كتبه عن خليص ، والتي مرّ عليها جميع الرحالة المغاربة إذ قال : « فيه عين جارية ، يجتمع ماؤها في بركة عظيمة ، ذات أركان أربعة مبنية ببناء مرصوص »[١] . فهنا أهمل وصف منبع العين ، ولم يذكر هل هناك مجارٍ لإيصال الماء للبركة أم لا ، ولم يأتِ على ذكر زرع أو مسجد أو بنيان ، فهو بذلك قد أجمل في وصفه ، وهذا دأبه في وصف كلّ ما مرّ به . وعندما وصل لمكة المكرمة ، لم يلفت انتباهه إلا الكعبة المشرفة التي تناولها بالوصف وحدد مقاساتها وارتفاعها[٢] . ولكنه أغفل وصف كسوتها وميزابها وبابها ، ويبدو أنه نظر إليها ككل ، ولم يفصل في وصف أجزائها ، كما لم يتعرض لوصف المسجد الحرام وهذا مستغرب لأن الرحالة المغاربة كانوا يتشوقون لرؤية المسجد الحرام ووصفه ، فضلاً عن أن القيسي مكث بمكة المكرمة حوالي عشرة أيام .

والغريب أن القيسي اتخذ منهجاً آخر عندما وصف المدينة المنورة فمع أنه أقام أربعة أيام فقط ، فقد وصف داخل المسجد النبوي بالتفصيل وعدد أبوابه وأبواب المدينة المنورة بأسمائها[٣] ، كما وصف سور المدينة المنورة ، وحدد أماكن السقايات بها ، وتصدر لوصف هدية بعث بها سلطان المغرب الوليد بن زيدان للمسجد النبوي ، وكذلك وصف قباء ومسجدها ، وبعض المساجد المشهورة ، وكذلك المشاهد بأُحد والبقيع ، مع تحديده لأماكن قبور بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ووصف ما وجد عليها من بناء ، وختم ذلك بوصف عام للمدينة المنورة .[٤]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

٣ ـ وجد أنه أخطأ في تسمية باب المصري فسماه باب القصري ؛ القيسي : أنس الساري ، ص ٩٦ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩٩ ـ ١١٦ ، ١٢٠ .

ومن المعالم الرئيسة التي أجاد في وصفها المنبر الشريف ، ونقل نقوشه فقال عنه : « أصله من رخام ، وترصيعه من الصندل الأحمر والأبيض والأصفر . . . ومما كتب في المنبر في جانبه الأيمن ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات** ﴾ إلى (**الكبير**) [١] ، وفي الجانب الأيسر « روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بين روضتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » [٢] . وعلى بابه الذي يدخل الإمام منه مكتوب ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ إلى (**تذكرون**) [٣] ونون (**تذكرون**) عرّقها الكاتب في الرخامة البيضاء من الخد الأيسر . ومما كتب في قفاه من ناحية القبلة ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا إذا نوديَّ للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ . [٤]

ونخلص مما أورده القيسي في رحلته ، تركيزه في الوصف على المدينة المنورة وما يختص بها ، وكأن أحاسيسه وانفعالاته لم تتفجر إلا فيها ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه إيراده للعديد من المقطوعات والأبيات الشعرية الدالة على التشوق والمديح لها في كل مقام وصفه بها .

وأما العياشي فكان أكثر دقة من القيسي في وصف ما مرّ عليه كلاهما فقال واصفاً خليص : « وفيه عين ماء تجري ، وأبنية ومقاهي وسوق ، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين ، يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء ، إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية ، لم أرَ أحلى منها ولا أعظم ،

---

١ ـ سورة الشوري ، ٢٢/٤٢ .

٢ ـ البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج١ ، ص ٢٠٧ .

٣ ـ سورة النحل ، ٩٠/١٦ .

٤ ـ سورة الجمعة ، ص ٩/٦٢ .

يغرق فيها مَنْ لا يحسن العوم ، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد . . . ومررنا على غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل [١] وغيره ، وفي خلالها فدادين يزرع فيها المقاثي [٢] والدخن وغير ذلك » . [٣]

فالعياشي سجل كل ما لاحظه ، فأثبت وجود أبنية ومقاهي وسوق وغيرها من أنواع العمارة ، مما يوضح دقة وصفه وعظيم ملاحظته .

ولم يحاول العياشي وصف كل ما وجد بالمسجد الحرام من معالم دقيقة ، مع أنه مكث بمكة المكرمة مجاوراً فترة من الزمن كانت بلاشك كافية لقيامه بالتدقيق والوصف ، وكل ما أثبت وصفه شكل الكعبة المشرفة من الداخل ، وكان دقيقاً فيه حتى أنه أورد رسماً توضيحياً مفصلاً لها . فكان أول من استخدم تلك الرسوم التوضيحية في كتب الرحلات المغربية ، ويعتبر رائداً في ذلك .

ومما ذكره في وصفه لداخل الكعبة المشرفة قوله: « من داخله بيت مربع ، ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع ، ليصعد منه إلى السطح ، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزع ، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجية في الصنعة والكتابة مخالفة لها في اللون ، فإن الخارجة سوداء كلها ، والداخلة بياض في حمرة ، وفيه مصابيح كبيرة معلقة ، بعضها من الذهب ، وبعضها من البلور الأبيض الصافي المكتوب بلون أزرق ، وله ثلاثة أعمدة من خشب ، مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال ، وكل عمود منها قد سُمّرت عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة . . . والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له ، أحدها رأسه على رأس السلم وهو أقربها لجدار البيت ،

---

١ ـ (الأثل) : شجر عظيم لا ثمر له . أنظر الفيومي : المصباح المنير ، ج١ ، ص ٩ .

٢ ـ (المقاثي) : يطلق على أنواع الخضار مثل الخيار والفقوس . أنظر المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ .

وليس بينه وبينه إلا مقدار ما يصلّى فيه ، والثاني بينه وبين الباب والثالث عند الباب »[١] . وفي مكان آخر عندما ذكر تجديد سقف الكعبة المشرفة قال : إن لها سقفان بينهما مقدار ذراعين ونصف أو ثلاثة حسب ما قيل له .[٢]

وأغفل العياشي وصف الميزاب والحِجْر ، ولكنه أشار إلى وجود مجاري لتصريف مياه السيول بأرض المسجد الحرام ، كما أشار إلى وجود القباب ، وأن أرض الحرم الشريف والمسعى مفروش بالرمل والحصى ، وذكر وجود نقوش بالمقام ، وعلى قبة زمزم ، وعلى قباب مقامات الأئمة الأربعة ، ولكنه لم ينقلها ، كما أثبت عدد الأعمدة التي كانت موجودة بالمطاف ، ولكنه لم يتطرق لوصفها .[٣]

وفي مقابل وصفه العام للمسجد الحرام ، نجده برع في وصف الأماكن المأثورة بمكة المكرمة بدقة شديدة ، مثل وصفه لغار حراء .[٤]

وعندما جاور بالمدينة المنورة ، غض الطرف عن التدقيق في وصف المسجد النبوي ، وربما يرجع ذلك إلى المرض الذي ألمَّ به بالمدينة المنورة فترة طويلة ، ولكنه لم يترك موضعاً ولا مشهداً أو مسجداً أو بئراً كان موجوداً بالمدينة المنورة في ذلك الوقت إلا وتناوله بالوصف ، مستعيناً في ذلك بما تركه السمهودي من أوصاف في كتابه وفاء الوفا إضافة إلى تسجيله لعوائد أهلها بدقة وعناية فائقة .[٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٤ . ووصف العياشي لداخل الكعبة المشرفة مهماً لا سيما أنه جاء بعد بنائها في عهد السلطان مراد العثماني .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٧ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٨٧ ـ ١٧٣ ، ١٩٧ ـ ٢٤١ . الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

ومع عدم تدقيق العياشي في وصف المسجدين المكي والمدني ، فقد وصف الطائف [١] ، وجُدة وما جد فيهما من آثار[٢] . فسجل بذلك أوصافاً لم تكن على طريق الرحالة المغاربة فكان له السبق في إيراد الجديد والغريب والنادر والطريف ، فتميز عن غيره من الرحالة المغاربة في ذلك .

ونخلص إلى القول أن العياشي يعتبر شيخ من أتى بعده من الرحالة المغاربة والمعول عليه ، فرحلته كانت أنموذجاً احتذوا بها لما تضمنته من موضوعات وأوصاف أماكن ، رتبت تحت عناوين منظمة ، ولم يستطع أي منهم أن يصل في تدوينه لرحلته إلى ما وصل إليه العياشي ، من حيث كبر حجمها أو ما اشتملت عليه من مناقشات وطرائف ومواضيع فقهية ، وأوصاف جغرافية ، وعادات اجتماعية ، وأحداث تاريخية وسياسية واقتصادية ، فانفرد العياشي وكان سباقاً ومتميزاً ، وكانت رحلته أصدق دليل على شخصيته المتميزه .

أما الرافعي أحد فقهاء تطوان وأدبائها في القرن الحادي عشر الهجري ، فقد حاول كتابتها بأسلوب أدبي تكلف فيه كثيراً ، دون أن يرقي لأسلوب أدباء الرحالة المغاربة في القرون السابقة ، وقد اعترف هو نفسه بضعفها الأدبي . [٣]

وقد ضمنها الأوصاف الجغرافية مع أنه غض النظر عن كثير منها ، فأورد وصف الحرمين الشريفين ، وضمنها بعض العوائد الإجتماعية ، وإشارات تاريخية وسياسية واقتصادية ، وأخبار من لقيهم من العلماء فبدت رحلته سجلاً تاريخياً لمجتمعات البلدان التي مرّ عليها في رحلته التي استغرقت أربعة عشر شهراً .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٠ ـ ٤١٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٥ .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٢٨٧ ؛ د/ حسن الوركلي : أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي عشر الهجري ، ص١ ـ ٢ .

وسنحاول أن نتلمس مقدار إهتمامات الرافعي من خلال رحلته . فمثلاً : عندما مرّ بخليص أهمل وصفها ولم يورد بشأنها إلا قوله: « خليص الزرقاء » [١]، فهنا أثبت الرافعي أنها أحد منازل الحاج فقط ، ولا ندري ما سبب نعته لها بالزرقاء ، فهو لم يوضح ذلك ، ولكنه بمجرد وصوله للمسجد الحرام إنبرى لوصفه بأدق تفاصيله ، إذ يعتبر أدق من وصفه من الرحالة المغاربة ، فقد كان شديد الملاحظة فيما يختص به فقال واصفاً الكعبة المشرفة : « وسط هذا البيت العتيق . . . وباب الكعبة عالٍ عن الأرض بثمانية أشبار وأربعة أصابع ، عرضه ثمانية أشبار . . . كأنه البدر في هالته حُسناً ، كله بالفضة في نمط حسن ، وقفل الباب فضة، وكذلك خرصتان وفضتهم مموهة بالذهب، فصارت كأنها شعلة تضيء وتلتهب ، وطول الباب قدرت له إثنا عشر شبراً . . . والملتزم بجانب الباب . . . والحَجَرُ في ركن الكعبة وهو أسود . . . وهذا الحَجَر السعيد مدير بفضة ، إرتفاعه عن الأرض خمسة أشبار . . . وميزاب الكعبة وسط الحِجْر . . . طوله نحو الثلاثة أشبار ، وعرضه شبراً . . . مغشاً كله بالذهب . . . وفي أسفل الكعبة بناء منحدر منها ومتصل يقال له : الشرذوان (هكذا) يضاف بها من ثلاث جهات عدا جهة الحِجر . . . يدار بأسفل الكعبة أخراص عديدة من الصِفر والنحاس لتربط بها كسوة الكعبة . . . وهذه الكسوة من خالص الحرير . . . سوداء كالمسك » . [٢]

ومن المعالم التي وصفها الرافعي بالمسجد الحرام ، أرضه وما فرشت به ، وأبوابه ، ومناراته ، ومصابيحه ، كما وصف المقام ، والحفرة التي بجانب الكعبة المشرفة ، والحِجْر ، وقبة زمزم ، وحدد أماكن مقامات الأئمة الأربع ، كما حدد طول وعرض المسجد الحرام ، وأتبع ذلك وصفه للصفا والمروة [٣]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٧ ـ ١٤٨ .

وغير ذلك مما هو متعلقٌ بالحرم المكي بصفة خاصة والمشاعر المقدسة ومكة المكرمة بصفة عامة . [١]

وعلل حرصه في تسجيل ما يتعلق بالمسجد الحرام ، إنه شغف به قلبه ، فوصفه تبركاً وطلباً للثواب والأجر ، وليكون قارىء رحلته كالمشاهد ، فيحصل له الأجر بذلك ، وبعض الفوائد ، وأتبع تعليله هذا إقراره بأنه غير أهل لما تصدر له [٢] ، حيث تتضح شخصيته المتواضعة البسيطة ، وأن كل ما أراده هو الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى .

وعندما وصل الرافعي إلى المدينة المنورة بادر أيضاً لوصف المسجد النبوي ، فعدد أبوابه ، ومناراته ، ووصف صحنه وما فرش به ، والقبة التي وجدت فيه ، ونخلتين زرعتا هناك ، ووصف أيضاً الروضة الشريفة ، والمحاريب الثلاثة ، والمنبر ونقل نقوشاً رآها [٣] ، وعن المنبر قال : « وهذا المنبر الآن من خالص الرخام ، أبيض منقوش مخرم ، وصفه لا يرام ، طول هذا المنبر المديد في الأرض تسعة عشر شبراً ، وأربعة أشبار في العرض ، له إحدى عشر درجة » . [٤]

واعتذر الرافعي عن وصف مشاهد خارج نطاق المسجد النبوي ، لقلة مكثه بالمدينة المنورة ، وأنه فضل ملازمة المسجد النبوي عن التطلع لغيره من الأماكن [٥] ، وتصرفه هذا يبرز لنا جانباً من شخصيته المؤمنة الراضية القانعة بما يسر الله تعالى له ، ومحاولة الاستزاده من الحسنات . لقول الرسول ﷺ (صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام). [٦]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤٩ ـ ١٦٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٢ ـ ١٩٠ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

٦ ـ البخاري : صحيح البخاري ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

أما القـادري فكان يحكـم خطـوات تسجيل رحلته شـيخه أبو العباس ، إذ أنه لشدة تعلقه به وحرصه على ملازمته وإحصاء خطواته وسكناته ، فوت علينا الكثير من الأمور ، فالقادري كان سريعاً في وصفه ، مثبتاً لأسماء الأماكن دون إسهاب ، ولكنه دقيق ومركز ، وكل ما سجله القادري في رحلته كان من خلال تتبعه ووصفه لأفعال شيخه في غالب ما دوّنه ، حتى أنه يمكننا القول : لولا وجود شيخـه معه لما سجل رحلته [١] ، لأنه سبق له الحج قبل ذلك ولم يسجل أحداث رحلته تلك .

ومن أمثلة وصفه عن خليص قال : « قرية ذات نخل وماء عذب قوي » [٢]، وهو بذلك لم يعط أي تفصيلات في وصفها ، كما لم يتسن للقادري وصف المسجد الحرام لأنه لم يكن يهم شيخه التدقيق فيه ، والحرص على التجـول داخـله ، وكل ما حظينا منه في وصفه لمعالم المسجد الحرام ، وصف داخل الكعبة المشرفة لأن شيـخه دخلها [٣] ، ويمكـنـنا أن نطلـق على هذا الوصف ، تسجيلاً لأفعال شيخه أبي العباس ، وعندما أورد أوصاف الأماكن المأثورة بمكة المكرمة كان شيخه بطلها أيضاً ، ومما يؤكد ما ذهبنـا إليـه قـوله : « ومـر سـيدّنا بمكة في تلك الشوارع وزار بها عدة مواضع من الأماكن » . [٤]

وعندما وصل القادري إلى المدينة المنورة ، لم يحفل أيضاً بوصف المسجد النبوي إلا فيما ندر أثناء حديثه ، ولكنه سجل وصف المشاهد التي زارها شيخه بالمدينة المنورة . [٥]

---

١ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٢ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٧٥ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨٦ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩٠ .
٥ ـ المصدر السابق ، ٨٦ ، ٩٠ ـ ٩٢ ، ١٠٢ ـ ١٠٧ .

ويأتي اليوسي بأوصافٍ مختصرة حيناً وأخرى مسهبة في ثنايا رحلته ، وفي كلتا الحالتين عبرّ عما شاهده ، فمن ذلك وصفه لخليص قال : « وماؤها كثير طيب ، وقرى الحجاز كلها أخصاص [١] وبنيان قليل » [٢] فأشار بذلك أن خليص كانت قليلة البنيان كثيرة الأخصاص .

وأقام بمكة المكرمة خمسة عشر يوماً [٣] ووصف بعض المسجد الحرام ، مثل الشاذروان ، وميزاب الكعبة الشريفة ، كما حدد إرتفاع بابها وموقع الملتزم والحطيم بدون تفصيل [٤] ، وفي المدينة المنورة اقام يوماً واحداً ولم يصف المسجد النبوي ، ولا المشاهد ، واسترعى انتباهه الإزدحام الشديد بالمسجد النبوي ، وياقوتة كانت معلقة على الحجرة النبوية الشريفة . [٥]

وربما اكتفى بأوصاف من سبقه من الرحالة المغاربة والمؤرخين في ذلك ، في حين سجل دقائق الأمور والأعمال التي لم يلتفت إليها الرحالة المغاربة الآخرون مما يخص العامة ، إذ رصد تصرفات العوام من الناس ، فطغى الجانب الاجتماعي في رحلته على غيره من الجوانب ، كما تظهر رحلته شخصيته المعتدة بنفسها ، والتي تعكس شخصية والده .

أما الدرعي فقد اعتمد على ما ذكره العياشي وأضاف القليل الذي جدّ ، فمما ذكره عن خليص قوله : « وماء هذا العين أحلى وأعذب إلا أنه سخن » [٦] ،

---

١ ـ (الخص) : بيت من شجر أو قصب ، وقيل البيت الذي يسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج ، وسمي بذلك لأنه يرى مافيه من فرجة أي خصاصة ، أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٧ ، ص ٢٦ . وهذا يدل على ونوع البناء السائد في تلك الفترة .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٩٤/أ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٨٩/ب ، ٩٢/ب .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٩٤/ب ـ ٩٥/أ .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ .

كما أشار إلى وجود مسجد نسب للنبي صلى الله عليه وسلم قال عنه : « وقد تهدم وامتلأ أوساخاً وصار إصطبلاً للدواب فإنا لله وإنا إليه راجعون » . [١]

وكان الدرعي في وصفه للمسجد الحرام والمسجد النبوي ، ومعالم المدينتين المقدستين عالة على ما أورده العياشي في رحلته ، حيث كان يورد الفقرات الطوال وأضاف القليل النادر فحذا حذوه كما نقل عنه وصفه لمدينتي جُدة والطائف [٢] ، ولم يستثنى الأماكن المشهورة بمكة المكرمة [٣] من نقله أيضاً ، وعندما تحدث عن معالم المدينة المنورة ، كان عالة على العياشي في اضافاته القليلة لما استجد [٤] ، والذي كان في غاية الأهمية لأنه يظهر لنا التغيرات التي طرأت ، والتي قد لا نجدها في كتب التاريخ المتخصصة ، وهذه فائدة كتب الرحالة المغاربة حيث يتم تتبع بدايات الأمور والأحداث ، وربط الأسباب بالنتائج بيسر وسهولة .

أما الغنامي فرحلته قصيرة جداً ، وكأنه أرادها مذكرة صغيرة ، فلم تكن كرحلات غيره من الرحالة المغاربة من حيث الضخامة والشمول ، فهي مقتطفات مختصرة لما مرّ به ، فمن ذلك تعيينه لموقع قديد [٥] دون أن يأت على ذكر خليص القريبة منها ، كما لم يأت على وصف المسجدين المكي والمدني ، وكل ما ذكره عنهما عدد أبوابهما [٦] . مع ملاحظة أن رحلته مبتورة ، ولعل في ما بتر منها أوصافاً أشمل ، خاصة وأنه وصف الدور المشهورة بمكة المكرمة بدقة ، كما حدد أماكن القبور المشهورة والمساجد التي زارها بالمدينة المنورة . [٧]

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ .
٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٦ ـ ٢٤١ .
٣ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧ .
٤ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠ ـ ٤١ .
٥ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ .
٦ ـ المصدر السابق ، ص ٥ ، ٧ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ٧ ـ ٨ .

ويبدو أن إهتمامات الغنامي العلمية والبحث عن من يتلقى العلم عنه ، كان أظهر من أي اهتمام آخر ، لذا كانت هذه الناحية هي الغالبة على رحلته ، خاصة وأنها كانت إحدى الدوافع التي حفزته لتسجيل رحلته فقال : « أردت أن أعلق ما وقع لي من الزيارات ، في سفري هذا من الملاقاة مع المشائخ ، الذين لهم في العلم والدين القدم الراسخ ، وما حصل لي منهم » . [١]

ويأتي الحضيكي الرحّالة الوّصاف ، ودقته في الوصف تختلف من موقع إلى آخر ، فإذا كان الموقع مرتبطاً بناحية تاريخية أوردها دون تكلف وكأنها من سياق الوصف ، كذكره لموقع قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها [٢] ، وأهمل ذكر خليص تماماً ، واستبدل بها موقع كديد [٣] ووصفه بقوله : « عيناً تجري ، وحوله قبتان الآن وصهريج » [٤] . وربما يعود النزول بالكديد إلى اضمحلال شأن خليص قليلاً أو لم يمروا عليها .

واستعاض الحضيكي عن وصف المسجد الحرام بوصف أحوال الناس بمكة المكرمة قبل الطلوع لعرفة وبعده ، ووصف الشاذروان ، وناقش وجود مقامات الأئمة الأربعة بالحرم المكي [٥] ، كما عدد الأماكن المشهورة بمكة المكرمة بدون إسهاب . [٦]

---

١ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ١ .

٢ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٠ .

٣ ـ (الكديد) يعرف اليوم بأسم الحمض لكثرة نبات العصلاء به ويكثر بهذا الموضع الرمال ويزرع هناك الدخن عثرياً ، ومـاء الكديـد مالحاً لا يصلح للزراعة ، وتبعد عن عُسفان ١٧كم . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٧ ، ص ٢٠٥ .

٤ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٠ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٤١ ـ ٦٠ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٦٧ .

وفـي المدينة المنـورة ، اكتفى من معـالم المسـجـد النبـوي بذكـر المنبـر الشريف [١] ، ولكنه بالنسبة للمواقع المشهورة الأخرى أتي على وصفها وعلى ذكر الناحية التاريخية المتعلقة بها . [٢]

وأما أبو مدين فقد اعتمد اعتماداً رئيساً على ما جاء في رحلة الدرعي ، وصرح بأنه سيأتي بكلامه مختصراً مع إبقائه على بعض ألفاظه [٣] ، وأضـاف عليه ما رأى أنه استجدّ . واتسمت رحلته بالترتيب والتنظيم ، فجعلها على هيئة مقدمـة وثلاثـة أبواب ، يندرج تحت كل باب عدة فصول [٤] ، ورحـلة أبي مديـن على حد علمنا هي الرحلة الوحيدة التي كتبت بهذه الصورة .

فعندما مر أبو مدين على خليص ذكر الكديد وقال عنها : « وفيه ماء عذب جار . . . وفيـها أسواق » ويظهـر من كلامـه أنها قريـة عامـرة لأنهم اكتروا بيتاً بها . [٥]

وعندما وصل إلى مكة المكرمة وذهب إلى المشاعر المقدسة لأداء فريضة الحج ، وصف كل ما شاهده من آثار هناك [٦] . وتصـدر أيضاً لوصف الأمـاكن المأثـورة بمـكة المكرمة مثل غـار ثور الذي وضع لداخله رسماً توضيحياً [٧] ، كما ذكر أغلب المشاهد التي زارها بمكة المكرمة بترتيب وعناية . [٨]

---

١ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٨٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٤ ـ ٩٢ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٢ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٢٣ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٨ ـ ١٣٤ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

وكان لبعض معالم المسجد الحرام نصيب من وصفه ، حيث وصف الكعبة المشرفة مستعيناً في ذلك بما جاء لدى الأزرقي ، كما أورد وصفاً للمقام ، وزمزم ، والمطاف ، وعدد أبواب الحرم الشريف ومناراته ، ذاكراً أنه أصبح عددها الآن سبعة بزيادة منارتين عما ذكره الأزرقي والفاسي ، كما نقل مساحة المسجد الحرام أيضاً من الأزرقي [١] . ولا نستطيع أن نعرف ما سبب إغفاله وصف المسجد الحرام والاكتفاء بإيراد ما جاء لدى الأزرقي ، بالرغم أنه قد جاور في الحرمين وكان لديه الوقت الكافي للتأمل والمشاهدة والتدقيق ، ولكن يبدو أنه من الرحالة المغاربة الذين أحبوا النقل عن غيرهم ، مع وضع مداخلات أثناء ذلك بإضافة ما قد استجد ، فهو بذلك ربط في رحلته القديم بالحديث ، بحيث أن المتصفح لرحلته لا يحس بهذه النقلات الزمانية ، والتي نستشعرها من سياق الوصف .

وعندما جاور بالمدينة المنورة ، نقب عن الأماكن التي يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جلس بها ، أو المساجد التي صلى بها ، والآبار التي شرب منها ، فحرص على زيارتها ووصفها ، مثل البقيع وما به من المشاهد والآثار [٢] . كما حرص على وصف المسجد النبوي بدقة ، فقد استوفى وصفه من حيث عدد أساطينه ومناراته وأبوابه ، كما وصف الروضة الشريفة وصحن المسجد وغير ذلك من المعالم المهمة به . [٣]

وأما الزبادي فقد أضاف العديد من المعلومات عن الحجاز على ما أورده أسلافه الرحالة المغاربة واتسمت طريقة وصفه بالوضوح والرؤية الجيدة ، فمن ذلك عندما مر على خليص ذكر وجود حصن هناك ، فقال : « وهناك حصن يحصل به الإيناس ، وأبنية وقهاوي (هكذا) ، ودلاع يصلح للتداوي يسمونه حبحب ،

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨٥ ـ ١٩٠ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٥ ـ ١٥١ ، ١٦٠ ـ ١٦٨ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٢ ـ ١٥٥ .

وهو أحلى دلاع يوجد ، وأطـيب ، ولا ينقطـع الدلاع من أرض الحجـاز صيـفاً ولا شتاءً إلا سنة الجدب والعام الأشهب . . . وماء هذه الأرض عذب زلال ، غزير سلسـال ، يأتي من عين هناك في قنـوات محكمة تتفجر في مـواضع للسقـي والوضـوء إلى أن يخـرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية ، مديّرة الأقطار بعيدة القرار ، ويخرج منها إلى مزارع وأوطار » . [١]

أما وصف المسجد الحرام فنقل وصفه من رحلة أخيه أحمد الذي جاور قبله ، ثـم ألحقه بما جاء في رحلة العياشي [٢] ، ويبدو أن معالم المسجد الحرام لم تتغير ، إضافة إلى قصر مدة مكوث الزبادي بمكة المكرمة ، فهذا دعاه إلى النقل ، مع الأخذ في الإعتبار أنه لم يسجل رحلته في حينها . [٣]

ومن الجدير بالذكر أن مـا نقله الزبادي عن رحلة أخيه أحمد المفقودة يعطى صورة حقيقية عن أوضاع الحجاز في تلك الفترة ، لأنها في غاية الدقـة والأهمـية ، فرحلة أخيه تعد من الرحلات المغربية المفقودة .

وعندما وصل الزبادي إلى المدينة المنورة ، نقل وصف المسجد النبوي عن أخيه وعن ابن جبير وغيرهم [٤] . وأضاف أحداثاً كثيرة حدثت أوان رحلته .

فالرحلات المغربية نقلت عن بعضها ، وأكملت بعضها ، فظهرت سلسلة متصلة الحلقات تحكي تاريخ الحجاز . وتتحقق فائدتها إذا ما قورنت بما كتبه مؤرخو مكة المكرمة ومصر والشام وغيرهم عن الحجاز في تلك الفترة .

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١١٧ ـ ١٢٠ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ ، ١٧٩ ـ ١٨٠ .

جـ ـ الاستفادة من الرحلات السابقة

اعتمد الرحالة المغاربة على كتب مَنْ سبقهم من الرحالة ، وهذا من اسس الكتابة التاريخية لدى كبار المؤرخين المسلمين ، مع إضافة ماغاب عن السابقين ، أو ما جدّ بعدهم ، أو تغير . وعلى هذا يكون قد وصل الحاضر بالماضي . وعليه فقد أمدتنا تلك الرحلات المغربية بمعلومات متسلسلة عن تاريخ الحجاز والبلدان التي مروا بها .

كما عرّفتنا بأسماء كتب ومؤلفين لم نعرفهم إلا من خلال ما سجلوه فحفظوا لنا على الأقل أسماء هؤلاء المؤلفين ومؤلفاتهم وشيئاً مما حوته تلك المؤلفات .

ولا نجانب الصواب إذا قلنا أنه يمكننا إستخراج معجم جغرافي للأماكن التي مرّ عليها الرحالة المغاربة ، فقد سجلوا اسمائها واوصافها مع القاء الضوء على تاريخها أن وجد .

لذلك فإن أهمية الرحلات المغربية تكمن في أنها خزانة كتب ضخمة بمعلوماتها صغيرة بحجمها ، لا يعرف ما فيها إلا بعد التنقيب والبحث لإخراج النفائس التي تضمنتها للاستفادة منها .

ومن الملاحظ على الرحالة المغاربة من خلال نقولاتهم عمن سبقوهم ، أن كل رحالة يؤثر نقل ما تميل إليه نفسه ويوافق هواه ، فمنهم مَنْ آثر نقل الأدبيات ، مثل الأشعار كالرافعي والزبادي ، فقد كتبا رحلتيهما بأسلوب يحاكي أسلوب الأدباء من حيث السهولة والخلو من التكلف ، ومنهم من مال إلى نقل النواحي العلمية وبعض القصائد والمقطوعات الشعرية كالقيسي والحضيكي ، ومنهم مَنْ أحبّ نقل النواحي الجغرافية ، والعوائد الاجتماعية ، والأمور الاقتصادية ، مثل الدرعي وأبو مدين والعياشي ، ومنهم من مال إلى تسجيل ما عاينه فقط كاليوسي والغنامي ، ومنهم مَنْ جمع ذلك كله كالعياشي الذي يمكننا أن نطلق عليه رحالة الوصف الشامل .

وقد يطغى جانب على آخر ، فكل رحلة مغربية تعتبر مليئة بالعديد من المعلومات في النواحي العلمية والأدبية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية تنتظر الدراسة والاستخراج .

ولم تقتصر استفادة الرحالة المغاربة على كتب الرحلات السابقة فحسب ، بل نجدهم قد استفادوا من بعض كتب التاريخ العام لكبار المؤرخين ، أمثال ابن خلدون من كتابه العبر والسيوطي من كتابه حُسن المحاضرة ، وبعض كتب التاريخ الخاص بالحجاز لكبار مؤرخي مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مثل الفاسي من كتابه شفاء الغرام وإبن فهد وكتابه اتحاف الورى والأزرقي وكتابه تاريخ مكة والسمهودي من كتابه وفاء الوفا وابن النجار وكتابه الدرة الثمينه . كما استعانوا بكتب معاجم اللغة مثل القاموس للزبيدي لتفسير معاني بعض الكلمات .

فالقيسي مثلاً وجدت في رحلته نقولات من رحلة ابن رشيد [١] فيما يختص بالناحية العلمية ، إذ سجل حديثاً رواه ابن رشيد [٢] . كما نقل من أصل رحلته وبخطه شعراً في المديح . [٣]

ومن الجدير بالذكر أن أصل رحلة ابن رشيد والتي تسمى « ملء العيبة » كانت موجودة برباط الموفق [٤] الذي كان موقوفاً على المغاربة بمكة المكرمة [٥] . ولكن للأسف فقدت رحلته والتي لم نعرف خبر وجودها بهذا الرباط إلا من أمثال هؤلاء الرحالة المغاربة الذين اطلعوا عليها واستفادوا منها ، وهذا يؤكد حقيقة

---

١ ـ محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن رشيد أبوعبدالله الفهري السبتي . ولد بسبته عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م وتوفى بفاس عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م . قام برحلة إلى الحجاز عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م وسجل احداثها وسماها ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة . نواب : الرحلات المغربية ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص٨٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٤ ـ رباط الموفق أسفل مكة المكرمة بالقرب من باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام أوقاف على المغاربة عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م . نواب : الرحلات المغربية ، ص ٣٩١ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥١٠ .

هامة أنه لولا كتب الرحلات المغربية لما عرفنا شيئاً عن بعض أمهات كثير من الكتب حَفَظَت أسمائها ومحتوياتها وأماكن وجودها كتب الرحلات المغربية ، والتي أوضحت وبلاشك أن مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ضمت في خزائن كتبها سواء منها العامة أو الخاصة كتباً مهمة . كما بينت كتابات الرحالة المغاربة أن المدينتين المقدستين كانتا حتى القرن الثاني عشر الهجري مركزين من مراكز العلم الهامة يصل شعاعهما إلى جميع أقطار العالم الإسلامي ، بفضل ما وجد بهما من كتب متنوعة علمية وأدبية وتاريخية ودينية ، بالإضافة إلى وجود العلماء المتصدرين للتدريس بهما سواء منهم المقيمين من أهلهما أو المجاورين بهما والوافدين عليهما خلال فترة الحج .

ومما استفاده العياشي من الرحلات السابقة ، « رحلة البكري » ، والتي عثر عليها بمصر وسمى مؤلفها بالشيخ محمد البكري ، ويبدو أنه لم يكن متأكداً من اسمه حيث قال : « وأظنه أحمد أخا شيخنا محمد بن الشيخ زين العابدين » . [١]

وقد استعان العياشي بهذه الرحلة كثيراً في وصف درب الحجيج من مصر إلى مكة المكرمة ، فقد كان العياشي يصف ما يراه لمرحلتين أو ثلاث ثم يورد ما ذكره البكري عنها بدون تدخل منه في نصه ، لأنه لم يشأ على حد قوله تجزئة كلامه [٢] . فالعياشي عندما استشهد بما جاء في رحلة البكري ، كان ذلك بما يناسب الحال والموضع ، فالبكري أسهب في وصف درب الحجيج من جميع النواحي ، وقد سار العياشي على هذا النهج في كل موضع أخذه منها ، بحيث أن القارىء يستخلص الإتفاق أو الاختلاف في رحلته والتي نقل عنها .

كما استفاد من رحلة العبدري والتي يبدو أنه قد إطلع عليها أيضاً [٣] ، واستفاد أيضاً من رحلة ابن رشيد ونقل منها ، إذ رأى منها النسخة الأصلية

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٧ .

٢ ـ المصدر السابق والصفحة .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٩٥ .

برباط الموفق بمكة المكرمة ، عندما تكلم عن إماتة سنة المبيت بمنى ، وفي هذا الأمر أيضاً استعان بقول العبدري فيها [١] . حيث تطابقت أقوال الثلاثة في فترات زمنية متباعدة .

وقام العياشي باستدراكات على رحلة ابن رشيد ، فيما يختص بدرب الحجيج [٢] ، وأخذ أيضاً من رحلة البلوي والمسماه « تاج المفرق » في وصف وادي النار [٣] بمكة المكرمة . [٤]

ونجد الرافعي قد استفاد من الرحلات السابقة أيضاً ، إذ نقل عن العياشي ما أورده عن المناسك [٥] ، كما نقل عن ابن جبير ـ الذي أرسى قواعد فن الكتابة التاريخية للرحلة ـ ، أبياتاً شعرية في التشوق لزيارة المسجد النبوي ، وفي التهنئة لمن حج بيت الله الحرام [٦] . فالرافعي كما نلمس من رحلته كان يميل لهذا النوع من الأدبيات .

ومن الرحالة المغاربة من أغفل أمر الاستفادة من الرحلات السابقة كالقادري ، الذي اتجه إلى توثيق رحلته من الكتب التاريخية المحلية ، فقد استشهد بما جاء في كتاب « شفاء الغرام » للفاسي ، حول قبر أم المؤمنين السيدة ميمونة رضي الله عنها عندما مرّ به ، فقال : إن الفاسي ذكره [٧] ، وكذلك عندما وصف دار أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها ، نقل قول الفاسي ، في أنها أفضل البقاع بعد المسجد الحرام . [٨]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥١٠ .

٣ ـ (وادي النار) هو وادٍ صغير يمر به الحجاج بين مزدلفة ومنى ، ويسمى أيضاً محسر ، وهو الأشهر ، ويعرف اليوم بدقم الوبر . أنظر البلادي : معالم مكة التاريخية ، ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ .

٥ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٧ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٧ ـ ١٥٧ .

٧ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٩١ . وربما يرجع ذلك لأن الرسول ﷺ كان ساكناً بها .

وممن أغفل أمر الاستفادة من الرحلات السابقة أيضاً اليوسي ، الذي كان يميل في تسجيل رحلته على الواقع الماثل أمامه ، وخاصة الناحية الاجتماعية من أمور الحجاج في دربهم الطويل ، ورصد بعض الأحداث التي عانوا منها ، كما سجل صفات بعض أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وكتب بعض النواحي التاريخية وخاصة تلك التي تتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو في ذلك يريد إرجاع القارىء للكتب المتخصصة في هذا الشأن مثل المواهب اللدنية لمن أحب الاستزادة والفهم [1] . كما كان يميل إلى السؤال عن أمورٍ لم يكن يعرفها فيستفسر شفوياً ممن له علم بها . [2]

ومن الرحالة المغاربة الذين استفادوا من رحلات غيرهم الدرعي الذي اطلع على رحلة التجاني [3] ، ونقل عنه تعريفه بشجر العشر الذي يصنع منه الطرف [4] . كما نقل عن البلوي رأيه في الدباغ [5] صاحب كتاب معالم الإيمان وثناؤه عليه [6] ، واستفاد من رحلة العبدري في وصف قبر الشفاف الذي يقع بموضع يسمى أم العظام . [7]

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٥/أ ـ ٨٦/ب .

٣ ـ محمد بن أحمد بن محمد أبوعبدالله التجاني أديب له عدة مؤلفات توفي عام ٧١١هـ/ ١٣١١م . الزركلي : الأعلام ، ج٥ ، ص ٣٢٤ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ . (الطرف) الطرفة شجرة من العضاء ، وهدبه مثل هدب الأثل وليس له خشب ، إنما يخرج عصباً سمحه في السماء ، وقد تتمحض بها الأبل إذا لم تجد حرضاً غيره وقيل الطرفاء من الحمض . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٩ ، ص ٢٢٠ .

٥ ـ عبدالرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسيدي ، أبوزيد ، المعروف بالدباغ من أهل القيروان ، توفي عام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م وترك العديد من المؤلفات منها كتاب معالم الايمان . الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص ٣٢٩ .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٥٥ .

٧ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٣ ؛ (أم العظام) يطلق عليها أيضاً عش الغراب ، أو شرفة بني عطية، وتقع بين البدع وحقل . أنظر حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ١٨٥ ؛ عاتق بن غيث البلادي : رحلات في بلاد العرب في شمال الحجاز والأردن ، ص ٧٣ ؛ هامش رقم ٣ ، جده ، دار المجتمع العلمي ، ط١ ، د.ت .

ولكـن كـان أكـثر استـفـادته من رحـلة العيـاشي ، إذ نقل عنه وصف سبـخة [١] بتونس ورأيــه في القهــوة [٢] ، وما ذكره عن أثار النبي صلى الله عليه وسلم الموجودة بمكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف وغيرها . [٣]

وسجل عنه أيضاً ما كتبه عن منازل الحج ، والتي نقلها العياشي بدوره عن البكري [٤] ، وعندما مر الدرعي على عجرود [٥] وصفها بقلة الماء ، وأكد قوله بما أورده العـيـاشــي حـول قلة مـائها أيـضـاً [٦] ، ونقل منه وصـفـه لمنزل ظهر الحمار [٧] وقال : إن العياشي ذكر أنها تسمى وقت رحلته حفائر النخل . [٨]

وعلى العموم فنقولات الدرعي عن العياشي واستفادته من رحلته كثيره ، فقد اعتمد عليها إعتماداً كاملاً في معظم رحلته .

---

١ ـ (سبخة) أرض ذات ملح ونزو معناها الأرض المالحة التي تسوخ فيها الأقدام . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٣ ، ص ٢٤ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٣٥ .

٣ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٥ .

٤ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٢ وما يليها .

٥ ـ (عجرود) : العجر الخفيف السريع ، والعجر العليظ الشديد منهل من مناهـل الحـاج المصـري ، وهي أولهـا من بركـة الحـاج ذو مـاء رديء . أنظر محب الدين أبي فيفي السيد محمد مرتضي الحسيـني الواسطـي الزبيـدي الحنفي : شرح القامـوس المسـمى تاج العـروس من جواهر القامـوس ، ج٢ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ ، دار الفكـر ، د . ت . الجـزيـري : الـدرر الفـرائـد ، ج٢ ، ص ١٣١٩ ـ ١٣٢٢ .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٥ .

٧ ـ (ظهر الحمار) سـبب التسـمية غير معروف ، وهو جبل بقرب حقل إلى جنوبها وهو الآن غير معروف . أنظر البلادي : معجم معالم الحـجاز ، ج٦ ، ص ١٧ ؛ حمود بن ضاوي القثامي : شمال الحجاز معجم المواضع والقبائل والحكومات ، ج٢ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ، مطابع الهيئة المصرية [illegible]

[illegible]

٨ ـ [illegible] تصغير نخل ، وهي ليست بعيدة عن حقل ، وتقع بينها وبين العقبة . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٣٠ .

أما الغنامي فلم يستفد من كتب الرحلات السابقة ، لم يشر في خطبة رحلته أنه استعان بإحداها ، حيث ركز اهتمامه على ملاقاة المشائخ وتسجيله ليكون حافزاً لغيره على المجيء للحجاز [١] . لذا اتسمت رحلته بطابع الوصف القائم على المشاهدة للأماكن التي زارها دون الرجوع لرحلات غيره ، ولكنه استعان بمن سبقت له معرفتها فأوقفه ودله على ما أراد رؤيته . [٢]

كما إنتهاز فرصة وجوده بالمدينة المنورة ليسأل عن الكتب المفيدة التي ينصح بمطالعتها . [٣]

وأما الحضيكي ، فقد فضل الاستفادة من كتب الرحالة المغاربة وغيرها من الكتب لتدعيم رأيه ، فيما يورده من مناقشات ومسائل علمية .

فنقل من رحلة ابن رشيد مناقشته حول قضية أصل الشاذروان [٤] ، وهي ناحية علمية ، كما رجع إلى رحلة التجيبي المسماه « مستفاد الرحلة والإغتراب » وإن لم يصرح بذلك ، لأنه نقل أمر بدعة العروة الوثقى وسُرة الدنيا التي كانت موجودة بداخل الكعبة المشرفة ، إذ كان التجيبي معاصراً لها وشاهدها زمن رحلته . وقد زال أمر هذه البدعة منذ نهاية القرن السابع الهجري [٥] . فالحضيكي لم يرها ، ولكنه صرح أن أمرها إنتهى منذ زمن [٦] . وهو وإن لم يصرح بالنقل إلا أنه بلاشك أخذ من رحلة التجيبي لأنها وردت تقريباً بألفاظه .

---

١ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ١ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٧ .

٤ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٥٨ .

٥ ـ انظر إبن فهد : إتحاف الوري ، ج٣ ، ص ١٣٧ .

٦ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٦٣ .

ومما يؤكد ميول الحضيكي العلمية ، بداية رحلته التي جعلها فهرسة لشيوخه الذين تلقى عنهم وأجازوه ، بالإضافة إلى المناقشات التي ملئت بها رحلته مثل مناقشته حول فضائل مكة المكرمة [١] ، والشاذروان [٢] ، وتعدد المقامات بالمسجد الحرام [٣] ، وتنبيهه حول الخرافات التي لمسها [٤] ، والنواحي التاريخية التي ذكرها عن الأماكن التي زارها . [٥]

ولم يكتف بالنقل من كتب الرحلات السابقة ، بل نقل عن كتب المؤرخين المحليين للمدينة المنورة كابن فرحون [٦] ، والمطري [٧] ، وابن النجار [٨] ، كما حذر من الوقوع في أمور يفعلها العوام بالمسجد النبوي لم يك عنها راضٍ ، مثل الإنحناء على قبر الرسول ﷺ والتمسح بحاجزه . [٩]

---

١ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٥ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٦٧ .

٦ـ المصدر السابق ، ص ٧٧ ؛ وابن فرحون عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون اليعمري الأندلسي ، نزيل المدينة المنورة ، أخذ عن علماء عصره وحج أكثر من أربعين حجة ، مات في رجب سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م . أنظر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج٢ ، ص ٣٠٠ ، ترجمة رقم ٢٢٢٨ ، بيروت ، دار الجيل ، د. ت .

٧ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٩ ؛ والمطرى هو : عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف بن عيسي بن عساس ابن يوسف الخزرجي ، من ذرية سعد بن عبادة ، المدني المؤذن عفيف الدين ابن جمال الدين المطري ولد سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٦٨م ، مال إلى الحديث ، ورحل لسماعه ، وأخذ على علماء عصره عُنى بالتاريخ وألف فيه توفي بالمدينة المنورة في شهر ربيع الأول عام ٧٦٥هـ/ ١٢٦٦م . أنظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، ترجمة رقم ، ص ٢٣٠١ .

٨ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ وابن النجار هو الحافظ محب الدين أبوعبدالله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي ولد سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م رحل رحلة إستمرت ٢٧ سنة في طلب العلم ، ألف الكثير ومات ببغداد عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م . أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج٥ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، دار الفكر ، د. ت ، د. م .

٩ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٨٠ .

أما عن أبي مدين فقد صرح بنقل أغلبها من رحلة شيخه الدرعي [١] ، الذي استفاد بدوره من رحلة العياشي ، فكانت رحلته مزيجاً من رحلته ورحلة العياشي ، ورحلته مليئة بالمعلومات المهمة ، مثل طريقة التعامل التجاري في ذلك الوقت ، والتحذير من تزييف النقود ، وطريقة ذلك . [٢]

ومن أمثلة نقولاته عن الدرعي ، استعانته في وصف درب الحجيج ، وتحديده لبداية أرض الحجاز [٣] ، والأخذ بأقواله عن الطريقة المتبعة لجلب الميرة إلى المدينة المنورة [٤] ، وتحديده لموضع قبور الشهداء [٥] ، وعندما تعرض لذكر مسجد الغزالة أخذ بقول الدرعي عن تسمية المؤرخين له بعرق الظبية . [٦]

ونقل عن رحلة العياشي وصفه لدرب الحجاز ، حيث أورد قوله وقول البكري الذي نقل عنه [٧] ، ونقل أيضاً وصف ينبع وحدودها الجغرافية [٨] ، وكذلك أخذ عنه طول وعرض مسجد الخيف بمنى [٩] ، وبالجملة فإن نقولات أبي مدين عن الدرعي والعياشي كثيرة جداً .

واستفاد من كتب أخرى غير رحلة العياشي ، فكان يصرح باسم مَنْ نقل عنه حيناً فعندما تكلم عما حدث يوم الرجيع بقديد عزاه للقسطلاني [١٠] ،

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٤ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١١٤ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ؛ (قبور الشهداء) يعرف المكان بالروحاء وهو موضع بين مسجدين ينسبان للنبي ﷺ . أنظر الحربي : كتاب المناسك ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٦ .

٦ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٨ ـ ١٠٩ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

٩ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

١٠ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٢ ؛ ولمعرفة المزيد عن يوم الرجيع انظر أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري : السيرة النبوية ، ج٣ ، ص ١٦٩ ـ ١٨٣ ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، د. ت .

وأحياناً لم يصرح ، فعندما تكلم عن ذي طوى [١] بمكة المكرمة اكتفى بقوله « ما عليه كثير من المؤرخين »[٢]، وأيضاً عندما ذكر مكان قبة الرسول ﷺ بمسجد الخيف بمنى أغفل تحديد مصدره وقال: « ورأيت في بعض التواريخ ».[٣]

وكان ينقل عن كتب التاريخ المحلية عند الحاجة إلى ذلك ، إذ نقل عن الفاسي في كتابه « تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام » [٤] ، حينما تحدث عن المكان الذي ينزله الحجاج يوم التروية [٥] ، وكذلك نقله عن الأزرقي في طول منى ، وفي تحديد مقاسات الكعبة المشرفة [٦] ، كما استعان بكتاب « العقد الفريد » لإبن عبدربه عندما أورد طول الحجر الأسود [٧] ، وعندما تكلم عن الغرائب ، لا سيما فيما يتعلق بجبل أبي قبيس ، أيد قوله بما جاء لدى القزويني من كتابه عجائب المخلوقات في هذا الشأن . [٨]

---

١ ـ (ذي طوى) يعرف اليوم بمحلة جرول ، وهو داخل عمران مكة المكرمة الآن . أنظر الحربي : كتاب المناسك ، ص ٤٦٨ ، هامش رقم (١) .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

٤ ـ (تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام) تأليف تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفي عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م . ألف هذا الكتاب على نمط تاريخ الأزرقي . وبعد تسويد غالبه إستطاله فأختصره ، ورتبه على أربعين باباً ، وهذا الكتاب يستغنى به عن كتاب الأزرقي والفاكهي ، بل وبه زيادة ما إستجد بعدهما وما فات عليهما ، والمسودة من الكتب المفقودة الآن ، ويعرف المختصر بأسم تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام وهو إختصار لكتاب شفاء الغرام . أنظر حاجي خليفه : كشف الظنون ، ج٢، ص ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ ؛ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج١ ، ص ٨ ، تحقيق د/ عمر عبدالسلام تدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م . إن رجوع أبي مدين لهذا الكتاب في سنة ١١٥٢هـ/١٧٤٠م يعنى أنه لازال موجوداً في ذلك الوقت ، وفقد بعد هذا التاريخ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٣ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، ١٨٥ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ١٨١ .

ولم يتردد أبو مدين في نقل بعض المسائل الفقهية ، فنراه عندما تكلم عن مناسك الحج أحب أن تكون معلوماته موثقة ومنسوبة إلى شخص متخصص في هذا المجال ، ليكون ما سجله أوثق وأدعى إلى الإطمئنان لمن أراد إتباعه ، ولهذا نقل عن الشيخ خليل [١] في مناسكه [٢] ، كما نقل بعض مسائل فقهية عن بعض علماء المالكية حول تكرار العمرة برمضان [٣] ، وأيضاً مسائل فقهية أخرى حول فضل الصلاة بمكة المكرمة ، وآراء الفقهاء في ذلك . [٤]

وعندما كان أبو مدين بالمدينة المنورة ، أخذ من كتب السمهودي في التأريخ للمدينة المنورة ، وإن كان أحياناً لا يصرح باسم الكتاب . وكما نعرف أن السمهودى سابق على زمن العياشي ، لذلك نجد أبا مدين يورد قول السمهودي ويتبعه بقول العياشي حول نفس الموضوع ، ومن هنا يظهر لقارىء الرحلة ما طرأ من تغير خلال تلك الفترة بينهما .

واستفاد أبو مدين عن السمهودي في مشاهد البقيع ، وكانت نقولاته مطولة في بعض الأحيان ومختصرةٌ أحياناً أخرى [٥] ، ومما لفت نظره المعلومات التي أوردها السمهودي فيما يتعلق بعادة أهل المدينة المنورة عند قبر حمزة رضي الله عنه بأحد في شهر رجب ، ومع اهتمامه بها إلا أنه زاد عليها ما استجد حولها وقت رحلته . [٦]

اضافة إلى ذلك فإن أبا مدين قد استعان كثيراً بما جاء لدى السمهودي في وصف مشاهد المدينة المنورة وأبارها ومساجدها ، مما زاده معرفة وسعة

---

١ ـ خليل بن إسحاق بن موسى ضياء الدين الجندي ، فقيه مالكي من أهل مصر ، تعلم بالقاهرة ، وتولى الإفتاء على المذهب المالكي ، له مؤلفات عديدة ، توفي عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م . أنظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٨٣١ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٢ ، ص ٣١٥ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣١ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٥ ، ١٤٧ ـ ١٤٩ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

إطلاع ، فكانت معلوماته التي أثبتها في رحلته موثقة لم تأت من فراغ ، وإنما حصيلة جهده واعتماده على كتابات الرحالة والمؤرخين السابقين .

وأما الزبادي الذي دوّن رحلته بعد رجوعه إلى موطنه من رحلته بزمن [١]، فقد وجد الوقت الكافي لتسجيلها ونقله من مؤلفات أخرى ، بحرية وبأسلوب أدبي مليء بالتعريفات اللغوية لأماكن مرّ عليها ، استقاها من عدد من معاجم اللغة ، فقدم لنا بذلك تعريفات لغوية لمناطق متعددة في مدونة رحلته ، فمن ذلك تعريفه لمعنى كلمة « أكره » من القاموس عندما وصفها ، وأورد أوجه صرفها من التاج [٢] ، وفسر معاني الكلمات من القاموس مثل نبط [٣] ، وينبع ، ورابغ ، وعُسفان ، وذي طوى ، والعقيق [٤] ، كما حدد المسافة بين شرف الروحاء والمدينة المنورة .

ولا شك أن الزبادي كان ميالاً بطبعه للناحية الأدبية في أسلوب كتابته ، فعندما وصل بدراً أطلق العنان لقلمه في مدحها، فقال : « وعلى ذلك البلد حلاوة ، وبشر ، وطلاوة ، إنشرحت فيها الصدور ، وحلها والحمد لله نور ، وكيف لا ؟! وهي البقعة التي نصر الله فيها الدين ، وخذل المعتدين ، وأعز الإسلام ، وأهان عبدة الأصنام . وناهيك بأرض حلّتها ملائكة الرحمن ، ونزل فيها على المؤمنين السكينة واليمن والأمان ، وقرّت فيها عين المصطفى المختار بإنجاز وعد الله الواحد القهار ، وحضرها أصحابه الأخيار ، أهل المجد ورفعة المقدار » . [٥]

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٧٥ .

٣ ـ (نبط) بالفتح وهو الماء المستخرج بالحفر ، موضعٌ بين ينبع ووادي الحمض على ٩٠كم شمال ينبع . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

٤ ـ (العقيق) بفتح أوله ، وفي الحجاز عدة أودية تحمل نفس الإسم ، وهنا المقصود به العقيق الذي بناحية المدينة المنورة به عيون ونخل ، وهما عقيقان الأكبر مما يلي الحرة والأصغر أسفل قصر المراجل إلي نهاية العرصة ، وبه بئر رومة والعقيق الأكبر به بئر عروة ، والآن لا يعرف أيهما الأكبر والأصغر ، ولا يعرف إلا واحداً ، وليس به ودياناً إلا وادياً واحداً . أنظر المرجع السابق ، ج٦ ، ص ١٣٥ ـ ١٤٥ .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٥ ـ ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٣٦ .

ونقل قصيدة للبلوي أثبتها في رحلته عندما قدم على المدينة المنورة ، ومنها : [١]

الله أكبر حبذا إكباره	لاح الهدى وبدت لنا أنواره
لاحت معالم يثرب وربوعها	مثوى الرسول وداره وقراره

وهذا كله يؤكد ميل الزبادي الأدبي نثراً وشعراً ، وقد أفرد الزبادي عدة صفحات من رحلته في توضيح أسماء مكة المكرمة ، ومعانيها كما وردت في المعاجم اللغوية [٢] ، وفيها معلومات عن الحِجْر من كتاب « الدر النثير في إختصار نهاية إبن الأثير » [٣] وكتاب « المشارق » للقاضي عياض [٤] ، وكان الزبادي لا يكتفى بما يجده من معاني في تلك الكتب بل يزيد على ذلك بالرجوع لقواميس اللغة زيادة في التأكيد والتوضيح ، ثم يدّون ملاحظاته الخاصة التي اكتسبها من مشاهداته ، فتصبح معلوماته بعد ذلك موثقة ومتميزة . [٥]

---

١ ـ خالد بن عيسى البلوي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، ج١ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨١ .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٨ ـ ١٠٧ .

٣ ـ النهاية في غريب الحديث ، وهي مجلدات للشيخ الإمام أبي السعادات مبارك ابن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري المتوفي عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ، أخذه من الغريبين للهروي وغريب الحديث لأبي موسى الأصبهاني ورتبه على حروف المعجم وإختصره جلال الدين السيوطي وسماه الدرر النثير . أنظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٩٨٩ .

٤ ـ مشارق الأنوار على صحاح الاثار في تفسير غريب الحديث ، المختص بالصحاح الثلاثة وهي الموطأ والبخاري ومسلم للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفي عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م . أنظر المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٨٧ .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

وتميز الزبادي بحبه للاستنتاج ومناقشة الآراء ، فكثيراً ما يرجع إلى كتب السيرة للتأكد من بعض المعلومات ، فقد رجع لابن إسحاق عند الحديث عن الحَجَر الذي قيل أنه كان يسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة قبل مبعثه ، وكذلك عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم واليوم الذي ولد فيه ، وعدد أبنائه صلى الله عليه وسلم .[١]

وأخذ الزبادي عن ابن رشيد فيما أورده حول قراءة القرآن الكريم أثناء الطواف[٢] ، واستفاد من رحلة أخيه أحمد المفقودة في وصف المسجد الحرام ، وعضّد ذلك بما أخذه في نفس الموضوع من العياشي .[٣]

ولجأ الزبادي إلى كتب التاريخ المحلية لمكة المكرمة ، فأخذ عن الفاسي من كتابه « شفاء الغرام » معلومات عن تكرار بناء الكعبة المشرفة ، وأحال على كتاب السهيلي[٤] « الروض الأنف » وكتاب ابن هشام « السيرة النبوية » في قصة تبع وكسوته للكعبة المشرفة .[٥]

وعندما تكلم الزبادي عن ينبع ، ذكر طرفاً من تاريخها بدون ذكر المؤرخ الذي أخذ منه ، حيث قال : ما قاله أهل السير ، وأتبع ذلك بنقلٍ عن السمهودي حول مسجد ينبع .[٦]

أما عن وصف الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، فقد أخذ معلوماته من العياشي ، الذي تحدث عنها بإسهاب[٧] ، وقد اطلع الزبادي على

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٠٩ ـ ١١١ ، ١١٥ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٧٧ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١١٧ ـ ١٢٢ .

٤ ـ أبوالقاسم عبدالرحمن السهيلي صاحب كتاب الروض الأنف في السيرة النبوية . توفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م . ابن هشام : السيرة ، ج١ ، ص ١٢ .

٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٢٤ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٧٦ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

المدائح النبوية التي أوردها الغبريني [١] في كتابه « مسارح الأنظار في شرح بردة مديح المختار » ، ونقل منه . [٢]

ولأن الزبادي لم يمكث طويلاً بالمدينة المنورة ، فقد عوَّل كثيراً على رحلة العياشي وتاريخ السمهودي ، فمثلاً نقل مشاهد المدينة المنورة من العياشي [٣] ، وأخذ تحديد موضع قبر حمزة رضي الله عنه وَمَنْ دفن معه من السمهودي [٤] ، كما نقل عنه بيتين من الشعر في أسماء الآبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة .

ويظهر أن الزبادي نقل كثيراً عن العياشي ، لذا أحال من أحب الاستفادة في أمر المساجد المأثورة إليه ، حيث أوضح أن ما ذكره العياشي عنها يفوق ما ذكره ابن حجر حولها [٥] . وإحالة الزبادي على العياشي ، يذكرنا بقوله في بداية رحلته من أنه سيوجز ويختصر فيما تيسر له ويترك ما تعسر عليه . [٦]

لم يصرح الزبادي بأخذه من رحلة ابن جبير ، ولكنه نقل منها فيما يختص بمؤذن المسجد النبوي الأساسي وأنه من سلالة بلال بن رباح ، وقال : وإنه وجد ذلك مكتوباً بخط بعضهم . [٧]

---

١ ـ أحمد بن أحمد بن عبدالله الغبريني البجاوي ، مؤرخ وأديب ، ولد ببجاية سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وتوفي عام ٧١٤هـ/ ١٣١٥م ، من مؤلفاته : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية ، أنظر عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ، ج١ ، ص ١٥١ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت ، د.م .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

كما أخذ عن السمهودي من كتابه « خلاصة الوفا ، بما يخص أسماء المدينة المنورة [١] ، ونقل ما استطاع نقله من نقوش وجدت بالمسجد النبوي ، وزاد عليها النقوش التي سجلها العياشي في رحلته ، وأيضاً دون نقوشاً أخبره بها من رآها بدون تحديد هوية المخبر ، ولا الجهة التي نقشت فيها ، لأنه كما قال: قد نسي . [٢]

ونجد مما سبق أن الاستفادة من الرحلات السابقة خضع لبعض الأمور منها على سبيل المثال ، ميول الرحالة ذاته ، ومدة إقامته بالحجاز ، وكتابة رحلته أثناء قيامه بها أو بعد عودته ، وأيضاً ميل الرحالة أنفسهم للمحافظة على الخطوات المتبعة في تسجيل الرحلة ، والتي تقودهم لاتباعها بدون أن يشعروا ، وكأنهم مارسوا هذا الأمر واعتادوا عليه .

ونخلص إلى أن الاستفادة من الرحلات السابقة من المناهج المهمة التي سار عليها فن الكتابة التاريخية للرحلات المغربية ، فهي بمثابة التوثيق للأمر الذي تكلموا عنه . وبالرغم أن هناك رحالة مغاربة أغفلوا أمر النقل والاستفادة من الرحلات السابقة ، لكنه شيء نادر ويعود لمنهج الرحالة نفسه .

كما يتضح لنا أن مشرق ومغرب العالم الإسلامي في ذلك الوقت كان وحده واحدة من حيث تبادل الكتب ووفرتها في كلا الجانبين ، بدليل وجود أسماء كتب مشرقية بالمغرب والعكس .

ومن الملاحظ أن الرحالة المغاربة في غالب نقولاتهم يصرحون باسم من ينقلون عنه منذ بداية النقل ، وعند إنتهائه يختمونه بكلمة « إنتهى » حتى لا يلتبس الأمر على القارئ . وأحياناً يكتفون عند نهاية النص الذي نقلوه بقولهم « قلت » كناية عن إنتهاء النص ، وهذا الأمر سار عليه معظم الرحالة المغاربة إلا فيما ندر . وهذا ما كان عليه معاصروهم من المؤرخين المشارقة .

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

ومما يجدر الإشارة إليه ، أن الرحالة المغاربة نقلوا عن سابقيهم المباشرين ، أما الرحالة الذين قبلهم بفترات زمنية طويلة فقد نقلوا عنهم وصف الشيء الذي لا يطرأ عليه تغيير أو أدبيات إختصت بها هذه الرحلات ، أو مسائل فقهية لا تتغير مع تغير الزمن .

د ـ المقارنـــة والنقـــد

إجتمع لمعظم الرحالة المغاربة ثلاثة مقومات أساسية في أثناء تسجيلهم لرحلاتهم وهي :

أولاً : المعاينة والمشاهدة .

ثانياً : السماع والمشافهة .

ثالثاً : ما نقلوه من الكتب المصنفة في مجال الرحلات وغيرها .

لذلك كانت النتيجة الحتمية لهذه المقومات الثلاثة تصدرهم للنقد والمقارنة ، لأمور قيلت لهم ، أو مواضع شاهدوها وقارنوها بغيرها أو نقدوا ما وجدوا بها ، ومن الرحالة المغاربة من قَدِمَ للحجاز أكثر من مرة كالعياشي ، والدرعي ، فقارن كل منهما ما شاهده سابقاً بما هو عليه الحال وقت رحلته المسجلة .

وهناك بطبيعة الحال من الرحالة المغاربة المقل والمكثر في نقده ومقارنته ، ومنهم من أهمل المقارنة والنقد ، وتوجه اهتمامه نحو أمورٍ أخرى ، كما فعل القادري والغنامي في رحلتيهما .

وسنتلمس بعض نماذج مما قدمه الرحالة المغاربة لأمور تصدروا فيها للنقد والمقارنة :ـ

فالقيسي أثناء وصفه لدرب الحجاز ، مرّ على مقابر سيدنا شعيب عليه السلام ، فذكر أنها موضع تعبّده وبئر شربه ، وأن بالقرب من هذا المكان ربوة على يمين الطريق ، يظهر منها نخيل مدين كما قيل له .

ويبدو عدم تصديقه ما قيل له ، بدليل قوله « إن مدين بناحية الشام على الأصح » ، وقيل له ايضاً « إنه كان ينزل هذا المكان في بعض الأعوام دون بعض » أحال عند ذلك العلم بصحته لله تعالى . [١]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ .

وعندما وصل القيسي إلى رابغ نبه على الحجاج بإلتزام السنة ، إذ يجب عليهم إذا اغتسلوا بها أن يؤخروا الإحرام للجحفة [١] ، ليصيبوا بذلك السنة ، ولا يبدأوا حجهم بفعل مكروه ، وهو الإحرام قبل الميقات [٢] . ويظهر أن القيسي قد لاحظ تصرفات بعض الحجيج ، وعدم إتباعهم السنة في الإحرام من الميقات الصحيح ، إما لعدم علمهم ، أو لتهاونهم ، فرأى من واجبه الإشارة إلى ذلك ، وتحديد الموقع الذي يجب أن يكون الإحرام منه ، وهو الجحفة بدلاً من رابغ .

وكذلك نَقَدَ القيسي ترك الحجيج سنَّةَ التحصيب بالمُحصب بعد نزولهم من منى ، وقال : « إن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى بالمحصب الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، بعد دخول وقتهن ، لأن أفعال الحج غالبها التعبد ، وقد ترك الناس هذه السنة منذ أزمان ، متعللين بأن الصلاة بمكة بمائة ألف صلاة » . [٣]

فالقيسي في المثالين السابقين تصدَّرَ لنقد ترك السنة ، حيث انفعلت بها نفسه بمجرد رؤيتها ، فقام بنقدها ، ونبّه عليها لِمَنْ لم يعرفها .

ولما وصل القيسي إلى المدينة المنورة ، رأى بالمسجد النبوي عاموداً ، قيل له أنّ في باطنه بقية الجذع الذي حَن للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن هناك رواية تقول : أن الجذع مدفون تحت المنبر » ، وأحال

---

١ ـ (الجحفة) شرقي رابغ مع ميل إلي الجنوب على بُعد ٢٢كم ، كانت قرية ذات مسجد ، وإسمها ميهيعة وسميت الجحفة لسيل إجتحفها وأهلها في بعض الأعوام ، وهي اليوم خراب على مسافة خمس مراحل من مكة والمراحل هي مر الظهران ، وعُسفان ، والرف ، والطارف ، أو القضيمة ، ثم الجحفة ، أو رابغ ، أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٣ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨٧ . ولازالت هذه السنة متروكة إلى الآن ، لأن أكثر الناس لا يعرفها ، كما أن موضع المحصب أصبح عامراً بالسكان والمساكن ، ولا يوجد به موضع للمكوث إلا في الشوارع أو على الأرصفة .

العلم لله [١] ، فأورد هنا القيسي ما شاهده ، وما قيل له من روايات ، ولكنه لم يقطع برأى من نقد أوموافقة ، وكان يكتفي في بعض المرات بما يقال له ، دون تعليق ، مثل قوله : « أن القبة المقابلة للقبة التي دفن فيها حمزة رضي الله عنه ، يوجد بها قوس عربية ، وسيف ، ودبوس معلقة » قيل له أنها كانت من ممتلكات حمزة رضي الله عنه . [٢]

وما قيل للقيسي بهذا الشأن ، لم يذكره أحد من مؤرخي المدينة المنورة ، وهذا يعني أن هذه الموجودات ليست خاصة بحمزة رضي الله عنه ، ولا تمت له بصلة .

وأبدى العياشي نقده لموضوع عدم نوم الجمّالين ، والحجاج الفقراء ، الذين يعملون في خدمة بقية الركب ، لقاء حملهم معهم إلى حين وصولهم لمكة المكرمة ، وعودتهم مرة أخرى ، فقال : « إنهم لا يكادون ينامون حتى القليل » ، وقد أخبره أحدهم أنه « من يوم خروجه من مصر إلى حين عودته ، مائة يوم ، لم ينم فيها » . وعلق العياشي على قوله : بأنه من المحال ، ولكنه يحتمل حدوثه ، إذا كان الشخص لا يأخذ هيئة النوم من الاضطجاع وإنما يغفو في أي مكان ، على ظهر البعير ، أو عند الفراغ من الأكل ، أو وقت انتظار قضاء حاجة . [٣]

فالعياشي نقد ما أخُبر به نقد المتعّجب ، فهو لم يسلم بتصديق الخبر وفي الحقيقة لا يستطيع إنسان أن يبقى مائة يوم دون نوم ، والتحليل الذي أورده العياشي مقبول ومعقول .

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص١٠٠ ؛ إن قصة الجذع ذكرها السمهودي بإفاضة ، فمن ذلك قوله : أن الجذع بقى عند أبي بن كعب لما هُدم المسجد النبوي إلي أن بلى وحفر له ودفنه ، ورواية أخرى تقول : أن النبي صلي الله عليه وسلم أمر بدفنه . أنظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٥ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٥ .

وقد سمع العياشي خبراً في شرفات بني عطية أو عش الغراب [١] ، زعم فيه البعض أن الإبل تنفر في هذا المكان ، لأن « الإبل تسمع صوت صغب ناقة صالح عليه السلام لما عقرها قومه » ، فتعجب من هذا الزعم ونقده ، وأوضح أن هذا المكان ليس ديار ثمود [٢] الذين عقروا الناقة . [٣]

فالعياشي أصاب في نقده وتعليقه ، فالحِجْر وشرفات بني عطية متباعدتين ، ولا يعقل هذا الأمر ، وحتى لو كان هذا المكان صحيحاً ، فمحال سماع صوت صغب الناقة ، لأنها عقرت وانتهى أمرها بموتها ، فهذه الأقاويل من جملة خرافات كثيرة أطلقت في تلك الأيام .

ولما قيل للعياشي أن العقبة السوداء ـ قبل الحوراء ـ « أول أرض الحجاز » ، قارن بين ما رآه وبين ما قيل له ، وخرج بنتيجة ، فقال : « لا يبعد ذلك ، فإن من هناك تخالف الأرض ما قبلها ، وتباين الجبال ما سواها ، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود » [٤] . وهو بهذا ميز المعالم الجغرافية الماثلة أمامه ، وقارنها بالمعلومات التي قيلت له ، ثم أصدر رأيه .

وقارن العياشي بين مياه الدرب ، فحين وصل للحوراء ، قال : « إن مياهها إذا طال العهد بها ، من حفر أو قلة مطر ، أصبحت خبيثة الطعم ،

---

١ ـ (شرفات بني عطية أو عش الغراب) ويسمى أيضاً أم العظام . أنظر فيما بعد ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

٢ ـ (ديار ثمود) هي الحجر ، بين الشام والحجاز ، وتتضمن مدائن صالح ، والحجر ، ووادي المعظم ، وهدية ، وتبوك . إمتد نفوذ الثموديين وسلطانهم على مناطق واسعة ، فكانت حدودهم الجغرافية قبل نزول العذاب بهم وهلاكهم تمتد من ساحل إيلات بفلسطين ، حتى ساحل البحر الأحمر المقابل لموانيء الحبشة . وقد ربت مدنهم على الثلاثين مدينة من ضمنها مدينة الحِجْر . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ٢٣١ ؛ مرداد : مدائن صالح ، ص ٤٠ ـ ١٠٠ ؛ حمود بن ضاوي القثامي : الآثار في شمال الحجاز ، ج١ ، ص ١٤٥ ـ ١٥٠ ، مطابع الهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، د.م .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

مثل مـاء أكره ، والأزلم [١] ، وعجرود . . . وأن غزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلتـه ، فلو حمل الوادي ولو مرة في السنة ، غـزر الماء سـائر السنة » [٢] . فمقارنة العياشي لماء الدرب ، صدرت منه بعد اختبار .

وتصدى أيضـاً لنقد اعتقاد الحجيج في عادة الوقدة ، بالقرب من بدر ، وأورد قولهم في ذلك ، من « أن الصحابة رضوان الله عليهم في غزوة بدر أوقدوا نيراناً كثيرة ، ولذلك الحجاج يتشبهون بهم » ، ورد العياشي على هذا الاعتقاد ، بأنه « غفلـة منهم ، وخطأ ، لأن إشعـال النار الكثـيرة إنما كـان في فتح مكة المكرمـة ، بإجمـاع أهل السّـير على ذلك ، أمـا في بدر فلم يقل أحد بذلك » ، وأضـاف قائلاً : « لو سلّمنا أن إيقاد النار كان في بدر ، فإنما يكون ذلك لإرهاب العدو ، فطالما لا عدوّ الآن ، فـلا معنى للإيقاد » ، وقـال : « إن الفرح بنصـر الله مطلوب » ما لم يؤّد إلى محظور كما هو الآن ، لاعتقادهم أن الوقود سنّة متّبعَة وهو ليس كذلك » [٣] . فالعياشي هنا لم يغض النظر عن هذه البدعة ، وانتقدها بأساس تاريخي لا يرقى إليه شك ، وقد أحسن العياشي عندما قام بنقده .

وعندما وصل العياشي إلى أطراف مكة المكرمة نقد إعتقاد الحجيج في قولهم « أن الزاهر هو وادي ذي طوى ، الذي اغتسل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل دخوله لمكة المكرمة » وقال : « إن ما عليه كثير من المؤرخين ، أن ذي طوى أمـام هذا المكان ، وليس بين ذي طوى ومكة المكرمـة وادٍ آخر ، وهو الوادي الذي أسفله الموضع المسمى بالشبيكة ، حيث الثنية السفلى التـي يخـرج منـها

١ ـ (الأزلم) محطة بعد المويلح على الساحل كانت أعمر بلد في طريق الساحل ، بين العقبة وينبع ، لها حراس ، وكان الحاج يضع فيها متاعه حتى يعود من الحج . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ٩١ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

الحـاج ، وهذا الوادي وراء جبل قعيقعان [١] ، وعلى هذا فأعلى هذا الوادي هو ذي طوى وأسفله الشبيكة » . [٢]

فـالعيـاشي هنا نقد أقـوال الحـجيج في تحـديدهم لموقع ذي طوى ، وعيّن موضعـه الصـحيح ، بنـاءً على أقوال المؤرخين وإن لـم يُسمـهم ، وهـذا يكشف عن سعة إطلاع العياشي ومعرفته الجغرافية بالأماكن ومواقعها ومسمياتها .

ونقـد العياشي وتعجب من أهـل مكة المكرمـة ، في أمـر تعيينهم لما عُرف بالموالد ، مثل تعيينهم الدقيق موضع ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بدار المولد ، فقال : « فيبعد كل البُعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار ، وانقطاع الآثار ، والولادة وقعت في زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعتني بمعظم الأمكنة ، سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك ، وبعد مجيء الإسلام فقد علُم حال الصحابة وتابعيهم ، ضَعْف اعتنائهم رضي الله عنهم ، لما هو أسْمى ، من حفظ الشريعة والذبّ عنها بالسِّنان واللِّسان ، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام من مساجده عليه السلام ، ومواضع غزواته ، ومدفن كثير من أصحابه ، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة ، فما بال بما وقـع فـي الجاهليـة ؟! لا سيمـا ما لا يكاد يحضره أحد إلا مَنْ وقع له ، كمولد علي رضي الله عنه ، ومولد عمر ، ومولد فاطمة رضي الله عن جميعهم ، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة ، فيقول : هذا مولد فلان ، وفي ذلك من البعد ، أبعد من تعيين مولده

---

١ ـ (قُعيقعان) بضم القاف ، جبل ضخم مشرف على المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي ، ممتدُ بين ثنيتي كَداء وكُدى ، بين وادي إبراهيم شرقاً ووادي ذي طوى غرباً ، ولا يعرف اليوم بهذا الأسم ، وإنما يسمى بأسماء كثيرة ، فطرفه الشمالي الغربي يسمى جبل العبادي ، والشرقي المشرف على ثنية كداء الحجون الآن ، والمشرف على مقبرة المعلاه يسمى جبل السليمانية ، وجزؤه الجنوبي يسمى جبل هندي ، وشرقه المتصل بريع الفلق يسمى جبل الفلق ، ويسمى طرفه المشرف على حارة الباب جبل المطابخ ، وطرفه المشرف على ثنية كُدى ريع الرسام ، اليوم يسمى قرناً ، وما أشرف منه على دحلة الموارعة بجرول يسمى جبل السودان ، وبين الفلق والقرارة له عدة أجزاء ، جبل القرارة ، وجبل فلفلة ، وجبل النقا . أنظر البلادي : معالم مكة ، ص ٢٢٣ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥١ .

صلى الله عليه وسلم ، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، فقد ينتبه بعض الناس لذلك ، بسبب ما ظهر من الآيات ، وإن كانوا أهل جاهلية ، أما مولد غيره ممَّن ولد في ذلك العصر ، فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته ، إلاّ أنْ يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبيه ، أو أحد من أهل بيته » . [١]

إن النص السابق لا يحتاج إلى تعليق ، فمضمون كلام العياشي وتحليله يوضح رفضه لهذا التعيين الشديد الدقة ، خاصة وأن معظم هذه الأماكن لم يرد لها ذكر لدى مؤرخي مكة المكرمة الأوائل ، مما يعنى عدم ثبوت نسبتها .

وناقش العياشي ونقد مسألة الحَجَر ، الذي قيل أن به أثر مرفق ينسب للرسول صلى الله عليه وسلم ، بقرب دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال عنه وعن غيره من الآثار : « وكثير من هذه الآثار الشريفة والمشاهد المنيفة ، قد تطاولت عليها الأعصار ، ووجد التنصيص على اشتهارها في القرون الماضية من كثير من المؤرخين والمرتحلين ، مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني » . [٢]

فالعياشي يقرّ بعدم اشتهارها في القرنين الأول والثاني للهجرة ، مما يعني عدم صحة هذه الآثار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم . وغيره من الصحابة ، لأن أهل القرون الأولى كانوا أَوْلى الناس بتحديدها ومعرفتها ، وليس أهل القرون المتأخرة ، مع الأخذ في الإعتبار إنقطاع التواتر والسند في نسبتها لأصحابها .

ولاشك أن العياشي وصل لمسمعه خبر ، « أن الجالس بغار حراء يرى الكعبة المشرفة » ، فنقد صحة هذا الخبر ، بعد أن تحقَّق منه بنفسه ونفاه ، فقد اختبره عندما صعد إلى الغار ، فقال : « فإن البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد يظهر من خارج ، وأما من الغار نفسه فلا » [٣] وهذا هو الصحيح .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج١ ، ص ٢٢٥ ، الطبعة الحجرية .
٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٦ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٨ .

ولا بد أن العياشي قد اطلع على رحلات عديدة ، أو قيل له عن خدمات كانت موجودة بدرب الحجاز ، لذلك نجده عندما مرّ عليها قارن بين ما شاهده وبين ما قرأ عنه ، من أن بعض منازل الدرب الحجازي وُجِدَ به جباب [١] ومصانع [٢] ، وخاصة ما كان موجوداً بمنزلة مغارة شعيب ، حيث قال : « ولا أثر لشيء مماً ذُكر من المصانع والجباب ، في وقتنا هذا ، في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية » . [٣]

ويبرز العياشي كمدقق وناقد ، فعندما ذهب لرؤية مشاهد البقيع ، قارن بين ما رآه وبين ما ذكره السمهودي ، فيما استجدّ بعده ، مثل المشهد المنسوب لمرضعة النبي صلى الله عليه وسلم السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها ، حيث قال : « إن السمهودي لم يذكره ، ولم ير أحداً ذكر أنها دفنت بالبقيع » . [٤]

وهذه المقارنة تكشف لنا أن هذا المشهد ، استحدث بناؤه بعد القرن التاسع الهجري ، فالسمهودي توفي عام ٩١١هـ/١٥٠٥م ، إذ لو كان هذا المشهد موجوداً في زمن السمهودي لبادر إلى ذكره ووصفه وحقق نسبته ، وهذا يقودنا إلى نتيجة ، وهي كثرة البدع وشيوع الخرافات بين الناس ، دون أن يجدوا من يوجههم أو ينهاهم عن بناء المشاهد للقبور ، ويجب أن نشير هنا إلى أن البناء على القبور ، أمرٌ لا يُقرّه الإسلام . [٥]

---

١ ـ (الجُب) البئر ، وقيل هي البئر لم تطو ، وقيل هي الجيدة الموضع من الكلأ ، وقيل هي البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر ، وقيل لا تكون جُباً حتى تكون مما وُجد ، لا مماً حفره الناس والجمع أجباب وجباب وجببة . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص ٢٥٠ .

٢ ـ (المصانع) هو الحوض وقيل شبه الصهريج ، يتخذ للماء ، وقيل خشبة يحُبس بها الماء وتمسكه حيناً ، وهي من أعمال الناس لجمع ماء المطر ، حيث يحفرون في الأرض ، فيملؤها ماء المطر فيشربونها . أنظر المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٢١١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥١١ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩٨ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٥ ـ أنظر بتوسع ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١ .

ولما شاهد العياشي مسجد السقيا [١] ، وهو أحد المساجد المأثورة التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم نقل ما جاء عنه من السمهودي ، وقارن ذلك بما هو عليه وضع المسجد وقت رحلته ، فأخبر أنه كان خراباً زمن السمهودي ، والآن عامرٌ مبني ببناء جيد . [٢]

إن المقارنات التي أجراها الرحالة المغاربة ، مثل العياشي حول المساجد المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم مهمة للمعنيين بالناحية التاريخية المعمارية لهذا النوع من المساجد ، وما طرأ عليها من خراب وعمارة ، حيث يستطيعون تتبع ذلك بيسر وسهولة ، خاصة إذا قورن ما في كتب رحلاتهم بما كتبه المؤرخون المحليون .

ولهذا فإن كتب الرحلات المغربية يوجد فيها الكثير من المعلومات التي تسد النقص ، أو قد لا تكون موجودة في المدونات المحلية ، ومن هنا تظهر أهمية هذه الكتب للمعنيين بهذا النوع من المعمار الإسلامي ، الذي يدل على النهضة الحضارية التي شملت البقاع المقدسة خلال الفترات التاريخية . والشاهد في مثل هذه الحالة ما قام به الرحالة العياشي عندما قارن بين ما أورده السمهودي عن مشاهد المدينة المنورة ، وبين ما رآه بنفسه ، وكأنه بذلك أثبت حقائق جديدة تختلف عمَّا كان مدوناً في الفترة السابقة .

---

١ ـ (مسجد السقيا) سقيا سعد بن أبي وقاص ، وقد صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم عُرض المسلمين عليه ، وهو متوجه إلى بدر ، وهذا المسجد هو القبة التي في خارج باب العنبرية . أنظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٨٤٣ ، ص ٩٧٢ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

ونقد العياشي أقوال الجهلة من الحجاج الذين أشاعوا ، أن عين الأزرق [١] التي بالمدينة المنورة أصلها من مكة المكرمة ، حيث قال ناقداً وموضحاً ذلك : « فإنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة ، عَيْن تذكر على هذا النعت ، ولا ما يقرب منه ، وإنما أُجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان » . وأورد خبراً بأن مروان بن الحكم عامل المدينة المنورة من قبل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان هو الذي أجراها . [٢]

أما الرافعي فقد انصب اهتمامه على تحسين صياغة رحلته بأسلوب منّمق ، وأهمل النقد والمقارنة إلا القليل ومنه ، نقده للعوام بالمدينة المنورة في قولهم : « أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم محراباً بالمسجد النبوي ، حيث ذكر أن هناك ثلاثة محاريب ، وخص المحراب الواقع بين الروضة والمنبر بالتركيز ، لقولهم : أنه محرابه صلى الله عليه وسلم فقال : « لم يكن له محراب في حياته ، وإنما هذا المكان هو مصلّاه ، وهو الأصحّ عند الأعلام » . [٣]

وكان الرافعي محقاً في نقده وتصحيح ما زعمه العوام من الناس ، إذ ذكر السمهودي : أن المسجد النبوي لم يكن له محراب في عهده صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد الخلفاء الراشدين ، وإنما أُحدث ذلك في عهد الخليفة الأموي

---

١ ـ (عين الأزرق) : تسميها العامة عين الزرقاء ، وهي العين التي أجراها مروان بن الحكم عندما كان والياً لمعاوية بن أبي سفيان على المدينة المنورة ، وكان أزرق العينين فأضيفت العين إليه ، وأصلها من بئر معروفة بقباء ، غربي المسجد في حديقة نخل ، وهي بئر واسعة الأرجاء محكمة البناء عذبة الماء .
أنظر مجدالدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز ابادي : المغانم المطابة في معالم طابة ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، قسم المواضع ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥١ ، ١٥٤ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٨٣ .

الوليد بن عبدالملك ، عندما كان واليه على المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، وقد تولي العمارة بها . [١]

وانكب القادري في رحلته على وصف ورصد حال شيخه أبي العباس وأفعاله ، ولم يلتفت لأمر النقد والمقارنة فخلت رحلته منهما .

أما اليوسي فقد اشتملت رحلته على نقد قوي لبعض منازل درب الحجاز ، المعروفة بملوحة ومرارة مياهها ، مثل الأزلم ، وأكره ، والحوراء . [٢]

ومما استنكره اليوسي ونقده كالعياشي بدعة ، قيام الحجاج عند وصولهم إلى منطقة بدر بإيقاد الشموع والمصابيح على الجمال ليلة وصولهم إلى هناك ، واعتقادهم في ذلك ، فاليوسي بهذا يتفق تماماً مع العياشي في نقده لهذه الظاهرة ، فقال عنها ما نصه : « بدعة شنيعة ، وعناء وتعب ، بلا طائل » . [٣]

ولاحظ اليوسي أن بعض أهالي مكة المكرمة كانوا يقومون بجمع مبالغ مالية من الحجاج ، قبل أن يقدموا لهم خدماتهم ، مثل الفئة التي اختصت بمساعدة الحجاج على الطواف ، فكانوا يبادرون بطلب المال قبل السماح لهم بالطواف ، فبادر بانتقاد هذه الطريقة ، ونقدها نقداً لاذعاً ، وقارن هذه المعاملة بما يقوم به أهالي المدينة المنورة مع الزوار لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث أثنى على أهالي المدينة المنورة ، ووصفهم بمحبتهم للغريب ، والإحسان إليه ، ومواساته ، مقارنة بأهل مكة المكرمة حيث قال فيهم : « عندهم أنفة وكبر . . . وبغض للغريب » [٤]. ولا شك أن هذه وجهة نظر اليوسي فقط ، وقد جانب فيها الصواب .

---

١ ـ السمهودي : وفاء الوفا ، ج١ ، ص ٣٧٠ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٨٦/ب ـ ٨٧/أ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٩٢/ب ـ ٩٣/ب .

وأما الدرعي فحين تحدث عن درب الحجاز ، قارن ذلك بما مرّ به في رحلاته السابقة ، والتي كانت على ما يبدو في فصل الصيف ، وما صادفه وقت رحلته الأخيرة ، والتي كانت في فصل الشتاء ، وبين ما ذكره العياشي أيضاً والذي كانت رحلته في فصل الصيف ، فقارن بين الصعوبات التي كان الحجيج يصادفونها في فصل الشتاء من شدة البرد وقلة الحطب ، وكثرة الأمطار ووفرة المرعى ، وبين ما يصادفونه في فصل الصيف من شدة الحرّ وقلّة الماء وهبوب الرّياح الحارّة . [١]

وفي مكانٍ آخر ، نقد الفلاحين الذي كانوا يفضلون الإنضمام للركب المغربي ، هرباً من المسير مع الركب المصري ، وذلك لجور عساكره عليهم ، وسوء تصرفاتهم وكثرة ضوضائهم ، وفي ذلك قال : « إن عددهم كان قليلاً في ركبه تلك السنة ، لذا عمّ الهدوء فيه » ، وقارن وضع الركب المغربي في سنة رحلته ، بما ذكره العياشي في رحلته ، من أن الفلاحين كانوا كُثر في الركب المغربي ، فعمته الفوضى لأنهم يرحلون وينزلون دون أمرٍ من أمير الرَّكب ، وخاصة في وقت رحيل الرّكب من المنازل ، حيث يتبع الأخير منهم الأول ، ولا سيما في الأماكن الضيقة والتي يكثر فيها الخوف ، وكانوا يقومون بفعلهم هذا حتى لو كان في ذلك هلاكهم ، فتعمّ الفوضى ، وينعدم نظام مسيرة الرّكب بسببهم . [٢]

وقارن بين مياه الدرب فحين نزوله على ماء عذب ، يقارنه بما يماثله في العذوبة والحلاوة ، فمثلاً عندما وصل دار أم السلطان [٣] ، وصف مائها بالعذوبة قائلاً : « بها أبار عذبة تستلذه الأفواه » ، ثم قارن ذلك بماء النبط قائلاً : « أنه مثله » . [٤]

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٥ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٧ .

٣ ـ (دار أم السلطان) تقع بين المويلح والأزلم . أنظر الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٨٦ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

وقد عرفنا سابقاً من أن الدرعي قدم الحجاز حاجاً أربع مرات ، أولها عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م ، ثم الثانية عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م ، ثم الثالثة في عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ، والرابعة في سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م ، لذلك نجده يقارن بين ما حصل للركب في حجته الأخيرة ، وبين ما حصل لركب الحجيج في حجته الثالثة ، لاسيما فيما يتعلق بمعاناة الحجاج من شدة الحرّ ، وإشتداد العطش ، وهبوب الرياح الحارة ، وكثرة الموتى ، وعدم حصول أذى للحجاج أثناء مسيرهم في درب الحجاز في حجته الأخيرة . [١]

ومما ذكره الدرعي وغيره من الرحالة المغاربة عن معاناة الحجيج نستطيع أن نستخلص الصعوبات التي كانت تواجه الحجيج في أثناء سيرهم عبر طرق الحج ، خلال إحدى عشر قرناً من الزمان ، وما قام به الملوك والسلاطين والأمراء والموسرون من جهود لإصلاح وتمهيد هذا الدرب ، وحفر الآبار والبرك فيه لتوفير الماء للحجيج على طول الطريق ، كما نستطع أن نتلمس معاناة الحجيج طوال الطريق من حراً أو برد ، وقلة ماء أو سيول غزيرة ، أو قلة أمن ، وغيرها من المشكلات والمعوقات التي كانت تعترض طريقهم .

وعندما وصل الدرعي إلى ينبع ، وصف ذبول نخيلها ، وجفاف مائها ، وانهدام جزء من سقف مسجدها ، وقارنها بما كانت عليه سابقاً عندما كانت عامرة . [٢]

ومن المعروف أن ينبع مرسى على ساحل البحر الأحمر ، ومرفأ المدينة المنورة ، ووصف الدرعي لها بهذا الشكل يعطى إنطباعاً أن هناك أمراً ما ، حصل لها ، وهو إنضمام أهلها لقبيلة حرب ، التي كانت خارجة عن طاعة أمير مكة المكرمة ، فأخذت تعتدي على قوافل الحجيج ، بل لقد تجرأوا على مهاجمة المدينة المنورة ، وأخذوا ذخائر أهلها من حبوب وزيت وشمع وطعام ، مما جعل

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ .
٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٣ .

شريف مكة المكرمة سعد بن زيد [١] ، يتوجه إليها ويغزوها ويؤدب أهلها ، وكان مما فعله أن أحرق بيوتها ، وقطع نخلها ، وذلك في عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م . [٢]

وأغلب الظن أن حالها لم يعمر منذ عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م إلى حين رحلة الدرعي عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م . ومما سجله الدرعي وغيره من الرحالة المغاربة ومقارنته بما كتبه المؤرخون ، نستطيع أن نستخلص تاريخاً متصل الحلقات لينبع وغيرها من المدن والقرى الحجازية التي كان يمر عليها الرحالة المغاربة ، ومن هنا تظهر أهمية كتب الرحلات المغربية في توضيح بعض الأمور التي قد تكون خافية على المهتمين بتاريخ المدن الحجازية والتي لا يمكن الاستغناء عنها لمن أراد التأريخ لها والكتابة عنها .

وعندما وصل الدرعي إلى خليص ، وشاهد المسجد المنسوب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تهدم وإمتلأ أوساخاً وصار إصطبلاً للدواب ، نقد هذا الأمر بشدة ، ونسب هذا الإهمال إلى ضعف الدين وقلة الرغبة في عمل الخير ، ولم يكتف بالنقد فقط ، بل خطى خطوة إيجابية ، إذ صارح أمير الحاج المصري في شأنه وحصل على وعد منه بإصلاحه . [٣]

---

١ ـ الشريف سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن الحسن بن أبي نمي الثاني ، ولد عام ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م بمكة المكرمة ، وتوفي بها عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٥م ، ولي الإمارة بعد وفاة أبيه عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م ، وإشترك معه في الإمارة أخوه أحمد سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م ، ووقعت بينهما وبين أمراء الحج والأشراف فتن ، ثم بلغهما أن أمراء الحج ينوون القبض عليهما في منى ، فخرجا إلى بلاد الروم سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، وعاد سعد لمكة المكرمة فولي إمارتها سنة ١١٩٣هـ/١٦٩١م، ثم عزل عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٧م ، وعاد إليها عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م ، ثم نزل عن الإمارة لابنه سعيد عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م ، فثار عليه الأشراف فحارب مع ابنه وقتل ، وكانت مدة إمارته مجتمعه حوالى ١٥ سنه و٧ أشهر . أنظر الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص ٨٥ ؛ عارف عبدالغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨هـ ـ ١٣٤٤هـ ، ص ٧٣٨ ـ ٧٤٥ ، ترجمة رقم ٢٧٦ ، دمشق ، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

٢ ـ عبدالغني بن إسماعيل النابلسي : الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٦، تقديم وإعداد د/ أحمد عبدالمجيد هريدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، د. م .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ .

ومما ذكره الدرعي نستشف أن أمير الركب المصري كان ينقل إلى ولاة الأمر ما يحتاج إلى اصلاح في الحجاز .

ونقد الحضيكي أفعال بعض عوام الناس بعرفة ، من حيث اهتمامهم بالبيع والشراء أكثر من اهتمامهم بالدعاء والعبادة ، ولذلك نجده يُسدي النصح والإرشاد فقال : « ينبغي عليهم الإقبال على الذّكر والتضرع » . [١]

وانتقد كذلك بعض تصرفات الزوار ، الذين كانوا يذهبون لزيارة المسجد النبوي ويقومون بالإنحناء على القبر ويلتصقون به . فقال : « بأن ذلك مخالف للشرع ، ويتعارض مع آداب زيارته صلى الله عليه وسلم » .

ونقد أيضاً مرور الناس على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « إن بفعلهم ذلك يجعلون القبر كالمسجد الذي يؤتى كلّ يوم للصلاة فيه » [٢] . وهو بنقده هذا يعمل على إتباع السنة ، وترك البدع والبعد عما يخالف شرع الله .

ولما مكث أبو مدين بالمدينة المنورة للمجاورة ، عايش بعض عادات أهلها في شهر رجب ، عند قبر حمزة رضي الله عنه ، فوصف ما رآه من بدع ، وقارنه بما ذكره السمهودي حول هذا الإحتفال ، وما طرأ عليه من تغيير طفيف . [٣]

وعندما وصف أبو مدين المسجد الحرام قال : « إن الفاسي ذكر أن عدد المنائر به خمسة ، وقال : « أنها وقت رحلته أصبحت سبعة » . [٤]

---

١ ـ الحضيكي : رحلة إلي الحرمين ، ص ٦٤ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٤ ؛ إن ما كان يفعله أهل الحجاز من احتفالات بالقرب من قبر حمزة رضي الله عنه ، لا يمت إلى الإسلام بصلة ، وإنما جعلت زيارة القبور للعبرة والعظة وليس للهو والحمد لله تم القضاء على مثل هذه البدع الآن .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ١٨٩ .

والأوصاف المعمارية المسجلة في الرحلات المغربية ذات فائدة كبيرة للمهتمين بدراسة عمارة الحرمين الشريفين ، لاسيما وأن من الرحالة المغاربة من كان شاهد عيانٍ على بناء أجزاء منها فوصفها بدقة .

وقارن الزبادي طريقة سير أركاب الحج في درب الحجاز ، وأمدنا بمعلومات قيمة من حيث عادات السير ، فقد كان الركب المغربي يسير منفرداً في درب الحجاز ، ولكنه في زمن رحلة الزبادي أصبح الركب الفاسي ، يسير مع الركب المصري ، فكانوا يرحلون قبل الفجر بساعة أو ساعتين ، وينزلون بعد العشاء بساعة أو ساعتين ، أما باقي الركب المغربي الذي كان يضم حجاجاً من الجزائر ونواحيها ، فيرحلون عند الفجر ، وينزلون في الثلث الأول من الليل . [١]

وعندما وصل الزبادي إلى الوجه [٢] ، ذكر أنها موضع لخزن مؤن الحجاج لحين عودتهم من الحج ، وكان هذا منذ سنين ، فقارن وضعها وقت رحلته ، من حيث أنها لم تعد مكاناً آمناً لإيداع ما زاد عن حاجة الحجاج من مؤنهم . [٣]

ويبدو أنها كانت قد تعرضت للغزو من أعراب الدرب ، فأصبحت غير آمنة ، فلم يعد الحجاج لذلك يودعون فيها ما فاض من أزوادهم .

كما قارن الزبادي بين جرأة أعراب الحجاز على الحجيج وجرأة الأعراب بالمغرب في موضع سماه « بوادي سيدنا خالد » ، فقد وصفهم بأنهم « أجرأ على النهب ، وأضر بالركب » . [٤]

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٤ .

٢ ـ (الوجه) بلدة حجازية ساحلية آهلة بالسكان بها إمارة ، وميناء جوي وبحري ، وبنى بها محطة لتحلية مياه البحر ، ولأهل الوجه خبرة في صيد السمك . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٣٠ .

٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ .

٤ ـ المرجع السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

وما ذكره الرحالة المغاربة عن أعراب الدرب ، يعطينا تصوراً واضحاً عنهم ، وعن انحطاط أخلاقهم وعدم تورعهم عن نهب الحجيج مقابل ما كانوا يحملونه من زاد وأموال ، كما يوضح لنا مدى الضعف الذي أصاب الأشراف ، وعدم إمكانية سيطرتهم على الأعراب ، وعدم تصديهم لهجماتهم ، الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً ، فعم ضررهم وقلَّ الأمن تبعاً لذلك في الطرق في بعض السنين .

وعندما وصل الزبادي إلى قاع البزواء [١] قال : إنه ربما أُفردت بمسمى القاع ، أو بمسمى البزواء ، وقارن بين المسميين من حيث أن ما سهل وارتفع من الطريق يسمى بالقاع لاتساعه ، وما ضاق وأحدودب وقل استواؤه سمى بزواء ، وأن هذا الموضع خليط من هذا الوصف .[٢]

ونقد الزبادي العياشي ، في نقله عن ابن رشيد قول ابن الصلاح ، عن جبل قزح [٣] بالمزدلفة ، حيث وصف العياشي بالغفلة ، لأنه لم يتعقب قول ابن رشيد في نقله عن ابن الصلاح في هذا الموضوع . [٤]

وعندما تحدث الزبادي عن أسماء مكة المكرمة ، قال : « يصحّ أن تسمّى أم البلاد لكن لم نطلع على تسميتها بذلك ، كما أنه يناسب أن تسمى أمّ الأرض، لأن الأرض دُحِيَتْ من تحتها ، فهي للأرض منزلة النقطة للخط ، أو المركز للدائرة ، لكن لم نعلم أنها سميت بذلك » [٥] . والقول بأن الأرض دُحِيت من مكة

---

١ ـ (البزواء) موضع ممتد بين مستورة وبدر . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ٢١٧ .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٢ .

٣ ـ (قزح) أكمة بجوار المشعر الحرام ، في المزدلفة ، وقد بنى عليها قصر ملكي ، والناس يصلون في المشعر الحرام ويتحرون الإشراق هناك . أنظر عاتق بن غيث البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٢٢٥ ، دار مكة للتوزيع والنشر ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، د.م .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٠٢ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

المكرمة قديم [١] ، وقد أظهرت دراسة علمية حديثة صدق هذا القول ، قام بها المعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بالقاهرة بأن الكعبة المشرفة تمثل مركز الأرض ، فمكة المكرمة مركز اليابسة قبل تزحزح القارات وانفصالها عن بعضها في العصور الجيولوجية السحيقة . [٢]

وعلى العموم كان الزيادي يبدي رأيه فيما نقله من اسماء مكة المكرمة وكان يذكر الإسم ومعناه .

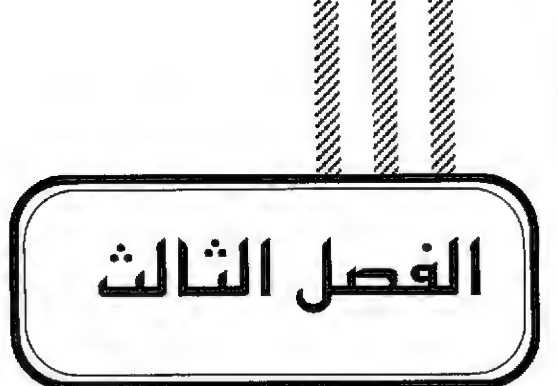
وعلى العموم فالرحلات المغربية موسوعات علمية ، عرّفت بالعادات والتقاليد ، والمعتقدات والاساطير ، وسجلت الأحداث ووصف اصحابها معالم ومسالك الأرض التي مرّوا بها وأماكن وجود الماء بها ومزروعاتها ، بالإضافة إلى المقارنة بينها .

فكان الرحالة المغاربة بذلك مؤرخين ، وجغرافيين ، وعلماء اجتماع ، واقتصاد ، وفلك ، وعلماء بأحوال الرجال والحديث ، بدون قصد ، ومطالعة رحلاتهم هذه تعين على المقارنة والتوثيق .

---

١ ـ الأزرقي : أخبار مكة ، ج١ ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

٢ ـ وقد أوضحت هذه الدراسة أن الكعبة المشرفة هي مركز لدائرة ، نصف قطرها ثمانية الآف كيلومتر، تمر بأطراف القارات القديمة آسيا وأفريقيا وأوروبا ، كما أنها أيضاً مركز لدائرة نصف قطرها ثلاثة عشر الف كيلو متر ، تمر بأطراف القارات الجديدة أمريكا الشمالية ، وأمريكا الجنوبية ، واستراليا ، والقطبية الجنوبية . أنظر جريدة عكاظ ، ص ٣٢ ، العدد ١١٥٢٠ ، السنة ٣٩ ، السبت ٩ ذو القعدة ، ١٤١٨هـ/ الموافق ٧ مارس ١٩٩٨م .



الأحوال السياسية في الحجاز
من خلال كتب الرحلات المغربية

أ ـ مناطق النفوذ في بلاد الحجاز « الأشراف والعثمانيون » .

ب ـ طغيان نفوذ بعض القبائل في بلاد الحجاز .

جـ ـ حالة الأمن في المدن وطريق الحاج .

أ ـ مناطق النفوذ في بلاد الحجاز

« الأشراف والعثمانيون » .

* حدود إمارة الحجاز .
* بداية علاقات العثمانيين بالأشراف أمراء الحجاز .
* الأشراف ومناطق نفوذهم بالحجاز .
* الحالة السياسية بمكة المكرمة .
* الحالة السياسية بالمدينة المنورة .
* النفوذ السياسي بجدة والطائف وينبع .
* مناطق نفوذ العثمانين والأشراف في طريق الحاج .

حدود إمارة الحجاز [١] :

تقع الحجاز على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، ممتداً من بادية الشام شمالاً إلى اليمن جنوباً ، وطولها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ١٥٠٠كم ويتصف نصفها الشمالي بالجدب والخلو من العمران ، أما الجنوبي فمعمور مليء بالمحاصيل [٢] ، بينما الحدود الفعلية التي كانت تحت نفوذ الأمراء الأشراف تبدأ من خيبر[٣] شمالاً إلى أطراف حَلْيٍ[٤] وأعمال جازان[٥] جنوباً ، ومن ينبع غرباً إلى حجاز ثقيف [٦] وما اتصل بها من أرض نجد شرقاً، بما فيها الحرمين الشريفين، وجدة، وينبع ، وهذه الحدود هي التي أقرّها السلطان العثماني

---

١ ـ أنظر الحدود الجغرافية التي وردت في كتب الجغرافيين المسلمين القدماء والحديثين ، وما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه . نواب : الرحلات المغربية الأندلسية ، ص ٢٧ ـ ٢٩ .

٢ ـ أيوب صبري باشا : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ١٦٩ ، ترجمة وتقديم وتعليق د/أحمد فؤاد متولى ود/ الصفصافي أحمد المرسي ـ دار الرياض للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، د. م .

٣ ـ (خيبر) : كانت تشمل سبعة حصون ومزارع ونخل كثير حين غزاها الرسول ﷺ ، وتقع شمال المدينة المنورة على ١٧١كم ، بها إمارة وعيون كثيرة . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٠٩ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ١٧٠ .

٤ ـ (حلى) : بالفتح مدينة باليمن على ساحل البحر الأحمر ، بينها وبين السرين يوم واحد ، وبينها وبين مكة المكرمة ثمانية أيام . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٩٧ .

٥ ـ (جازان) : كانت على طريق حاج اليمن ، وتقع منطقة جازان في جنوب غرب المملكة العربية السعودية ، وتمتد حدودها شمالاً إلى إمارة البرك ، أو برك الغماد ، التابعة لإمارة مكة المكرمة ، وجنوباً إلى حدود اليمن ومن الشرق يحدها إمارة عسير ، ومن الغرب البحر الأحمر ، وهي العاصمة الإدارية للمنطقة حالياً ، ومقر الإمارة والإدارات الحكومية . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٩٤ ؛ أحمد بن عمر الزيلعي : الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان (المخلاف السليماني) في العصور الإسلامية الوسيطة ، ص٩ ، الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية ، ط١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٦ ـ (منطقة ثقيف) : تقع على مسافة ١٤٠كم جنوب الطائف ، فوق جزء مرتفع من جبال السراة وأهل ثقيف يقطنون الطائف وما حوله وتنسب قبيلة ثقيف إلى قسي بن منبه بن بكر بن هوازن وتنقسم إلى عدة بطون منها طوريق والنمور وثماله . انظر د/يوسف بن علي بن رابع الثقفي : هذه بلادنا بلاد ثقيف ، ص ٢٩ ، الرياض ، الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ؛ الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبدالله بن سرور : قبائل الطائف وأشراف الحجاز ، الطائف ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، دار الحارثي ، ١٤٠٠هـ .

سليمان القانوني [١] ، في المرسوم الذي بعثه لأمير مكة المكرمة الشريف حسن بن أبي نمي [٢] قلدّه فيها إمارتها عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م ، وقد سبقه مرسوم لجدّه الشريف بركات [٣] ، بإبقائه على إمارته عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م من قِبَل السلطان سليم العثماني [٤] ، بعد أن ضم مصر لدولته [٥] ، واستمر هذا الحدّ لإمارة الحجاز، التي كانت عاصمتها مكة المكرمة ،إلى نهاية دولة الأشراف بالحجاز . [٦]

---

١ ـ السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني ، ولد سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م ، عاشر ملوك آل عثمان ، توفي عام ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، ومدة حكمه ٤٨ سنة ، قضاها في توسيع أملاك الدولة وإعلاء شأنها ، حتى بلغت في عهده ذروة مجدها ، واشتهر هذا السلطان بلقب القانوني ، لما وضعه من أنظمة داخلية في كافة فروع الدولة ، كما تقدمت الفتوحات في عهده تقدماً عظيماً . أنظر المحامي : تاريخ الدولة العلية ، ص ٧٩ ـ ١٠٨ .

٢ ـ الشريف الحسن بن أبي نمي بن بركات ، ولد عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، شارك أباه في الحكم بموجب مرسوم عثماني عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م ، وتوفي عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م ، ودفن بمكة المكرمة ، وله من العمر ٧٩ سنة ومدة ولايته مشاركاً لأبيه وولده أبي طالب ومستقلاً نحو ٥٠ سنه . أنظر عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، ج٤ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٦١ ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، د. ت ، د. م .

٣ ـ الشريف بركات بن محمد بن بركات ، توفي عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، بمكة المكرمة ، وله من العمر ٧١ سنة ومدة ملكه شريكاً لوالده ٢٧ سنه ، وجملة إمارته مستقلاً ومشاركاً ٥٤ سنة . أنظر عبدالله مرداد أبوالخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، رقم الترجمة ١٢٧ ، إختصار وترتيب وتحقيق محمد سعيد العامودي وأحمد علي ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، د. ت .

٤ ـ السلطان سليم بن بايزيد محمد ، تاسع ملوك العثمانيين تملك أملاك المماليك بعد القضاء عليهم ، ولد في باماسيه سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م ، وتسلطن وعمره ستة وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه توفي عام ٩٢٦هـ / ١٥١٩م . أنظر ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٨ ، ص ١٤٠ ـ ١٤٨ .

٥ ـ علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري : منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ، الجزء الثاني ، ج١ ، ص ٣١٦ ـ ٣٢٨ ، ٣٢٧ ـ ٣٣٩ ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، تحقيق ماجدة فيصل زكريا ، إشراف د/ جميل عبدالله المصري ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

٦ ـ أنظر شرف بن عبدالمحسن البركاتي : الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الادريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها ، ص ١٢٩ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، بيروت ، ط٢ ، د. ت .

وجاء ذكر حدود إمارة الحجاز في الرحلات المغربية ، فقد ذكر العياشي ، أن الجبال الموجودة ما بين أكره والحوراء هي أول أرض الحجاز وعلق بقوله : « لا يبعد ذلك ، فإن من هناك تخالف الأرض ما قبلها ، وتباين الجبال ما سواها ، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود » ، وحدد تلك البداية بعقبة صغيرة أسماها العقبة السوداء ، وتقع في أرض سوداء ، ذات أحجار ، وأشجار ، حيث قيل له : « أنها أول أرض الحجاز » ، وأضاف « أن حدود الإمارة تبدأ من أطراف اليمن إلى أقصى نجد ، مما يلي البصرة ، ومن خيبر إلى ينبع » . [١]

ووردت بهذه الصفة أيضاً في رحلة الدرعي ورحلة أبي مدين [٢] . أما الزبادي فذكر أن الشواهد الحسية بالعقبة السوداء تؤيد ما يقال : أنها أول أرض الحجاز والمؤدية إليه . [٣]

ونجد الرحالة المغاربة عاينوا الحدود الجغرافية لبداية أرض الحجاز بالمشاهدة ، وهي تقرب في الحقيقة من الحدود الفعلية لنفوذ وسلطة أمراء الحجاز الأشراف ، التي عينتها لهم سلاطين آل عثمان .

إن أول إشارة للحد الفعلي العامر لإمارة الحجاز ، هو ينبع ، كما أشار بذلك العياشي ، الذي قدم إلى الحجاز عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م والدرعي الذي حج عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م ، حيث ذكرا ، « أنها أول بلاد الحجاز العامرة ، وبها أمير ينوب عن سلطان مكة المكرمة ، وأنها منبر الأخبار لبقية مدن الحجاز ، وجدنا أخبار مكة المكرمة والمدينة وسائر بلاد الحجاز ، وتعرّفنا خبر رخصها وغلائها وخصبها ويبسها » . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ، ص ١٥٦ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ .

٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٣ . أضفنا قول الدرعي إلى العياشي بالرغم أنهما يفصل بينهما فترة زمنية طويلة أتى خلالها رحالة أخرون لأنه ناقل عنه تقريباً .

أما الحضيكي الذي قدم إلى الحجاز عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م ، فقال عنها : « عندما نزل الركب بها ، خرج شرفاؤها لحراسة الركب من السراق واللصوص » [١] . وقال الزبادي عندما مر بها عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م أنها : « أول بلاد الحجاز في الذهاب ، وآخرها في الأياب » . [٢]

بداية علاقات العثمانيين بالأشراف أمراء الحجاز :

بدأت علاقة العثمانيين بالأشراف أمراء الحجاز منذ فترة قديمة جداً قبل دخولهم تحت طاعة الدولة العثمانية ، إذ بدأت منذ عهد محمد خان [٣] ابن السلطان بايزيد [٤] يلدرم خان ، الذي جهز الأموال لأهل الحجاز فكان أول من فعل من السلاطين العثمانيين ، ثم تتابع أبناؤه في إرسالها ، والزيادة في مقاديرها والتي عرفت بالصرة الرومية . [٥]

وهناك مَنْ أرجع ارسال الصرة أولاً إلى السلطان بايزيد يلدرم . [٦]

---

١ ــ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ .

٢ ــ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٦ .

٣ ــ السلطان محمد جلبي الغازي ، ولد عام ٧٨١هـ / ١٣٧٩م ، وإشتهر باسم السلطان محمد جلبي الغازي خامس سلاطين آل عثمان كانت مدة حكمه كلها حروب داخليه ، لإسترداد الإمارات التي استقلت بعد موت والده السلطان بايزيد الذي توفي في الأسر عام ٨٠٥هـ/١٤٠٣م إلى أن تم له ذلك ثم جهد في محو أثارها ، وإجراء ترتيبات داخلية ضماناً لعدم تكرار ذلك مستقبلاً ، توفي عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م في أدرنة ، وسنه ٤٣ عاماً ، وكان أول سلطان عثماني ارسل الهدايا السنوية لأمير مكة المكرمة ، التي اطلق عليها الصرة . انظر المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٣ ــ٥٤ .

٤ ــ السلطان بايزيد خان ولد عام ٧٦١هـ / ١٣٦٠م ، تم في عهده فتوحات كثيرة ، في أسيا وأوربا سلماً وحرباً ، وأوشك على فتح القسطنطينية ، ولكن هجم تيمور لنك عليه فهزمه بعد أن أنفضّ عنه أغلب جنده ، فوقع في الأسر ، وحاول الهرب مراراً ، وفشل فشددت عليه المراقبة وتوفى في أسره عام ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م وسنه ٤٤ سنة ومدة حكمه ١٣ سنة . المصدر السابق ، ص ٤٨ ــ ٥١ .

٥ ــ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج١ ، ص ٣٣٢ .

٦ ــ إسماعيل حقي وزون جارشلي : أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ص ٢٥ ، ترجمة عن اللغة التركية د/ خليل على مراد ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة شعبة دراسات العلوم الإجتماعية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، د.م .

من المعـروف أن السلطان العثـمـاني سليم الأول قـضـى على الدولة المملوكيـة بمصـر ، بعـد ان هزم المماليك في مـعـركـة مـرج دابق [١] سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وقضى على السلطان الغـوري [٢] ، ثم تقدم إلى مصـر وهزم آخـر السـلاطـين المماليك طومـان باي [٣] ، في مـعـركـة الريدانيـة [٤] عـام ٩٢٢هـ/١٥١٦م . [٥]

فورثت الدولة العثمانية جميع ولايات الدولة المملوكية ، ومنها الحجاز ، الذي دخل طوعاً تحت حكمها ، فأرسل السلطان سليم العثماني مرسوماً بإبقاء شريفها في منصبه . [٦]

---

١ ـ (مـرج دابـق) بكسـر الباء ، قرية قرب حلب ، من أعمال عزاز ، وهي مرج معشب . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤١٦ .

٢ ـ السلطان الملك الأشرف أبوالنصر قانصوه بن عبدالله الجركسي ، المشهور بالغوري ، وسماه ابن طولون جندب ، وجعل قانصوه لقباً له ، والغوري نسبة إلى الغور ، أحد الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم المؤدبين ، ولد سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، وترقي في المناصب إلى أن أصبح نائب طرسوس ، ثم أصبح نائب مَلَطْيَة ، وعندما توفى الأشرف قايتباي عاد إلى مصر ، وتقلب في المناصب إلى أن أصبح سلطان مصر عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، واستمر بها ١٥ سنة و ٩ أشهر و ٢٥ يوماً ، وله مآثر في طريق الحج وبلاد الحجاز ، فقد في معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م . انظر ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٨ ، ص ١٠٢ ، ١١٣ ـ ١١٥ .

٣ ـ الملك الأشرف طومـان باى الجركسي ، ابن أخ الغوري ، إستمات في الحرب ضد السلطان سليم العثمـاني لإبعاده عن مصـر ، ولكنه هزم وقتل عـام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وبموته انقرضت دولة المماليك الجركسية . المصدر السابق والجزء ، ص ١١٥ .

٤ ـ (الريدانيـة) : تقع خارج القاهرة من جهة باب النصر وكانت بستاناً لريدان الصقلبي أحد خدام العزيز بالله العبيدي ، بها أوقاف وأملاك . أنظر شرف الدين يحي بن المقر ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ص ٤٨ ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٤م د . م ؛ تقي الدين أبي العبـاس أحـمـد بن علي المقريزي : المواعظ والإعتبـار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، ج٢ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

٥ ـ محـمـد بن أحـمـد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور من وقائع الدهور ، ج٥ ، ص ٦٩ ـ ٧٣ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ ، تحـقـيق محـمـد مصطفى ـ القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٦ ـ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج١ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ ، تحقيق ماجدة زكريا ، رسالة دكتوراه غير منشورة .

وهذا المرسوم أكّد إستمرارية نظرة سلاطين العالم الإسلامي لأشراف الحجاز في عدم المساس بهم وبحكمهم ، وأن أقسى عقاب كان ينالهم هو العزل ، وإحلال غيرهم من نفس الأسرة مكانهم [١] . فالعثمانيين لم يشذّوا عن هذه النظرة التقديرية ، والتي استمرت في علاقتهم بالأشراف أمراء الحجاز .

وبعد استلام الشريف بركات مرسوم بقائه على آمارة الحجاز ، بادر بإرسال ابنه محمد أبي نمي [٢] . إلى مصر مهنئاً ومباركاً للسلطان سليم بالملك عام ٩٢٣هـ/١٥١٧هـ فأنعم السلطان على ابنه أبي نمي بمشاركة أبيه في شرافة مكة المكرمة . [٣]

ولم يتدخل العثمانيون في شئون الاشراف الداخلية في بادىء الأمر ، وأبقوا على النظام الذي كان يسير عليه الأمراء الأشراف في إمارتهم كما هو ، فما ورثته الدولة العثمانية عن الدولة المملوكية لم يقتصر على الموروث المادي للأرض ، بل تعداه إلى طريقة إدارة تلك الولايات ، والتي منها إمارة الحجاز التي كان مرجع أمرها حاكم مصر ، إذ هو الوصي الشرعي عليها من قبل السلطان العثماني لاعتبارات عدة منها :

أولاً : قرب مصر من الحجاز ، فإذا إستجد بها أمر ، بادر حاكمها بوضع الحلول ، لحين إقرار الأمر من السلطان العثماني .

ثانياً : معظم إقتصاد الحجاز كان قائماً على ما يرد من مصر ، فارتباطهما قديم منذ فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ، ومثال ذلك ما ورد منها عام

---

١ ـ عزالدين عبدالعزيز محمد بن فهد الهاشمي القرشي : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، ج٢ ، ص ٤١ ، ١٨ ، تحقيق فهيم شلتوت ، ط١ ، دار المدني ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، د.م .

٢ ـ محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان ، أبونمي ، شريف حسني من أمراء مكة المكرمة ، ولد بها عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، وشارك أباه في حكمها ، ثم تولاها منفرداً بعد وفاة أبيه عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م ، وطالت مدته وكثرت أخباره ، وتوفي بمكة المكرمة عام ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م ويعرف عند أشرافها بصاحب القانون ، لأنه جمع أنسابهم وجعلها قانوناً . انظر الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص ٥٢ .

٣ ـ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج١ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ .

الرمادة عام ١٨هـ/٦٣٩م ، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من طعام أغنى أهل الحجاز وأصبحت الأسعار بها كما في مصر . [١]

ثالثاً : بعد الحجاز عن مركز الدولة العثمانية .

ولتأكيد ارتباطها بمصر ، صدر مرسوماً عثمانياً إلى أمير مكة المكرمة عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يأمر فيه بإبلاغ اسطنبول عن كل أمر يخص المدينتين المقدستين، وإرسال المعلومات بهذا الخصوص إلى والي مصر أيضاً [٢] . وهذا ما سنلاحظه جلياً في أحداث إمارة الحجاز .

اقتصر نفوذ الدولة العثمانية في الحجاز باديء الأمر على الدعاء لهم على المنابر ، وإرسال الأموال ، ووضع نائب عنهم بجدة لحماية الحرمين الشريفين ، وهو نظام ورثوه من الدولة المملوكية . بالإضافة إلى الإصلاحات المعمارية التي كانت تستجد بالحرمين الشريفين ، وإقرار الشريف على الإمارة بموجب مرسوم يبعث من قبِلَهم . [٣]

وكان الأشراف أمراء الحجاز يرفضون فكرة تحديد صلاحياتهم ، وحاولوا أن يجعلوا عسكر الحامية العثمانية تحت إمرتهم ، ولكنهم فشلوا ، واستمروا يحكمون الحجاز مستقلين عن النفوذ العثماني ، وكلّ ما فعلته الدولة العثمانية للحدّ من سلطة الشريف أمير الحجاز إستحداث منصب سنجق [٤] جُدة ، بلقب أمير

---

١ ـ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب بعز الدين : الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص ٣٨٩ ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٤ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، د.م .

٢ ـ إسماعيل حقي : أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ص ٤٣ ، هامش رقم ٦ .

٣ ـ أحمد السباعي : تاريخ مكة ودراسات في السياسة والعلم والإجتماع والعمران ، ج١ ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، ط٦ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، د.م .

٤ ـ (سنجق ـ صنجق) وحدة إدارية عثمانية تتكون من عدة أقضية . أنظر الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٣ ، ص ٢٢٩٣ ، وهنا تعنى حاكم .

لواء جُدة وبعده منصب بيلرباي[١] أمير الأمراء ولاية جُدة وحبشي، ومشيخة الحرم المكي ، وكانت متصرفية جُدة مرتبطة في بداية استحداثها بولاية مصر ، إذ وجدت الدولة العثمانية أن الأقدر على إدارة شئون الحجاز والأقرب للمسارعة للبت في أمورها المستجدة هو والي مصر ، لذا أبلغت أمير مكة المكرمة بقرارها هذا ، الذي نتج عنه نزاع حول الصلاحيات ، ومدى نفوذ كل منهما إلى نهاية الحكم العثماني . [٢]

وبهذا القرار أصبحت الحجاز إمارة داخل إمارة ، وهو أدى إلى تعقيدات في اتخاذ القرارات وتنفيذها ، لم ينتج عنه إلا المزيد من الاضطرابات ، ومما يؤكد أن سلطة الدولة العثمانية لم تكن وطيدة التأثير بمكة المكرمة ، عدم سماح أمرائها رفع العلم العثماني بها ، إذ لم يرفع إلا في سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م فوق قلعتها . [٣]

استمرت الرحلات المغربية التي كان مدار البحث حولها مائة وثمانية عشر سنة سنة ذكرت فيها ثمانية من أسماء أمراء مكة المكرمة ، أما العدد الفعلي الذي تولى إمرتها خلال هذه السنوات هو واحد وثلاثون أميراً [٤] . وهو عدد كبير إذا ما قورن بالفترة الزمنية ، إذ يتضح أنه بمعدل كل ثلاث سنوات تقريباً يتغيّر أمير ، بالإضافة إلى تصارعهم على السلطة بالقوة ، فكل ذلك أدى إلى زعزعة الأمن وكثرة الفوضى ، بسبب أمور التولية والعزل والتي لا توجد لها قاعدة مسنونة مقيدة ، حيث « لا يستقيم الأمر لحكومة ملكية على وجه الأرض ما لم

---

١ ـ (بيلرباي) يقصد بها الولاية أو الإمارة ، وبكلربكي بمعنى رئيس وبكلر بكيون رؤساء ، وبكلربكية وظيفة الرئيس . أنظر قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي : البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر) ، ص ٧٥ ، اشرف على طبعه حمد الجاسر ـ الرياض ، منشورات دار اليمامة ، ط١ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٢ ـ إسماعيل حقي : امراء مكة المكرمة ، ص ٤١ ـ ٤٣ .

٣ ـ المرجع السابق ، ص ٤٥ .

٤ ـ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

تنظم لولاية العهد فيها قواعد ثابتة لا يشوبها خلل ، ولا يتخللها ارتباك ، وإلا كانت تلك الشوائب مدعاة للإضطراب والفتن وإثارة الحروب » . [١]

الأشراف ومناطق نفوذهم بالحجاز :

تولت أسر من الأشراف من ذرية الحسن والحسين ، ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، حكم بلاد الحجاز وراثياً ، وإتسم حكمهم لها بالطابع العربي ، فهي إمارة عربية في تقاليدها [٢] وإستمر إلى إنقراضها ، وقد تعاقب على حكم مكة المكرمة أربع أسر من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما وهم :

أولاً : آل الأخيضر ، واستمر حكمهم تسع وتسعون سنة ، منذ عام ٢٥١هـ/٨٦٥م إلى أن انقرضوا سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م .

ثانياً : السليمانيون ، واستمر حكمهم ما يقرب من مائة وثلاث سنوات ، بدأ حكمهم من عام ٣٥٠هـ/٩٦١م إلى عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م .

ثالثاً : الهواشم ، وبلغت فترة حكمهم مائة وسبعة وثلاثون عاماً منذ سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م إلى ٥٩٨هـ/١٢٠١م .

رابعاً : بنو قتادة ، بدأ حكمهم منذ سنة ٥٩٨هـ /١٢٠١م إلى ١٣٤٣هـ /١٩٢٤م واستمر ما يقرب من سبعمائة وخمسة وأربعون سنة [٣] . وكان الرحالة المغاربة على إطلاع بنسب الأسرة الأخيرة ، فذكروا أنهم يشتهرون بآل أبي نمي ، وهم بطن من آل الحسن .

---

١ ـ السباعي : تأريخ مكة ، ج١ ، ص ٤٥٥ .

٢ ـ أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، جـ٤ ، ص ٢٨١ ، شرح وتعليق ومقابلة نصوص نبيل خالد الخطيب ، ط١ ، دار الفكر ، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، د.م.

٣ ـ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي : تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج٤ ، ص٩٩ ـ ١٠٢، بيروت ـ لبنان ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ؛ أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ٨٥ ـ ٩٣ ؛ نواب : الرحلات المغربية ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

وقد حمل أمراء مكة المكرمة لقب شريف ، وأمير ، وملك ، وسلطان [١] . وإن لم يكن الأخيرين من القابهم الرسمية .

أما المدينة المنورة ، فقد حكمتها أسرة من بني الحسين بن علي رضي الله عنهما ، بدأت في حكمها منذ عام ٣٦٠هـ/٩٧٠م . وتلقب الأشراف أمراء المدينة المنورة لقب أمير .

ولم يكن حكم بنى الحسين محصوراً بالمدينة المنورة ، كما لم ينحصر حكم بني الحسن بمكة المكرمة ، إذ وُجد من الحسنيين مَنْ تولى إمارة المدينة المنورة في بعض الفترات ، كما وُجِدَ من الحُسينيين من تولى إمارة مكة المكرمة أحياناً [٢] . إلى أن أدمجت إمارة المدينة المنورة مع إمارة مكة المكرمة . [٣]

أما جُدة ، فقد كانت تتبع إمارة مكة المكرمة وبها عامل لأميرها مهمته تحصيل الضرائب [٤] . وكان يلقب في بادىء الأمر بالقائد [٥]

---

١ ـ القاسم بن يوسف التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص ٣٠٤ ، تحقيق عبدالحفيظ منصور ، الدار العربية لكتاب ـ ليبيا ـ تونس ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦١ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

٢ ـ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ٨٥ ؛ نواب : الرحلات المغربية ، ص ١٥٦ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ؛ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ١٢٢ .

٤ ـ ابوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي : تذكرة بالأخبار عن إتفاق الأسفار (رحلة ابن جبير) ، ص ٥٧ ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص ٢١٩ ؛ أبوعبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة : تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) ، ص ٢٤٣ ، بيروت ، دار بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٥ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ـ ٥٧ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ .

ثــم بالأمــير [١] والأمــين [٢] والوزيــر والحاكم [٣] . ثــم عاد لقــب القائــد مرة أخرى . [٤]

أما ينبع فكانت مواطناً لأسرة بني قتادة ، ولهم بها قلعة [٥] ، ويظهر أنها في الفترات الأولى من حكم هذه الأسرة استقل بها أحد أشرافها ، وتأرجح ولاؤه بين أمـير مكة المكرمـة وسلطان مـصـر ، إذ كـانت تصله منه مـسـاعـدات اقتصادية [٦]، وحمل حاكمها لقب أمير . [٧]

أما فيما يتعلق بالطائف فكانت تابعة لأمير مكة المكرمة عليها أمير من قِبَلِه ، إذ كـانت مـصـيفـاً لأمـرائها وأثريائها ، ومـزرعـة تمدُّ مكة المكرمـة بالغلال والفواكه [٨] . ولقب أميرها بلقب الحاكم . [٩]

---

١ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٣ .

٢ ـ إسماعيل حقي : إمراء مكة المكرمة ، ص ٣٨ .

٣ ـ أحمد السباعي : تأريخ مكة ، ج١ ،ص ٤٥١ .

٤ ـ محمد بن على بن فضل الطبري الحسيني المكي : إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، ج١ ، ص ١٣٣ ، تحقيق د/ ناصر بن عبدالله بن سلطان البركاتي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة مانشستر ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٥ ـ تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي : العقـد الثمـين فـي تاريخ البلد الأمين ،ج٧ ، ص ٤٠ ، ٥٧ ، تحقيق فؤاد سيد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٦ ـ أبوعبدالله محمد بن العبدري الحيحي : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ، تحقيق محمد الفاسي ـ الرباط ، ١٩٦٨م .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٤١٠ ـ ٤١٦ ؛ عبدالجبار منسي العبيدي : الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية ، ص ٢٤ ، ٢٨ ، دار الرفاعي ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، د.م .

٩ ـ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

ومن ملحقات مكة المكرمة أيضاً ، **منطقة خليص** ، وكان حاكمها أحد أشراف الحسنيين [١] ، ووجد بها حصن لهم ، يحميهم من الأعراب ، ومكمناً للإستعداد لإسترداد مكة المكرمة إذا ما أخذت منهم [٢] . كما وُجد لهم حصن آخر **بالدهناء** [٣] للدفاع عن إمارتهم أيضاً . [٤]

ومن المناطق الأخرى التابعة لأمراء مكة المكرمة مباشرة **مرّ الظهران** ، ولهم بها مزارع وبساتين ولم تخرج عن سلطتهم المباشرة بتاتاً لقربها من مركز الإمارة . [٥]

الحالة السياسية بمكة المكرمة :

إختلفت إمارة الحجاز التي كانت عاصمتها مكة المكرمة ، وتميزت عن غيرها من ولايات الدولة العثمانية ، ومما يؤكد ذلك وثيقة وردت على لسان أحد كبار الموظفين العثمانيين المعينين بالحجاز في أواخر دولة الأشراف زمن الشريف عبدالمطلب [٦] جاء فيها « .. عندما جئت إلى هنا كنت على اعتقاد خاطيء بأن وظائف وامتيازات إمارة مكة المكرمة محدودة ومعينة مثل الامارات الأخرى ، وعلى أية حال فإنه لا توجد تحديدات وشروط بشأن الوظائف

---

١ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٥ .

٣ ـ (الدهناء) قرية من نواحي ينبع ، كانت محطة للحجاج عامرة ، وهي إلى ينبع أقرب ولكنها خربت في بداية القرن العاشر الهجري ، وتسمى الآن بالسانيه ، وتبعد عن ينبع ٢٥كم . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ .

٤ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ١١١ .

٥ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٧ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٨ .

٦ ـ عبدالمطلب بن غالب بن مساعد إستمرت فترة حكمه ٥سنوات في ولايتين منفصلتين الأولى سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م وهي الأقصر والثانية عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م وقد حدثت في ولايتيه فتن وأحداث كثيرة . انظر السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٥١٧ ـ ٥٢٠ ، ٥٣١ ـ ٥٣٤ .

والإمتيازات في الفرمان العالي الذي يحمله الشرفاء المعينون هنا ، واتضح من التحقيقات التي أجريتها هنا ، أن الامراء السابقون والأمير الحالي عبدالمطلب لا يستندون إلى أية شروط أو تحديدات » . [١]

من هذا النص نستنتج أن السلطان العثماني لا دخل له في الأمور الداخلية بمكة المكرمة ، وأن الشريف يُسير أمورها وفق هواه ، وتدخل السلطان العثماني فقط في الفتن الكبيرة ، وكانت هذه الفتن كثيرة ، ولا محيص من تدخل السلطة العثمانية فكانت تبادر بإرسال جيش عن طريق والي مصر .

ولمس الرحالة المغاربة تمتع الأمراء الاشراف بالإستقلال الداخلي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، بدءاً من إختيار الأمراء الأشراف لحكمها ، وإنتهاءاً بأبسط أمور الحياة اليومية ، ومما يؤكد هذا الأمر تصريح العياشي بذلك ، بعدما لمسه خلال مجاورته ، عندما تحدث عن الضرائب التي يدفعها الحجاج ، فقال : « لا يأخذ سلطان مكة شيئاً .. لأنه وإن كان مستقلاً في مملكته ، هو في الحقيقة عامل من عمال الخاقان الأعظم صاحب الروم ، يأتيه من مصر من الأموال والأطعمة ما يقوم بكفايته وكفاية عساكره [٢] » . فالعياشي هنا لمس الإستقلال الداخلي وعبر عنه بقوله « مملكته » وأثبت في الوقت ذاته تبعيته للدولة العثمانية ، وهذه التبعية لم تنف الإستقلال الداخلي .

---

١ ـ إسماعيل حقي : إمراء مكة المكرمة ، ص ٤٤ ، نوال سراج ششه : الحجاز تحت حكم محمد على ١٢٢٦ ـ ١٢٥٦هـ سنه ١٨١١ ـ ١٨٤٠م ، ص ٣٣ ـ ٣٧ . رسالة دكتوراه لم تنشر ، مقدمة لجامعة أم القرى عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٩٠ ؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

أما عن اختيار شريف مكة المكرمـة ، بسبب وفاة الأمير السابق أو عزله أو إستقالته ، فكان يتم بالاختيار من قبَل الأشراف [١] ، وبناءً على تقارير قاضي مكة المكرمة ، وولاة مصر والشام وجُدة ، ثم يأتي فرمان تعيينه من السلطـان ، أما إذا لم يحصل اتفاق بين الأشراف حول شخص معين ، فالحكومة العثمانية تعّين من قِبلَها أحـدَ الأشراف ، بناء على دراسة التقارير المرفوعة لها من قبل الولاة ، وقاضي مكة المكرمة [٢] . وكانت رشوة باشا جُدة تلعب دورها في تعيين أمير غير مرغوب فيه ، فيكون نتيجة ذلك إخلال بالأمن ، واضطراب في الإدارة ، فيضطر السلطان العثماني لتعيين آخر محلّه ، ولكن كان الإختيار بالإنتخاب بين الأشراف هو الأساس ، إلا أن التنافر كان قائماً بينهم ، وكثيراً ما كان الأمير المعيّن يُبَدَّل بعد فترة قصيرة . بالإضافة نظام حكم المشاركة ، والذي يقضي بأصدار فرمان سلطاني يعين فيه أميرين لمكة المكرمة يشتركان في حكمها . [٣]

ومن خلال نظام المشاركة هـذا ، يُعَّد الشريـف المشـارك لهذا المنصب المنتظـر في عهـد أبـيه ، أو أخيه ، أو عمه ، أو ابن عمه ، فتحصل له بذلك فرصة التـدريـب على أعـبـاء هذا المنصـب ، فـإمـا أن يثبت أهليـتـه ويكوّن الأتبـاع والمؤيدين [٤] ، أو يُعْزَل [٥] . أما ولاية العهد فلم تعرف في نظام الحكم بالحجاز .

ومن هنا نرى أن النظام السيـاسي بالحـجاز كان له ثلاثة دعـائم هي : الاختيار ، والتنافر ، والمشاركة في الحكم . وهذه الدعائم الثلاثة كانت لا تخلو من عيوب ، فالاختيار غالباً ما كان يتم لمصلحة الأقوى وليس الأصلح ، كما أن نظام المشاركة لم يكن يتبع قاعدة ثابتة ، علاوة على التنافر بين الأشراف ، فكل ذلك أدى إلى كثرة الإضطراب والبلبلة .

---

١ ـ المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٣٩٣ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٦ .

٣ ـ إسماعيل حقي : امراء مكة المكرمة ، ص ٣٣ ، ٥٠ .

٤ ـ احمد بن عمر الزيلعي : نظام المشاركة في الحكم لدى اشراف مكة ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، الرياض ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٥ ـ الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٦١ .

ولم يلتفت الرحالة المغاربة كثيراً إلى الحالة السياسية بالحجاز ، فوردت بإشارات طفيفة تحتاج إلى توضيح بالاستعانة بالمصادر التاريخية الخاصة بالحجاز ، فمن ذلك إشارة الرحالة القيسي ، الذي قدم إلى الحجاز عام ١٠٤١هـ/١٦٣١م ، إلى فتنة حدثت بمكة المكرمة ، فوصف الذين تسببوا فيها « بالفئة الباغية » ، وفي مكان آخر نعتهم « بالعدو الباغي ، الصائل على الحرم الشريف » . [١]

والقيسي في هذه الإشارة الخاطفة ، لم يصرح باسم أمير مكة المكرمة في ذلك الوقت ، كما لم يذكر سبب خروج هذه الفئة على الشريف ، وكل ما ذكره أنه رأى إحتفالاً عسكرياً بمصر ، جمعت فيه الحشود والجنود ، وعلى رأسهم خمسة قادة مع كل قائد ألف جندي من الأتراك ، وثمانية من المدافع ، وأمام كل قائد ثمانية من سوابق الخيل ، بالإضافة إلى أمير الحاج المصري رضوان [٢] ومَنْ معه من الجنود ، وهذا الحشد العسكري الكبير إسترعى إنتباه القيسي ، فسأل عن سببه ، فقيل له : « أن بعض مَنْ شَقَّ العصا من الأتراك من ناحية اليمن ، إجتمعوا على الشريف وصالوا على الحرم الشريف ، ونهبوا الأموال ، وسلبوا النساء والرجال ، فنهض أمير مصر لحماية البيت ونصرته ودفع المهاجم عليه ومقاتلته » . [٣]

وكما وصف لنا القيسي خروج هذا الجيش من مصر لنجدة أمير الحجاز، وصف لنا وضع القاهرة بعد عودته فقال : « ومدت الركائب المصرية ، والجيوش المجهزة لدفع الفئة الباغية بعد قضاء الأوطار ، وأخْذ الثأر ، وإصلاح البلاد والعباد ، فنوديَ في أقطار القاهرة ونواحيها ، ألا فهذه أيام الزينة ، فاحْتَفِلوا » . [٤]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٩ ، ١٣١ ، ٨٨ .

٢ ـ رضوان بك الفقاري تولى امارة الحاج المصري ثمانية سنوات متصلة وثمانية متفرقة وهو أطول من تولى من أمراء الحج . له مآثر حسنه في طريق الحاج وفي الحجاز . توفي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م . الرشيدي : حُسن الصفا ، ص ١٨٣ ـ ٢٠٦ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

فالقيسي هنا شاهد عيان على هذه الحشود المتجمعة والذاهبة إلى الحجاز لمساعدة شريفها ، ولكنه لم يوضح لنا لمَ نهض والي مصر لنجدة الشريف ؟ وبأمر مَنْ أُعدَّ هذا الجيش ؟

وبمقارنة ما ذكره مع ما كتبه مؤرخو تلك الفترة ، تتضح الصورة ، ونجد إجابات للتساؤلات السابقة . فالسنجاري ذكر في حوادث سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م وقعة الجلالية [١] ، وملخصها : أن أخباراً وصلت إلى مكة المكرمة في أوائل شعبان ، تفيد بخروج عسكر على الوزير اليمني من قِبَل الدولة العثمانية . وهم متوجهون لمكة المكرمة ، وقبل وصولهم إليها أرسلوا رسالة لشريفيها محمد بن عبدالله [٢] وزيد بن محسن [٣] ، كان مضمونها السماح لهم بدخول مكة المكرمة ليتهيئوا منها للذهاب إلى مصر ، فرفض الشريفان السماح لهم خوفاً من حدوث فوضى ، وخرجا بِمَنْ معهما من الأشراف إلى أسفل مكة المكرمة لمنعهم من دخولها ، فالتقى الطرفان وتقاتلا ، فقتل الشريف محمد بن عبدالله وعددٌ من الأشراف ، وعاد بعضهم بالشريف المقتول لدفنه بمكة المكرمة ، وتوجه الباقون لمرّ الظهران . واستطاعت الجماعة المنشقة من دخول مكة المكرمة مع

١ - (وقعة الجلالية) : تنسب إلى جلالي ، جندي من عسكر اليمن ، خرج على طاعة قانصو باشا ، وذهب إلى القنفذة ، وهاجم مكة المكرمة بمن معه وانتهت هذه الوقعة بهزيمة المهاجمين على يد جيش بعث به باشا مصر براً وبحراً . أنظر أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ١٠٦ .

٢ - الشريف محمد بن عبدالله بن حسن بن أبي نمي الثاني ، تولى إمرة مكة المكرمة بعد أن خلع أباه نفسه عام ١٠٤١هـ/١٦٣١م ، وأشرك معه بالإمرة الشريف زيد بن محسن ، وصدر مرسوم تعيينهما ولم تستمر ولاية هذا الشريف طويلاً ، إذ قُتِلَ في وقعة الجلالية في نفس العام ومدة ولايته ٧ أشهر إلا ستة أيام . انظر العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ؛ عبدالفتاح حسين اسماعيل محمد طيب راوه المكي : تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ، مطبعة الكمال ، د. ت .

٣ - الشريف زيد بنْ محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي ، شريف مكي حسني ، ولد بمكة المكرمة عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م ، وسار مع أبيه إلى اليمن ، ثم عاد إلي مكة المكرمة ، فولاه الشريف عبدالله بن حسن الإمارة شريكاً مع ابنه محمد بعد أن خلع نفسه ، ثم قتل شريكه في وقعة الجلالية ، وفرّ هو ، إلى أن عاد بالجيش التركي القادم من مصر ، وأخمد الثورة ، وأصبح الحكم الفعلي حتى وفاته عام ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م ومدة ولايته ٣٥ سنه وشهر وأيام . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٢ ، ص ١٧٦ - ١٨٦ .

الشريف نامي بن عبدالمطلب [١] والذي ولوه أميراً لمكة المكرمة وأشركوا معه في الإمرة الشريف عبدالعزيز بن إدريس بن حسن [٢] ، بدون الدعاء لهما على المنابر ، لأنه لم يصدر مرسوماً سلطانياً بتوليتهما ، ثم أرسلوا لأمير جُدة أن يسلمها لهم ، فأبى وتحصّن بها فحاصروه ثم دخلوها [٣] ونهبوا داره ودور معظم التجار ، ثم عادوا إلى مكة المكرمة وعاثوا فيها فساداً ، وأشيع أن والي مصر أرسل أربعة سناجق ، إذ أنه بعد وقعة الجلالية ، توجه الشريف زيد بن محسن إلى المدينة المنورة ، وأرسل رسالة مع أحد الأشراف إلى والي مصر ، يخبره بما جرى ، ليوصّل الخبر للسلطان العثماني ، فجهز باشا مصر ثلاثة آلاف جندي ، وعيّن عليهم خمسة قادة ، رحلوا براً ، وأرسل خمسمائة جندي بحراً . وانتظر الشريف زيد هذا الجيش في ينبع لحين وصوله ، ثم سار معه متوجهاً إلى مكة المكرمة ، فأرسل الشريف نامي ثلاثين خيالاً وعشرة هجانة ، لإستطلاع الخبر ، فشعر بهم الجيش وقتلوا منهم ثلاثة عشر خيالاً وخمسة أو ستة هجانة ، وفر الباقون ، وأخبروا الشريف نامي بما وقع ، فخرج بأتباعه ممَّنْ بقي من الأتراك من مكة المكرمة في الرابع من ذي الحجة سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م إلى تربه [٤] ، وتحصنوا بها ، ودخل الجيش مكة المكرمة ،

---

١ ـ الشريف نامي بن عبدالمطلب بن حسن بن أبي نمي ، أمير مكة المكرمة ، ولاه الأتراك القادمون من اليمن الذين عاثوا بمكة المكرمة فساداً وتم القبض عليه وقتله بمكة المكرمة . وكانت ولايته مائة واحد يوم بعدة اسمه نامي . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٤ ، ص ٤٤٨ .

٢ ـ الشريف عبدالعزيز بن إدريس بن حسن بن أبي نمي ، من بني عمومة الشريف نامي ، أُشرك في الأمرة معه من قبَل الأتراك القادمين من اليمن . انظر المحبي : خلاصة الآثر ، ج٤ ، ص ٤٤٨ ؛ السباعي : تأريخ مكة ، ج١ ، ص ٣٦٨ .

٣ ـ يبدو أن حصانة جُدة كانت أكثر من جهة البحر ، أما من جهة البر فلم تكن بتلك الحصانة ، إذ يمكن دخولها واقتحامها .

٤ ـ (تُربَه) بالضم ثم الفتح ، واد بالقرب من الطائف ، وهو أحد أودية الحجاز ، وهي بلدة عامرة بها الكثير من المزارع ، وقعت بها الموقعة المشهورة بين الجيش السعودي وجيش الشريف الحسين بن علي عام ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ٢٠ .

وكذلك المحمل المصري برئاسة الأمير رضوان أمير الحاج المصري ، الذي لم يَقْدِمِ معه هذه السنة حجاجاً من مصر ، بل عسكراً لمساندة الجيش ، وبعد تمام الحج خرج الجيش مع الشريف زيد إلى تربة ، وحاصروا مَنْ بها ، واقتحموا عليهم حصنهم ، وأمسكوا برئيس الجلالية ، وبالشريفين نامي وأخيه . وكان اقتحامهم للحصن ليلة الجمعة حادي عشر محرم عام ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م . ثم عادوا إلى مكة المكرمة ، وقُتل الشريفان ورئيس الجلالية ، وبهذا انتهت هذه الوقعة ، ورحل بعدها أمير الحاج المصري والشامي والجيش ، آخر شهر صفر ، وإستقر الأمر للشريف زيد . [١]

وهذه الرواية وردت متشابهة عند مؤرخي مكة المكرمة ، إلا أن العصامي والمحبي ذكرا أن عدد السناجق المرسلة سبعة [٢] . وورد عند يحيى ابن الحسين الخبر مختصراً ، وحدّد عدد الجيش بثلاثة آلاف . [٣]

ومما سبق نجد ، أن باشا مصر هبَّ لنجدة الشريف زيد ، بناءً على رسالة أرسلها له ليبلغها بدوره إلى السلطان العثماني ، الذي أصدر أمره إلى باشا مصر بسرعة النجدة ، فجمع الجيش وسيَّره إلى الحجاز ، كما اتضح معرفة مدى الصلاحيات التي كانت مخوَّلة لباشا مصر لتسيير أمور إمارة الحجاز ، ومساعدة أمرائها الأشراف بموجب مرسوم صدر قبل ذلك [٤] . كما لم نلحظ أي حدود تفصل بين نفوذ الأشراف بالحجاز والنفوذ العثماني ، سواء من قبل باشا مصر أو والي الشام ، إذ كان أمير الحاج الشامي من ضمن المساعدين في

---

١ ـ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج٢ ، ص ٩٣٢ ـ ٩٦٠ ؛ عبدالفتاح راوه : تاريخ أمراء البلد الحرام ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

٢ ـ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٣٧ ـ ٤٤١ ؛ المحبي : خلاصة الأثر ، ج٢، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ؛ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٧ .

٣ ـ يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، ج٢ ، ص ٨٣٥ ، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح عاشور ومراجعة د/ محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٤ ـ انظر ما سبق ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

القضاء على هذه الفتنـة كما ذكر القيسي [١] . ومن هـنا يمكـننا التوفـيق بين ما ذكره القيسـي عن عـدد السناجق وما ذكـره مؤرخو مكة المكرمة ، إذ كـان

وكان والده محسن [١] قد بني سبيل ماء بعد مستورة ، فأضاف الشريف زيد ببدر سبيلاً آخر لييسّر على الحجاج ، إذ قلَّ ما يوجد بهذه المسافة ماء ، ومع بناء هذين السبيلين فقد بقي الماء قليلاً ، لبعد مسافة جلبه إليهما . [٢]

وكـان الخروج لاستقبال الحجاج إلى مدائن صالـح أو المديـنة المنـورة و وتوديعـهم ، من مـهام أمـير الحـجاز الأسـاسية ، وكذلك المواظبة على الأدعية الخيرية مـع عامـة المجـاوريـن والزائرين بدوام عـمر الدولة العـثمـانيـة وقـوة السلطان . [٣]

وطبيعـي أن مهمتهم الرئيسية حراسة طرق الحجيج كما ذكرنا ، وتأمين سلامـتـهـم ، ولو طُبِّق هذا الأمـر كما أراد السلطـان العـثمـاني لَمَا لاقـي الحـجيج الكثير من الويلات من قلة الأمـن فـي طريقـهم ، ويبـدو أن هـذا يعود أساسـاً إلى عدم وصول الأخبار الصحيحة للسلطان ، أو عدم علمه أصلاً بما كان يجري .

---

١ ـ الشريف محسن بن حسين بن حسن ، ولد عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م وتربى في كنف عمه أبي طالب لأن والده حسيناً توفي في حياة أبيه الحسن بن أبي نمي تولى إمرة مكة المكرمة مشاركاً لعمه إدريس بن حسن منذ عام ١٠١٩هـ / ١٦١٠م ، وإتسعت حدود إمـارتهما إلى الأحسـاء ، وحدث تنافر بينهما بسبب تعدي عبيد الشريف إدريس ، ووصل الأمر لحد خطير ، فاجتمع أهل الحلّ والعقد من الأشراف والعلمـاء والفـقـهاء الأعيـان ، وخلعوا إدريساً وفـوضـوا أمـر ولاية الحـجـاز للشـريف مـحسن عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م ، وحدث إضطراب من جراء ذلك ، إلى أن خرج الشريف إدريس من مكة المكرمة ، ولم يلبث أن توفي في نفس السنة . وكان الشريف محسن كثير الفضائل ، وأمنت البلاد في عهده ، إلى ان كان عام ١٠٣٧هـ١٦٢٧م حدث بيـنه وبـين أحمد باشا متولى اليمن نفرة ، بسبب سوء تفاهم ، فعزله ، وخرج الشريف محسن إلى اليمن بعد أحداث كثيرة ، وتوفي بها عام ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م . انظر الطبري : اتحـاف فضـلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٢٧ ، ١٣٤ ـ ١٣٦ ؛ دحلان : أمـراء البلـد الحـرام ، ص ٩١ ـ ٩٧ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٦ ، ١٧٠ .

٣ ـ إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمـين أو الرحلات الحجـازيـة والحـج ومشـاعـره الدينية محـلاه بمئات الصور الشمسـية ، ج٢ ، ص ٢٠٩ـ ٢١٠ ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت ؛ اسماعيل حقي : امرأة مكة المكرمة ، ص ٣٤ .

وقد أطنب العياشي في الثناء على الشريف زيد ، وقال في وصفه : « رجل أسمر ، أبيض اللحية ، سمح الوجه ، ضرب من الرجال ، إلى النحافة أميل » . ومن صفاته الخُلقية « التواضع ، وحسن السياسة ، وتدبير الأمور » .

وذكر العياشي أمراً أغفلته المصادر التاريخية عن مذهبه ، حيث أتبع أولاً المذهب الزيدي [١] . ثم اعتنق المذهب الحنفي . وقصة ذلك كما روى العياشي : أن هذا الأمير كان فيما مضى كأهل بيته على المذهب الزيدي ، ثم باينهم وتمذهب بالمذهب الحنفي ، وحسن اعتقاده في علماء السنة ، وبالغ في تعظيمهم ، وكفَّ أهل بيته عن النيل من أهل السنة ، ومنعهم من إظهار معتقداتهم ، وذُكِر له أنهم اجتمعوا ذات يوم ، ولاموه على رجوعه عن مذهبهم ، فقال لهم : « ألا يكفيكم منّي أنّي لم أجبْركم ولم أنهْركم على الرجوع مما أنتم عليه ، إنما هو دين ، لا يسع المرء فيه إلا إعتقاد ما هو الحق ، وإتباع مَنْ يغلب على ظنّه أنه على الحقّ والهدى ، وقد ظهر لي صحّة ما رجعت إليه ، فإن رأيتم ما رأيت ، وتبّين لكم ما تبيّن لي ، فينبغي لكم أن ترجعوا إلى الحق والهدى ، وإن لم تَرَوْه فلكم دينكم ولي دين ، فمن ذلك اليوم أيسوا (هكذا) منه » . [٢]

وذكر العياشي أن كثيراً من الناس وسموه بالبخل ، وقد نفى عنه هذه التهمة ، لأن شيخه أبا مهدي ذكر له خلاف ذلك ، حيث قال له : « إنه لا يدفع صدقاته ، ولا يسدي المعروف إلا لِمَنْ ليس له وظيفة معلومة من أتقياء العلماء ،

---

١ ـ (المذهب الزيدي) : مذهب أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، جعلوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ، وكانوا يرون جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبدأ مذهبهم أول الأمر قريباً من أهل السنة ، ثم لم يلبث أن انحرف عن الصواب ، وأخذوا في الطعن في الصحابة ، وافترقوا فرقاً ، كل فرقة تخالف الأخرى . أنظر أبوالفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني: الملل والنحل ، ج١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ عبدالله غازي المكي : إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام ، ج٦ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٧ ، مخطوط .

فيبعث لهم وللفقراء بالأموال ليلاً ، بحيث لا يعلم بذلك إلا بعض خواص أصحابه ، ولا يعطي أصحاب المناصب والوظائف إلا النزر اليسير ، ولهذا وصفوه بالبخل » . [١]

كما وصُف بكثرة العبادة ، وأُخذ عليه ظلم عماله في أموال الناس ، وبرر العياشي هذا الفعل بقوله : « كما هو شأن ولاة العصر » . [٢]

أشاد العياشي بالأمن والإستقرار في ربوع الحجاز أثناء فترة حكم الشريف زيد ، وكان من التدابير التي اتخذها ليحقق ذلك ، إقامته للعمال والعسكر للحراسة وتأمين الطريق في بعض منازل الحاج ، مثل خليص ، من اللصوص أيام الموسم ، وأضاف : « أن أعراب الحجاز كانت تهابه وتتقيه » . كما ذكر : « أنّ من محاسنه أنه لم يقتل أحداً من أهل بيته ، بالرغم من كثرة خروجهم عليه ، وفسادهم في إمارته ، إذ كان كل ما يفعله نحوهم ، هو إخراجهم من مكة المكرمة . وإذا ما حاول البعض جمع الأعراب لإفساد أمر إمارته ، تركهم إلى أن تخلو أيديهم من الأموال ، فيعودوا صاغرين إليه ، طالبين العفو ، حتى دانوا له جميعاً بالطاعة » .

وقيل بأنه كان يكره سفك الدماء ، على الرغم من شجاعته التي تضرب بها الأمثال ، وأُخذ عليه الإكثار من مصادرة الأموال إلا في الحدود ، كما أُخذ عليه ، أن عماله كثيراً ما كانوا يخالفون الشرع في جبايتها ، ويظلمون بذلك الناس . [٣]

ويظهر أن العياشي كان معجباً جداً بشخصية الشريف زيد وأعماله ، ولكن لم يمنعه هذا الإعجاب من ذكر المساوىء التي أخذها عليه .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٦ .

٢ ـ المصدر السابق والصفحة .

٣ ـ المصدر السابق والصفحة .

ووافق الطبري ، وابن غازي ، العياشي في ثنائه على الشريف زيد ، فقد ذكرا جميل صفاته وحميد أخلاقه ، كما أوردها العياشي . [١]

ويبدو أن الشريف زيد كان يحكم القبضة على أمور الحجاز ، وساعده في ذلك أبناؤه ، فمنهم مَنْ كان بمكة المكرمة معه ومنهم من كان بالطائف والمدينة المنورة ، يجوبون كافة أنحاء الإمارة ، وكانت الأعراب تخاف أبنائه أيضاً وخاصة الذين ينقلون المسافرين بين مكة المكرمة والمدينة المنورة . [٢]

لقّب العياشي الشريف زيد بلقب سلطان الحجاز [٣] ، ويبدو أن هذا اللقب لم يكن من ضمن الألقاب الرسمية لأمير الحجاز ، فقد إختصّ به السلطان العثماني ، وقد أطلقه الرحالة المغاربة على أمير مكة المكرمة ، لِما كانوا يرون ما عليه من الأبهة والملك ، وما ذكره العياشي عن لقب السلطان للشريف زيد ، أيده فيه المحبي الذي قال : إن كل مَنْ ترجم له نعته بالسلطان [٤] . وورد هذا اللقب في قصيدة إمام المالكية تاج الدين المالكي أوردها المحبي ومنها :

لله تأسيس نما خيره	وفاز بالتصهير مَنْ أمَّ له
به سبيل وحنفية	وسلسبيل فارتشف سلسله
اسسه سلطان أم القرى	زيد يدوم العز والسعد له [٥]

والملاحظ أن منشأ هذا اللقب ، كان في عهد الشريف زيد ، وأُطلق على بقية الأمراء الأشراف الذين حكموا مكة المكرمة ، حيث لم نر له ذكر في المصادر التي سبقت عهده .

---

١ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ ؛ ابن غازي : إفادة الأنام ، ج٦ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٧ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٣ ، ٤١٣ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

٤ ـ المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٣٩٢ .

٥ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

مباني الحكم بالإمارة :

ذكر العياشي أن بمكة المكرمة داراً للحكم تسمى دار الامارة ، بالقرب من الصفا [١] ، تُدار في أروقتها شئون الإمارة . وكان الفاسي من قبل قد أشار في كتابه شفاء الغرام إلى وجود دار للأمارة ، وذلك في عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م . [٢]

كما أشار العياشي إلى وجود محكمة في مكة المكرمة للفصل بين قضايا الناس ، وكان موقعها بالقرب من المسعى . [٣]

وفي إعمار ما تخلّفه الكوارث الطبيعية كالسيول ، ذكر العياشي مبادرة السلطان زيد وأولاده وأقاربه ، وأمره لأهل مكة المكرمة بإغلاق حوانيتهم والمساهمة في إصلاح ما أفسده السيل ، وطلبه المساعدة من الدولة العثمانية ففي الكارثة التي حدثت عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م دخل سيل عظيم أتلف الشيء الكثير من معالم المسجد الحرام ، فكان لابد من مساهمة الدولة العثمانية إصلاحه ، فبادر والى جُدة أغا [٤] سليمان [٥] ، التوجه لمكة المكرمة ومعه الأموال الكثيرة لإصلاح ما تهدم وترميم ما يحتاج لترميم . [٦]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ .

٢ ـ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٠٠ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٧ .

٤ ـ (اغا) لفظة تركية معناها السيد . أنظر نوال سراج ششه : جدة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، ص ٦٧ ، هامش رقم ٣ ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ط١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٥ ـ اغا سليمان ، أو سليمان بك ، تولى سنجقاً على جُدة عام ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م وفوّضت إليه مشيخة الحرم ونظارة عمارة المسجد الحرام والمشاعر فبادر إلى ترميمه ، وتولى ترميم ما انهدم وإنمحى في سيل ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م ، بالمسجد الحرام . وتوفي في محرم عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م . انظر السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج٣ ، ص ١٠٢٦ ـ ١٠٣٣ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ؛ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج٣ ، ص ١٠٢٦ ـ ١٠٣٣ ؛ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٥٨ .

ولفت نظر العياشي تواضع أحد أبناء الشريف زيد ، ويدعى الشريف حسن ، الذي استأذن في مقابلة الشيخ عبدالرحمن المكناسي [١] ، وكان العياشي حاضراً فلم يأذن له لفترة من الزمن ، ثم سمح له بعدها بالدخول ، ولم يقم له الشيخ ، ولا احتفل بمقدمه ، فلم يغضب الشريف مع حداثة سنه ، وما عليه من نخوة الملك والشرف ، بل إنه ألانَ الكلام بين يدي الشيخ وتلطف معه [٢] . وتدلنا هذه المقابلة على اهتمام الشريف زيد وأبناؤه بالعلماء وتوقيرهم في ذلك الوقت والسعي لنيل علمهم والتقرب منهم .

سمّى العياشي في رحلته أسماء بعض أمراء مكة المكرمة ، ولكنه لم يذكر إلا أقل القليل من أخبارهم ، وهم الأمير محسن بن حسن [٣] ، الذي ابتنى سبيل ماء بالبزواء . وقال : « أنه تولى الشرافة عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م » [٤] . وما ذكره العياشي عن سنة توليه الشرافة موافقاً لما ذكره العصامي . [٥]

وأورد العياشي قصة تدل على الاهتمام بالأمن والإستقرار في عهده فقال : « إن رجلاً جاء إلى السلطان محسن ، فقال له : « إني وجدت بالفلاة الفلانية حملاً من البزّ [٦] في الطريق » ، فقال له : « ومَنْ أخبرك أنه من البزّ ؟ فقال : « مسسته برجلي » ، فأمر بقطع رجله وقال له : « لِمَ مسسته برجلك » ؟ وأضاف العياشي : أن هناك قصصاً كثيرة بهذا المعنى لا يعلم صحيحها من سقيمها [٧] . وإن صدقت هذه الحادثة فهي ليست من الشرع ، وتدل على التجاوز في تطبيق الأحكام .

---

١ ـ أنظر ترجمته فيما بعد ، ص ٥٧٠ ـ ٥٧٢ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١١ ، ٤١٣ .

٣ ـ الصحيح محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي . انظر الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٢٧ ، ١٣٤ ـ ١٣٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٦ .

٥ ـ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

٦ ـ (البز) الثياب أو متاع البيت من الثياب . أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٥ .

إن هـذا الأمن الذي خيم على بلاد الحـجـاز في فـتـرة إمـارة الشـريف محـسن ، إنما كـان مـرده الإرهـاب الشـديد بالعـقـاب لأدنى مـخـالفـة تصـدر من أحدهم ، ولم يكن الأمن قائماً على أسـاس صـحـيح من العدل ، فهذه الحادثة وإن أعطتنا إنطباعـاً عن الأمن ، لكنها في نفس الوقت تركت لدينا إنطباعـاً عن شـدة بطش الشريف محسن ، فلو التفت هو وغيره من الأمراء إلى الإصلاحات الداخلية من تهيئة أسباب إستقرار الأعراب وضبط سياستهم ، وإسناد الأعمال الزراعية والصناعية لهم ، وتشجيعهم على مزاولتها ، وصَرَفَ الأموال على هذا الأمر في توطينهم ، لعمَّ الأمن بدون الإسـراف في البطش والعـقـاب ، لأن عـبث الأعـراب وفسـادهم مـردّه إلى قلّة الأقوات ، فلو أقيمت المشاريع ذات المردود الإقتصادي الجيد لقلت الفوضى وأمنت الناس على أموالها وأنفسها .

وذكر العياشي سلطاناً آخر للحجاز ، هو الشريف إدريس بن الحسن[١] ، الذي مدحه قاضي المالكية وإمـام مقامهـم عام ١٠٢٨هـ/١٦١٨م [٢] . بقصـيدة لم يوردها المحبي ، وأوردها العصامي والسنجاري مع إختلاف بسيط في ترتيب الأبيات ونقصان بعضها . [٣]

---

١ ـ الشريف إدريس بن الحسن بن أبي نمي أمير مكة المكرمة ، يكنى أبا عون ، ولد عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م كـان تحت إمـرته العـديد من العـبـيـد والعرب ولِّيَ إمـرة مكة المكرمـة بعـد أخـيـه أبي طالب عـام ١٠٢١هـ/١٦١٢م ، وأشرك مـعـه أخاه فـهـيد ، ثم خلعه وأشـرك مـعه ابن أخـيه مـحسن بن حسين ، ووصلت حدود إمرتهما إلى الأحساء ، وحدث تنافر بينهما بسبب تعدى عبيد لإدريس ، فاجتمع أهل الحلّ والعقد على خلعه ، وتفويض الأمر إلى الشـريـف مـحـسـن ، فـحصلت فوضى انتهت بخروج الشريف إدريس عـام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م صلحـاً . ولم يلبث أن توفي في نفس العـام في جبل شـمـر ، وكـانـت مدة ولايته ٢١ سنة ونصف النصف . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ؛ القاضي تاج الدين بن أحـمـد بن إبراهيم بن تاج الدين بن محـمد بن محـمد بن تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن جمال الدين مـحمد بن يعقوب بن يحي بن يحي بن عبدالوهاب المالكي المدني ثم المكي يعرف بابن يعقوب من علماء وخطباء ومدرسين وأدباء مكة المكرمـة ، ولد بمكة المكرمـة ونشـأ بها وأخذ على أكابر شـيوخ عـصره ، وتصـدر للتدريس بالمسـجد الحرام ، وذاع صيته ، له ديوان شعر وفتاوى فقهيه جمعها ولده أحمد وسماها تاج المجاميع وله جمع لخطب الجمع والأعياد والإستسقاء ، وله عدد وافر من المؤلفات توفى بمكة المكرمة ٨ ربيع الأول سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ٤٥٧ ـ ٤٦٤ .

٣ ـ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ ؛ السنجاري : منائح الكرم ، الجزء الثاني ، ج١ ، ص ٧٢٤ ـ ٧٣٣ .

وإثبات قصائد المدح في كتب الرحلات المغربية ، لها أهمية أدبية ، إذ حفظت أدب تلك الفترة من الضياع ، فالرحالة المغاربة كانوا معاصرين لهؤلاء الأدباء الذين أخذوا عنهم نتاجهم الأدبي مباشرة .

وذكر العياشي أيضاً إسم الشريف مسعود بن إدريس بن حسن [١] ، وأشار إلى قبة بنيت على قبر [٢] أمير مكة المكرمة أبي طالب [٣] ، والذي وصفه بالشجاعة والإقدام والفتك ، فقال : « دوخ بلاد الحجاز ، وقهر عربانها غاية القهر ، وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرخون بموته ، فيقولون : كان هذا في زمان أبي طالب ، قالوا : وكان سفاكاً للدماء ، ومع ذلك كان حسن السيرة ، ولم يكن أحد يأتيه بالولاية لما هو عليه من الفتك والبطش » . [٤]

وما ذكره العياشي من وصف لهذا الأمير ، يوافق ما أورده المحبي في وصفه ، إذ أورد جملة تغني عن كل وصف له ، فقال : « أظهر السطوة ، وقهر الأكابر والأعيان .. تخافه البوادي وأهل النوادي » . [٥]

---

١ ـ الشريف مسعود بن إدريس بن الحسن بن أبي نمي أمير مكة المكرمة ، نشأ بها تحت رعاية أبيه ، وقعت له حروب مع ابن عمه محسن ، تولى إمارة مكة المكرمة سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م ، وقعت في عهده الكعبة المشرفة ، توفي ليلة الثلاثاء عاشر شهر ربيع الثاني سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م ومدة ولايته سنة وشهرين و ٢٦ يوماً . انظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج٤ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

٢ ـ إن البناء على القبور أمر محرم شرعاً ، ولا يجوز فعله ، ولكن كثر البناء على القبور في ذلك العصر ، إذ هو من أهم سماته .

٣ ـ الشريف أبوطالب بن حسن بن أبي نمي ، أمير مكة المكرمة والحجاز ولد عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م ، كان شريكاً لوالده بعد وفاة أخويه ، آلت إليه الإمرة شراكة مع الده ، إستمر شريكاً لوالده إلى أن توفي والده عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م ، ولحقه اخوه عبدالمطلب ، فأستقل بالإمارة ، وتوفي ليلة الإثنين لعشر بقين من جمادي الآخرة عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م في محل يقال له العشة جهة اليمن وحمل إلى مكة المكرمة ، ودفن بالمعلاة وبنى على قبره قبة كبيرة . أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٥ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٥١ .

٥ ـ المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ١٣٣ .

وعندما قدم الرافعي إلى بلاد الحجاز عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م ، سمى أميرها بالشريف أحمد بن زيد [١] ، وأشار إلى كثرة أتباعه وجنده بعُددهم وعتادهم وخيلهم . [٢]

ويبدو أن كثرة أتباعه وجنوده تعود لمحبة الناس له وإجماعهم عليه ، لاسيما وأنه قدم من عند السلطان العثماني حاملاً أمر تعيينه ، فدخل مكة المكرمة مع أمير الحاج المصري والشامي ونائب جُدة والقاضي والمفتي . [٣]

وأتى القادري إلى بلاد الحجاز عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م ، وأشار إلى الأمير آنذاك الشريف أحمد بن غالب [٤] ، ولقبه بالسلطان ، ووصف كثرة عسكره وخدمه

---

١ ـ الشريف أحمد بن زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نمي ، شارك أخاه سعداً في رُبع واردات مكة المكرمة ، ثم عزلا وتوجها عام ١٠٨٢هـ/١٦٧١م إلى الطائف ثم إلى بيشة ، وأقاما بها ، ثم توجه الشريف أحمد إلى ديرة بني حسين وأقام بها ، وبعدها توجه للمدينة المنورة للزيارة ، والتقى مع أمير الحاج الشامي ، وطلب منه التوسط بينه وبين شريف مكة المكرمة بركات ، ثم خرج من المدينة المنورة ونزل على شيخ حرب ، وانتظر أمير الحاج الشامي الذي أعتذر عن عدم تمام الأمر، ثم توجه إلى الفرع عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م . وأستمر بها مدة وأخذ ينتقل من مكان لآخر ، إلى ان توجه إلى الأبواب السلطانية ، فأكرم وفادته في كل منزل نزله وقيلت فيه القصائد ، ومكث فترة هناك إلى أن حصل اختلاف بمكة المكرمة بين أشرافها ، فعينه السلطان العثماني أميراً على الحجاز ، فدخلها في حج عام ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م وبقي أميراً عليها إلى أن توفي في ٢١ جمادى الأولى عام ١٠٩٩هـ١٦٨٧م. أنظر المحبي : خلاصة الأثر ، ج١ ، ص ١٩٠ ـ ١٩٧ .

٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ، ١٦٧ .

٣ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٨٥ .

٤ ـ الشريف أحمد بن غالب ، دخل مكة المكرمة أميراً عليها في شوال عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م ، وورد المرسوم بتعيينه في ذي القعدة من نفس السنة من قِبل والي مصر ، الذي كتب إلى السلطان العثماني باتفاق الأشراف عليه وأن الدولة توافق عليه ، وفي بداية عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م نشب خلاف بينه وبين كثير من الأشراف فخرجوا عليه ، وعمت الفوضى ، فغادر مكة المكرمة في رجب من نفس السنة ، بعد أن دام حكمه سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، والتجأ إلى إمام اليمن ليساعده على استرداد إمارته ، فلم يقبل لعجزه عن مساعدته ، وطيب خاطره وولاه حكم عسير ، وضم إليه بعض الإمارات الأخرى ، واستمر بها ٤ سنوات ، ثم رحل إلى بلاد الروم وتوفي بها عام ١١١٣هـ/١٧٠١م . انظر دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ١٥٠ ـ ١٥٣ ، ١٦٥ ؛ السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٣٩٢ ـ٣٩٤.

وخيله وأتباعه الذين كانوا يرتدون زياً موحداً [١] . ويظهر أن الشريف أحمد بن غالب كان يملك املاكاً واسعة وخدماً كثيراً يعملون بها ، إذ ذكر القادري أنه كان يملك بمرّ الظهران مزارع يعمل بها خدم له . [٢]

لم يذكر الدرعي اسم أمير مكة المكرمة الشريف عبدالكريم بن محمد [٣] عندما قدم إلى الحجاز عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م ، مع أنه الذي تولى إمارتها ٦ سنوات و١٠ أشهر في ثلاث مرات ، كان آخرها من عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م إلى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م . [٤]

ولما قدم أبو مدين إلى الحجاز عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م ذكر اسم أمير مكة المكرمة ولقبه بالسلطان مسعود[٥]. وأنه شاهده عندما كان متوجهاً إلى عرفات بجيشه.[٦] في حين أغفل الزبادي ذكر اسمه في رحلته ، مع أنه بقي أي الشريف مسعود

---

١ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٩٨ .

٣ ـ الشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى ، تولى إمارة مكة المكرمة ، بعد أن تنازل له عنها الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد عام ١١١٦هـ/١٧٠٤م . وأجمع على طاعته الجميع ، وحدثت حروب بسبب منازعة الشريف سعيد بن سعد له ، إلى إن أخذت منه ، ثم عاد واسترد الإمرة عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م وعزل في نفس السنه وعاد إليها بعد حروب كثيرة ، واستمر أميراً على مكة المكرمة إلى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ثم فرّ منها إلى مصر حيث توفي عام ١١٣١هـ/١٧١٩م . انظر دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ١٧٩ ـ ٢١٣ ؛ اسماعيل حقي : أمراء مكة المكرمة ، ص ١٢٩ .

٤ ـ إسماعيل حقي : أمراء مكة المكرمة ، ص ١٢٩ .

٥ ـ الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد ، إستولى على إمارة مكة المكرمة عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢م جمادى الأولى ، لم يستتب له الأمر إلا ٣ شهور ، عاد بعدها إبن أخيه محمد بن عبدالله في ولايته الثانية ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مكة المكرمة مرة أخرى بتأييد من الضباط العثمانيين ، وتصدى الشريف مسعود لقتال ابن أخيه ، حتى أجبره على الخروج من مكة المكرمة ، ودخلها ، ونودى له بالإمارة عام ١١٤٦هـ/١٧٣٣م واستقر أميراً بها قرابة عشرين عاماً ، ثم تصالح مع ابن أخيه الشريف محمد والذي عاد إلى مكة المكرمة في صفاء ، وفي عهده حدثت عدة أمور ، منها أمره بمنع شرب الدخان ، وإبعاد الأجانب عن مكة المكرمة ، ودخول سيل عظيم المسجد الحرام عام ١١٥٣هـ/١٧٤٦م غرق فيه أناس كثيرون . أنظر دحلان : امراء البلد الحرام ، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٥ ؛ عبدالفتاح راوه : تاريخ أمراء البلد الحرام ، ص ٢٢٩ ـ ٣٠٢ .

٦ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٨ ، ١٢٨ .

أميراً على مكة المكرمة منذ عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢م وإلى وفاته عام ١١٦٥هـ/١٧٥١م . [١]

الحالة السياسية بالمدينة المنورة :

كان للمدينة المنورة وضعها الخاص في علاقتها مع الدولة العثمانية ، وإن كانت تتبع أمير مكة المكرمة ، وضمن مدن إمارته ، وقبل أن ندخل في تفصيلات هذا الأمر وما أورده الرحالة المغاربة عنها ، لابد لنا من العودة إلى الوراء لنستطيع أن نفهم التعقيد الحادث في أمورها ، وسبب اهتمام الدولة العثمانية بها .

إشتهرت المدينة المنورة بالخصب والنماء ، فأرضها بركانية خصبة ، يمدها بالمياه العذبة وادي العقيق ، وتحيط بها المزارع من جميع الجهات ما عدا الجهة الغربية الحرّة، فهي تعتمد في زراعتها على العيون الكثيرة الموجودة بها. [٢]

عاشت المدينة المنورة على الزراعة وأمَّها الناس ، خاصة وأنها تحتضن بين جنباتها المسجد النبوي الشريف ، والكثير من الآثار النبوية الشريفة ، فعرفت الإزدهار والعمران الكبير ، وكما نعرف فبعد انتقال دار الخلافة منها خرجت من دائرة الأضواء والأحداث ، وأصبحت لا تتميز عن غيرها من المدن الإسلامية إلا بما احتضنته بين جنباتها من آثار إسلامية أهمها المسجد النبوي وقبر الرسول ﷺ ، فهي بطبيعة الحال بعيدة عن مركز الدولة ، لذا أضحت مركزاً يحتضن الخارجين على السلطة وملجأً لهم ، سواء من الأمويين أو العباسيين ، فصادفت الكثير من النكبات ، ولولا وجود المسجد النبوي وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم وآثاره للحقها الخراب والإندثار .

---

١ ـ دحلان : امراء البلد الحرام ، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٥ .

٢ ـ احمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ دار الفكر العربي ـ ، د. ت ، د. م .

وعن هذه الثورات ذكر المحجوب طرفاً منها فقال : « فلما كثر الثوار والمناصبون بالعدواة للدولة العباسية ، وعجزت عن مقاومتهم لضعفها ، إستبد كثير من الشرفاء الحَسنيين والحُسِنيين ببلاد الحجاز ، وأستولوا على مكة والمدينة ، منابذين لملوك بنى العباس وغيرهم من الملوك تارة ، ومسالمين لهم أخرى ، ثم احتاج هؤلاء الولاة الشرفاء إلى الإستكثار بأعراب الحجاز ، وأكثرهم متوحشون بالقفار، فكان الشرفاء يغيرون بهم على أطراف عمران الحجاز ، وربما أغار الأعراب أنفسهم على العمران لتوحشهم وعدم وجود الدافع المانع لهم من الفساد ، حتى خربوا عمران أكثر الحجاز عموماً وأرض المدينة خصوصياً » . [١]

وهذا النص يعطينا السبب الحقيقي الذي جعل الأعراب حول المدينة المنورة تتجرأ عليها ولا تلقى بالاً لحرمتها ، الأمر الذي أدى إلى تكرار مهاجمتها المرة تلو الأخرى بحثاً عن المال والغذاء ، وهمهم الأوحد النهب والسلب .

ولحماية المدينة المنورة بُنى حولها سور لأول مرة عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م بالطوب واللبن [٢] ، لصد الغارات المتكررة من الأعراب عليها ، وفي عهد بني بويه ، وبالتحديد عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م تم تجديد بناء السور ، وكان الداعي لتجديده هذه المرة ، هو الخوف من إستيلاء الفاطميين على المدينة المنورة . [٣]

---

١ ـ أبوعبدالله محمد المحجوب : قرة العين في أوصاف الحرمين ، ورقة ٤٢ /أ ، مخطوط رقم ٤٢٩ ، ٢٢٠٤ ، المغرب ـ الرباط ـ مكتبة علال الفاسي .

٢ ـ المصدر السابق والورقة ؛ صالح لمعى مصطفى : المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري ، ص ١٣ ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، طـ١ ، ١٩٨١م ؛ عبدالقدوس الأنصاري : أثار المدينة المنورة ، ص ١٦٩ ، المدينة المنورة ، المكتبة العلمية التجارية ، طـ٤ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

٣ ـ المحجوب : قرة العين ، ورقة ٤٢ /ب ؛ صالح مصطفى : المدينة المنورة وتطورها ، ص ١٣ ؛ عبدالقدوس الأنصاري : أثار المدينة المنورة ، ص ١٦٩ .

وفي عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م جدد السور مرة ثالثة ، حيث اشتكى أهل المدينة المنورة للوزير الجواد الأصبهاني [١] من ضرر الأعراب ، فقد كان الكثير من أهل المدينة المنورة يطاله أذى هؤلاء الأعراب . وبعد الإنتهاء من بناء السور وتجديده ، ذكرت المصادر بأن الناس كانوا يترحّمون عليه بعد صلاة الجمعة [٢] ، بل قد وصل الأمر إلى أن خطيب المسجد النبوي كان يخصّه بالدعاء كل جمعة ضمن خطبته [٣] . الأمر الذي يدل على ما وفّره السور من أمان لأهلها .

وبعد تجديده بحوالي ثمانية عشر عاماً ، أقام نور الدين زنكي [٤] عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م سوراً من الحجر أحاط بالسور القديم ، بالرغم من أن السور الذي بناه الجواد كان سوراً محكماً له أبواب متقنة مكسوة بصفائح الحديد . [٥]

---

١ ـ جمال الدين أبوجعفر محمد بن على بن أبي منصور الأصبهاني ، وزير قطب الدين صاحب الموصل ، يلقب بالجواد الأصبهاني ، كان محمود السيرة له أعمال جليلة ومآثر حسنة بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، حُسد ، فقبض عليه ، ومكث آخر أيامه بالسجن ، وتوفي به وحمل جثمانه إلى مكة المكرمة ، ودفن بالمدينة المنورة ، برباط بناه بجوار المسجد النبوي وكانت وفاته عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م . أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ؛ شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، ج٥ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٦ ، ترجمة رقم ٧٠٤ ، تحقيق د/ إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د. م ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٧ ، ترجمة رقم ٣٣٠ .

٢ ـ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٧٦٨ ؛ د/ عبدالباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج٢ ، ص ١٧٢ ، ط١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، د. م .

٣ ـ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٧٦٨ .

٤ ـ نور الدين محمود بن زنكي بن أقسنقر ، الشهيد صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ، ولد سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، انتشر ذكره وعدله وإتسعت دولته حتى خطب له بالحرمين الشريفين واليمن ، وتصدى للهجوم الصليبي ، وبنى الأسوار والقلاع وأوقف الأوقاف ، توفي يوم الأربعاء ١١ شوال عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م . أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٦ .

٥ ـ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ١٩٠ ؛ المحجوب : قرة العين ، ورقة ٤٢ /ب ؛ عبدالقدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ١٦٩؛ صالح مصطفى : المدينة المنورة وتطورها ، ص ١٤ .

وبناء سورين على المدينة المنورة أمرٌ مستغرب ، إذ كان يكفي بناء سور واحد ، ولكن يزول ، العجب إذا عرفنا أن نور الدين عندما أتى إلى المدينة المنورة ، إستغـاث به أهلها ، وطلبوا منه أن يبنى عليهم سوراً يحفظ أبناءهم ومواشيهم ، فبناه [١] . ويبدو أن عمران المدينة المنورة اتسع وامتد خارج السور الذي بناه الجواد ، لذا احتاجوا إلى بناء سور آخر لحماية مَنْ يسكن خارجه ، إذ لا يعقل أن يطلب أهل المدينة المنورة شيئاً لم يكن ضرورياً لهم .

ولقد بقى هذا السور يجدد ويرمم فترة من الزمن إلى أن جدده السلطان الصالـح صالـح بن محمد بن قلاوون [٢] عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وجعله حصيناً للغاية ، وأحدث به شرفات ، وكان عريضاً ، وارتفاعه يقرب من عشرين أو خمسة وعشرين ذراعاً ، وله ثلاثة أبواب ، أحدها في غربه ومنه دخول الناس وخروجهم ، وخاصة أهل الركبان ، والثاني يخرجون منه لزيارة البقيع . [٣]

ثم جُدّد جزء منه في عهد قايتباي [٤] ، ولم يشر أحد من المؤرخين إلى أن السور قد بنى بناءً جديداً إلا في بداية العهد العثماني ، وبالتحديد في عهد السلطان سليمان القانوني عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م ، لأن السور السابق تهدم

---

١ ـ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ١٩٠ .

٢ ـ الصالح صالح بن محمد بن قلاوون ، الملك الصالح صلاح الدين أبوالفتح ابن الناصر بن المنصور ، تولى يوم الإثنين ١٨ جمادي الأخرة عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١م ، وخلع سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م . أنظر عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطي : نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي ـ مكتبة الثقافة الدينية ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، د. م ؛ صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق : الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ، ج٢ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٦ ، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي ـ عالم الكتب ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، د. م .

٣ ـ المحجوب : قرة العين ، ورقة ٤٢ /ب ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ١٩٠ .

٤ ـ قايتباى المحمودي الظاهري الجركسي ، الملك الاشرف سيف الدين أبوالنصر ، تسلطن ٦ رجب سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، بنى الكثير من الآثار المعمارية الهامة ، بالقاهرة والإسكندرية ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، مات يوم السبت ١١ ذي القعدة عام ٩٠١هـ١٤٩٥م ، ومدة ولايته ٢٩ سنة و٤ أشهر وعشرين يوم . أنظر الملطي : نزهة الأساطين ، ص ١٤٣ ـ ١٤٦ .

معظمه ، وأشرف على السقوط ، فرفع أهل المدينة المنورة أمره إلى السلطان سليمان وأعلموه ، بأن خراب السور أدّى إلى فساد وضرر كبير ، بسبب إغارة العربان عليهم بصفة مستمرة ، فصدر الأمر ببنائه [١] . فهذا السور الذي بناه السلطان سليمان العثماني هو الذي شاهده الرحالة المغاربة ووصفوه .

ونخلص مما سبق ، أن المدينة المنورة عانت الأمرين ، من الأعراب المحيطين بها ، وكانت المدينة المنورة مستقلة تحت حكم أشراف من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما ، واستمرت في استقلالها إلى أن دخلت تحت حكم شريف مكة المكرمة تدريجياً ، وذلك لضعف أمرائها الحُسينيين ، وبدعم من سلاطين المماليك لشريف مكة المكرمة ، ويبدو أن حادثة سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م التي قتل فيها قاضي المدينة المنورة كانت بداية دخولها الفعلي تحت نفوذ أمير مكة المكرمة ، وتدخله في شؤونها بطلب من السلطان المملوكي قايتباي . إذ فصل الشريف محمد بن بركات [٢] أمير مكة المكرمة آنذاك في الحادثة السابقة ، وأوصى بتغيير أمير المدينة المنورة فنفذ السلطان المملوكي ما أشار به . [٣]

---

١ ـ محمد بن خضر الرومي الحنفي : كتاب التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة الشريفة ، ص ٨٥ ، تقديم حمد الجاسر تحت عنوان رسائل من تاريخ المدينة ـ الرياض ، دار اليمامة ـ د. ت ؛ الشريف محمد صالح الحسيني البرادعي : المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ، ص ١٠٠ ، ط١ ، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م . د. م .

٢ ـ الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، ولد في رمضان عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م بمكة المكرمة وخلف أباه على ملك الحجاز ، أكثر من الخيل والأتباع ، وقضى على بني إبراهيم بينبع وعلى الجازاني وأشرك معه ابنه بركات وكان يخطب لهما على منابر الحرمين توفي عام ٩٣٠هـ/١٥٢٣م . انظر شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج٤ ، ص ١٥٠ ـ ١٥٣ ، بيروت ـ لبنان ، دار الجيل ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ؛ دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ٦٤ ـ ٦٧ .

٣ ـ عبدالباسط بدر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، ج٢ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

ومنذ ذلك الوقت أصبح لأمير مكة المكرمة مهمة الإشراف على المدينة المنورة ، ولم يعد لشريف المدينة المنورة المكانة التي كان يتمتع بها سابقاً ، إذ أصبح نائباً عن أمير مكة المكرمة [١] . ولا يستطيع إبرام أو نقض أمر دون الرجوع إليه ، ولم تعد للمدينة المنورة علاقات مباشرة بسلاطين مصر ، حيث كانت تصرف أمورها عن طريق أمير مكة المكرمة . [٢]

ولما دخل عامة الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، استمرت سلطة أمير المدينة المنورة تتضاءل ولم يعد له ذكر إلا في الدعاء يوم الجمعة على المنبر كما ذكر العياشي . [٣]

تقسيم السلطة بالمدينة المنورة :

لقد أسهب العياشي في توضيح النفوذ السياسي في المدينة المنورة ، فأورد مسميات واختصاصات الفئات الحاكمة على النحو التالي :

- أمير مكة المكرمة ، زيد بن محسن والذي لقبه بالسلطان .
- نائب أمير مكة المكرمة بالمدينة المنورة ، وهو ابن عم الشريف زيد وزوج إبنته ، السيد ثقبة [٤] . ومهمته النظر في مصالح البلد ، وقد استمر هذا المنصب يمارس أعماله حتى نهاية حكم الأشراف .
- سلطة الولاة العثمانيين ، إذ كان نفوذهم بجانب نفوذ أمير مكة المكرمة ، وكان لهم رئيس يقيم بالقلعة .
- حاكم تنفيذي ينفذ الأحكام ، من سجن وضرب وقتل وتأديب .

---

١ ـ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ .

٢ ـ بدر : التاريخ الشامل ، ج٢ ،ص ٣١٨ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٤ ـ لم نجد له ترجمة في المصادر التي تناولناها .

ـ سلطة شيخ الحرم وشيخ الأغوات ، ولهما سلطة دينية كبيرة ، وكلمة مسموعة من الجميع .

ـ الأمير الحسيني ، الذي تنسب له الإمارة إسماً .

إجتهد العياشي في التعريف بحال أمراء المدينة المنورة ، فمما ذكره ، أن إمارة المدينة المنورة في الماضي كانت لبني الحسين ، وإمرة مكة المكرمة لبني الحسن ، وكانت تقع بينهما الحروب ، لأن بني الحسين كانت لهم قوة وبطش ، وربما غلبوا بني الحسن ، أما الآن [١] ، فصار الأمر بيد بني الحسن ، وبذلك جمعوا الولايتين ، ولم يبق لبني الحسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة المنورة ، وصار معظمهم بادية ينزلون ويرحلون بنواحي المدينة المنورة ، وهم قبيلة عظيمة قوية ، يجمعهم اسم « بني الحسين » ، وكبيرهم موسوم بولاية المدينة المنورة ، يسكن بها هو وبعض اقاربه ، ولهم شارة حسنة ومنازل رفيعة تدل عليهم . [٢]

ويبدو أنه كان هناك أمير من قبل الدولة العثمانية ، مهمته القيام بالإصلاحات ، وخاصة فيما يتعلق بعين الأزرق ، إذ كانت لهذه العين أوقاف معلومة ، وجرايات تأتي من السلطان العثماني . [٣]

وفي هذه الفترة كثر الجند العثماني بعائلاتهم في المدينة المنورة ، ومما يدلّ على ذلك قول العياشي : « أن أهل المدينة المنورة تزّيوا بزيّ الأعاجم ، في مأكلهم ومشربهم وملابسهم ، لكثرتهم ، إذ كان بها طائفة كبيرة ، الغرض من وجودهم حماية المدينة المنورة ، ولكنهم في الحقيقة لا يغيثون ملهوفاً ولا يردعون ظالماً » . [٤]

---

١ ـ المقصود زمن رحلة العياشي عام ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٣٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

ويبدو أنهم مكثوا بالمدينة المنورة بقصد الراحة ، وطلب المعيشة السهلة ، فقد ذكر العياشي أنهم « يشترون الحصص والجامكية ، فيجلسون بالمدينة يرتزقون بما يأتيهم من ذلك ، على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة » . [١]

وقد سمع العياشي الدعاء يوم الجمعة في الخطبة لثلاثة على التوالي، هم : السلطان العثماني موصوفاً بخادم الحرمين الشريفين [٢] ، ثم الشريف زيد بن محسن موصوفاً بحامي حمي الحرمين الشريفين ، ثم أمير المدينة المنورة السيد الحسين بن جماز موصوفاً بحامي المدينة المنورة وأميرها .

وأضاف أن أمير المدينة المنورة ليس له من الأمر إلا الإسم أو ما يقرب منه ، لأنه كان تحت أمر سلطان مكة المكرمة ، وكان التصرف الفعلي لنوابه وأقاربه . [٣]

وتأكيد العياشي ، المرة تلو الأخرى ، على إنعدام سلطة أمير المدينة المنورة ، إنما هو نابع من مشاهداته ، وما لمسه واقعياً أثناء مجاورته بها ، فهو قد تحقق من الأمر فكرره بهذا الشكل .

ونبه العياشي على أمر أغفلته بعض المصادر ذكره ، وهو تفضيل العسكر العثماني سكن المدينة المنورة على السكن بمكة المكرمة ، ذاكراً السبب في ذلك ، حيث قال : « إن أهل مكة المكرمة غلبت عليهم البداوة ، وأنها وطن أمير مكة المكرمة وأولاده وأقاربه ، بالإضافة إلى أن نفوس أمراء مكة المكرمة لا تنقاد لأحكام العسكر ، والمدينة المنورة بعيدة عن أمير مكة المكرمة » . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ اتخذ السلاطين العثمانيين هذا اللقب الديني ليكون إعلاناً لكافة القوى الإسلامية والمسيحية بأن الحجاز من املاك الدولة ولا يحق لأي قوة الاعتداء عليه ، وأن الدفاع عن هذه الممتلكات واجباً تفرضه كرامة الدولة ومصلحتها . د/ نبيل عبدالحي رضوان : النفقات على الحرمين الشريفين في القرن التاسع عشر ، ص ٤ ، بحث منشور في مؤتمر الحياة الإقتصادية للبلدان العربية في جامعة الأزهر ، مركز الشيخ صالح كامل ، د. ت .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

وهذا الأمر الذي نّبه إليه العياشي ، يدل بوضوح على عدم إنصياع أمراء مكة المكرمة للأحكام العثمانية ، وأن مكة المكرمة إلى ذلك الوقت كانت تعيش حياة بسيطة ، وكان أهلها يأنفون الإنقياد للأغراب ، بينما المدينة المنورة بسبب ما كانت تعانيه من انعدام الأمن فيها ، رأوا وجوب الخضوع لِمَنْ جاورهم لحمايتهم ، ولكنهم كانوا سبب شقائهم .

أما المناصب الدينية كشيخ الحرم وشيخ الأغوات ، فكان أساس وجودهما ، ما أُسْند اليهما من صلاحيات ، كانت لا تتعدّى خدمة المسجد النبوي وما يختص به ، ولكن نجد أنهما خرجا على حدود صلاحياتهما ، إلى الأمور العامة والخاصة ، وذكر العياشي : « أن شيخ الأغوات كانت له كلمة نافذة وتصرفاً تاماً ، ويداً مبسوطة ، وكأنه أحد عظماء الولاة ، تنفذ أحكامه وتصرفاته في القويّ والضّعيف ، وينقاد له الكبراء والأشراف » . [١]

ومما يدل على مدى نفوذهم وتسلطهم ما حدث عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م ، عندما فُصل رجلُ من أتباع أحد الأغوات من عمله بحامية قلعة المدينة المنورة ، لسوء تصرفاته ، فحاول بعض الأغوات التوسط لعودته ، فقوبلت تلك الوساطة بالرفض من أمير الحامية ، فغضب الأغوات ، وعدّوا ذلك إهانة لهم واستهتاراً بوضعهم الإجتماعي ، ثم تفاقم الخلاف ، إذ أخذ كلٌ من الأغوات وقائد الحامية ، يؤلبون الناس لصالحهم ، وهكذا إنتقل الخلاف ليشمل العامة ، فتوسط قاضي المدينة المنورة في الصلح ، فرفض الأغوات حضور مجلس الصلح ، فَعُدَّ تصرّفهم هذا خروجاً على الشّرع ، وتحصّنوا بالمسجد النبويّ ، وأغلقوا أبوابه ، واستعدّوا بالأسلحة داخله وعلى المنائر ، وبذلك عطلت الصّلاة به ، وحدث الصّدام لإخراجهم من المسجد النبوي ، فلما أحسّوا أن الدّائرة ستدور عليهم ، طلبوا الصّلح والأمان،

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٥ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

فرفض طلبهم ، إلا إذا رضوا بالمثول للمحاكمة أمام الشريف مبارك بن أحمد[١] ، أمير مكة المكرمة والحجاز ، فسلَّم ستة من الأغوات أنفسهم نيابة عن البقية ، وهم الرؤساء المحرضون على الإعتصام ، ومثلوا أمام الشريف بمكة المكرمة ، الذي حكم على بعضهم بالسجن ، ونفى البقيّة ، وأرسل محضراً بما جرى إلى العاصمة العثمانية ، ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ ، بل أن المنفيين أوغروا صدور المسؤولين بالعاصمة العثمانية على أهل المدينة المنورة ، فصدر أمر بإرجاعهم إلى مناصبهم ، وإعدام كبار رجالات المدينة المنورة .[٢]

هذه الحادثة ، تدلنا على أن مردّ الحكم في الأمور العظام التي تحدث بالمدينة المنورة إلى أمير مكة المكرمة يفصل فيها بحكمه ، الذي يسري في حينه ، ولكنه قد ينُقض إذا صدر أمرٌ مخالف له من السلطان العثماني . كما تدلنا الحادثة ، على أنّ من يثبت حجته لدى الحكومة العثمانية هو الأجدر بالثقة ، بصرف النظر إن كان ظالماً أو مظلوماً ، وهذا الأمر من الأسباب التي أدت إلى زعزعة الاستقرار في الحجاز .

---

١ ـ الشريف مبارك بن أحمد بن زيد أمير مكة المكرمة تولاها عام ١١٣٢هـ/١٧١٩م ، إلى أن حدثت بينه وبين الشريف عبدالله منافرة عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م ، فأخرجه إلي الليث ، لأنه بلغه أنه يسعى لمنصب الإمارة ، ولم يلبث أن وقعت فتنة أخرى بينه وبين الأشراف ، بسبب قطعه معظم مقرراتهم ، فاجتمعوا وقرروا خلعه ، وتولية الشريف أحمد بن عبدالمحسن بن أحمد بن زيد ، ولكنهم عزموا على مقاتلته ، فتحصّن بمكة المكرمة حتى نفذ ما تحت يده فخرج لمقاتلتهم وإنتصر عليهم ، وطلبوا الصلح وحدثت في عهده فتنة الأغوات بالمدينة المنورة عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م ولم يزل اميراً على الحجاز إلى ذي الحجة عام ١١٣٤هـ/١٧٢١م إذ انتزع منه الحكم الشريف يحي بن بركات بولاية من السلطان العثماني فكانت مدة ولايته سنتين ونصف ، وهي الأولى ، ثم تولاها للمرة الثانية عام ١١٣٦هـ/١٧٢٣م . واستمر بها مدة خمسة أشهر لم يحسن خلالها ضبط الأمور فخرج إلى اليمن ، وتوفي بها عام ١١٤٠هـ/١٧٢٧م. انظر دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ٢١٨ ، ٢٢١ ـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

٢ ـ انظر دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ٢١٩ ـ ٢٢١ ؛ د/ بدر : التاريخ الشامل ، ج٢ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨ .

وذكر الغنامي ، الذي قدم إلى المدينة المنورة عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م ، أنّ شخصاً حدثه عن حدوث مجاعة وغلاء عظيم بها ، فأتت المساعدات من مصر محملة على سفن كثيرة تحمل الأرزاق والأقوات لأهلها .[١]

ولم يحدد الغنامي السنة التي حدثت بها تلك المجاعة ، ولا نستطيع بدورنا أن نحددها من المصادر التي تناولناها ، إلا أنه ليس من المستبعد حدوث ذلك ، خاصة وأن المدينة المنورة لم تسلم من الاعتداءات المتكررة عليها من العربان ، مما جعلها تعاني من المجاعة ، فكانت مصر تهب لنجدة سكانها ، لا سيما وأنها مرتبطة بمصر إرتباطاً قوياً عن طريق المجاورة ، وعن طريق الأوامر السلطانية التي تفيد بأن أمور الحجاز تابعة لمصر .

وأشار أبو مدين عندما زار المدينة المنورة عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م إلى وجود جند وأمراء متعددين[٢] . وقلعة متقنة البناء ببروجها ومدافعها ، كانت مأوى الجيش ، وتقع بالقرب من الباب الشامي .[٣]

وما ذكره أبو مدين جاء متوافقاً مع ما ذكره الرحالة المغاربة السابقون والمصادر التاريخية الأخرى .

ومما سبق نجد أن المدينة المنورة ، تعتصرها وتتجاذبها مناطق نفوذ عدة ، منها العثمانيون ولهم أمير حامية وحاكم ، إضافة إلى شيخ الحرم ، وشيخ الأغوات ، وما يتبعهم من أعوان وجند ، أثر كلّ هؤلاء في حياة سكان المدينة المنورة الإجتماعية[٤] والثقافية أكثر من تأثيرهم السياسي ، وكان هناك أيضاً نفوذ أمير مكة المكرمة ونائبه بها ، وأخيراً سلطة إسمية للأمير الحُسيني أمير المدينة المنورة ، والمعيَّن أيضاً من قِبَل أمير مكة المكرمة ، وقد ذكرت بعض الكتب

---

١ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٤ ـ ١٧٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

التاريخية أن سلطته الإسمية تلاشت هي أيضاً [١] . ولكن ذكر الموسوي أنه عندما زار المدينة المنورة عام ١١٤٠هـ/١٧٢٧م ، إلتقى بأميرها ، السيد مديبغ الحسيني [٢] والذي لم نجد له ذكر في المصادر التي تناولناها ، وربما انتهت السلطة الإسمية للأشراف الحُسينيين بعد ذلك .

هذا وقد عانت المدينة المنورة كثيراً من سلبيات تعدد السلطات في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، ولم تستفد كثيراً من وجود الأمراء والجند الذين قدموا لحمايتها .

النفوذ السياسي بُجدة :

قسمت إمارة الحجاز وتوابعها إلى مناطق نفوذ تتبع الأشراف ، وأخرى تتبع العثمانيين ، ولم يتفق على وضع حد فاصل للفصل بين مناطق نفوذ كلتا السلطتين ، بل كثيراً ما نجد إزدواجية في السلطة ، وهذه السمة كانت أكثر ظهوراً في المدينة المنورة ، وجُدة ، فهما وإن كانتا مدينتان حجازيتان ، إلا أنهما وقعتا تحت الإشراف المباشر من الدولة العثمانية جنباً إلى جنب مع سلطة الأشراف حتى لا تكون السلطة مركزة في أيدي الأشراف .

فكما كان إهتمام الدولة العثمانية بالمدينة المنورة متميزاً ، بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها ، كان هناك بالمثل إهتمام بمدينة جُدة ، بسبب أوضاع خاصة بها ، والدليل على ذلك وصف العياشي للإستحكامات الحربية من قلاع وأسوار محيطة بها [٣] ، بنيت بهدف منع البرتغاليين من الإستيلاء عليها ، ومن ثمَّ مهاجمة الأماكن المقدّسة بعد ذلك . [٤]

---

١ ـ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج١ ، ص ١٢٢ ؛ بدر : التاريخ الشامل ، ج٢ ، ص ٣٦٤ .

٢ ـ العباس بن علي بن نورالدين المكي الحسيني الموسوي : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ، ج٢ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، الطائف ، مكتبة المعارف ، د. ت .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ .

٤ ـ الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ج٢ ، ص ٦٩٨ ؛ د/ عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج١ ، ص ١١١ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٨٠م ، د. م .

ويؤيد هذا القول ما ذكره إبن إياس ، من أنَّ أمير مكة المكرمة الشريف بركات [١] قبض على ثلاثة جواسيس من الفرنج ، تسللوا إلى مكة المكرمة ، فأرسلهم إلى سلطان مصر الغوري [٢] . الأمر الذي دعاه إلى تحصين جُدة ، لأنها بوابة مكة المكرمة ، وجعلها تحت سلطته المباشرة ، فعيّن نائباً عنه هناك [٣]. وهذا النظام من جملة ما ورثته الدولة العثمانية بعد ذلك .

وكان من ضروريات أمْن مكة المكرمة تحصين مدينة جُدة ، والدفاع عنها ، إذ هي بوابتها ، وهذا ما جعل المسؤولين يبنون الأسوار حولها لدفع الخطر البرتغالي . [٤]

وقد رأى العياشي السور ، الذي بني على يد نائب السلطان الغوري بجدة سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م ، لصد هجمات البرتغاليين المحتملة ، والتي حدثت بعد ذلك في عهد الدولة العثمانية عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م . [٥]

---

١ ـ الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة ، تخلى له أبوه عن إمارتها عام ٨٢١هـ/١٤١٨م ، فخرج عليه أخوه ، فلم يفلح ، ثم طلب الشريف حسن من السلطان المملوكي عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م تفويضاً لابنيه بركات وإبراهيم ، فلم يصل إلا للشريف بركات منفرداً عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ، فخرج عليه أخوه إبراهيم ، ثم تولى الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بدلاً عنه ، ولكن لم يلبث السلطان المملوكي أن اعاد الشريف حسن ، ثم عزله بالشريف علي بن عنان بن مغامس عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ثم أعاده عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م ، ثم تولى الإمارة بركات بعد وفاة أبيه عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م ، وأستمر أميراً على مكة المكرمة إلى عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م . فعُزل بعلي بن الحسن بن عجلان ، ثم عاد إليها عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م ، وأستمر أميراً عليها إلى وفاته عام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م . ودفن بالمعلاة . أنظر دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ٥٩ ـ ٦٤ .

٢ ـ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٩١ .

٣ ـ ششه : جدة في مطلع القرن العاشر الهجري ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

٤ ـ ششه : الحجاز تحت حكم محمد علي ، ص ٣٨ ، رسالة دكتوراه لم تنشر .

٥ ـ عبدالقدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، ج١ ، ص ٨٩ ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

كان السلطان سليمان العثماني قد خصّص للشريف أبي نميّ بن بركات أمير مكة المكرمة نصف واردات جمرك جُدة لقاء ما قام به من صدّ البرتغاليين وطردهم من قلعتها عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م . [١] فعيّن الشريف نائباً عنه بجُدة بلقب الامين لتحصيل ذلك .

ومن المرجح أن مهمة والي جُدة المعين من قبل العثمانيين ، كانت في باديء الأمر حمايتها والدفاع عنها ، دون إدارة شؤونها الداخلية ، التي كانت ضمن صلاحيات أمير مكة المكرمة ، ونائبه فالدولة العثمانية في باديء الأمر قبلت سلطة الأشراف في منطقتهم ، واكتفت فقط بإرسال قوة عسكرية بالتناوب سنوياً من مصر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بهدف حفظ الأمن . [٢]

وحيث أن العياشي لم يمدنا بأي إشارة تشير إلى الوضع السياسي بجُدة ، لذا وجدنا ضرورة الاستعانة بعض المصادر الأخرى لتوضح لنا حقيقة الحال بها ، ونرجح أنه لولا خشية الهجوم البرتغالي على جُدة لما التفتت إليها الدولة العثمانية بهذا القدر الكبير من الإهتمام ، خاصة بعد ما تحققت من الواردات الضخمة من مينائها ، فحرصت على وضعها تحت الحماية المباشرة لها . لينال خزينتها جزء من هذه الأموال .

الطائف :

كانت تتبع مباشرة لأمير مكة المكرمة وبها نائب له [٣] ، من الأشراف [٤]. ولم يكن للسلطة العثمانية أثر ، إذ لم يكن بها أى خطر يجعلهم يتواجدون بها ، كما أن العياشي لم يرصد شيئاً يدل على وجودهم فيها .

---

١ ـ اسماعيل حقي : أمراء مكة المكرمة ، ص ٣٨ ، ١٠٤ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤١ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٦ .

٤ ـ الموسوي : نزهة الجليس ، ج٢ ، ص ٣٩٢ .

ينبع :

موطن أسرة بني قتادة [١] ، أمراء الحجاز في ذلك الوقت ، فالتكليف العثماني لأمير مكة المكرمة ، كان يشمل ينبع ، فهي حَدّ إمارته [٢] . وقد استوطنها جموع من الأشراف خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، إذ كان بها عاملاً لأمير مكة المكرمة ، كما ذكر العياشي [٣] . واستمر وجود هذا النائب الذي لقب بالوزير [٤] . أما الحاكم بها فهو أحد أشرافها ، حيث ذكر العياشي أنها موطن طائفة من الأشراف [٥] ، وكانت مهمة الأشراف الموجودين بها ، حراسة الرّكب من اللّصوص ، إذ كانوا يخرجون على رأس أميرهم لإستقبال الحجيج . [٦]

ومنها كان خروج أول أمراء أسرة الأشراف الرابعة التي حكمت مكة المكرمة ، قتادة بن إدريس [٧] . الذي استولى عليها من آخر أشراف أسرة الهواشم مكثر بن عيسى [٨] . وبقيت ينبع تتبع أمير مكة المكرمة منذ ذلك الوقت ،

١ ـ ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٥١ .

٢ ـ انظر ما سبق ، ص ١٨٨ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٤ ـ الموسوي : نزهة الجليس ، ج٢ ، ص ٣٩٢ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٦ .

٦ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ .

٧ ـ قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، يكنى أبا عزيز الينبعي المكي أمير مكة المكرمة ، وينبع ، وغيرها من بلاد الحجاز . وليها نحو ٢٠ سنة ، كان في مبدأ أمره مستوطناً نهر العلقمية من وادي ينبع ، وصارت له على قومه سيادة ، فحارب بهم ، وامتلك وادي الصفراء ومكة المكرمة ، وحاول أخذ المدينة المنورة ، وملك الطائف ، وكان في بدء أمره عادلاً ، ثم أساء السيرة بسبب محاولة قتله ، واتسع ملكه ، وكثر عسكره ، قتله إبنه الحسن عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م . انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ،ص ٣٩ ـ ٦١ ، ترجمة رقم ٢٣٣٤ .

٨ ـ مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني المكي ، ولي مكة المكرمة مدة ، كانت بينه وبين أخيه داود ، وبمكثر إنقرضت إمارة الهواشم ، وكانت بداية إمارته ٥٧١هـ/١١٧٥م . وكان قد ابتنى قلعة على جبل أبي قبيس ، فأمر الخليفة العباسي أمير الحاج العراقي بهدمها ، وعزله ، وحدثت بينهما حروب ، وكان سيء السيرة ، توفي عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م . انظر المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩ ، ترجمة رقم ٢٥١٨ .

ولم تخرج عن حكمه إلا في أوقات يسيرة ، وكانت حصنهم وملجأهم ومنازلهم ، ولوقوعها على طريق الحاج المصري ، نمت وازدهرت ، وأشار العياشي إلى أن عمران وادي ينبع متصل نحو ثلاثة أيام ، وأن القرية التي ينزلها الحجيج هي آخرها من ناحية البحر ، وليس بعدها إلا ينبع البحر وهي الميناء ، وأن أغلب سكان تلك القرى يأتون إلى محل نزول الركب للتّسوق ، حيث تُجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان ، إضافة إلى الثمار والفواكه والحبوب والفول الشيء الكثير . وأضاف إن من ميناء ينبع يجلب الطعام من مصر إلى المدينة المنورة . حيث اعتادت قبائل بني سليم وجهينة على حمله ، وأن الركب كان يخزن بينبع ما فاض من أزواده لحين رجوعه . [١]

وما ذكره العياشي موافق لما كان قد قاله المقريزي : من أن ينبع أصبحت تحت العناية ، وأنها ميناء المدينة المنورة الذي يحمل منه الأزواد إليها [٢] . ووصفها الموسوي بأنها بندر المكاسب . [٣]

كما أكد الجزيري أنها محطة ينزلها الحاج للإستراحة والتزود ، وترك ما فاض منهم لحين عودتهم [٤] . ولكن أختل وضعها في أواخر عهد الدولة المملوكية متأثراً باختلال أمن الحجاز ، بسبب تنازع أشراف مكة المكرمة على الحكم ، فامتد الفساد إليها فأسرع في خرابها ، بالإضافة إلى خروج يحيي بن سبع على السلطة المملوكية ، لرفضها طلبه في تولي إمارتها ، خلفاً لوالده فخرج عليها ، والتف حوله الأعراب وهاجم الحجيج وطرقهم ، بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، كما لم تسلم المدينتين من هجماته وقطع الطريق بين مكة المكرمة وجُدة إلى أن قضى على حركته عام ٩١٢هـ/١٤٠٩م . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٢ ـ تقى الدين أحمد بن على المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، القسم ٣ ، ص ٩١٧ ، نشر محمد مصطفى زيادة ، د. ت ، د. م .

٣ ـ الموسوي : نزهة الجليس ، ج٢ ، ص ٤١١ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١٦ ـ ١٤١٩ .

٥ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٧٧٩ ـ ٧٨٤ ، ٧٦٧ ـ ٧٩١ .

وبسبب ما تكبدته الدولة المملوكية في إخماد هذه الفتنة ، أسندت أمر النظر في إمارة ينبع إلى شريف مكة المكرمة . (١)

ولما كانت ينبع ميناء المدينة المنورة ، كان الواجب يحتم إصلاحه وتوسيعه ، فأنشئت به المخازن في عهد السلطان سليمان القانوني (٢) . ويبدو أن حالة الإستقرار التي نعمت بها بعد حركة ابن سبع ودخولها تحت إدارة أمير مكة المكرمة لم تستمر ، إذ حدث في عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م أن هاجمها الشريف سعد بن زيد ، لأن بعض أهل ينبع كان يناصر قبائل حرب التي خرجت عليه ، فأراد تأديبها فقطع نخيلها وهدم دورها وأحرقها . (٣)

ويبدو أنها لم تعمر منذ ذلك الوقت ، وحتى زمن رحلة الزبادي عام ١١٥٨هـ/١٧٤٦م . الذي قال : « أنها مكمن خطر » وإن لم يوضح ماهيته (٤) . ونخلص إلي أن إختلال الأمن بمكة المكرمة له أثر كبير في مناطق الحجاز الأخرى ، ومنها ينبع .

مناطق نفوذ العثمانيين والأشراف في طريق الحاج :

العثمانيون :

كانت للعثمانيين في مناطق نفوذهم نقاط حصينة ، عبارة عن قلاع وحصون بنيت في تلك المواقع لحماية الحجاج ، وهم في طريقهم لمكة المكرمة من هجوم الأعراب ، ومنها تلك الحصون الموجودة في العقبة (٥) ، والمويلح والوجه .

---

١ ـ إبن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ،ص ٤٥٥ .

٢ ـ عبدالكريم القطبي : إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، ص ١٥١ ، علق عليه احمد محمد جمال وعبدالعزيز الرفاعي و د/ عبدالله الجبوري ، دار الرفاعي ، ط١ ،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، د.م .

٣ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٧ ، ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٧ .

٥ ـ (العقبة) مدينة كبيرة قديمة على رأس خليج العقبة ، وتعرف قديماً بأيلة ، وهي مرفأ الأردن الوحيد الآن ، ومركز تجاري وسياحي هام . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

وأدت هذه الحصون دوراً هاماً في تأمين طريق الحجاج ، وذلك لوجود جند يقيمون بها ، يرأسهم أمير . وكان هناك نظام تقيّدت به هذه الحصون ، حيث يبقى الجند لمدة سنة كاملة ، يتم بعدها تغييرهم ، بإرسال فرقة أخرى تحلّ محلهم بعد إنقضاء السنة . وكانت لهم رواتب سارية تتحمّلها ولاية مصر ، اضافة إلى أن هذه الحصون لها مهمة أخرى ، وهي حفظ الأزواد الفائضة من الحجاج لحين عودتهم إليها مرة أخرى ، فالحاج كان يحمل معه مؤنته كاملة ذهاباً وإياباً ، وطبيعي أنه حمل ثقيل عليه ، لذا يبادر الحاج عند وصوله لهذه الإستحكامات بترك جزء من مؤنته يكفي لحين عودته ووصوله لغيرها ، وهكذا . كما حفرت في هذه الحصون الأبار ، وبُنيت البرك الكبيرة التي تُملأ بالماء ، ليستطيع الحجاج التزود منه بسعة وراحة وحمله معهم إلى المنزل التالي . [١]

وأورد الجزيري وصفاً محكماً عن مناهل درب الحجاز في بداية العهد العثماني ، وما وجد به من استحكامات حربية ، الغرض من إنشائها لا يخرج عما ذكره الرحالة المغاربة . [٢]

أما الحد الفاصل الذي أشار إليه الرحالة المغاربة بين النفوذ العثماني ونفوذ الأشراف ، فهو المكان المسمى بين الدركين ، وأوضحوا أنه الحد الفعلي لأعمال إمارة الحجاز ومصر ، وقالوا عنه : « أنه منزل للحاج المصري ، وسمى ببين الدركين لأنه نهاية سيطرة درك أعراب مصر وبداية سيطرة أعراب الحجاز ، فما قبله شمالاً تحت سيطرة عسكر مصر ، وما بعده جنوباً تحت سيطرة أعراب الحجاز » . [٣]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ، ١٠٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد على سبيل المثال ، ج٢ ، ص ١٣٣٥ ، ١٣٤٧ ، ١٣٨٠ ، ١٣٩٧ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ؛ ابومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ .

ويظهـــر أن هـــذا المنزل بهذا المســمى لم يكن علـــى عهد الجزيـــري في القـــرن العاشر الهـجري ، لأنه لم يذكره ، ولم يشر إلى هذا المعنى الذي أوضحه الرحالة المغاربة بهذه الصفة ، ولعله في أول عهد الدولة العثمانية لم ترسم له حدود فعلية تكون مسؤولية حراستها لأمراء هذا القطـــر أو ذاك ، بل لمســنا مما سبق أن أي ملمة تحدث بالحجاز تُزال الحواجز ويأتي عسكر من مصر ليقروا الأمن به . [١]

وكما ابتنى العثمانيون الحصون في المواقع المهمة التي تتبع نفوذهم عن طريق باشا مصر ، نجد أن الأشراف أمراء الحجاز ، هم أيضاً بنوا الحصون والقـــلاع ، كالحصـــن الذي وجد بالدهناء [٢] ، والقلعة التي وجدت بسفح جبل النبط [٣] ، ولم يشر الجزيري لوجودها ، مما يعني أنه تم بناؤها بعده ، ويبدو أنها لم تُبْنَ إلا لخدمة الأشراف وحمايتهم .

كما وجد حصن بخليص [٤] ، بُني ليكون حصناً وملجأً لأمراء الحجاز ، بغرض صد هجوم الأعراب والأشراف المناوئين . وهذا الحصن أكّد وجوده الجزيري سابقاً وقال : « أنه بنى على جبل » . [٥]

ويظهر أن هذا المكان بالذات كان من الأماكن المهمة لأمراء الحجاز منذ زمن طويـل ، فقد ذكر ابـن جبير وابن بطوطة أن هناك حصنين ، أحدهما جديد والآخر متهدم . [٦]

---

١ ـ أنظر ما سبق ، ص ١٩٢ ـ ١٩٦ ـ ٢٠٣ .

ويبدو أن هذه الحصون التابعة لأمير الحجاز ، أُحدثت لتكون نقاط دفاع عنهم في المناطق المهمة من الإمارة لصد عدوان العربان الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً في تلك الأيام ، علاوة على أنها مكامن حصينة للأشراف الفارين ، إذ تعتبر نقطة تجمع للاتباع ، للإنقضاض مرة أخرى على الإمارة . أما ما عدا ذلك فلم يكن لها دور في حماية الحجاج ، ولم نلحظ أن الرحالة المغاربة أشاروا مثلاً إلى أنهم يخزنون أزوادهم بها ، كما كان الحال في الحصون التابعة للعثمانيين في شمال الحجاز ، وهذا يؤكد أن الاستحكامات الحربية الخاصة بالأشراف أمراء الحجاز كان الغرض منها حماية أنفسهم ، ولم يلتفتوا إلى حماية الحاج مع أن من أهم واجبات وأعمال الأمير الأولى ، حماية الحاج والدفاع عنه ، وهذا الأمر لم يلتفت إليه إلا قلة من أمراء الحجاز ، بعكس الإستحكامات الحربية العثمانية الموجودة في مناطق نفوذهم .

ومن خلال تتبعنا لدور هذه الاستحكامات وجدنا ان دورها كان محدوداً ، وفي نطاق وجودها فقط ، لأن ركب الحجيج عانى الأمّرين من النهب والسلب والقتل أثناء سيرهم في طريقهم الطويل مرات كثيرة .

ب ـ التوزيع القبلي لسكان شمال الحجاز وحالتهم الدينية وطباعهم الخُلقيه .

تقاسمت القبائل مناطق النفوذ في الحجاز ، تبعاً للموروث الأرضي السابق ، أو قوة القبيلة وضعفها . وقد طغى نفوذ هذه القبائل في كثير من الأحيان على نفوذ الأشراف وعلى نفوذ الدولة العثمانية . فكانت الدولة العثمانية ومن قبلها الدولة المملوكية تعين لهم أعطيات سنوية لحراسة الدروب والامتناع عن أذية الحجاج وحراستهم ، إلى أن يجتازوا مناطق نفوذهم . فإذا نقصت هذه الأعطيات أو تأخرت لسبب من الأسباب ، انتهجت هذه القبائل أساليب غير مرضية ، كسلب الحجاج ، ومهاجمة القرى والمدن العامرة ، وكثيراً ما كانت تقوم بالإغارة على من لا ذنب له من حجاج بيت الله الحرام ، في مكامن كثيرة بطريقهم الطويل والمقفر .

فكان الحجاج يعانون الكثير من إغارة عربان المناطق التي يمرون عليها ، لذلك ظهرت أسماء بعض القبائل في تلك الأماكن ضمن وصف الرحالة المغاربة لطريق الحج .

ولتأمين طريق الحج عين سلاطين المماليك ثم سلاطين الدولة العثمانية حراساً من هؤلاء العربان في مناطق نفوذهم ، مقابل أموال تدفع لهم ، وقسم الدرب إلى أربعة أقسام ، تقع على كل قسم مسؤولية حراسته على القبيلة المسيطرة على هذه البقعة من الأرض .

وهذه الأقسام كانت كالآتي :

** **القسم الأول** : يبدأ من بركة الحاج ، وينتهي إلى أيلة (العقبة) ، وتقع مسؤولية خفارتها على قبيلتي العائد وعطية .

** **القسم الثاني** : من العقبة إلى الأزلم ، وحراسة هذه المسافة تقع على عاتق قبائل بني عطية .

** **القسم الثالث** : من الأزلم إلى ينبع ، وحراسته خُصَّت بها قبيلتا بلي وجهينة .

القسم الرابع : من ينبع إلى مكة المكرمة ، وحراسته لبني إبراهيم وأمير مكة المكرمة والمدينة المنورة . [١]

تحدث بعض الرحالة المغاربة عن قبائل حجازية مروا على أرضها ، أوذُكرت لهم أسماؤها . حيث كان أمير الركب يرسل المنادين لإعلام أهل الركب بأي أرض نزلوا ، وفي أي درك من العرب وصلوا ، مع توصيتهم بالحرص إذا مرّوا على أرض عُرف عن سكانها قطع الطريق [٢] . فكانت هذه إحدى الطرق التي أوصلت إلى الرحالة المغاربة معلومات عن المناطق وأسماء القبائل وأماكنها والباقي من المعلومات إكتسبوها من الملاحظة والمعايشة ، فأتت معلوماتهم دقيقة صحيحة في غالبها ، لأنها إعتمدت على مصدرين مهمين هما المشافهة والمشاهدة .

واعتماداً على ما جاء في كتب الرحالة المغاربة في هذا الخصوص ، نجد أنّ منهم مَنْ أجمل كالزبادي وأبي مدين ، ومنهم مَنْ أغفل الأمر كالقيسي والرافعي . في حين أن العياشي والدرعي أجملا ، ثم فصلا في مناطق نفوذ القبائل الحجازية ، فقالا : « أعراب هذه البلاد الحجازية من عُسفان إلى ينبوع [٣] بلاد حرب ، ومن الينبوع إلى أكره بلاد جهينة ، ومن أكره إلى ظبه [٤] بالظاء المسالة والباء الموحدة والهاء ، وادٍ دون المويلح ، بلاد بلي ومنه إلى مصر ، بلاد الحويطات ومغازة والأعلوين وبنى عقبة » . [٥]

---

١ ـ سيد عبدالمجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٠٢ ، الناشر تهامة ، الكتاب الجامعي ، ط١ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، د. م .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٢١٥ .

٣ ـ الصحيح (ينبع) ولكن إعتاد رحالة ذلك الوقت تسميتها هكذا .

٤ ـ الصحيح (ضُبة) ميناء على ساحل البحر الأحمر الشرقي ، شمال الوجه ، تقع في ديار الحويطات بها إمارة تابعة لتبوك وتبعد عن المويلح جنوباً ٥٥كم وهذه المدينة آخذة في التقدم ، وكانت لها تجارة رائجة مع السويس بمصر ، تصدر لهم السمن والفحم والأغنام ، وضبة حد الحويطات مع بلي شمالاً ، أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٥ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ أخطأ في المغارة والأعلوين والصحيح في اسمائهما المعازة والعليين ، وهم من قبائل بني عطية . أنظر القشامي : معجم المواضع والقبائل والحكومات (شمال الحجاز) ، ج٢ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

ونرى أن أغلب من حدد أماكن القبائل من الرحالة المغاربة ، ذكروا أن شرفات بنى عطية (عش الغراب) هي منازل بنى عطية وبلادهم [١] ، ويصفهم أبو مدين بقوله : « بنو عطية أشد الناس للحجاج أذية » . [٢]

وعندما وصل الزبادي إلى شرفات بني عطية ، قال : « بنو عطية هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت » . [٣]

وأغفل باقي الرحالة المغاربة التصريح أو التلميح عن أصل هذه القبيلة وغيرها من القبائل التي سموها . فقبيلة بنى عطية يرجع نسبها إلى معز بن أسد ، أخو عنز مؤسس قبيلة عنزة [٤] . وبنو عطية المقيمون بطريق الحاج ، بطن من بطون الحويطات [٥] . وقبيلة بنو عطية قبيلة كبيرة ، يعيش قسم منها في شمال الحجاز ، ويعرفون ببني عطية . وقسم آخر بمصر ويعرف بالمعازة ، وقسم بالأردن يعرف بالعطاونة ، وبنو عطية المتواجدون بشمال الحجاز ، تمتدّ مضاربهم من تبوك إلى قرب حقل ، وهي المنطقة المعروفة بشرف بني عطية . [٦]

ويبدو أن بنى عطية قدماء بهذا المنزل ، فالجزيري رأى سجلاً قديماً من سجلات الملوك السابقين يذكرون فيه حَدْ دركهم . وقد أستولت الحويطات على

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ .

٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ .

٤ ـ البلادي : رحلات في بلاد العرب ، ص ٨٢ .

٥ ـ أيوب صبره : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ص ٢٧١ .

٦ ـ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٩ ؛ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ث ٢٧١ ؛ القثامي : معجم المواضع والقبائل ، ج٢، ص ٢٤٧ ؛ ويعلل القثامي سبب التسمية بشرف بنى عطية ، لأنها أماكنهم ومضاربهم ، وأضاف أنها في الوقت الحاضر لم تعد قاصرة عليهم فقط ، إذ شاركهم فيها الحويطات والمساعيد والعميرات والعمران ، أنظر القثامي : الآثار في شمال الحجاز ، ج١ ، ص ٢٢٤ .

مناطقهم بعد سنة ٩٤٠ هـ/١٥٣٣م بعد أن كثر عددهم وعم فسادهم ، فلم يتورعوا عن القتل بعد أن عجز بنو عطية عن حفظ الطريق لقلة عددهم ، وقلة إعطياتهم مقابل حراستهم الدرب ، فلم يقدروا على التصدي لأذى الحويطات ، كما وصف بنو عطية بأن منهم أعيان أهل قوة وفروسية وخيل وعُدة ، إلا أن أكثرهم أفناهم الموت والقتل في الوقائع والحروب لشراسة أخلاقهم ، وأضاف أن بني عطية بطون كثيرة ، منهم من أصله حضري ، ومنهم من كانوا أصحاب درك ، ومنهم من درج على الإختلاس والفساد ، إذ كانوا يتتبعون الركب إلى ما بعد مغارة شعيب . [١]

وأغلب الظن أن عدوان قبائل الدرب على الحجيج ، من أمثال بني عطية وغيرها من القبائل ، كان بسبب ضعف أمراء الحج غير المؤهلين لتولي هذا المنصب المهم ، الذي كان تكليفاً وليس تشريفاً ، فقد ذكر الجزيري : « أن ما عليه أمراء الحاج الآن [٢] خالف ما كان عليه المتقدمون ، واقتصروا في أفعالهم على الشهرة والزينة وقنعوا من المنصب بالأسم ، وبدلوا الحسنات بالسيئات ، وتغيرت الأحوال بعد الأمان بالدرب إلى الخوف ، وأخذ الحيطة بسبب تولية مَنْ لا يستحقّ هذا المنصب ، الذي سعى إليه كل من استطاع أن يدفع الأموال من اللئام ، فقاموا بقطع العوائد وجمع الأموال لأنفسهم من كل باب بغير وجه حق ، بعكس المتقدمين وما كانوا عليه من الكرم ومحاسن الأخلاق ، وبذل جهدهم في إيصال البِرّ إلى كل محتاج وفقير وعاجز ، وإعطاء عوائد عربان الدرك المستحقة لتأمين الطرق » . [٣]

وتجدر الإشارة إلى إنتشار الجهل عند الأعراب جعلهم يعتقدون جواز سلب الحاج وقتله .

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣٩ ـ ١٣٤٠ ، ١٣٤٥ ـ ١٣٤٧ .

٢ ـ وقت زمن الجزيري القرن العاشر الهجري .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٢١٨ ـ ١٢١٩ ، ١٢٣٠ .

وسيطرت أعراب بلي وجهينة وغيرها من القبائل على موقع بين الدركين وما حوله ، كما ذكر العياشي والدرعي [١] . وحدد الجزيري مواطن قبيلة بلي بقوله : « إن حدَّهم يلي قبيلة عقبة ، بدْءاً من حدرة دامة [٢] إلى أكرى ، وأضاف : « أن بلي هم أولاد شهاب الدين أحمد بن ثعيلب [٣] . ويرجع البركاتي نسبهم إلى بلي ابن عمرو بن الحافي بن قضاعة بن نزار بن معد بن عدنان . وحدّهم من الغرب البحر الأحمر وتشمل أم الدبة [٤] والوجه ، ومن الشرق قبيلة عنزة ومحطة العلا بالسكة الحديدية الحجازية ، ومن جهة الجنوب جهينة ، ومن الشمال قبيلة الحويطات » . [٥]

أما قبيلة جهينة ، فنسبت إلى جهينة بن زيد بن أسلم بن الحافي بن قضاعة بن نزار إلى عدنان . وحدّهم غرباً البحر الأحمر من ينبع البحر إلى أم الدبة ، ويمتد نفوذهم لينبع وأملج . ويحدها شرقاً قبيلة عنزة وخيبر . ومن الشمال قبيلة بلي . [٦]

وقبيلة جهينة قسمان ، قسم يسمى أولاد مالك ، والقسم الثاني أولاد موسى ، بالإضافة إلى تشعب عدة بطون منها ، واستوطن بعض أفراد القبيلة القرى وعمل في الصيد والملاحة ، ومنهم مَنْ عمل بالزراعة ، والقسم الأكبر عاش حياة ترحال وتنقل دائم سعياً وراء الماء والكلأ . [٧]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ .

٢ـ (داما) واد من أودية شمال الحجاز يسيل من جبال الرحبة ويصب في البحر جنوب ضبا بحوالي ٢٨كم ، ويعتبر الحد التهامي بين قبيلتي الحويطات شمالاً وبلي جنوباً . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٢٠١ .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٨٦ ـ ١٣٨٧ .

٤ ـ (أم الدباء) قرية قرب الوجه على البحر الأحمر . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٢٠٣ .

٥ ـ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٩ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

٧ ـ أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ؛ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

وذكر العياشي والدرعي أن الأعراب من بني سالم وجهينة ، كانوا يحملون الطعام من ينبع إلى المدينة المنورة . [١]

وذكر البلادي ، أن قيام الأعراب من القبيلتين بهذا العمل يرجع إلى أنهم من ساكني هذه المنطقة ، فهي من أملاكهم وتحت نفوذهم ومسرحاً لتنقلاتهم . [٢]

وأعراب بنو سالم قسم من قبيلة حرب . ويتفرعون إلى إثني عشر بطناً ، منهم بنو ميمون التي تعدّ القسم الثاني من بني سالم ، وتنقسم بدورها إلى قبائل وعشائر وبطون .

وبنو سالم بكافة أقسامهم كانوا يقومون على خدمة الحجاج وتأجير الجمال لهم ، ونقل المؤن . وكانوا يعيشون على الدخل العائد من عملهم هذا . وقد اتصف بنو سالم بالطاعة وعدم التمرد . [٣]

أما القسم الثاني من بنى سالم ، سموا المراوحة ، وتفرعوا أيضاً إلى قبائل ، وكانوا يسيحون في المناطق بين المدينة المنورة وينبع البحر ونجد ، وكانت الدولة العثمانية تجزل لهم العطاء ، وتوثق علاقتها معهم بمرتبات ثابتة ، ليقوموا بحماية طرق القوافل والحجيج ، إلا أنهم بين الحين والآخر كانوا يرفعون راية العصيان ولا يتورعون عن السلب والقتل لكل مَنْ يعترض طريقهم . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٣ .

٢ـ عاتق بن غيث البلادي : على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز) ، ص ١٩٢ ، دار مكة للنشر والتوزيع ، ط١ ، د. ت ، د. م .

٣ ـ أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

٤ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ .

وأضـــاف البـركـاتي : « أن نفـوذ قـبـيلة حـرب امـتـد من ينبع البـحـر إلى الرويس [١] شمال جُدة ، أما حدودها فكانت من الشرق قبيلة عتيبة ، وقبيلة سليم، وقبيلة مغير بن عبدالله ، وقسم من حرب كان ممتداً شرقاً من المدينة المنورة إلى حدود شمر ، ويحدها من الجنوب الأشراف ذوو بركات ، ومن الشمال الغربي قبيلة جهينة ، ومن جهة الشرق قبيلة عنزة » . [٢]

وعدّد العياشي من قبائل الأعراب قبيلة صبح ، المجاورة لأهل بدر [٣] ، ووصـفـهم الدرعي بسـوء الأخـلاق [٤] . وهذه القـبـيلة بطن من بطون حـرب ، وهم بدورهم بطون كثيرة . [٥]

وأشار الجزيري من قبل إلى سوء أخلاق أعراب صبح ، فقال : « وعربان صبح كثيراً ما تتعرض للوفد ببدر ليلاً ، ولهذا كان ورودها في ضوء النهار أحسن وأولى في الأمان من ظلمة الليل ، فإن عربان صبح المذكورين أذاهم متصل بأهل الركب ، من ينبع إلى حيث يصلون في التتبع وتجاه القرية وادي الصفراء » . [٦]

ومن أسماء القبائل التي ذكرها الرحالة المغاربة ، قبيلة عنزة ،التي قال العياشي عنها : « أنها كانت تغير على المسافرين بدءاً من ذي الحليفة إلى شرف الروحاء » . [٧]

ويرجع نسب قبيلة عنزة إلى عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان [٨] . وذكر البركاتي أن جزءاً من قبيلة عنزة إستوطنوا شمال المدينة المنورة

---

١ ـ (الرويس) أصبح الآن حي من أحياء جُدة العامرة .

٢ ـ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٧ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٨ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٨ .

٥ ـ أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ؛ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٧ ؛ البلادي : رحلات في بلاد العرب ، ص ١٠٦ .

٦ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٤٤ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٢ ، ٥٤٤ .

٨ ـ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٤٠ .

إلى الحدّ الشمالي لإمارة الحجاز . وباقي القبيلة قطنوا شمال ولاية الحجاز ، ووصل نفوذهم إلى الجوف . [١]

وأضاف أيوب صبري ، أن قبيلة عنزة التي سكنت الطرف الشمالي من القطر الحجازي ، كانت مقسمة إلى أربع قبائل كبيرة منهم : أولاد علي ، وعاشوا على الطريق الممتد بالقرب من خيبر حتى قلعة الزرقا الواقعة على طريق الحج ، وهؤلاء انقسموا بدورهم إلى أقسام ، منهم طلوح ، وسكنوا طريق جُدة ، وكانوا يتولون حماية قوافل الحجيج ، ويحافظون على أموالهم وأرواحهم ، لذا خصصت لهم الدولة العثمانية المرتبات والعطايا .

ومن الأقسام الأربعة الأساسية ، قبيلة بشر . وهي متعددة البطون أيضاً ومنهم ، السلقا ، وهم أكثر العربان عصياناً وتمرداً .

وعلى العموم ، فقبيلة عنزة كانت من أكثر القبائل عدداً وشهرة ، وكانوا يقضون حياتهم في الترحال إلى حيث يكون الماء والكلأ . [٢]

وذكر الجزيري أن عربان عنزة أتوا من أطراف المدينة المنورة ، وحدودهم من طرف الحنك [٣] من الجهة القبلية من المدينة المنورة إلى آبار علي وجبل مفرح ، وربما تبع منهم الحجاج أحياناً من أكرى . [٤]

---

١ ـ البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٤٠ ؛ (الجوف) : عُرف بدومة الجندول في المؤلفات القديمة ، وعرف باسم القريات ، وتشمل دومة وسكاكا والقارة ، ومعنى الجوف الأرض المنخفضة . وتقع على الطريق المباشر بين سورية ووسط بلاد العرب ، وبين جبل شمر وجبل الدروز (العرب) على بعد نحو ٣٠٠كم من كل هذه المواقع ، وهي الواحة الوحيدة الواقعة بين العقبة وبغداد . وهي الآن من المدن الحديثة ، بها المدارس والكليات والدوائر الحكومية ومطار . وهي مليئة بالمزارع والمياه . أنظر حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٩ .

٢ ـ ايوب صبري : مرآة جزيرة العرب ، ج٢ ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .

٣ ـ (الحنك) أو الحناكية ، بلدة حجازية عامرة ، على طريق القصيم من المدينة المنورة على بُعد ١٠٠كم ، سكانها قبيلة حرب ، وهي الآن بلدة بها جميع مرافق الدولة . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٦٧ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٢ .

وقد أشار البلادي إلى نشوب معارك بين قبيلتي عنزة وحرب ، أدت إلى نزوح عنزة عن أملاكها في ضواحي المدينة المنورة ، وذلك في أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وبذلك ورثتها في أملاكها قبيلة حرب ، سواء في المدينة المنورة أو في نجد . [١]

وعرف العياشي والدرعي عندما وصلا مدين عربها ، بقولهما : « عرب مدين » ، دون تخصيص اسم لهم وذكرا « أنهم يتعاملون بالتجارة » [٢] . وكان بنو عطية هم العربان الذين وجدوا بأرض مدين من الرشيدات وهو في دركهم ، كما ذكر الجزيري . [٣]

حال قبائل أعراب الحجاز الدينية وطباعهم الخُلقية :

وصف العياشي أعراب الحجاز بالجفاء وغلظ الطباع [٤] ، ووصفهم في مكانٍ آخر بأنهم « عرب جفاة ليس لهم دين ولا مذهب ، جلهّم لا يعرف صلاة وصوماً » . [٥]

أما ما ذكره عن صلاتهم ، فيكاد الإنسان يعجب من وجود قومٍ على هذه الصفة ، مع مجاورتهم لأكبر مركزين دينيين وثقافيين في العالم الإسلامي قاطبة . قال : « فتَدْخلُ جماعة منهم المسجد ، غاسلين أطرافهم ، يريدون الصلاة على زعمهم ، فيقف أحدهم ملياً ، ثم يسجد على قدر ما يرى ، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر ، على حسب نشاطه ، ثم ينصرف . وغالبهم على هذا الوصف ، ومنهم أفراد يدينون دين الحق » . [٦]

---

١ ـ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ٦٧ ؛ البلادي : رحلات في بلاد العرب ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .
٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ .
٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٦٠ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٣ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون
٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
٦ ـ المصدر السابق والصفحة .

وقال في موضع آخر : « فعرب الدرب ، والحجاز ، وتهامة ، ونجد ، أجهل العرب ، وأكثرهم جفاءً ، قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة ، من صلاة وصيام ، إلا القليل ... فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب ، أنه سأل بعضهم هل صام أم لا ؟ ـ وهو رجل كبير كهل ـ فقال : إنـي إلى الآن لم أصم ، لكن أبي صام ثلاثة أيام ، فاستفهمه عن ذلك ، فقال : إن الرجل عندنا إذا قارب آوان الهرم والشيخوخة ، صام ثلاثة أيام ، فيقولوا : فلان صام ، وذلك علامة بلوغه حدّ الكبر ، وأما قبل ذلك لا يعرف صياماً ولا غيره » . [١]

وأشفق العياشي عليهم تارة [٢] ، والتمس لهم العذر تارة أخرى ، حيث قال : « وهم جديرون بذلك ، لبعدهم عن الأمصار ، وقلة القُرى في بلادهم ، فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ، ولا يرشدهم إليه ، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان ، فلا يلقي إليهم أحد بالاً ، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلّون الصّلاة المتقدّمة من تتابع السجدات ، لا يزيد على أن يضحك منهم ، أو يتغافل ويذهب عنهم ، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حدّاً من حدود الشريعة ؟! ولقد رأيت رجلاً بينبع ظهر الشيب في مفرقه ، فسألته عن مكة ، فقال لي : ما حَجَجْتُ قطّ . وبينه وبين مكة ثمانية مراحل . وسألته عن المدينة ، فقال لي : دخلتها مرتين أو ثلاثاً . وبينه وبينها ثلاث مراحل ، وأمثال هؤلاء كثيرون » . [٣]

وما ذكره العياشي في وصفهم تعليل منطقي ، لما أصبح عليه هؤلاء الأعراب ، فأناس بهذه الصفات الخُلقية ، والحالة الدينية ، حري بهم ألا يتورعوا عن أذية أركاب الحجيج ، التي تعتبر في نظرهم غنيمة سائغة لهم ، وما عليهم سوى إقتناصها .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٤١ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

ووصف ابن غنام ما عليه حال المسلمين في ذلك الوقت ، والذي ينطبق على أعراب الحجاز أيضاً فقال : « كان أكثر المسلمين في مطلع القرن الثاني عشر الهجري قد ارتكسوا في الشّرك ، وارتّدوا إلى الجاهلية ، وانطفأ في نفوسهم نور الهدى ، لغلبة الجهل عليهم واستعلاء ذوي الأهواء والضلال ، فنبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم ، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلالة . وقد ظنّوا أن آباءهم أدرى بالحقّ وأعلم بطريق الصّواب » . [١]

وأكد ابن غنام ما ذكره العياشي قبله ، من عدم إلتفات أهل العلم إليهم للإصلاح والتغيير ، فقال : « ولقد جهروا بكل ذلك ، وتظاهروا به عياناً ، ولم يَنْبَرِ من أهل العلم مَنْ يزيل هذا الضّلال » . [٢]

ونخلص إلى أنه في تلك الفترة التاريخية ، وفي منطقة الحجاز وغيرها من مناطق العالم الإسلامي ، شاع الجهل والأمية ، فكانت جماهير الأمة تعيش حياة منحرفة عن المنهج الإسلامي ، فانتشرت الخرافات والبدع والشعوذة وبرزت العصبيات القبلية مع قلة الأمن والاستقرار ، فأشار الرحالة المغاربة إلى ذلك بعد أن لمسوه .

---

١ ـ الإمام حسين بن غنّام : تاريخ نجد ، ص ١٣ ، تحقيق وتحرير د/ ناصر الدين الأسد ، قابله على الأصل عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم الشيخ ، دار الشروق ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٦ .

جـ ـ حالــة الأمــن

فـي المدن وطريق الحاج (درب الحجاز)

إن الحـديث عن الأمن في مـدن وبوادي وطرق الحـجـاز ذو شـجـون ، فـالحـجـاز مـرّ بفـتـرات طويلة ، عـانى خـلالهـا من الإضطرابات الأمنيـة ، ذهب ضحيتها الكثير والكثير مـن الأبرياء ، سواء من الحجـاج أثناء سـيرهم بدرب الحجـاز ، أو سكان المدن التي كانت تتعرض للإغارة عليها ، أو في المشاعر أثناء اداء فريضـة الحج إضافة إلى غارات قبائـل الأعراب بعضـهـا على بعض [١] . ونتج عن ذلك ازهاق أرواح بريئة لا ذنب لها . [٢]

الأمـن بالمدن الحجازية :

كانت **مكة المكرمة** مقر إمارة الحجاز ، ومقر مـعظم الأشراف ؛ بها المشاعر المقدسة والبيت الحرام ، الذي لم تمنع حرمته من اختلال الأمن بها فترات طويلة .

وللتقليـل من الهجمات الخارجية ، وإضـفاء نوع من الحماية على مكة المكرمـة ، أقيم حولها سـور ، إذ رأى العـيـاشي من جـهـة المعلاة سوراً تهدم مـعظمـه بفـعل السـيل ، الذي داهمـهـا عـام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م [٣] . وفي هذا إشارة مهمـة ، إلى أن مكة المكرمة كانـت تحميها الأسـوار ، وأنه لا زال العمـل بها جارياً كوسيله للحماية من الهجمات الخارجية ، وحتى القرن الحادي عشر الهجري .

وتعرض العياشي لحالة الأمن بمكة المكرمة ، ومعاناته خاصة أيام موسم الحج ، حيث أورد هجوم اللصّوص على ركب الحجاج الذي كان مرافقاً له بالليل في موضع رحالهم بالحجون ونهبهم . وقد أرجع العياشي وجود هذه الظاهرة إلى

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ .

٢ ـ انظر امثلة من ذلك ، الطبري : إتحـاف فضـلاء الزمن ، ج٢ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ، ٥١٥ ـ ٥١٦ ، ٥٣٨ ، ٦٣٧ . على سبيل المثال .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ .

تهاون الحكام ، وقلة ضبطهم للصّوص الذين يرخون العنان لهم ، ويغضّون الطرف عما يفعلونه لقاء مال يدفعونه لهم ، فإذا ضُبِطَ سارقٌ أدخل السجن على رؤوس الأشهاد . ثم يخرجونه سراً بالليل ! [١]

والغريب أن العياشي ، ذكر أن الأمن بلغ غايته بعد موسم الحج ، وانتقد في نفس الوقت حكام الحجاز لتهاونهم عن ضبط الأمن ، وتذرعهم بأنهم « في أيام الموسم ، باختلاط الناس من جميع الأفاق ، وتعدد الحكام ، أو لكل ركب حاكم ، ويقولون : لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ، ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب ، فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم . وتلك حجة ضعيفة » . [٢]

وكان لازدواجية السلطة الأثر الكبير في قيام الفتن والمخالفات أيام الحج فأمراء الحجاج كانوا يمنحون صلاحيات واسعة تفوق ما للشريف من سلطة ونفوذ ، وكان التنافس فيما بينهم كبيراً . فأغتنم اللصوص هذه الفرصة .

أما عن أماكن تواجد اللصوص ففي العادة يتمركزون عند أبواب مكة المكرمة حيث أشار اليوسي : « أن اللصوص تمركزوا بالقرب من باب الشبيكة . وكان لا يسلم أحد من التعرض للسرقة ، بالرغم من شدة الحيطة والحذر » . [٣]

وفترت همة الدرعي في الذهاب للجعرانة للإحرام بالعمرة ، وعلّل عدم تمكنه من تنفيذ رغبته هذه ، لشدة الخوف من المسير إليها وقلة الرفيق . [٤]

وكانت أعمال اللصوص تؤدي في فترة موسم الحج إلى إضطرابات وشغب وخوف الناس الشديد وترقبهم وحذرهم ، فأي حركة تثير الذعر وتحدث الفوضى ، ويعم الاضطراب ويتسارع الناس للخروج من موقع الحدث

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ .

٢ ـ المصدر السابق والصفحة .

٣ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩١ /ب .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٠١ .

ناجين بأنفسهم ، مما يؤدي إلى التدافع والسقوط والدهس بالأرجل ، فيموت بالدهس مَنْ لمْ يَمُتْ من السبب الحقيقي ، والمتصفح لكتب التاريخ يجد الأدلة على ذلك كثيرة . (١)

فقد سجل العياشي في حجته عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م عند طوافه للإفاضة داخل المسجد الحرام ، ما شاهده من آثار السرقات حيث قال : « فوقعت ضجة في المسجد ، وانجفل الناس إنجفال الغنم ، من غير سبب وأُخْبِرْنا أنها وقعت ضجة أخرى مثلها قبل دخولنا وأظنها بسبب سارق ، فلما رأيت ذلك تركت الطواف » . (٢)

وذكر أبو مدين أنه حدثت منا وشات حربية بين العرب بمكة المكرمة ، سنة حجه والناس واقفون بعرفة ، ولكن الله تعالى سلم الحجاج منها . (٣)

ولم تنتج عن هذه الحادثة نتائج خطيرة فأهملوا ذكرها ، وإما أنهم لم يعلموا بها ، بينما الرحالة المغاربة أوردوا أمثال هذه الحوادث مما يؤكد أن كتب الرحلات المغربية من المصادر المهمة والتي لا غنى عنها في التأريخ لمنطقة الحجاز في تلك الفترة .

أما المشاعر المقدسة ، فقد تحدث الرحالة المغاربة عن طرفٍ مما كان يحدث من إختلال الأمن بالمشاعر المقدسة ، ولا سيما منى ، إذ ذكر العياشي والدرعي أن اللصوص يَعْتَلون الجبال ، وخاصة جبل ثبير ويلقون الأحجار على الحجاج القريبين منه بغية إرهابهم وإخراجهم من رحالهم ، ليتسنى لهم نهبه بعد ذلك ، لهذا كان أكثر الحجاج لا يقتربون من الجبال ، ويفضلون البقاء في بسيط منى حول بعضهم لتتم إغاثتهم في حالة لو استطالة اللصوص عليهم . (٤)

١ ـ على سبيل المثال الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ ـ ٣٨٧ ، ٣٩١ ـ ٣٩٢ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ، ١٣١ ، ١٧٩ ، ٢٢٤ ، ٦٢٤ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٩ ، ٥٥٠ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٣ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٨ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٨ .

ونجد أن اللصوص مُردوا على السرقة وتمرسوا فيها ، وقلَّ مَنْ يمنع أذاهم عن حجاج بيت الله الحرام في هذه البقعة الشريفة ، في حين كان أمير مكة المكرمة يملك الكثير من الجند والأتباع ، وكذلك أمراء الأركاب المحملين بالعدة والعتاد ، ولكن تقاعسوا عن صد أمثال هؤلاء اللصوص وإيقافهم عند حدهم !

وذكر اليوسي ، أنه تعجّل في النفرة من منى ، خوفاً على نفسه وماله ، وأنه لم يستطع البقاء لهذا السبب ، ولعدم وجود مَنْ يوافقه على عدم التعجّل . [١]

ونستغرب قول اليوسي هذا ، إذ أن القيسي والعياشي والرافعي قبله لم يتعجلوا ، وكذلك مَنْ آتى بعده من الرحالة المغاربة ، فالدرعي قال : « بتنا وحدنا ، ولم نر والحمد لله بأساً » . وتعجل الزبادي بالنزول بسبب هطول الأمطار الغزيرة التي أتلفت الأموال والأنفس » [٢] ، أما اليوسي فلعلّ فعله كان نتيجة خوفه وذعره من إشاعات ملأت مسامعه فعمد إلى ذلك .

وعانت المدينة المنورة أيضاً كغيرها من المدن الحجازية نالت نصيبها من قلة الأمن وتوالي النكبات [٣] ، لاسيما من قبائل حرب ، حيث وصف الرحالة المغاربة ما كانوا يقاسونه ، قبل وبعد الخروج من المدينة المنورة ، من الوجل والرّعب منهم [٤] . لذا أقيمت الأسوار حولها لحماية أهلها ، وكانت تقفل أبواب هذه الأسوار ليلاً ، وتفتح مع بداية بزوغ الفجر ، كما ذكر العياشي والقادري . [٥]

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩١ /ب .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ٨٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٨ ، ٥٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية، ص ١٦٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٠٠ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٢ ، ١٩٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٨ .

٣ ـ أنظر ما سبق ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٢ ـ ٢١٤ ـ ٢١٨ ـ ٢٢٣ .

٤ ـ أنظر ما ما يأتي ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٥ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ١٠٠ .

ويظهر أن قبائل حرب كانت مكروهة من أهل الحجاز أنفسهم ، بسبب تعرضهم للحجيج ، ولعدم معرفتهم بأنسابهم وأحسابهم ، فنجد العصامي يقول : « وهؤلاء العرب من قبيلة تعرف بحرب ، ولم نعلم حرب هذا جدهم لمن ينسب ، وإلى اي جيل يحسب ، وهم جمع كبير ، يشمل على قريب من خمسين فخذاً كل فخذ يشتمل على جماعة لهم جَدٌ خاص » . [١]

وذكر البرزنجي طرفاً ، مما كان يعانيه أهل المدينة المنورة من الخوف والرعب الذي سيطر عليهم أمداً طويلاً من حرب فقال : « القبائل الحربية فإنهم سقوا الحجاج من الأذية كؤوساً وبية ، وقعدوا لهم بين الحرمين في كل مرصد ، واستتبعوا مَنْ بغى وطغى وصد ، واستسهلوا من المطالب صعابها ، وتوغلوا مسالكها وشعابها ، ومنعوهم بذلك من الجواز على الميقات ، وألجأوهم إلى اعتساف الطرقات ، وحاصروا المدينة ، وسدوا مسالكها ، وصدوا عنها قاصدها وسالكها ، وروعوا طارقها ، وقطعوا مرافقها ومُرافقها ، وتملكوا مزارعها وحدائقها ، ودمروا بساتينها اليانعة وبواسقها ، فأصبحت محاسنها وقد تلفعت في نقابها ، وتوارت كأراقم في أنقابها ، وآذوا جيران سيد المرسلين ، وضايقوهم في معاشهم ، فقاسوا منهم قسوة خطب لا تلين ، ومنعوا جفونهم السنات ، وأرعبوا النساء والبنين والبنات ، وشيخهم عيد ، مات ببدر في فريقه ، عادلٌ عن سمت العدل وطريقه ، يجتريء على الله ، غير مراقب ، ويقتطع حب جراياتهم وتكاياهم ، لاملتفت للعواقب ، بحيث لا يتعذر عليه من ذلك مطلب ، ولا تصل السفن بشيء منه إلى ينبع ، إلا علقه منه ناب أو مخلب ، وذلك حين أصبحت يد الهمم في يد الإمتهان ، وعُطلت ميادين النجدة من الرهان ، وصدئت بواتر أمراء الحاج في أغمادها ، وقذيت شعل مشاعلهم برمادها ، وأمسوا يتجرعون قطاع الطرق على مضضهم ، ويتغافلون عن غرضهم ، ويطوونهم على بللهم وتغضون عن زللهم » . [٢]

١ ـ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٥١١ .

٢ ـ السيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني (ت) ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م : الفتح الفرجي في الفتح (الجته جي) ، ص ٣٦٣ ، مجلة العرب ، ج٥ ، ٦ ، س ١٢ ذو القعدة والحجة ، ١٣٩٧هـ ــ تشرين ٢ ك ١ (نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٧م) .

وهذا النص بالرغم من طوله ، كان لابد من إيراده بكامله ، حتى نظهر بوضوح الوضع الأمني المتردي في نهاية القرن الثاني عشر الهجري بالحجاز ، وخاصة بالمدينة المنورة التي كانت بها من وسائل الحماية الشيء الكثير ، من أسوار ، وقلاع وحامية عسكرية ، وعدد من الأمراء ، كل ذلك لم يغن عنها شيئاً ، ولم يخفف ما كان يصيبها ، وكل ذلك كان مرده كما ذكر البرزنجي فتور الهمم ، وتضارب الأهواء ، وجبن أمراء الحاج ، ورضاهم بالضيم لهم ولغيرهم ، إضافة إلى تعدّد مناطق النفوذ والسلطة بالمدينة المنورة ، مما أدى إلى تعطل إصدار القرارات ، وعدم الإتحاد في مواجهة الأخطار .

وتعرضت المدينة المنورة إلى فتن وخلل في أمنها في كل حالة عَزْل لأميرها ، وما أكثر العزل ، فبعد عزل الأمير وقدوم أخر مكانه ، يهب أنصار المعزول للذب عنه ، ومدافعة الأمير الجديد الذي يقدم مع جنده وأنصاره . وقد حدث أن عزل أمير زمن رحلة العياشي ، وكادت أن تحدث فتنة ، ولكنها أخمدت بموت الأمير المعزول وسفر باقي أتباعه وأهله إلى مصر .[١]

لم يذهب أحد من الرحالة المغاربة إلى **جدة أو الطائف** إلا العياشي ، والذي وصفهما بالإستقرار والأمان ، ولم يَرَ ما يعكّر صفوهما ، وقد نقل الدرعي كل ما جاء عن هاتين المدينتين [٢] ، ولم يضف معلومات جديدة وليس معنى ذلك أن المدينتين لم يصادفهما ما صادف غيرهما من مدن الحجاز . ولكن كانت المعلومات عن الطائف قليلة ونادرة .

أما جُدة فكانت تعاني بين الحين والآخر من النهب ومصادرة تجارتها . فالثوار كانوا يتجهون إليها لغناها ، كما حدث في وقعة الجلالية عام ١٠٤١هـ/١٦٣١م .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٨٤ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٢، ٤٠٥ ، ٤١٠ ـ ٤١١ ، ٤١٤ ـ ٤١٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٦ .

وكان الاختلاف بين أمير جُدة العثماني وأمير مكة المكرمة بسبب الصلاحيات الممنوحة للأول مَنْ عزل وتولية مَنْ يراه مناسباً من الأشراف أميراً على الحجاز [١] . ولهذا كانت كثيراً ما تتحكم الأهواء والمنافع الدنيوية ، فتثار القلاقل وينتشر الغلاء ، بسبب تحفظ باشا جُدة على أموال التجار [٢] ، ويكثر النهب بطريق جُدة لدرجة أنهم لا يستطيعون إيصال الذخائر لعسكر مكة المكرمة إلا بحامية عسكرية تحرسها . [٣]

وكان باشا جُدة إذا أراد إزعاج الشريف بسبب مشاحنات بينهما ، يشيع الشائعات حول عزله ، فيضطرب أمره تبعاً لذلك [٤] . وأحياناً يناصر باشا جُدة أحد المطالبين بالشرافة على الشريف الموجود ، وعندما ينهزم مَنْ يناصره سرعان ما ينضم إلى المنتصر[٥] ، وكانت المشاحنات المستمرة بين شريف الحجاز وباشا جُدة غالباً ما تؤدي إلى عزله ، ومن ثم سعيه بعد عودته للكيد للشريف لعزله . [٦]

على أن مواقف باشا جُدة عادة ما تتسم بالعداء ، إلا أن هناك مواقف أخرى كثيرة تُحسب له ، ومن هذه المواقف ما قام به الباشا عندما تدخل للحدّ من إحدى ثورات الأشراف وتسكينهم إلى حين ، وحراسة درب جُدة . [٧]

ومع أن عزل وتولية الشريف في مكة المكرمة كانت من صلاحيات باشا مصر ، إلا أن تلك الصلاحية أعطيت لباشا جُدة مما خلق نوعاً من الحذر وزاد الأمر تعقيداً أنه كان بإمكان الشريف تولية باشا لجُدة إذا كان المنصب شاغراً ، لحين ورود الأمر السلطاني من الخليفة العثماني . [٨]

---

١ ـ دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٥١ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٧١ .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ؛ ششه : الحجاز تحت حكم محمد علي ، ص ٤٤ ، رسالة دكتوراه لم تنشر .

وهكذا لم يكن هناك حدود أو ضوابط ، تحدد صلاحيات ونفوذ الشخصيات السياسية بالحجاز ، وكانت كل الوسائل مشروعة في سبيل الإحتفاظ بالسلطة أو الحصول عليها ، فشريف الحجاز لم يكن لديه مانع إذا اقتضت الضرورة أن يرشي باشا مصر وأمير الحج المصري من أموال أقوات فقراء الحجاز ليصدر مرسوم تعيينه .[١]

درب الحجاز [٢]

يكاد لا يخلو مؤلف عن الحجاز من التطرّق للحالة الأمنية به ولدروبه ، فكلٌ أدْلى بدلوه في هذه الناحية ، وذلك لأهمية الحجاز الذي يؤمه المسلمون من كافة أقطار المعمورة ، لأداء فريضة الحج كل عام .

وبالرغم مما كان يجده وفود الحجيج من خوفٍ شديدٍ عند بداية إقتحام درب الحجاز والسير فيه ، إلا أن ذلك لم يمنع تدفقهم وانسيابهم فيه ذهاباً وإياباً ، ورحم الله ابن جبير الذي أورد فتوى لعلماء الأندلس في إسقاط فريضة الحج ، للحفاظ على أرواح الحجاج في القرن السادس الهجري ، بسبب ما كانوا يلاقونه من عنت ومشقة في سبيل أدائها ، وقد أكد الناصري بعد ذلك صدور هذه الفتوى لهذا السبب .[٣]

واستمرت مخاطر درب الحجاز ، فالجزيري أورد في حوادث سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م فتوى لأحد الفقهاء بعدم وجوب الحج ، بسبب كثرة المشاق الحاصلة أثنائه [٤] ، ورغم الأخطار فقد بقي البيت العتيق يجذب القلوب قبل الأجسام التي تتحرك مستهينة بكل صعب . إنها معجزة الإسلام الخالدة .

---

١ ـ دحلان : أمراء البلد الحرام ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

٢ ـ انظر رسم رقم (١) .

٣ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٥ ؛ الناصري : الإستقصا ، ج٧ ، ص ٨ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١١٥٨ .

ولقد عبر الرحالة المغاربة عن خطورة درب الحجاز ككل ، أو مناطق معينة فيه ، فقال الدرعي ـ وهو يتأهب للسير فيه ، ومصوراً في مقولته نفسية الحجيج معه ما نصه « كأن الدرب أمامهم عدوّ لا يرحم ، وبحر لا يقتحم ، يترقبون مزاولته عند الصباح ، ومبادرته بالكفاح ، وإنه لكذلك .. ووطنوا أنفسهم على مقاساة درب الحجاز وما يبديه من إذلال وإعجاز ، إذ فيه تضيق الأخلاق وينحل وثاق الإتفاق .. ونحن نتوقع تواتر الأذى ونتوقى توالي القذا » . (١)

وذكر الدرعي في مكانٍ آخر نعمة وجود البنادر وقلاعها في توفير بعض الأمن فقال : « ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق ، لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها » . (٢)

وسنحاول تتبع مسيرة الرحالة المغاربة في دربهم ، منذ خروجهم من مصر إلى حين وصولهم لمكة المكرمة والمدينة المنورة ، والعودة مرة أخرى ، والمناطق التي اتفقوا على أنها مكامن خطر ، أو آمنة .

فأول الرحالة المغاربة قدوماً إلى الحجاز خلال فترة البحث هو القيسي ، الذي لم يشر إلى قلة أمن في درب الحجاز ، اللهم إلا عند خروجه من المدينة المنورة ، وهو ما سنذكره في موضعه ، ويرجع سبب عدم ذكره ما يشوش الأمن في درب الحجاز ، هو خروج الركب المغربي برفقة أمير الحاج المصري الذي كان في تلك السنة يضم ركبه الجند القادمين لقمع ثورة الجلالية ، لذا لم يجروء الأعراب على التعرض له . (٣)

وأتى العياشي بعد القيسي ، الذي ذكر أنه عندما وصل إلى مغاير شعيب ، وقعت مشاجرة بين الأعراب هناك ، أدت إلى مقتل نفر منهم . (٤)

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٨ .
٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٠ .
٣ ـ انظر ما سبق ، ص ١٩٢ ـ ١٩٦ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٥ .

ويظهر من كلام العياشي أن ما حصل من مشاجرة ، كانت بين الأعراب ، ولا دخل لركب الحجيج فيها . ومنزل مغاير شعيب أتفق على أنها محل مخافة ، وقلّ ما تخلو من لصوص الأعراب . [١]

وإذا أمعنا النظر في المناطق التي يختارها لصوص الطريق ، كمكامن لهم ، لينقضّوا منها على الحجيج ، نجد أنها تتصف بتشابك تضاريسها الجغرافية ، ووعورتها الطبّيعية من وديان ، وجبال يعتلونها لمراقبة الحجيج في سيرهم ، منتهزين الفرصة للإنقضاض على من انفرد أو تأخر عن الركب .

إن هذه المنطقة أشتمل تكوينها الجغرافي على جبال ووديان [٢] بأطوالها ومواقعها ، الأمر الذي يوضح سهولة الإختباء والإنقضاض على الحجاج في الوقت المناسب .

واتفق العياشي والدرعي في التحذير بضرورة أخذ الحيطة والحذر عند المرور على عيون القصب [٣] ، وعند النزول بها ، وأخبرا عن ذلك بقولهما : إن الموضع لا يخلو من الأعراب النازلين به ، فيعظم الخوف والضرر ، لا سيما ليلاً ، لذا يصعد أمير الركب مع الرماة إلى أعلى الوادي للمراقبة ، حتى يأخذ الناس كفايتهم من الماء ، ثم يعودوا بعدها إلى أماكنهم . [٤]

وأورد الدرعي حادثة سرقة وقعت بها عند عودته فقال : « وبتنا به ، وأتى السارق ليلاً إلى خباء صاحبنا الحاج عبدالرحمن بن الحسن الطرافي ،

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ .

٢ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

٣ ـ (عيون القصب) يطلق عليها الآن عينونا ، بالقرب من مغاير شعيب (البدع الآن) ، بها عين ونخل، على مرحلتين من البدع ، كان في السابق ينبت بها القصب الفارسي وغيره ، ويرتفع فيها الماء حتى يتجاوز القامة . انظر الحربي : المناسك ، هامش ص ٦٥١ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٧٠ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص ٢٠٩ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ،ص ١٦٤ .

وفتحوا حملاً من أحماله فيه الكتان [١] ، وجعلوا يأخذون منه ، ورجلاه على الحمل نائماً ، فتحرك الحمل لأخذهم منه ، فهبّ من نومه وصاح ، وخرج السارق آخذاً بثوبه نحواً من عشرين شقة ، وفرّ ، وتبعوه ، وعثر وسقط ، وألقى الكتان ، وفرّ ناجياً بنفسه » . [٢]

وعندما وصل العياشي إلى المويلح ، ذكر وجود حصن كبير بها ، وبه جند وأمير وفي هذا الحصن يخزن الحجاج ما فاض من مؤنهم ، كما يتم إستلام الفول الذي أكتروا على حمله من مصر . وفي هذا الجزء لمس الأمن بسبب توفر الجند . [٣]

وأكدّ الدرعي على ما ذكره العياشي من وجود الحصن والعسكر ، ولكنه خالفه من حيث توفر الأمن ، إذ ذكر ان ذلك لم يمنع اللصوص من الوثوب على الركب من كل جانب ، وأشار إلى ما حدث للركب ليلة مبيته عند عودته فقال : « والسراق يطوفون بالركب ، ويتواثبون عليه من كل ناحية » [٤] . الأمر الذي استوجب طواف الحراس على الركب ، واشتباكهم مع اللصوص مما أدّى إلى مقتل أحدهم وجرح آخر . [٥]

وذكر أبومدين في رحلته هجوم الأعراب على المويلح برغم وجود الحصن والجند ، واستيلائهم على ما وجدوا بها ، وأكملوا فعلهم هذا بحرق وهدم منازلها ، لذا لم يستطع الحجاج الخزن بها كعادتهم ، لخوفهم من معاودة هجوم الأعراب ، فحملوا مؤنهم معهم [٦] . وعند عودته إليها ذكر وقوع حرب بين عربان المنطقة الذين نهبوا إبل بعضهم ، فتدخل العسكر الموجود هناك لاسترداد الإبل المنهوبة ، ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق بهم . [٧]

---

١ ـ (الكتان) نوع من أنواع الأقمشة .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

٥ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٦ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

ويبدو استقرار الأمن في المويلح زمن رحلة الزبادي ، الذي أكد بدوره وجود الحصن والجند ، وذكر : إن الحجاج يخزنوا بها ما فاض من مؤنهم ، فالحجاج كانوا يعتمدون في تخزين مؤنهم على العقبة والمويلح وينبع فقط .[١]

وعندما وصل العياشي إلى الأزلم ، قال عنها « الخلاء أقرب إليه من العمارة »[٢] . لانهدام منازلها وسورها ، واكتفى اليوسي بقوله الجامع عنها : « الأزلم خيبة الله » .[٣]

وإستمر حال الأزلم الموصوف بكثرة الخراب ، وقلة الأمن ، إلى وقت رحلة الدرعي ، وإنتهاء بزمن رحلة الزبادي اللذين وصفاها أيضاً بالخراب .[٤]

وتحدث الرحالة المغاربة عن الوجه ، الذي بُني فيه حصن أيضاً ، وكان مهمته كغيره من الحصون ، حماية الحجيج أثناء رحلتهم ، ولكن هذه الحصون لم تكن تؤدي دوراً كبيراً في حمايتهم ، إذ كانت قاصرة على نفس الحصن وما يقع حوله بمسافة قليلة ، وذكر العياشي أن قلة الماء بالوجه تلجيء أصحاب الجرأة من الحجاج إلى صعود أعلى الوادي لجلب ماء من هناك يسمى الزعفران ، وهناك كان يكمن الأعراب التي تهجم عليهم بمجرد وصولهم ، وغالباً ما يحدث قتال يغاث على إثره مَنْ تكبد مشقة الصعود ، لقربه من محل نزول الركب[٥] . ووصف الرحالة المغاربة أخلاق أعراب تلك الناحية بالسوء .[٦]

وعندما وصل الرافعي إلى الوجه حين عودته ، ذكر أنه وجد بها ملاقية ، – وهي عير تأتي من مصر تحمل السكر والدقيق والفواكه والحلويات ، يتلقون بها

---

١ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ ، ٦٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ .

٣ ـ اليوسي : رحل اليوسي ، ص ٩٦ /أ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٥ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ .

٦ ـ المصدر السابق والصفحة ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

الحجاج ، ويأتي معها عسكر صغير من مصر ، معه رؤساء بعض عرب الحجازيين ، لحمايتها ، ويسمون أصحاب الدرك - إذ أن عادة المصريين أثناء سلوكهم طريق الحجاز يكون برفقتهم دركاً لحمايتهم . وفي مقابل هذه الحماية يدفع لهم مالاً [١] . وكان إبتداء أمر هذه الملاقية منذ عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م . [٢]

وحتى عير الملاقية هذه كانت لا تسلم في بعض الأحيان من النهب والسلب من قبل الأعراب ، وهذا ما حدث زمن رحلة أبى مدين ، الذي وصف هذه الواقعة ، فالملاقيه من مصر ، إعتادوا أن يأتوا بالمؤن إلى العقبة والمويلح والوجه وينبع ، فترخص الأسعار ويعم الخير ، وعندما تُهاجم قوافل الملاقية وتسلب يشتد الأمر على الناس ، فإذا لم يجدوهم في الموضع المعتاد يرجون وجودهم في الموقع التالي ، وهكذا ، إلى أن ينقطع رجاؤهم . وهذه الحالة وصفها أبو مدين فقد نقصت مؤن الحجاج ، وكان أملهم شراءها من الملاقية . وقال واصفاً حال الحجاج « وبلغت القلوب الحناجر » . وعندما وصلوا إلى العقبة كانت الإبل في غاية الضعف لدرجة أن الحجاج لم يستطيعوا ركوبها من شدة هزالها ، فساروا راجلين ، والأعراب خلفهم تتربص بهم ريب المنون . [٣]

وذكر العياشي انقضاض بعض اللصوص على آخر الركب بالبنادق ، بعد إرتحالهم عن الوجه بمسافة قصيرة ، فاستغاثوا ؛ فهب من سبقهم لنجدتهم ، فهرب اللصوص ولم ينالوا شيئاً . [٤]

وكانت العقبة السوداء من أكثر المنازل المخيفة المتوقّع فيها هجوم الأعراب قطاع الطرق ، فحذر منها الرحالة المغاربة ، فالعياشي ذكر أنه محلّ خوف ، « تغير فيه أعراب بلي وجهينة وغيرها » [٥] . وفي مكان آخر وصف وجل الحجاج

---

١ - الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ .
٢ - الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ٨٠٥ - ٨٠٨ .
٣ - أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
٤ - العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ .
٥ - المصدر السابق والصفحة .

الشديد من لصوص هذه العقبة [١] . وأكد الدرعي على قول العياشي في وجوب الحذر من هذا المحلّ لإغارة أعراب بلي وجهينة [٢] . أما الزبادي فذكر خطورة هذه البقعة وقال : « إن الأعراب تهاجم المتأخرين عن الركب » . [٣]

وعندما وصل العياشي وادياً أسماه العقيق قادماً من الحوراء ذكر ؛ أن الإسم لا يناسب المسمى ، إذ الأجدر تسميته بالعقوق (كناية عن المخاطر التي تحفّ به) ، وعلّل ذلك لجرأة أعرابه على السرقة فهم على حدّ قوله « من أجرأ الناس على ذلك » . [٤]

وأكد الدرعي قول العياشي ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقال : « أنه من شدة خوفهم من الأعراب لم يبيتوا في ذلك الموضع » [٥] . كما وصف حالة الركب عندما وصلوا إلى الحوراء ، فقال : « أخذوا أهبتهم ، وارتقوا على التلال والآكام لمراقبة الدرب . وصد الغارات المحتملة » ، إذ كان المحل « محل الغارات » على حدّ قوله . [٦]

وأما الزبادي ، فقد قارن بين جرأة أعراب الحجاز على السرقة والأعراب في شمال إفريقية ، فقال : « من أجرأ الأعراب على السرقة ، وهذا بالنسبة للحجاز » . [٧]

وذكر العياشي عند المرور على وادي النبط ، رؤية الحجاج اللصوص منتشرين فوق الجبل ، فتصايح الناس لتنبيه غيرهم ، واجتمعوا لصدهم ، وانتهى الأمر بفرار اللصوص [٨] . وفي طريق عودته ذكرها أيضاً ، فقال : أنهم رأوا

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ .
٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ .
٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ .
٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ،ص ١٧٢ .
٦ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٧١ .
٧ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٣ .
٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ .

لصوصاً إتخذوا رؤوس الجبال مكامن لهم ، لذا خاف الحجاج من أذيتهم وهم في أماكنهم الحصينة هذه ، وخاصة إذا هبط الظلام ، فاتخذوا القرار بعدم المبيت هناك . [١]

وذكر الدرعي النبط عند عودته ، فقال : « إن متلصصة الأعراب تتبع الركب منتظرين الفرصة للهجوم عليه ، لذلك أخذ الناس حذرهم هناك وتأهبوا لصدهم ، وبالرغم من ذلك حدث أن هجم أحد اللصوص على أحد الحجاج الذي تنبه له وقاتله إلى أنْ ولّى هارباً » . [٢]

ومن حديث أبي مدين عن منطقة النبط يبدو أن كثرة اللصوص بها ، يعود إلى وعورة المنطقة ، التي توجد بين جبال شامخات [٣] ، الأمر الذي أكدناه سابقاً من اختيار اللصوص لمثل هذه الأماكن .

وعندما مر العياشي في وادي النار قال عنه : إنه « طابق الإسم فيه المسمى » إذ هو وادٍ كبير ضيق بين جبلين ، قلما تخلو سنة من محاربين يتربصون بالركب [٤] . وقد رأى الدرعي قلعة في سفح جبل هناك ، ولكن لم يكن لها دور كبير في حماية الحجيج ، لتأكيده على وجود اللصوص هناك . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥١ ،
٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٠٥ .
٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .
٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ،ص ١٧٢ .

ولما اقترب العياشي من ينبع ، ذكر تأخر بعض الإبل لشدة العطش ، عندها هجم عليهم لصوص الأعراب فاستغاث الناس ، فرجع إليهم مَنْ هبَّ للنجدة، فلما رأى الأعراب ذلك نحروا الجمل ، وهربوا إلى الجبل . وقال : « إن قصدهم من نحره أن يبقى لهم لحمه على الأقل لعلمهم أن أصحابه لن يأخذوه » . [١]

ولما قارب الدرعي ينبع وصف ما حدث للحجاج فقال : « تأخر كثير من ضعاف الحجاج ، فهجمت عليهم عند ذلك لصوص الأعراب ، وجردوا أحد الحجيج ، فتصايح الناس لنجدته فرجع بعض الحجاج ، وما لبث أن هرب اللصوص وتحصنوا وراء الصخور ، وأخذوا يتراشقون هم والحجاج بالأحجار والبنادق ، إلى أن انهزموا كلياً » . [٢]

وعندما وصل العياشي إلى ينبع ذكر أن الحجاج خزنوا بها الفائض من مؤنهم ، وأخذوا ما كاروا عليه العرب من المويلح [٣] . كناية عن إستقرارها ، بينما وصف الدرعي انحدار حالتها الأمنية فقال : « إن سقف مسجدها قد انهدم جزء منه . وذبل نخيلها » ، إضافة لوصفه سوء أخلاق أعرابها . [٤]

ولما قَدِم الحضيكي على ينبع عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م ذكر أن أشرافها خرجوا لحراسة الركب من اللصوص ، ورحَّبوا بأمير الرَّكب وأظهروا له الوّد [٥] . ويبدو من كلام الحضيكي أنه عاد إليها شيء من الأمن ، وربما يكون هذا عائداً لإستقرار الوضع بمكة المكرمة ، وقوة أمراء ينبع في تلك السنوات .

ولكن لم يلبث أن عاد الخوف إلى نفوس الحجاج منها ، إذ ذكر أبو مدين أنهم ارتحلوا سريعاً منها خوفاً من أذية العرب [٦] . وأكد الزبادي على قلة أمنها عندما مرّ عليها فقال « لم أدخل هذه القرية لما صار فيها اليوم من الخطر » . [٧]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٦ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٣ ؛ انظر ما سبق ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

٥ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ .

٦ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ .

٧ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٧ .

وقد زار ينبع في بداية القرن الحادي عشر الهجري رحالة مصري هو البكري [١] . الذي وصف ما كانت عليه وما آلت إليه من خرابا في أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، مما يؤكد لنا أنها لم تقم لها قائمة منذ حركة يحيى بن سبع [٢] في أوائل القرن العاشر حيث قال : « وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع ، وبيوت فسيحة الرحاب ، فآل أمرها إلى الخراب » . [٣]

وتزعزع الأمن في ينبع عائد بطبيعة الحال إلى ضعف أمرائها وتسلط الأعراب المجاورين عليها ، بحيث أنه لم يكن هناك طاقة لدفع أذاهم عنها .

ومن المواضع التي تمركز فيها اللصوص أيضاً ، أكره ، فقد أفاد اليوسي أنها من المواضع التي يكثر فيها الخوف ، من أذية الأعراب ، مثل الوجه وعش الغراب . [٤]

وذكر الدرعي أكره في طريق عودته فذكر : إن الناس أرادت سقى إبلهم ، فمنعهم أمير الركب ، لأنه على ما يظهر كان خبيراً في سلوك هذا الدرب ، وعلل منعه ورود الإبل للماء لكثرة الأعراب المتلصصة هناك ، كما أثني بعد ذلك على حُسن رأى أمير الركب ، فقال : « ولقد صدق وأحسن فيما رأى ، وقد رموا أول الركب التونسي ببنادق يطلبون إرهابهم فيفتكون بهم ، وصبروا لهم وثبتوا ، وما نالوا منهم شيئاً فَمَنْ أسرع سقى إبله ، وَمَنْ أبطأ تركها بلا سقي » . [٥]

---

١ ـ زين الدين محمد بن زين العابدين محمد بن محمد البكري الصديقي المصري ، كان حياً في أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، له عدد من المؤلفات ، ألف له أحد أتباعه رحلة في عهد الشريف زيد بن محسن قام بها للحج ، وصف فيها حجه وطريقه ، وحقق المسافة على قدر إمكانه . وسماها المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى بلاد الحجاز . انظر ابن عبدالسلام: ملخص رحلتي ابن عبدالسلام ، ص ٢٣ ، تلخيص وعرض حمد الجاسر .

٢ ـ أنظر ما سبق ، ص ٢٢٢ .

٣ ـ محمد زين العابدين البكري : (رحلة البكري) المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى الحجاز، ورقة ٣٣ مخطوطة بدار الكتب المصرية ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٦ .

وأورد الزبادي شعراً عن إصطبل عنتر [١] ، مفاده ، وجوب الحيطة والحذر به ، وذم أعرابه ، فقال :

إن جئت للإصطبل لا تغفل به عند النزول
وآحذر من العرب التي بحياله أبداً تصول
وأعلم فديتك إنها صُعب ولكني أقول
قد سمى الإصطبل من عرب به تشبه الخيول [٢]

ووصف الزبادي ما بين ينبع والمويلح بالعشارية ، لأنها عشرة مراحل ، لا إقامة فيها دون المعتاد ، وهي نصف يوم بلا زيادة ، لأنها كما قال : « لا بندر فيها في هذه الأعوام » [٣] ، مما يعني خراب وقلة عمارة وأمن في هذه المسافة ، وهذا يؤكد ضآلة الأمن ، وكثرة الخوف ، واستفحال أذية الأعراب في هذه المنطقة ، التي لم تجد من تصدى لوضع حلول لمشاكلها ومتابعة ذلك ، ومن ثم تأديب الأعراب الخارجين في درب من أهم دروب المسلمين طروقاً وبكثرة كل عام ، رغم محاولات الدولة العثمانية وإرسالها الأموال لمشائخ العربان من أجل الحراسة .

ومما لا شك فيه أن المتولين لعملية صرف هذه الأموال كان أكثرهم من ذوي النفوس الضعيفة ، الذين لم يتورعوا عن الإستيلاء على هذه الأموال أو جزء منها ، لذا ينصب إنتقام الأعراب على الحجيج ، الذين يدفعون أموالهم وأرواحهم ثمناً لذلك ، وقد أورد الجزيري ومن ثم رفعت باشا قوائم برواتب هذه الأعراب والتي لم تكن بالقليلة . [٤]

---

١ ـ (إصطبل عنتر) محطة على درب الحجاز وعندما بنيت السكة الحديد كانت إحدى محطاتها على مسافة ١١٣كم شمال غربي المدينة المنورة ، توجد بها بركة لسقى الحجاج ، وهي منطقة وعرة . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ١٨٢ ؛ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٣١ ، ١٣٤ .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٥ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢، ص ١٢٣٠ ؛ رفعت باشا : مرآة الحرمين ، ج٢ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٤ .

وذكر الدرعي قصة تدل على طمع أعراب بين الدركين ، مضمونها ، أنه فُقِد عبد لإبن أخيه في طريق القدوم ، ووجدوه عند عودتهم ، لدى أعرابها ، ولم يسلموه لهم إلا بعد دفع ستة مثاقيل [١] ذهب . [٢]

وحدثنا الدرعي أيضاً عن سرقة حدثت بدار أم السلطان ، لأحد فقهاء الركب ، إذ سُرِق منه كلّ ما يملكه من مال وبضائع وهو نائم . [٣]

وذكر العياشي أن بشق العجوز [٤] ، حدث هجوم من الأعراب على أواخر الركب ، لقلة الحذر بعد طول أَمْن في طريقهم ، فقتلوا وسرقوا ، ولم يجدوا مَنْ يصدهم ، فقال : « ليس في الركب في هذه السنة مَنْ يدفع ولا مَنْ ينفع » . [٥]

لم يكن أعراب درب الحجاز وحدهم السبب في اهتزاز الأمن به . فالعياشي ذكر أن مشائخ الركب كانوا يختلفون في أوان الرحيل أو المكوث ، مما يؤدي إلى اضطراب وإختلال الأمن [٦] . إذ أن قوة الركب تكمن في إتحاده وإجتماع رأيه وكثرة عدده وعُدته ، فإذا اختلفت الآراء تخبّط وفد الحجيج فيمن يتبعون . ويحدث الهرج والإنفراط ، مما يساعد على تردي الحالة الأمنية ، حيث هناك عيون اللصوص تترقبهم .

---

١ ـ (مثقال) مصطلح استعمل للقطع النقدية الذهبية ، بوزن عشرة من الدراهم الفضة ، بوزن سبعة مثاقيل من الذهب ، وأصبح المثقال مرادفاً لكلمة الدينار . أنظر الكرملي : النقود العربية والإسلامية ، ص ٤٩ ؛ عمر أفا : النقود المغربية ، ص ١٧٠ ، هامش ١٩٠ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٦ .

٣ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٧ .

٤ ـ (شق العجوز) منزل بين المويلح والأزلم .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥١ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١٧٠ .

ومنها كذلك ما ذكره العياشي أيضاً ، وكان مرده ، عدم إئتلاف الركب نفسه ، فذكر أنه حدث صدام بين المغاربة والافريقيين والجوانيين ، نتج عنه عدم تلاحم الركب وانفصاله وانفراد كلّ عن الآخر ، حتى لا يكون هناك إحتكاك بينهم يؤدي إلى مواجهة مسلحة . [١]

وهذا بطبيعة الحال عامل من عوامل ضعف قوة الركب ، الذي يعتمد أساساً على كثرة عدده وعتاده ، واتحاده في مواجهة غارات الأعراب المتربصين على طول الطريق .

وعبر الوزير الإسحاقي [٢] على أهمية كثرة عدد الركب وعتاده وفرسانه ، في حمايته وإظهار قوته ، حتى لا يصبح لقمة سائغة للأعراب ، فقال : « فلما تلاحق الركب ، واستتب السفر ، رحلنا في رفقة الركب المصري ، إذ كان أميره محمد باشاي [٣] راغب في سير الركب المغربي معه ، ولاسيما وفيه والدة مولانا أمير المؤمنين [٤] ـ نصره الله ـ ومعها من الوصفات الفرسان أهل النجدة والفروسية ، ما أشتدت به رغبة الركب المصري إلى مصاحبته والإستظهار به على شياطين العرب أهل القفر بالحجاز المتلصّصين ، وخصوصاً على الركب المصري ،

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ .

٢ ـ عبدالقادر الجيلاني ، ويعرف بالشرقي الإسحاقي ، ويكنى أبا محمد وأبا الفضل ، وسماه الشيخ الطبري في إجازته محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي ، وكان فقيهاً ومؤرخاً توفي بعد عودته من الحج عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م مع الأميرة خناثة . أنظر التازي : أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي) ، ص ٣٨ ، ١٠٣ ـ ١٠٧ .

٣ ـ ذكره الشيخ الرشيدي باسم أمير الحاج محمد بك قيطاس (قطامش) ، تولى إمرة الحاج المصري عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م إلى عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م . ثم عاد عام ١١٤٥هـ/ ١٣٣٢م . أنظر الرشيدي : حُسن الصفا والإبتهاج ، ص ٢١٥ .

٤ ـ هي خُناثه بنت الشيخ بكار بن على بن عبدالله المغافري ، وزوجة السلطان مولاى إسماعيل ، وولدها السلطان عبدالله . كانت فقيهة عالمة أديبة ، خرجت للحج عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م وأنفقت الأموال الطائلة . توفيت عام ١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م . أنظر مولاي عبدالرحمن ابن زيدان : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ج٣ ، ص ١٦ ـ ٢٣ ، ط٢ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، الدار البيضاء ، مطابع إديال .

بينهم وبينه عداوة شديدة ... فما نبض لهم عرق في إيذائنا ، مشرقين ومغربين والحمد لله » . [١]

ومن أسباب إختلال الأمن أيضاً ، تسابق الجمال ، الذي يؤدي إلى السقوط والدهس مما يشيع في الركب الفوضى [٢] . ومنها أيضاً ما ذكره الغنامي ، من أن هناك نوعاً من الحرس يسمى الغز ، مهمتهم حراسة الماء بالوجه ، وفي سنة حجه منع هؤلاء الحراس الركب المغربي من التزود بالماء ، مما أدى إلى قيام هرج ومرج بالركب ، إذ أن المسافة ما بين الوجه إلى ينبع لا ماء به ، فكان التزود به ضرورة لابد منها في تلك القفار وإلا هلك الركب بأكمله . وقد ذكر الغنامي بعد ذلك ، سماح الغُز للركب المغربي بالتزود بالماء ، بعد ما كاد أن يحدث قتال عليه . [٣]

ومن خلال البحث لم نجد حلولاً جذرية للقضاء على اختلال أمن دروب الحج في الحجاز ، وما وجُد من صور الحماية كإقامة الحصون ووجود حراس مع الركب ودفع الإتاوات للأعراب لم تكن كافية لدفع ضررهم وكف بأسهم . ولم تستطع الدولة العثمانية توطين البدو ، ولم تحاول ذلك . فبعض المناطق صالحة للزراعة . وأخرى صالحة للرعي وثالثة لصيد السمك ، إذ يبدو أن الدولة العثمانية قد اعتمدت على الأشراف في ذلك فلو شجعوا على إمتهان الأعراب لهذه المهن لوجدوا مصادر رزق مشروعة لا يضطرون معها إلى ممارسة مثل هذه الغوغائية ضد وفود الحجيج التي تؤدي بهم إلى غضب من الله تعالى ومصير مجهول في الآخرة ، ولتجنبوا رصد المؤرخين لهم بهذه الصورة الشنيعة من سلب ونهب وإغارة على ضيوف الرحمن الذين شبههم البتنوني في ذهابهم إلى الحجاز كالذهاب إلى دار حرب . [٤]

---

١ ـ الوزير الاسحاقي المغربي : رحلة الوزير الإسحاقي ، ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠ ، مجلة العرب ، ج١١ ـ ١٢ ، س ١٩ ، جماديان ١٤٠٥هـ/ شباط / آذار (فبراير / مارس) ١٩٨٥م .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ .

٣ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ .

٤ ـ محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية لولى النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت .

وهناك من تناول الأسباب التي دفعت الأعراب لقطع الطريق وعزاها لعوامل نفسية وإجتماعية وضرورة حتمية ، فهو بذلك يلتمس العذر لهم حيناً ولا يعفيهم من المسئولية حيناً آخر . [١]

فالأعراب كما ذكرنا كانوا قساة القلوب ، جهله بالدين . وكان من المفروض على الدولة الإهتمام بهذا الأمر الذي به تنتهي هذه المشكلة التي قد يظن ظان ان لا حل لها . ولكن بمعرفة الحلال والحرام ، وتنوير هؤلاء الأعراب بقواعد الدين الحنيف . وتأمين معاشهم .

ولقد قيض الله تعالى للبلاد والعباد بعد هذه الفترة الطويلة . من أنهى هذا الأمر ، فبعد توحيد الملك عبدالعزيز رحمه الله لمناطق المملكة تحت رايته . سارع بوضع الحلول وتنفيذها ، والتي منها توطين الأعراب في الهجر والقرى . وفتح المدارس لهم ، وعمر المساجد وزودها بالأئمة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . فلم نعد نسمع ولله الحمد في غضون سنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة هجوماً أو غدراً أو تطاولاً على المسافرين أو الحجيج . حيث إنتهج الملك عبدالعزيز سياسة الترغيب والترهيب بعقوبات رادعة لكل من تسول له نفسه العودة إلى ما سبق [٢] ، وقد أتت هذه السياسة نتائجها . [٣]

---

١ ـ فؤاد عبدالحميد عنقاوي : مكة .. الحج والطوافة ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، طـ١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٢ ـ د/ مديحة أحمد درويش : تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، ص ١٥٩ ـ ١٦٦ ، دار الشروق ، طـ٢ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، د.م ؛ د/ سليمان بن عبدالرحمن الحقيل : في آفاق التربية الوطنية في المملكة العربية السعودية ، ص ٥٠ ـ ٥٧ ، الكتاب الأول في سلسلة التربية الوطنية ، طـ٢ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ، د.م .

٣ ـ محمد أديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، ص ٢١٤ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، طـ١ ، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، د.م .

الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة :

اشتد الخوف في نفوس الحجيج من لصوص أعراب الدرب ، فكان مجرد الإشاعة والتلويح بالكلام الذي لا يستند إلى أساس ، أو الدعاء على أحد الحجاج ، بأن يسلط الله عليه الأعراب بنهبه ونهب ركبه ، ترتعد الفرائص من هول الفكرة وتصور ما يمكن أن يحدث . وهذا ما أشار إليه القادري عندما كان بمكة المكرمة فذكر رجلاً إبتدع فكرة لاستجلاب المال من الحجاج ، وذلك بالدعاء لمن يعطيه بالأمن من الأعراب ، ومَنْ لم يُعْطِه ينهال عليه بالدعاء بأن يسلط اللهُ الأعرابَ عليه . فيبادر مَنْ لم يعطه إلى بذل المال له فقط لإسكاته . [١]

وحدثنا العياشي عن تأخر الركب الشامي في الدخول لمكة المكرمة عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م لإعاقة الأعراب له ، إذ لم يسمحوا لهم بإكمال سيرهم إلا إذا دفعوا مبلغاً طائلاً من المال ، بالاضافة إلى نهب وقتل الكثير منهم أثناء المفاوضات . ولشدة خوفهم من إفناء الركب وفوات الحج اضطروا إلى دفع ذلك المبلغ الذي قدره العياشي بنحو مائة ألف [٢] ، فخسر الركب الشامي المال والأنفس ، وأوشك أن يفوته الحج أيضاً .

وكانت أشد الأماكن ضرراً ومعاناة للحجيج ، المسافة بين المدينة المنورة وذي الحليفة ، وقد سبق القول عن معاناة أهل المدينة المنورة أنفسهم من الأعراب حولهم ، وخاصة أعراب حرب وبطونها .

وقد صور القيسي شفقة أهل المدينة المنورة على ركبه ، عند إنفصاله عن سور المدينة المنورة ، فقال : « فخرج أهل المدينة مشيعين لنا كباراً وصغاراً ، باكين متحسرين على انفصالنا عنهم ... وخوفاً علينا من غوائل الطريق ، لأننا شرذمة قليلة وعصابة يسيرة ، لإنفصالنا عن الركب التونسي ، وهو ركب كبير ..

---

١ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .
٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥١ .

وبين محطّ محلّتهم والمدينة أعراب ، تنهب الرفاق وتأكل الرماق .. فشددنا الأزر ، وتأهبنا لدفع الصائل وقتال الأعراب ، حيث انفصلنا عن سور المدينة » . [١]

وأكد العياشي ما ذكره القيسي ، من أن المسافة من المدينة المنورة إلى ما بعد ذي الحليفة محلّ خوف . لأنه مرتع لصوص قبيلة عنزة ، بالرغم أن هذه المسافة كانت في درك أعراب بني سالم ، إلا أن منازلهم بعيدة من هناك . وقال : إن المكاري الذي كان معه من بني سالم « طار قلبه خوفاً من عنزة » . [٢]

ويبدو أن قبيلة عنزة إستطالت بالبغي على الحجاج في تلك الفترة بالقرب من المدينة المنورة ، وخاصة من شرف الروحاء وحتى المدينة المنورة . [٣]

ورحلة العياشي كانت زمن حكم الشريف زيد بن محسن ، الذي كان يمسك بيد من حديد أمور الحجاز وأمنها ، إلا أنه على ما يبدو عجز عن هذه المنطقة في موسم الحج ، فالعياشي جاور بالحرمين الشريفين سنة كاملة ، عاين فيها أمن الحجاز في أوقات المواسم وسائر السنة ، فقال في ذلك : « إن البلاد تحكمها العافية .. فلا ترى لصاً ، ولا سارقاً ، في ليلٍ ولا نهار ، إلاّ فيما قرب من المدينة .. وإنما تشتعل نار الحرابة والسرقة في تلك الأيام ، أيام الموسم فقط لاختلاط الناس ، وإجتماع الأوباش من كل أوْب . وقد عايَنّا من الطمأنينة في الطريق .. ما قضينا منه العجب ، إنّا ما كنّا نسلك هذه البلاد إلاّ في أيام الموسم. ونعاين ما يقع من النهب والسرقة والروعات المتوالية ، فظننا أنها كذلك دائماً». [٤]

ويعود توفر الأمن في المسافة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة إلى جهود الشريف زيد ، الذي كان يبذل جهده في توفيره . وذلك بإرسال طوائف ودوريات من الجند بأمرائها ، لحراسة طرق الحجاج ، وردْع مَنْ تسوّل له نفسه من لصوص الأعراب ، الذين كانوا يخافونه كثيراً لشدة بأسه عليهم . [٥]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٢ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٦

وكما كان بعض الأعراب يخدم الحجاج ويقدم لهم المعونة بعيداً عن الفساد وقطع الطريق ، كان البعض الآخر يمتهنون الكراء للحجاج من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة أو ينبع أو غيرها من البنادر . [١]

وفي الجديدة [٢] اشتكى الدرعي من اللصوص . وذكر أن صداماً وقع بين أهل ركب تونس وأعراب حرب ، أستخدموا فيه الحجارة والبنادق للدفاع عن أنفسهم [٣] . ونجد أن أبا مدين عند عودته ترك ركبه المرور عليها عند عودتهم لشدة خوفهم ، مما أدى إلى قضائهم الليل بلا ماء . [٤]

كما هجم لصوص الأعراب على الركب المغربي الذي كان معه الدرعي عند مضيق الدهناء . إذ كانوا ينتظرون مقدمهم ، فهجموا على أواخره ، وتراشقوا مع أفراده بالبنادق ، إلى أن كفى الله شرهم . [٥]

وعانى أبو مدين في وقت رحلته من اللصوص ، وكأن أذاهم سلسلة لا تنقطع وحلقات لا تنفصم عراها . فقال : « نزلنا مستورة [٦] ، ونفوس الحجاج من سرّاقها مذعورة بفعلهم ، وما يفعله السراق واللصوص ، ومَنْ تبعهم من الحجاج » . [٧]

١ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ٣٩٢ .

٢ ـ (الجديدة) عين بوادي الصفراء ، بها الآن إمارة . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ١٣٥ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ،ص ١٠٤ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٠ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ .

٦ ـ (مستورة) بلدة ساحلية تبعد عن رابغ ٤٠كم شمالاً ، بها مركز شرطة ومستوصف وسوق عامرة ، وتبعد عن مكة المكرمة ٢٣٥كم وأصل وجود البلد إلى إمرأة من زبيد حفرت بئر هناك تسمى مستورة فنسبت البلد إليها . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٨ ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

٧ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ .

وأشـار أبو مـدين في نصـه إلى نقطة مـهـمـة جـداً ، وهـي وجـود بـعض الحـجـاج امتـهنوا السرقة واللصوصيـة . وهم بدورهم يكونون خير عونٍ للأعراب اللصوص من داخل الركب ، إذ أن الركب حين يتم مهاجمته خارجياً يبادرون هم أيضاً لمهاجمـتـه داخلـيـاً ، فـيزداد الإضطراب ، وتعم الفوضى وينتشـر عندها النهب .

وصور أبو مدين حالهم عند العودة إليها أيضاً ، بأن قلوبهم ذعرت بمجرد وطيء أقدامهم بها ، وأنهم لم يروا مثيلاً لسراقها ، إلا بالجديدة ، وظلوا يصيحون عليهم إلى أن بزغ الفجر . [١]

ولـم يقـتـصـر الأمـر على لصـوص مـسـتـورة والجـديدة ، بل شـاهدهم أبومديـن أيضاً بعُسـفان ، وكان غرضهم الإيقاع بالركب المصري ومحاربته ، إذ ذكـر أنهم أرسلـوا لأمـير الركب المغربي أنهم لا يضـمـرون لهم سـوءاً ، وليس بينهم وبـين المغاربـة إلا الخـير ، وعليـهم الرحيل وترك الركـب المصـري يواجـه مصـيره وحده معهم . ولم يسمحوا للركب المصري بالعبور إلا بعد دفع أموال لقاء ذلك . [٢]

ونستـشـف من كـلام أبي مـدين ، أن التـربص للركب المصـري ، إنما هو لإنهاء ثأر وتصفية موقف وحساب سابق ، ويبدو أن مرده الأموال التي منعها أمراء الحج عن الأعراب ، والتي تسمى العوائد ، طمعاً فيها . [٣]

ووقعت فاجعة زمن رحلة العياشي بسبب قلة خبرة أمير الركب الشامي ، الذي منع هذه العوائد ، بالرغم من أنه كـان يحملها ، وظن أن بمقدوره أن يصد العربان بجنده . وقد ناشدوه المرة تلو الأخرى في إعطائهم عوائدهم ، فأبى وأغلظ

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

٣ ـ البرزنجي : (الجته جي) ، ص ٣٥٤ ، مجلة العرب ، ج٥ ـ ٦ ، س ١٢ ، ذو القعدة والحجة ، ١٣٩٧هـ .

لهم الكلام ، عندئذ شنوا على ركبه غارة انتهت بانهزام أمير الركب وجنده ونهب معظم أفراده ، ولم يسلم الباقون إلاّ بعد أن أهدرت كرامة أميرهم ، الذي إنصاع لما أراده عربان الدرك من التزامه بدفع مبالغ أكثر مما هو مقرّر لهم . وذكر العياشي أن الركب الشامي في تلك السنة تأخر خروجه من المدينة المنورة لحين إحضار المدد من الشام ، وبالرغم من ذلك خرج منها وهو يتملّكه خوف عظيم مما قد يحدث من العربان . [١]

وشدد أبو مدين في الحذر من الطريق من عُسفان إلى شرف الروحاء لكثرة اللصوص بها ، إذ قال : يكثر اللصوص بالنهار والسراق بالليل [٢] . كما وصف لصوص الصفراء [٣] « باللصوص العادِيَة والسرّاق الحامية » . [٤]

ونخلص إلى أن الأعراب كانت تنتهز فرصة موسم الحج لتصفية الحقوق القديمة ، والضغط على أمراء الحج بهجماتهم لإستجلاب أكبر قدر ممكن من الأموال ، وقد حدث هذا في زمن رحلة أبي مدين للركبين المصري والشامي ، إذ تربص الأعراب للركب الشامي في أحد مضائق الدرب الحجازي وكمنوا له ، وقطعوا طريقه ، فلم يجرؤ على التقدم ومواجهة البغاة ، فسلك طريقاً آخر أطول من المعتاد مما أدى إلى تأخره في دخول مكة إلى السابع من ذي الحجة . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٠٥ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق : أمحزون .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ .

٣ ـ (الصفراء) من أكبر أودية الحجاز الغربية . وتسميه العامة وادي بدر لإشتهار بلدة بدر ، وهو واد كبير كثير العيون والنخيل وثمره شهرة ، وقد غارت عيونه في السبعين من القرن الرابع عشر الهجري ، وإندثر عقب ذلك قرى بسبب هجرة أهلها ، وأعيدت الزراعة إليها بوضع الآت ضخ مكان العيون . وبالصفراء اليوم إمارة تجمع كل قراها ومقرها بدر . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٥ ، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٢ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

وفرح أهل المدينة المنورة والحجاج واستبشروا ، بهزيمة الأعراب ، ومقتل العديد منهم وأسر عدد آخر ، على يد الركب الشامي عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م حينما تعرضوا له جهة جبل أحد . [١]

ومع أن الرحالة المغاربة وصفوا عربان الحجاز بألفاظ نابية إلا أن ذلك لم يكن مبالغاً فيه ، إذ لاشك أنهم لم يتجنوا على أعراب الحجاز ، وفي نفس الوقت لم يوفوهم حقهم من اللوم والتقريع والذم ، إذ لا شك أن ما خفي كان أعظم وأشدّ بشاعة مما ذكره الرحالة المغاربة ، ولنا أن نستعين بنص رحالة مدني ، وصف فيه ما حدث لركب الحاج الشامي بتبوك ، عام ١١٧١هـ/١٧٥٧م إذ تجاسر شيخ بني صخر [٢] « واستدعى من قبائله القاصي والداني ، واعداً لهم على الجردة ، فسام رجالها قتلاً وخسفاً ، انتسف ما فيها من الأحمال نسفاً . وأصفقت عليه الأعراب عند ذلك ، وسلكت سبيله . واجتمع عليه منهم إثنان وعشرون قبيلة .. وساقهم فجمعوا كيدهم ، وأتوا صفاً . واندفعوا في محرم نحو تبوك ، يداً واحداً زحفاً ، ونازلوا الحجاج بها ، وهم قافلون إلى ديارهم ، وحصروهم بها تسعة عشر يوماً لتحصيل درهمهم ودينارهم . وكان أمير الحجاج لمّا وصل إليها ، وأناخ بها ، وخيم عليها ، وصلت إليه كتب من دمشق الغراء ، بأن لا يرحل من المكان الذي هو فيه حتى تأتيه جردة أخرى .. ولم يطرقه من تلك الناحية طارق ، وذلك لاختلاف الأجناد في الإغاثة وعدمها بذلك الناد ِ، لأنّ بعضهم أراد الصارخة نجدة وحمية ، وامتنع آخرون ، إلا أن يأتي أمر من الدولة العلّية ، إلى أن آل أمرهم إلى فتنة ، تأجج بها حجرهم ، فاشتد لاجل ذلك على الحجاج البَلا (هكذا) ، وعظم بطول الإقامة الغلا ، ونحروا كثيراً من ظهرهم ، ورأوا من الشدائد ما لم يروه في دهرهم ، وذاقوا لباس الجوع والخوف وبرد الخريف ، والأعراب من نهب الجردة في خصب وريف ، ولما أخلفت عساكر الشام أمير الحاج ما وعدوه به ، من نصرهم ، وقَطَعَ بأنهم شغلوا بأنفسهم وتخلفوا بمصرهم ، إستدعى قعدان

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٢ .

٢ ـ قعدان الفايز شيخ بني صخر في تلك الفترة في الشام . البرزنجي : الجته جي ، ص ٣٦٤ . مجلة العرب ، ج ٥ ـ ٦ ، السنة ١٢ ، ذي القعدة والحجة ، ١٣٩٧هـ .

ليصالحه على شيء من المال .. فلم يوافقه .. وكان نزول الحجاج تبوك وإقامتهم بها ، ما نعين للأعراب في اقتحام الخيام وإنتهابها . فاحتال بعض الأعراب على الأمير ، وأخبروه بأنهم فارقوا الإقامة ، ورافقوا المسير ، ليسهل نهب الحجيج وهو سائر .. فركن أمير الحجاج إلى قوله واعتقده .. ورحل من تبوك في تاسع شهر صفر ، مؤملاً السلامة والظفر ، وسار إلى قبيل العصر ، فأحاطت بهم الأعراب من كل جانب ، يرمونهم بالرصاص ويحملون عليهم مقانب إثر مقانب ، وأذاق كلّ من الفريقين الآخر ما هو أبشع من العلقم وأمرّ ، إلى أن ابهار الليل ، وغاب القمر ، فأتى الأعراب من خلف القطر ، وجاسوا خلالها ، واقتطعوا ما وصلت إليه أيديهم من أحمالها ، وساقوا جمالها ، وبلغ الأمير ذلك ، فأمر بالإناخة في تلك العرصة .. واشتد بعد الإناخة القتال ، واستطال الصخري الخّتال ، وصار الحجاج حيارى ، تراهم سكارى وما هم سكارى ، أبدانهم راجفة ، وقلوبهم واجفة ، وأصواتهم خافتة ، وأبصارهم باهتة ، ووجوههم باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ، وأميرهم مشمر في المدافعة عن ساعد اجتهاده ، نابذ المألوف وسادة ، ودامت قبائل الصخري على اختطافها واختلاسها ، إلى أن برزت الشمس من كناسها ، فأمر الحاج بالرحيل ... وبقوا في موقفهم إلى الضحوه الكبرى .. وهجم عند ذلك الأعراب على الحجاج ، أفظع الهجوم وإنقضوا عليهم إنقضاض شعل النجوم للرجوم ... وخالطوهم من أيمانهم وشمالهم وأمام وورا ، وسلبوهم ، فصاروا عراة بالعرا ، وسقوهم بسقيا الأسنة والظبا ، في هاتيك البسائط والرُّبا ، وأبرزوا المخدرات من الخدور ، وكشفوا الحرائر ، وهتكوا الستور ، واستنزلوا ذوات الحظوظ والبنوت من غرف المحفات والتخوت ، وانتزعوا الأرواح من الأجساد ، وفرّقوا بين الأمهات والأولاد ، وأذهلوا الرجل عن أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وصار لكل إمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، كأنهم بين أيدى الأعراب سوائم ترتع ، وأموالهم تنهب وتوزع ، وأخذوا منها فوق طاقتهم ، وحملوا منها ما عجزت عنه قوى إستطاعتهم ، بحيث صار يسقط منهم في المراحل ، لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأمست الصحارى من الأمتعة والأقمشة ، كأنها أسواق مدهشة ، ثم تمزّق مَنْ بقى من الحجاج أيدي سبأ ،

هرباً وموتاً وسبياً ، ولجأ مَنْ فرّ إلى بعض القرى ، عادمي اللباس والشراب والقِرى . وطارت بذلك الأخبار ، وعمّ البغى الأقطار ، فقامت على الدين نوادبه ، وبكى لذلك المصاب شاهده وغائبه » . [١]

إن النص لا يحتاج إلى تعليق منا في قليل أو كثير ، لأن ما فيه لا يكاد العقل يعقله ، ولا السامع يصدقه ، ولا القارىء يفهم سبب حدوثه بهذا الشكل البشع والمفزع لحجاج بيت الله الحرام ، ويحق للأقلام أن تكلّ عن وصف هؤلاء العربان ، الذين انحطت قيمهم الأخلاقية والدينية إلى أسفل درك ، فهم كالأنعام بل أضل ّسبيلاً . إذ إستولوا على المسالك والممالك ، واستأسدوا على الغادي والرائح ، فعاثوا في الأرض فساداً ، وتمرسوا أساليب الطغيان وطرقه ، وانتهبوا البوادي والمدائن ، وانقضوا كالنسور الكواسر على حجاج بيت الله الحرام ، غير مبالين أنهم في بلد حرام ، وشهر حرام ، ملقين العهود والحرمات والمواثيق والأعراف خلف ظهورهم .

---

١ ـ البرزنجي : الجته جي ، ص ٣٦٦ ، مجلة العرب .



النشاط البشري
من خلال كتب الرحلات المغربية

أ ـ طُرق التجارة والحج .

ب ـ الأسواق والنقود ، وأهم السلع والصناعة وأهم الصناعات .

جـ ـ مواطن الزراعة وأهم الحاصلات ومصادر المياه ومشاريعها .

طُرق التجارة

عرف الحجاز التجارة قديماً ، وخبُر أهلها مسالكها ، وعقدوا الأحلاف لتأمين طُرقها ، وحمايتها ، وكما هو معروف تصدّر أهل مكة المكرمة لهذه المهنة ، وقد منّ الله سبحانه وتعالى عليهم بأمنهم وأمن تجارتهم ، في رحلتي الشتاء والصيف ، عبرت عن ذلك سورة قريش ...

لقد أشارت متون الرحلات المغربية إلى طريقين استخدمهما التجار في الحجاز هما :

أولاً : الطريق البري .

ثانياً : الطريق البحري .

الطريق البري : هو الذي سلكه ركب الحجيج ، القادم من الشام ومصر والمغرب ، وغيرها من البلاد الإفريقية ، ولولا سلوك الحجيج فيه لما أصبح بهذه الأهمية ولما كان طريقاً للتجارة ، وقد امتزج بهذا الطريق نوعان من التجارة هما :

أ ـ التجارة الداخلية .

ب ـ التجارة الخارجية .

والتجارة الداخلية : كان يقوم بها بعض الأعراب القاطنين على درب الحجيج وحوله ، ومنهم مَنْ كان يأتي من مناطق بعيدة للإتجار مع الحجاج ، وبيعهم اللحم ، والعلف ، والماء ، والفواكه ، والسمن ، واللبن ، والجبن ، والتمر ، والحبوب ، والحبحب ، والعسل ، والقِرب ، وملابس الإحرام ، والنِعال ، والحطب . [١]

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ، ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ـ ١٥٠ ، ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٣٩٢ ؛ الطبعة الحجرية ، ج٢ ، ص ٩٤ ، ٤٠١ ، ٤١٠ ، الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ، ٩٥/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ ؛ ابومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ، ١٢٠ ـ ١٢١ ، ١٧٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٨٦ .

وكانت هذه التجارة تنشط في فترة الحج ، أثناء تدفق الحجيج إلى الحجاز ذهاباً وإياباً ، حيث إعتاد الأعراب على عرض بضائعهم للركب في محطات نزولهم ، وبهذا يمكننا أن نطلق عليها « تجارة داخلية موسمية محلية » .

أما التجارة الخارجية فقد انقسمت إلى قسمين :

أ ـ التجارة مع الحجاج .

ب ـ تجارة الحجاج مع أهل الحجاز .

وفيما يتعلق **بالقسم الأول** ، فقد دأب بعض تجار الشام وغزة ومصر ، على ملاقاة الحجاج في محطات داخل أرض الحجاز مثل « العقبة » ، و « المويلح » ، و« الوجه » ، و « الأزلم » محملين بكافة أنواع البضائع والمؤن الغذائية لبيعها لهم، وكان التجار يسعون إلى رفع الأسعار في البداية ، ثم يخفضون السعر إذا بيع الكثير من بضائعهم . ومهما كان الأمر في كثرة البيع أو قلته فالحجاج وغيرهم ينعمون بالأمن الاقتصادي ويقضون حوائجهم . وأحياناً يحدث أن يكون هناك ما يعيق وصول التجار في الوقت المناسب إلى المناطق التي اعتاد الحجاج الإلتقاء بها ، لأى سبب من الأسباب ، فيقنط الحجاج ويشتد الأمر عليهم ، لأنّ اعتمادهم عليها كبير ، بجانب ما يخزنونه من مؤن في البنادر عند قدومهم ، لتعينهم عند عودتهم . [١]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ ؛ العياشي : ماء الموائد، ص ١٤٤، ٥٥٠ ـ ٥٥١ ؛ الرافعي : المعارج المرقيه ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ١١٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ، ٩٦/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ ـ ١٠٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ـ ٦٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ .

ولم تكن التجارة مع الحجاج وقفاً على تجار مصر والشام ، بل كان أمير الحجيج المصرى يَقْدمُ بتجارات كثيرة ومتنوعة ، يتم بيعها أثناء الطريق ، وعند نزوله بينبع ، وما تبقى يبيعه بمكة المكرمة ، إذ يخصها بجزء من البضائع يتمّ تصريفها بها . [١]

وأما في ما يتعلق بالقسم الثاني ، وهو **تجارة الحجاج مع أهل الحجاز** ، فقد مارس الحجاج الإتجار مع أهل الحجاز أثناء فترة الحج ، بمكة المكرمة ، أو بمنى ، أو بالمدينة المنورة، أو حتى أثناء طريقهم إلى الحجاز وداخل طرقه ، وقد ذكر الرّحالة المغاربة : أن من الأسباب الداعية لممارسة هذا النوع من التجارة ، حاجة سكان المناطق التي يمرّ عليها ركب الحجيج ، حيث أشار أبو مدين لذلك ، فقال : « ينبغي أن يجمعوا مالاً ، فيشترون به عطراً وكتّاناً والتبن والتمر ، إذ هناك بلدان لا تفوت فيها دراهمنا ، ولا دراهم غيرنا ... وحوائجهم كلها إنما تقضى بالعروض ، كالجلد الأحمر ، والثياب ، وأواني النحاس ، والدنانير أفضل ما حمل الإنسان معه ، فإنها تقضي في كل أرض ، ويرغبها كل الناس » [٢] . ثمّ أيضاً رغبة الحجاج في إخراج نفقة الحج من مرابح التجارة كما ذكر الحضيكي [٣] . لذا وجدنا أن من الرّحالة المغاربة أنفسهم من قَدِم بتجارة له كأبي مدين [٤] . كما قدم معظم الحجاج بتجاراتهم . [٥]

فالرحالة المغاربة تحدثوا عن تنوع البضائع وكثرتها ، بمكة المكرمة ومنى والأماكن الآتية منها [٦] . حيث تصب جميعها بمكة المكرمة ، ومنها تُحملُ إلى

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١٩ ، ١٥٥٤ .

٢ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، ٣١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٣ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣١ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ .

٥ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٥٥٤ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ١٥٧ ـ ٤١٦ ؛ الرافعي: المعارج المرقيه ، ص ١٦٩ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٧ .

مختلف الأقطار بواسطة الحجاج [١] . فغدت مكة المكرمة بذلك وسيطاً ومركزاً مهما للتجارة ، تصديقاً لقوله تعالى ، واستجابة لدعوة خليله عليه السلام لأهلها ﴿ **فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ [٢] ﴿ **أوَلَمْ نمكنّ لهم حرماً آمناً يجُبى إليه ثمرات كل شيء** ﴾ . [٣]

وما يقال عن مكة المكرمة ومنى ، يقال عن المدينة المنورة ، إذ تتسع الأرزاق ، وخاصة عندما يصل الركب الشامي الذي يَقْدمُ إليها محمّلاً بأصناف متعدّدة من البضائع مخصصة للبيع بها ، فينتج عن ذلك رخاء عميم ، بعكس الزوار الأعاجم الذين يقدمون على المدينة المنورة ، فيضيق أهلها بهم ذرعاً ، ويتمنون رحيلهم سريعاً . [٤]

أما الطريق البحري فقد تحدث عنه الرحالة المغاربة ، عندما ذكروا الموانيء البحرية التي مروا عليها وشاهدوها ، مثل « العقبة » و « المويلح » و « الوجه » و « ينبع » و « رابغ » و « جُدة » ، واستخدمت هذه الثغور البحرية في نقل التجارة والمؤن للتوسيع على الحجيج أثناء طريقهم ، وعلى أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة .

فالعقبة حدد الرافعي موقعها على بحر السويس [٥] ، ووصفها بالعظمة [٦] ، بينما وصفها العياشي والدرعي بالقرية المقامة بسفح جبل على

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٠٠٩ .

٢ ـ سورة إبراهيم ، ١٤/ ٣٧ .

٣ ـ سورة القصص ، ٢٨/ ٥٧ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٥ ـ (بحر السويس) الصحيح خليج العقبة وهو القرن الشرقي للبحر الأحمر ، أما القرن الغربي فهو خليج السويس .

٦ ـ الرافعي : المعارج المرقيه ، ص ١١٤ .

شاطىء البحر ، يُنصب بها سوق لخدمة الحجاج الذين يجدون به ما يحتاجونه بأسعار أرخص من مصر ، بالإضافة إلى وجود قلعة حصينة بها . [١]

ويظهر أن « العقبة » شهدت إنتعاشاً إقتصادياً كبيراً في زمن رحلتي أبي مدين والزبادي ، اللذين وصفاها بالمدينة المتقنة البناء ، والكثيرة النخل ، والماء العذب . وأكّدا كذلك على وجود قلعتها الحصينة . [٢]

أما ميناء المويلح فقد أشار إليه الرّحالة المغاربة ، ووصفوه بقولهم : ثغر حسنٌ ، على البحر ، ترسو فيه السفن القادمة من « السويس » و « جُدة » و « القُصير » [٣] ، فالسفن تأتي من وإلى مصر ، إذ أن جزءاً من ملاقية الحجاج تأتي بحراً عن طريقه ، وغالب سكان المويلح يلقون العون والتشجيع من مصر للإستيطان بها ، ولتبقى مأهولة عندما يمرّ بها ركب الحجيج ، كما ذكر الرحالة المغاربة . [٤]

ويبدو أن التشجيع على الإستيطان بالموانيء لتبقى مأهولة بالسكان أثناء مرور الحجاج ، كان يهدف إلى الحفاظ على الحجيج ، وتأمين سُبل السلامة له ، حتى يصلوا إلى المشاعر ويعودوا منها إلى بلادهم سالمين آمنين .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٣ ـ (القُصير) بالتصغير موضع قرب عيذاب وتقع الآن بمصر . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٦٧ .

٤ ـ القيسى : أنس السارى ، ص ٧٢ ، ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٦ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ، ٩٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

وأهمل الرّحالة المغاربة ذكر **ميناء الوجه** ودوره البحري واكتفوا بقولهم : أنه محطة لنزول الركب وخزن المؤن [١] ، وطالما ورد ذكره كمحطة للركب وخزن المؤن ، فهذا يعني أنه بمثابة الإستراحة كغيره من المحطات الأخرى ، واحتمال ممارسة التجارة فيه واردة ، لا سيما وأن هناك مخازن للمؤن التي أتى بها الحجيج أو الخاصة بالسكان .

بينما وصف العياشي **ميناء ينبع** بأنه مرسى على البحر ، ترسو فيه السفن المحَمّلة بالأرزاق للمدينة المنورة [٢] ، وأشار الحضيكي والغنامي إلى أهميته بالنسبة للمدينة المنورة ، فعن طريقه كانت تُجلب الأرزاق والأقوات إليها من مصر . [٣]

وكانت واردات ينبع من الرسوم الجمركية قد بلغت مبلغاً كبيراً ، فكان جزء منها يذهب لأميرها ، والباقي لأمير مكة المكرمة [٤] . الأمر الذي يوضح أهميتها الاقتصادية لكلٍ من أميري ينبع ومكة المكرمة .

وقد وجد في ينبع خان ، وقلعة بها عساكر ، إلى جانب بعض الأتباع لشريف ينبع مثل الحاكم والكاتب ، وكانت مهمة هؤلاء الأتباع السهر على تسيير مصالح الشريف ، وأخْذ ما يسمى بالزالة من أصحاب المراكب ، وكانت بمثابة عادة يأخذها الأمير يستعين بها على مصروف إمارته ، وما يقيمه من ضيافة لأمير الركب المصري ، إذ هذا الأمر من إلتزاماته ولابد له من أدائها . [٥]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ، ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ٥٥١ ؛ الرافعي : المعارج المرقيه ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ٢٠٤ ؛ القادرى : نسمة الآس ، ص ١١٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٨ ، ج٢ ، ١٠٥ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ، ٩٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ، ٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ، ١٩٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ٥٥٠ .

٣ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

٤ ـ د/ نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، ص ١٤٠ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة العربية ، ط ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

٥ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١٧ .

وأهمل الرحالة المغاربة ذكر **ميناء رابغ** البحري ، ولم يُوَضّح أنه ميناء إلا الحضيكي ، الذي قال : أنه مرسى صغير [١] ، وتبعه في ذلك الزبادي [٢] ، ويبدو أنه كان ميناءً محلياً ، يستخدمه أهلُها لصيد السّمك الذي كان يُؤتى به طرياً طازجاً للركب . [٣]

وعن جُدة لم يذكرها بشيء من التفصيل سوى العياشي ، الذي قام بزيارتها ، ونقل الدرعي عنه وصفها ، وشاهد العياشي : بمرساها سفناً كثيرة كبيرة وصغيرة ، أكثرها مصنوع من الشريط الذي لا يوجد به مسامير [٤] ، وكانت هذه السفن الكبيرة تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن من البضائع الهندية ، والأقمشة الجيدة ، التي منها ما كان يُعرض بجُدة ، ومنها ما يُحمل إلى مكة المكرمة ، ويبدو أن جُدة كانت مهيأة للتجارة وذلك لوجود الأسواق والفنادق ومكاتب الكراء والوكالات التجارية ، كما أنها كانت مكان لتلقّي الأخبار من البلدان الأخرى ، فالعياشي كان ينتظر سفناً ترد من المغرب تحمل إليه أخبارها . [٥]

وكانت بحكم موقعها البحري المتميز ، والقريب من مكة المكرمة ، قد هيأ لها بأن تحتل مكان الصدارة على غيرها من موانيء البحر الأحمر ، فقامت بها ثلاثة أنواع من الأسواق التجارية ، نستطيع تصنيفها كالآتي :

---

١ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٨ .

٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٣ .

٣ ـ محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت : رحلة الشتاء الصيف ، ص ٢٤٢ ، تحقيق وتقديم وفهرسه محمد سعيد الطنطاوي ، بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

٤ ـ علل الزُهري صناعة السفن على هذا الشكل لوجود المغناطيس بالبحر والصحيح ما ذكره ابن جبير من كثرة الشعاب المعترضة في البحر . انظر أبوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري : كتاب الجعرافية، ص ٣٨ ، تحقيق محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد ، د. ت ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٧ ـ ٥٢ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

أ ـ الأسواق المحلية .

ب ـ الأسواق الموسمية المرتبطة بهبوب الرياح ، والتي تصل سفنها في مواعيد سنوية ثابتة ، مثل البضائع الواردة من الهند .

جـ ـ أسواق سنوية مرتبطة بموسم الحج ، وتأتي بضائعها من الشمال والشرق والغرب [١] . ونتيجة لموقعها المتميز أصبحت جُدة منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري مستودعاً عظيماً لمتاجر الهند ، ومرسىً نهائياً لسفنهم وسفن الصين ، ومركزاً رئيسياً لنزول حجاج البحر والتجار الشرقيين الذين تُرسَّمْ عليهم الجمارك . [٢]

لم يتحدث الرحالة المغاربة إلا عما شاهدوه ، ولاشك أن هناك طرقاً أخرى للتجارة ، منها الطريق البري القادم من اليمن ، والطريق البري الآتي من العراق والخليج العربي ، وهذه لم يشر إليها الرحالة المغاربة ، لأن طريقهم لم يكن عليها ، فأغفلوا ذكرها .

طُرق الحج

قَدِمَ الرحالة المغاربة من شمال الحجاز ، وهو طريق الحجيج المصري ، أحد طرق الحج وهناك طريق الحاج الشامي ، والعراقي ، واليمني ، والهندي ، وغيرها ، ولكن لم يتطرق إليها الرحالة المغاربة ، وإنما تحدثوا عن الحجاج الآتين من البلدان الإسلامية التي تنتمي إليها تلك الأركاب مثل الشامي ، والمصري ، واليمني ، والحجازي (المكي ـ المدني) ، والعراقي (الكوفي ـ البغدادي ـ البصري) ، والمغربي (الفاسي) ،

---

١ ـ د/ نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ،ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ .

٢ ـ المرجع السابق ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(القسنطيني ـ الجزائري) ، والإسطنبولي ، والعجمي ، والقرماني ، والهندي ، والبنكالي ، والكنكي ، والسرتي ، والمصوعي ، والتكروري . [١]

وسنتحدث عن طريق الحجيج المصري ، لأن هذا الطريق هو الذي عاينه ومشى فيه الرحالة المغاربة ، وتحدثوا عن ركبهم الذي لا يبدأ مسيَرهُ إلا بعد رحيل الركب المصري الذي كان يغادر في الثالث والعشرين من شوال ، ويتبعه الركب المغربي يوم السابع والعشرين من الشهر نفسه ، ويجتمع الركبان في بركة الحاج . [٢]

ويظهر أن طريقة ترتيب سير الأركاب لم تتغير منذ القرن العاشر الهجري ، إذ هي موافقة لما ذكرها الجزيري ، أما الذي تغّير فهو يوم الرحيل ، فقد كان في القرن السابع الهجري يوم السادس عشر من شوال ، وأصبح بعد ذلك في الثالث والعشرين من الشهر نفسه . [٣]

ويتألف الركب الفاسي الذي يأتي معه الرحالة المغاربة من :

١ ـ الركب الفاسي ٢ ـ الركب السجلماسي ٣ ـ الركب المراكشي .

٤ ـ الركب الشنجيطي ٥ ـ الركب البحري [٤] ٦ ـ الركب السوسي . [٥]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦١ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٠ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٦٩ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٩ .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣١٤ ، ج١ ، ص ٦٤٣ .

٤ ـ محمد المنوني : من حديث الركب المغربي ، ص ٩ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٧ .

وينضم إلى الأركـاب السـابقة ركـائـب تونس ، والجـزائر ، وطرابلس الغرب [١] ، فيزيدون في أعدادهم ، ويؤلفون ركباً مغربياً كبيراً ، فضلاً عن كثرة ما يحملونه من عدّة وعتاد .

واستمرت طريقة سير الركـب المغربي إلى زمن رحلة الزبادي الذي قال : « إن الركب الفاسي إنفصل عن سـائر أركـاب المغـرب ، التي كـانت تسـيـر في الماضي مجتمعة ، وأصبح الركب الفاسي يسير مع الركب المصري » ، ويظهر من كلام الزبادي أنه يقصد بباقي أركاب المغرب الجزائر وما والاها شرقاً ، والتي كانت ترحل بعد رحيل الركب المصري [٢] . كما أن الزبادي لم يوضح السبب الذي حدا بالركب الفاسي الأنفصال عن الركب المغربي ، ويبدو أن انفصال الركب الفاسي عن باقي الأركاب المغربية كان قبل رحلة الزبادي ، فأبو مدين أشار قبله إلى أنه كان ينتظر بخوف من تأخر وصول الركب السوسي ، خاصة وأن باقي الأركاب المغربية قد وصلت إلى مكة المكرمة . [٣]

لم تذكر طريقة سير أركاب الحجيج ، وخاصة المصري ، وخط سيره ، في مؤلف قائم بذاته إلا مؤلف الجزيري ، وعنوانه « الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطـرق مكة المعظمة » والذي قال مؤلفه : « لم آخذ في تأليفه على مثال سبَق ، ولا على نمط تقدَّمَني فيه غيري » [٤] . فالجزيري ألفه في القرن العاشر الهجري ، لذا رأينا أن نأخذه كمثال عند أول كل منزلة ، خاصة وأنه كان كثير التردّد عبر هذا الدرب ، الأمر الذي أمكنه من إيراد ما شاهده وخَبِرَهُ وعلَمِه ، وسيتضح من أقواله وأقوال الرحالة المغاربة أن مراحل الدرب الحجازي ، ومحطاته ، ومسمياتها ، لم تتغير منذ القرن العاشر الهجري وحتى الثاني عشر

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٣٠ ، ٦٠ ـ ٦٢ .
٢ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٤ .
٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٧ .
٤ ـ الجزيري : الدررالفرائد ، ج١ ، ص٣ .

الهجري ، بالإضافة إلى إيراد أقوال بعض الرحالة المشارقة ، حتى نخرج بالنتيجة المرجوة بالمقارنة بين كل تلك الأقوال .

سنبدأ بالوصف وتتبع الرحلة من أولى المنازل ، وهي « بركة الحاج » ، والتي كانت على الرغم من أنها داخل الأراضي المصرية وخارج حدود الحجاز ، فقد وجدنا أنه لابد من البدء من بداية الطريق حتى تكتمل الصورة . ونلمس أن معاناة ركب الحجيج ليست بدايتها من أرض الحجاز بل من داخل الأراضي المصرية ، حتى لا يقال أن أمراء الحجاز وحدهم المقصرين في حماية ركب الحجيج ، إذ شارك حكام مصر في هذا التقصير .

ذكر الجزيري أن الطريق إلى **بركة الحاج** فضاء وحصباء ورمل ، أما وصف الموقع فقال عنه : « به نخل كثير ، ومنازل ، وسكان قليلون ، وبها فسقية قديمة للماء عُمرت منذ عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م ، وأقيم بجانبها بئر وبستان ، كما عُمر في حدود عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م حوض ، يشتمل على محراب للصلاة ، وأواوين يجلس عليها المسافرون للإستراحة ، وكل ذلك ضمن عمارة عالية تُرى من بُعد ، وأضاف : « أنه يُنصب بها سوق كبير ، يشتمل على كل ما يحتاجه المسافر من مأكل وملبس ومركب » . (١)

وعلل إبن رشيد ـ الذي مرّ عليها عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ـ ذاك العمران الحاصل بها لنزول الحجاج عليها ، إذْ أُحدِثَتْ بها الحوانيت ، والأفران ، لتلبية حاجاتهم ، وأنّ المسافة بينها وبين القاهرة حوالي إثنى عشر ميلاً . (٢)

ووصف العياشي وضع بركة الحاج في بداية الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري كما وصفها الدرعي في نهاية الربع الأول من القرن الثاني

١ـ الجزيري : الدر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٠٩ ـ ١٣١١ .

٢ ـ أبوعبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى السبتي : ملء العيبة بماجمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهه إلى الحرمين مكة وطيبة ، ج٥ ، ص ٢٨٢ ، تحقيق د/ محمد الحبيب ابن الخوجه ، بيروت ـ لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

عشر الهجري ، وجاء في وصفهما لها : أنها بركة واسعة على مدّ البصر ، مملوءة بماء النيل ، نُصبت حولها الأسواق المشتملة على البضائع المتنوعة ، كما وجُد بها العديد من المقاهي المزينة ، وحول البركة العديد من البساتين ، والمقصورات على شاطىء النيل ، والتي تقصد للتنزه ، وشاهد كل منهما قرى عامرة في جانب البركة الغربي . [١]

ولا يختلف وصفها لدى البكري ، الذي حج في منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، والورثيلاني الذي حج في بداية الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري ، عما سبق [٢] ، إلا أن الموسوي الذي حج في بداية الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري ، أشار إلى أنها لا تبعد عن القاهرة إلا بحوالي عشرة أميال [٣] ، مما يدل على أن عمرانها قد اتسع ، وخدماتها زادت ، بحيث أن المسافة بينها وبين القاهرة نقصت ميلين عما ذكره ابن رشيد في القرن السابع الهجري ، أو ربما يكون العكس من امتداد عمران القاهرة شرقاً نحو بركة الحاج.

ثم يأتي الحجيج إلى المنزلة الثانية وهي ، **الدار الحمراء** التي أخذت إسمها من لون تربتها [٤] ، وقد وصفها اليوسي بالخلاء الذي لا ماء به [٥] . بينما أشار البكري إلى وجود ماء مالح بها ، وأشار أيضاً إلى لفتة كريمة لأهل السويس الذين يقدمون إلى طريق الركب ويهدونهم الحطب . [٦]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٩ .

٢ ـ البكرى : رحلة البكري ، ص ٩/أ ـ ٩/ب ؛ الحسين بن محمد الورثيلاني : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانيه ، ص ٢٨١ ، بيروت ، لبنان ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ، تصحيح محمد بن ابي شنب .

٣ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٦٧ .

٤ ـ الجزيري : الدر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٢٣٧ .

٥ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٣/ب ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٥ .

٦ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١١/ب .

وذكر الورثيلاني أن اعتماد الركب في توفير الماء بهذه المنزلة يكون على ما يحملونه من بركة الحاج ، إذ أن كمية الماء المحمول يجب أن تكون كافية حتى الوصول **لعجرود** وهي على مسافة عشرين كيلومتر غربي السويس [١] والتي وصف ماؤها بالقبح ، وكان مَنْ لم يستطع حمل الماء معه يمكنه شراؤه ، إذا كان لديه الأموال الكثيرة [٢] ، وأكد النابلسي انعدام الماء إلاّ ما وُجد من ماء المطر . [٣]

وكان الحجاج في السابق ينزلون **بالسويس** [٤] ، ولا يمرون بعجرود . ثم تركوا ذلك إلاّ في بعض السنين [٥] ، فقد مرّ عليها الدرعي وقال : « أنها تقع بين جبال عالية » ، ووصفها بالصغر، وأنها تحوى الأسواق ، والمساجد ، والوكالات التجارية المشرفة على البحر ، وهي ميناء ترسو به السفن القادمة من الهند [٦] والحجاز . [٧]

ومرّ عليها الحضيكي ، أيضاً ولكنه أغفل وصفها [٨] ، فالسويس كانت من ضمن محطات ركب الحجيج قبل عجرود ، حيث أدرجها الجزيري ضمن منازل الركب ووصف ماؤها بالقبح ، ومنها ينتقل الركب إلى بندر النخيل . [٩]

---

١ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٠٦ .

٢ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣١٧ .

٣ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٧ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩ .

٥ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٠٧ .

٦ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٠ .

٧ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٨ .

٨ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

٩ ـ الجزيري : الدررالفرائد ، ج٢ ، ص ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩ .

وذكر الجزيري أن بعجرود خاناً جديداً من بناء السلطان الغوري بعد خراب القديم ، وبها أيضاً ثلاث فساقي ، وبئر مالحة جداً ، ويقام بها سوق ، يحضر جزء من بضائعه من السويس ، وأضاف أن بالقرب من عجرود حفائر ماء عذبة .[١]

وتوالى وصف الرحالة المغاربة لعجرود والذي نلمح منه ما طرأ عليها من تطور وعمران ، واختلاف في بعض الموصوفات ، مثل الماء وعدد القلاع ، فالرحالة المغاربة ذكروها ضمن منازل الحاج المصري التي يعتمدون عليها في خزن مؤنهم لحين عودتهم ، وشاهدوا بها حصنين متقاربين ، محكمي البناء ، وبأحدهما بئر ماء كبير ، يُرفع ماؤها بواسطة البقر ليصب في ثلاث برك خارجة ، واحدة منها كبيرة . وأضاف العياشي أنّ بها حوالي ثلاثين منزلاً . وعندما مر عليها الدرعي وجد بها ماءً عذباً سهل التناول [٢] . وأغلب الظن أنه نزل بها عقب هطول المطر ، لأنه ذكر أنه في أغلب الطريق كان يشرب من ماء المطر .[٣]

ولا يختلف قول الورثيلاني عنها عن بقية الرحالة المغاربة إلاّ بقوله : « أن بها ماءً حلواً ، كما بالدار الحمراء ، ولكنه لا يوجد في كل الأوقات، ولا يكفي جميع الركب، بالإضافة إلى عدم علمهم بمواضعه، إلا بعد أن يدلّهم عليها الأعراب ».[٤]

وينفرد الموسوي والنابلسي بقولهما : بوجود قلعة واحدة بها ، ويؤكدان على ملوحة مياهها .[٥]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٢٠ ـ ١٣٢١ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٦ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٣/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٥ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ .

٤ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨ .

٥ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٢٣ ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٨ .

ويبدو أن القلعتين كانتا متجاورتين بحيث أن مَنْ لم يدقق النظر بهما يظنهما قلعة واحدة .

ومن عجرود يفترق الطريق إلى فرعين أحدهما : يسمى طريق **النابعة** وكان ويسلكه الحجاج أيام الحر لتوفر المياه العذبة والهواء الرطب به أكثر من الطريق الآخر ، الذي يسمى طريق المصانع أو النواظير .

وقد وصف العياشي والدرعي **طريق النابعة** ، بقولهما : « واد كبيرة ، ذو رمل ، به أحساء كثيرة تزيد على المائة ، وأينما حفرت مقدار قامة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً في غاية الحلاوة ، كأنه ماء النيل » . [١]

وعلل الورثيلاني مروره على هذا الطريق لكثرة مياهه وعذوبتها [٢] . وأضاف النابلسي أن هذا الطريق بقرب البحر ، وبه سبعة آبار ، وأن أهل السويس ينقلون الماء منه إلى السويس لعدم وجوده بها . [٣]

أما الطريق الثاني طريق **المصانع أو النواظير** ، فهي سواري مبنية في سبخة ، لا يظهر منها أثر الطريق ، فوضعت هذه الأعلام لتكون دليلاً عليه ، وفي رؤوس هذه الأعلام حجر طويل ، يشير إلى الطريق الصحيح يستدلّ به السائر ، وربما تعلق عليها المصابيح في الليل ، وبين كلّ علم وآخر فرسخ أو أقل . [٤]

مر على هذا الطريق العياشي والدرعي ، وأشارا إلى إنهدام بعض الأعلام وبقاء أنقاضها ، بينما لم يشرْ الزبادي إلى خرابها [٥] . مما يدل على أن يد التعمير امتدت إليها .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٠ . نقل الدرعي أغلب أوصاف الأماكن عن العياشي ، لذلك جمعناها سوياً وأفردنا المواضع التي أضاف فيها الدرعي جديداً ، ووضح ذلك في مكانه .

٢ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانيه ، ص ٢٣٠ .

٣ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٦ .

٥ ـ المصادر السابقة والصفحات .

وقـد وصـف البكري هـذا الوادي ، قـائلاً : « النواظيـر ورأس وادي المنصرف ، واد كثير الرمال والكثبان ، وليس به ماء » . [١]

وأمدنا النابلسي بوصف أكثر تفصيلاً ، فقال : أنه مرّ على فلاة واسعة ، بها أشكال أعمدة من الحجارة ، يقدر عددها بأربعة وعشرين عموداً ، بين كل عامودين نحو الميل ، وطول كل عامود نحو أربعة أذرع ، بنيت منذ أزمان لتكون دليلاً للحجاج لئلا يتوهوا عن الطريق الصحيح ، وهذه النصب بالقرب من أرض السويس . [٢]

ويواصل ركب الحجيج مسيره عبر **بندر النخيل** ، في أرض التيه ، (صحراء سيناء) التي وصفها الجزيري بأنها « قاع فياح ، لا ماء به ولا نبات » . [٣]

لقد جاء وصف الرحالة المغاربة الذين سلكوا هذا الطريق متفقاً ، بأنه طريق قفر وموحش .. ذكر ذلك العياشي والدرعي بأنه « مقفرة ، موحشة ، طويلة ، عريضة ، معطشة ، قد تعددت بها الطريق ، وامتدت امتداد السطور في الطروس ، لم يلحقها على قِدَم العهد الدروس ، وهذا المحل من المحالّ التي تعظم فيها المشقة أيام الحرّ ، وقد تتلف فيه النفس بالعطش كثيراً » . [٤]

وصعوبته في الشتاء تكمن في برده وندرة أشجاره ، فقد عبره الدرعي في الشتاء فقال عنه « عراء لا حطب فيها تتلف فيها ، النفوس من البرد .. بها بعض غدران ماء في أخاديد » . [٥]

وبعد أن قطع اليوسي شوطاً من هذه الصحراء وصفها بقوله : « ما في الدرب أقبح ولا أكثر رملاً وعطشاً وحراً وغراً » . [٦]

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٢/أ .

٢ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٨ .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٢٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٥ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٥ .

٦ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ .

وأشار العياشي والدرعي وأبو مدين والزبادي ، إلى وجود عقبة بها شيء من الصعوبة ، سويت بالبناء ، وأصبحت طريقاً يسير فيه الركب إلى أرض التيه ، التي وصفها الزبادي بقوله : « ماله في الوحشة من شبيه ، كثرت فيه الطرق وامتدت ، وتشابهت مسالكه » [١] . أما البكري فوصف أرض التيه بقوله : « واد واسع الأرجاء » . [٢]

وكان الجزيري قد أمدنا بمعلومات تاريخية عن بندر النخيل فبيّن : أنه كان به خان ، بناه السلطان الغوري ، وجُدّد لصغره عام ٩٥٩هـ/١٥٥١م ، كما وجد به أربع برك عطلت إحداها ، وهناك بئران ، أحدهما عليه ساقية ، والآخر نصب عليه سُلَّمْ ، بالإضافة إلى ما يقام بها من سوق كبير ، كما وجد بها حفائر ماء عذبة إلا أن ماءها ثقيل . [٣]

والرحالة المغاربة منهم مَنْ وصف ماء البندر ، ومنهم مَنْ وصف مبانيه ، ومنهم مَنْ تطرّق إلى وصف سوقه وما حوى ، ومنهم مَنْ جمع تلك الأوصاف كلها ، فالعياشي والدرعي أشارا إلى وجود بئر وحيدة يتزاحم الناس عليها للسقيا ، خاصة إذا استنزف الركب المصري كامل الماء الموجود بالبرك الثلاثة ، ـ وهذه البرك أكبر من الموجودة بعجرود ، كما قالا ـ مما يؤدي إلى توارد الناس على البئر وتزاحمهم للسقي ولا يستقون إلا بعد تعب شديد ، كما أشارا إلى وجود حصن كبير ، وسوق ضخمة ، يضم معظم احتياجات الحجاج ، ولفت إنتباههما كثرة الفواكه مثل التفاح واللوز والزبيب ، الذي يُحضر من الشام بواسطة تجار غزة . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٢ ـ البكري : رحلة البكري ؛ ص ١٢/ب .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٢٧ ـ ١٣٣٠ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

واليوسي اكتفى بوصف مائها بالقبح [١] . أما الحضيكي فأشار إلى وجود بئرين بها ، وصهاريج تملأ بالماء ، خُصّصت للركب المصري وماؤها حلو . [٢]

ووصف أبو مدين بندر النخيل « بالمدينة » ، وذكر أنّ به قلعة ذات أبراج ، وسور بداخلها بئر ماء وحيدة غزيرة الماء ، ولكنه لا يستساغ الشرب منه [٣] . وخالفه الزبادي في شأن ماء البئر فوصفه بالعذوبة والغزارة ، بحيث أنه يكفي الذاهبين والواردين ولا تنزح أبداً ، ويستخدم البقر في رفع مائها إلى البرك الثلاثة خارج القلعة ، وقال : « أن هذه البرك أكبر من برك عجرود » ، كما عددّ أصناف الفواكه - زيادة على مَنْ سبقه من الرحالة المغاربة - كالموز والرمّان والسّفرجْل .[٤]

أما البكري ، فقد أخذه العجب من كثرة الفواكه الشامية ، والماء المملوء بالبرك [٥] . وذكر الموسوي وجود القلعة ، والخان ، وبئر ماء واحدة [٦] . وأشار النابلسي إلى وجود مسجد صغير ، وأناس قليلين [٧] . ووصفها الورثيلاني بالبندر العظيم ، ولا يختلف وصفها عنده عمّن سبقوه . [٨]

ونخلص مما سبق إلى اختلاف بعض الرحالة المغاربة حول عذوبة ماء بندر النخيل، وربما يرجع ذلك إلى قلة الأمطار في بعض السنين ، فتقلّ بالتالي عذوبة الماء ، وأما اختلافهم في عدد الآبار ، فربما يرجع إلى أنهم لم يروا إلا البئر المنصوب عليه الساقية لأنه عماد الركب ، كما يتضح من أقوال الرحالة المغاربة أن يد التعمير امتدت إليها أحياناً ، ورفعت عنها أحياناً أخرى .

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ .

٢ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٥ ـ البكري : رحلة البكري ، ١٢/ب .

٦ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٢٠ .

٧ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٢ ، مع الأخذ بالإعتبار مرور النابلسي في غير وقت الحج .

٨ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٣٢ .

وقبل الانتقال إلى المنزل التالي ، لابد من الوقوف عند إشارة النابلسي لموضع ، ذَكَرَ أنه كان يُعرفْ **بنخل** ، قبل بناء **بندر النخيل** الذي مرَّ عليه الرحالة المغاربة ، ووصفه وذكر : أنه مرّ على موضع سماه القريص ، وأورده ضمن منازل الحج ، وقد شاهد به قلعة قديمة البناء مهدمة ، بها بئر خراب ، وبالقرب من بركة كبيرة ، والمجرى إليها مقطوع ومردوم ، وشاهد أيضاً بئر آخر عليه قبة صغيرة ، وذكر أن هذا المنزل معلوم ، ويسمى **نخل** ، ولما بنيت القلعة التي ببندر النخيل سميت بنخل ، وأصبح هذا المكان يسمى بالقريص . [١]

وما ذكره النابلسي ، يوضح ما عناه الجزيري سابقاً ، عندما تناول مسمى بندر النخيل، وقال: « أنها كانت تسمى فيما مضى ببطن نخر أو نخل »[٢]، وقد فات عليه أنه موضع آخر، وهو الذي تحدث عنه ابن رسته[٣] وابن خرداذبه[٤]. وأبو عبيد البكري الذي قال عنها : « بطن نخر ، منهل من مناهل الحاج ، وهي قرية ليس بها نخيل ولا شجر ، يسكنها نفر من الناس ، ويقال بطن نخل لسوافٍ تسفى على الناس ، فيه تراب دقيق ، كأنما نُخِلَ بمنخل » . [٥]

وبمقارنة وصف الجغرافيين القدماء عن بطن نخل ، ووصف الرحالة المغاربة ، يتضح أنهما موضعان وليس موضعاً واحداً ، وهو أمر لم يشر إليه أحدٌ من قبل .

---

١ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٤ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٢٧ .

٣ ـ ذكرها بلفظ الحفر . أنظر أبو علي أحمد بن عمر بن رسته : الأعلاق النفيسه ، ج٧ ، ص ١٨٣ ، طبع مدينة ليدن ، مطبع بريل ، ١٨٩١م .

٤ ـ ذكرها بلفظ الحفر . أنظر أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٤٩ ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د.ت .

٥ ـ أبو عبيد البكري : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك ، ص ١٠٢ ، تحقيق ودراسة د/ عبدالله يوسف الغنيم ، نشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م ، د.م .

وتستمر مسيرة الركب شرقاً إلى **العقبة** ، التي تشرف على بندر العقبة ، والتي تسمى **سطح العقبة** ، والمسافة بينهما وبين بندر النخيل مائة وسبعة عشر كيلومتر[١]، ويصف الجزيري هذه المسافة بقوله : « قاع أفيح »[٢]، ويؤكد ذلك القيسي بقوله : «أرض بسيطة متسعة النواحي»[٣] ، وقد وصف اليوسي مشاعره وهو يجتازها قائلاً : « ما رأيت أفظع منها ، ولا أقبح خوفاً وصعوبة » . [٤]

وأثناء إجتياز اليوسي والحضيكي لهذه المسافة ، شاهدا بئراً أسمياها **بئر الصعاليك** أو **البارود** ، وقالا : « إن ماءه يتصف بالمرارة [٥] . قد حفر في أصل الوادي » ، ووصفاه بالكبر والعمق والبناء المتقن بالحجر ، ويجانبه أثر بناء وبركتين ، إلا أنّ المكان خالٍ من العمارة ، بالرغم من الإعتناء ببناء البئر الذي كان قبيح الماء ، كما ذكر الرحالة المغاربة . [٦]

وأضاف البكري : أن الشوك ينبت بالوادي ، كما انتشر شجر الآثل [٧] . ولا يختلف وصف الورثيلاني عن غيره من الرحالة المغاربة . [٨]

ويظهر أن هذه البئر كانت تعرف فيما سبق ، **بآبار العلائي** ، التي كان حولها حوش وفسقية وقبتان [٩] . وعرفت فيما بعد في عهد الرحالة المغاربة باسم **بئر القريص** أو **بئر أم عباس** . [١٠]

---

١ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١١٢ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣٢ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ .

٥ ـ المصدر السابق والصفحة ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ .

٧ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٤/أ ـ ١٤/ب .

٨ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانيه ، ص ٣٣٢ .

٩ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ .

١٠ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١١٢ .

أما الطريق إلى سطح العقبة ، فيصفه الجزيري بقوله : « عقبة صغيرة محجرة صعوداً وهبوطاً ، وقطعت وسهلت في عهد السلطان الغوري » . [١]

وأسترسل العياشي والدرعي في وصفها قائلين : « عقبة كؤود ، صعبة الهبوط والصعود ، إلا أن الطريق بها منحوتة ، قد سُوّيت في أكثر الأماكن الصّعبة ، وبنيت حافتها ببناء متقن .. ونزلنا من المنحدر الصعب ، جعلت الطريق تلتوي في شعاب ، كأنها أزقة ، يكثر فيها المخاوف والمتالف ، فيُرى البحر من بعيد فيُظنّ أنه قريب » وأضاف الدرعي واصفاً إحساسه عند الوصول إلى **عقبة أيلة** ، قائلاً : « وافينا عقبة أيلة ، وخبرها قد روّع القلوب ، وما من الركب إلا وهو من لباس الصبر مسلوب ، فحصل هناك من الزحمة ، ما تقطعت له القلوب رحمة ، وتصادمت المحاق وانكسرت » . [٢]

ونصح الزبادي مَنْ أراد الوصول إلى **بندر العقبة** بالحذر عند النزول ، لأنها على حدّ قوله: « أول العقاب »، وأورد شعراً يوضح فيه خطورة الطريق قائلاً:

بطريق أيلة أجبل وعقاب   لا يرتجي فيها النجاة عقابُ

فكأنما الماشي عليها مذنب   وكأنما تبدّل العقاب بعقاب

ومر الزبادي على موضع أسماه « **بعرقوب البغلة** » ، ووصفه بأنه صعب الصعود ، بالرغم من أنه قد بُني وسُوي جانباه ، كما أشار إلى وجود مسجد صغير غير مسقف . [٣]

ويتفق باقي الرحالة مع الزبادي في وصف هذه المنطقة . [٤]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ .

٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ .

٤ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٤/ب ـ ١٥/أ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٥ .

ووصف كلٌ من الرحالة المغاربة ما استرعى انتباهه حال وصوله إلى العقبة فذكر القيسي والرافعي السوق الذي يقيمه فيها أهل غزة والشام ، مستقبلين به الركب . وعدّد العياشي واليوسي والدرعي وأبو مدين والزبادي بعض الخيرات المجلوبة إلى هذا السوق ، مثل العنب ، والتفاح ، والدلاع ، والبطيخ . وقد تعجب اليوسي من كبر حجم الفواكه كالزبيب الأحمر ، فقال : « إنه ما رأى مثل هذه الفواكه التي لم يتغير شكلها وحجمها وطعمها ، بالإضافة إلى ما يحضره الأعراب مغتنمين فرصة ورود الأعداد الغفيرة من الحجاج للإتجار معهم ، وبيعهم الإبل ، والغنم ، والسمن ، والعسل ، والعلف » . ونّبه الرحالة المغاربة إلى أن الفول يباع بها أرخص مما كاروا على حمله من مصر ، كما ذكروا أنّ الحجّاج إعتادوا على خزن مؤنهم بها لحين العودة . [١]

وتصدر الرحالة المغاربة لوصف **العقبة** ، التي لم تخرج عن قولهم : بندر عظيم على ساحل البحر[٢] . بها قلعة حصينة متقنة البناء ، وأن العقبة قرية حسنة مبنية في سفح جبل بها الآبار الكثيرة والعذبة الغزيرة داخلها وخارجها ، بالإضافة إلى سهولة الحصول على الماء ، بواسطة الحفر في الرمال ، الذي لا يلبث أن يتفجر بعدها الماء عذباً بارداً حتى في زمن الحر ، كما لفت انتباههم كثرة النخيل بها . [٣]

وأضاف الجزيري على ما سبق ، أن الذين قاموا بزراعة النخيل بها هم الحويطات من بنى عطية ، وأن ما وُجد بسوقها يضاهي ما يوجد بأسواق أمهات الأقاليم [٤] ، وهذه المنطقة من آمن المناطق وأفضلها إستقراراً ، ويبدو أن هذا

---

١ ـ القيسي : أنس السارى ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

٢ ـ أخطأ الرافعي في قوله أنها تقع على بحر السويس والصحيح خليج العقبة . انظر الرافعي : المعارج المرقيه ، ص ١١٤ .

٣ ـ القيسى : أنس السارى ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٣٧ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٩ .

يرجع إلى طبيعة المنطقة وتشجيع من الدولة العثمانية ، التي ظهرت جهودها واضحة هنا .

واتفق البكري والنابلسي والورثيلاني في وصفها مع الرحالة المغاربة ، وعجب النابلسي من انبعاث الماء العذب بجانب البحر المالح ، وأضاف الورثيلاني أنه شاهد بها سقايتين ، واختلف عن باقي الرحالة المغاربة في حلاوة مائها ، إذ ذكر أنه بين العذوبة وقلتها . [١]

وكان قد مر عليها ابن رشيد في القرن السابع الهجري ، وأشار إلى وجود نخيل ، وبئر ومصنع للماء . [٢]

ومن هنا نستنتج من أقوال الرحالة المغاربة وغيرهم من الرحالة المشارقة تطورها العمراني ، حتى أضحت مدينة يُعتّد بها ، ونستنتج أيضاً أن أهل غزة والشام تخصصوا في التجارة مع الحجاج في تلك الفترة ، وتلك المناطق ، بمختلف البضائع ، وبأسعار زهيدة كانت في متناول الجميع ، وهذا يقودنا إلى نتيجة هامة تتعلق بالناحية الإقتصادية في تلك الفترة ، وتواصل جميع الولايات العثمانية في كيان واحد ، وعدم تدخل حكام الولايات في هذا الأمر .

ومن العقبة يأخذ الطريق في الإتجاه ناحية الجنوب ، على هيئة مسالك ضيقة بين البحر والجبال ، ولا يتسع إلاّ لمرور جمل إثر جمل ، وشبهه العياشي والدرعي « بالصراط » إلا أنه غير مستقيم إلى أن يصل الركب إلى **ظهر الحمار**. [٣]

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٤/ب ـ ١٥/أ ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٥ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٦٧ .

٢ ـ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٨١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ .

ووصف البكري الطريق إليها بقوله : « محطة عالية كثيرة الأوعار ، يصعد إليها من عقبتين في مسلكين ، اليمين منه أوسع من اليسار » . [١]

وأكد الجزيري ذلك بقوله : « أنها أرض فضاء عالية ، يصعد إليها في حدرات طويلة ، وهي مرهقة للجمال ، وهذا المنزل بالقرب من **حقل** » [٢] ، وقد سمى العياشي والدرعي والزبادي هذا الموقع **بحفائر النخل** ، فأسفل هذا الموقع على ساحل البحر ، وجد الكثير من النخل ، وأحساء المياه العذبة ، وعمارة سببها الأعراب المشتغلين بالزراعة هناك . [٣]

ووصف الموسوي ماء الموضع بالكدارة ، وأكد على وجود النخل الكثير[٤] . بينما خالفه الورثيلاني في صفة الماء الذي وصفه بالعذوبة ، وأن آباره تتركز بوسط النخيل المزروع على شاطىء البحر . [٥]

ثم يواصل الركب مسيرته إلى أن يصل موضع **عش الغراب** [٦] . وهو جبل صغير يمر عليه الركب في وسط طريق بين الجبال ، وقد وصفت الشرفة بأنها كالزلاقة المبنية المسطحة [٧] . وربما يكون لفظ عش الغراب أخذ من شكل الجبل ، الذي يشبه عش الغراب في وسط الطريق .

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٥/ب .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٥٠ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ .

٤ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ١٩ .

٥ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٦٨ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٧ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ص ج٢ ، ص ١٣٥٣ .

وعندما كان يصل الركب إلى موقع **أم العظام** ، يتسوق من الأعراب اللبن وغيره [١] ، وبهذا الموقع أرجام كالشعاب ، على يمين الذاهب ، يذكر أنه قبر الشفاف . [٢]

وذكر الورثيلاني أن هذا الموقع يطلق عليه **أم العظام** أو **شرفات بني عطية** أو **عش الغراب** ، وقد جاء على ذِكْر السفاف ونسب حكايته للعبدري [٣] . إذ هو أقدم مَنْ أورد ذكره من الرحالة المغاربة . [٤]

ووصف البكري الشرفات ، بأنه مكان تتعب فيه الجمال لوعورته [٥] . أما النابلسي فذكر أن الشرفة تقع بين جبالٍ ووهاد ، ولا ماء فيها ، وأضاف : أنه مرّ على موضع يسمى الرجم [٦] . وربما يكون هذا الموضع هو قبر السفاف الذي تحدث عنه العبدري ويعرف هذا المكان اليوم بقبور شفاف . [٧]

ويواصل الحجيج مسيره عبر **مغاير شعيب** ، وهي منطقة إشتهرت بالمياه العذبة الغزيرة ، وبساتين النخيل ، وعرائش العنب المنتشرة ، فبجانب الآبار هناك الأحساء الكثيرة الموجودة في مضيق بين جبلين ، بالإضافة إلي جداول الماء الرقراقة الجارية ، والتي وصفها اليوسي ، بأنها « أحسن ما يشرب ، جارٍ على وجه الأرض ، ليس بالدرب أفضل منه » . ووفرة المياه أدت إلى انتشار مساحات

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ والصحيح أنه السفاف . انظر نواب : الرحلات المغربية ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

٣ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٠٦ .

٤ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٠ ؛ نواب : الرحلات المغربية ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

٥ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٦/أ .

٦ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٦ .

٧ ـ حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ١٨٥ .

واسعة من النباتات وأشجار الدوم والطرفة الذي يخيل لمن يشاهده من بُعد أنه نخيل ، وبالقرب منها على ساحل البحر ، قرية كبيرة لم يسمها الرحالة المغاربة . [١]

وأمدنا الجزيري بالإضافة إلى ما سبق ما ينقصنا من الناحية التاريخية عنها ، فقال : «إن النخل من مستحدثات بني عطية بها » ، كما أشار إلى كثرة الحطب هناك ، وقام بوصف المغارة ، ذاكراً ، أنها كبيرة الحجم، يتجمع بها الماء ، وأنها كانت فيما مضى من أهم مواقع السقي للركب ، قبل أن ينبع الماء بهذه الوفرة بتلك الأرض [٢] . وحتى في القرن السابع الهجري كان هذا الموقع أحد مناهل الماء المهمة ، وقد وصفها ابن رشيد بالسعة ووجود درج بها ، وأنه من فرط سعتها يتقابل فيها الصاعد والنازل ، وشبّها بالصّهريج المملوء بالماء . [٣]

ووصفها البكري بالغار المملوء بالماء العذب ، وحوله النخيل ، وأشجار المقل ، والآثل ، المنتشرة هناك . [٤]

وأدلى الورثيلاني بدلوه في ذكر مميزات المنطقة ، وأشار إلى البساتين الكبيرة والمياه الجارية بها ، حيث قال : « إن الماء لا يجرى بهذا الشكل إلاّ هنا ، وبعيون القصب » ، كما نبه أيضاً إلى وجود المراعي الخصبة [٥] . أما النابلسي فقال : إن مغاير شعيب تسمى اليوم [٦] البدع ، وشبه جريان عيون الماء العذب على وجه الأرض في أماكن كثيرة بالنهر . [٧]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ الحضيكي: رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ،ص ١٣٥٦ ـ ١٣٥٧ .

٣ ـ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٨٠ .

٤ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٦/أ ـ ١٦/ب .

٥ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٦٩ .

٦ ـ المقصود وقت رحلته عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م .

٧ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٦ .

ونخلص مما أورده الرحالة المغاربة حول أوصافها أنها مكتفية ذاتياً ، من كثرة الزروع والمياه ، بالإضافة إلى أمنها ، إذ هي من المناطق الآمنة التي يمر عليها الركب ، وهذا بدوره يقودنا إلى حقيقة لا نستطيع إغفالها وهي : أن الأعراب إذا ماأُمنت أرزاقهم كف شرهم عن الركب ، إذ لديهم المزروعات والتجارة والمراعي وصيد السمك ، وخيرات آخرى كثيرة في المناطق التي تشتهر بذلك ، إذ مع الرخاء يسود الأمن والإستقرار .

ثم تأتي منزلة **عيون القصب** التي قال عنها الجزيري بأنها : تقع بالقرب من البحر ، وأن الأعراب هناك تتاجر مع الركب بالدقيق والمأكولات ، التي يأتون بجزء منها من الطور ، مثل التفاح ، والبطيخ ، والأغنام ، واللبن والسمن ، والعسل ، بالإضافة إلى ما يزرع بها من عنب وتمر ، وقال : « إن ماء الوادي يأتي من خارجه ، ويزرع بها النخل والقصب وشجر المقل » ، ونبه على سرعة تعفن الماء ، كما أشار إلى أن الماء أنقطع بها في السابق فترة من الزمن ، فحُفر بها بئر ، ولكن سرعان ما عاد جريان الماء كالسابق . [١]

ووصف الرحالة المغاربة الطريق إليها ، بأنه في بسيط واسع من الأرض ، وهو طريق محدث ، فالجزيري ذكر أنّ الرّكب كان يسير في مضائق ، إلى أن يصل عيون القصب ، وحدث في بعض السنين أن تمرد مسؤول الحماية عن الطريق ، واختلف مع أمير الحج ، ومنعه من المرور ، بوضع أشواكٍ وحطب كثيرٍ أوْقد به النار في طريقهم ، مما اضطر أمير الركب عن العدول إلى طريق آخر خلف الطريق القديم ، وهو الذي وصفه الرحالة المغاربة ، أما محلّ نزول الرّكب فهو على ماء جار ، في مضيقٍ بين جبلين ، يكثر فيها النخل والقصب ، وفي أعلى الوادي شاهدوا الكثير من النخيل وأرضاً صالحة للزراعة ، وعند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ، وعلى يسار الذاهب أرض مستوية شاسعة ذات مراعي كثيرة . [٢]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٦٢ ، ١٣٧٠ ـ ١٣٧١ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء، ص ١٣٦٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

وقيل بأنها أخذت هذه التسمية نسبة إلى القصب الذي ينبت بها بكثرة ، بالإضافة إلى كثرة عيون الماء الجارية ، التي شبهها النابلسي بالنهر[١] . وأشار البكري إلى أن نساء تلك المنطقة هن المتوليات لأمور البيع والشراء وامتدح جمال أعينهن [٢] . ولم يختلف وصف الورثيلاني لها عن باقي الرحالة المغاربة . [٣]

ومن عيون القصب يستمر الركب مسايراً للبحر إلى أن يصل **المويلح** ، والطريق إليها يسير بين جبال وكهوف ، وحدرات متعددة ، ومحاطب شجر ، وذكر الجزيري أنها تسمى النبك وأنها محطة بجانب البحر بها الصيادون ويجلب إلى مينائها الفول والدقيق والفواكه من الطور ، ويأتي الأعراب بالعلف والحطب وغيره لبيعه للركب ، وبها بئران عذويتهما قليلة ، وقد حُفر بها خمسة آبار عذبة شَرِبَ منها ، وأشار إلى أن مائها لا يكفي الركب ، وذكر قلعتها التي بنيت عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م وقال : « أنها كبيرة ومربعة الشكل ، وبها أربعة أبراج وسبعة وأربعون مدفعاً ، شحنت مؤن بنائها وآلاتها الدفاعية براً وبحراً من مصر » . [٤]

أكد الرحالة المغاربة قول الجزيري ، وأضافوا على أقواله تفصيلات أخرى توضح وضعها المستقر ، فمن ذلك قولهم : أنها ميناء على ساحل البحر ترسو به السفن ، وذكروا عذوبة مياه أبارها الكثيرة ، وأشاروا إلى كثرة بساتينها ونخيلها ومقاثيها ، وأثبتوا وجود قلعتها الكبيرة الشامخة المحكمة البناء ، وحامية عسكرية وأميرها ، مهمتهم ذب الأخطار عن المويلح ، وحماية مؤن الحجاج الفائضة عن حاجتهم لحين العودة ، والتي منها الفول .

---

١ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٠٦ .

٢ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٦/ب ـ ١٧/أ ؛ إبداء جمال النساء أمام الأجانب غير جائز شرعاً وهذا من الأمور التي جُهلت في تلك الفترة لقلة الفهم بتعاليم الدين الإسلامي .

٣ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٠ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٧٧ ـ ١٣٧٨ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨٢ .

ويظهر أن المويلح في تلك الفترة كانت مدينة تجارية مهمة ، فقد عمل أهلها بالتجارة مع الحجاج ، يشاركهم فيها الأعراب وكان يقام بها سوق كبير أمام باب القلعة ، يضم كافة إحتياجات الركب ، يأتي غالبها عن طريق البحر من مصر ، بالإضافة إلى ما يحضره الأعراب الذين يتجمعون من حول المويلح ، ومن مناطق بعيدة عنها ، لبيع السمن والعسل والضأن والبطيخ . ومجمل القول أن المويلح كانت مرسى آمن ، شاهد الرحالة المغاربة ذهاب وإياب السفن منها . (١)

ولم تختلف أقوال البكري والورثيلاني عن أقوال الرحالة المغاربة ، وأكدا على عظم منفعتها للحجاج ، ويبدو أنها توسعت عمرانياً في زمن رحلة الورثيلاني ، إذ أشار إلى كثرة منازلها . (٢)

وكانت المويلح محط عناية واهتمام من حكومة مصر التابعة للدولة العثمانية ، ومما يدلنا على ذلك أن النابلسي رافق جماعة من المعماريين إليها ، محملين بأعداد ضخمة من خشب الجميز الثقيل ، ومعهم أمراء من قلعة المويلح ، ومندوب من قِبَل والي مصر ، لعمارة آبارها وآبار آخرى تقع في طريق الحجاج ، كما أشار إلى أنّ أهلها في عِزّ ومنعة بجوار قلعتها العامرة . (٣)

ونخلص مما سبق إلى أن المويلح ، إرتبطت ارتباطاً وثيقاً وقوياً بمصر ، سياسياً وإقتصادياً ، إذ أن أقوال الرحالة عنها كانت تشير بما لا يدع مجالاً للشك عن هذا الإرتباط .

ثم تأتي منزلة **دار أم السلطان** ، أو ما يسمى في بعض المصادر **بدار السلطان**، أو **آبار السلطان** ، وقال الجزيري في سبب تسميتها بدار السلطان،

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي، ص ٨٥/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين، ص ٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

٢ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ١٧/أ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

٣ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩٦ ، ٣٠٨ .

هو أن السلطان قايتباي قد نزل بها ، إذ كانت قبل نزوله غـير معروفـة . كما أشار الجزيري إلى وجود المحاطب الكثيرة فيها ، وسبخة يعسر سلوكها لشدة لزاجتها من جراء ماء البحر والسيل . [١]

وتعاقب مرور الرحالة المغاربة عليها ، وأضاف كل واحد منهم ما فات على سابقه في وصفها ، وبذلك أكملوا عقد وصفها مجتمعين ، فالرافعي عدد آبارها الثلاثة الواقعة على قارعة الطريق ، وذكر سعتها وإمتلاءها بالماء العذب الغزير وأشاد بعذوبتها كلٌ من العياشي والدرعي ، وأشارا كذلك إلى سخونته ، وسرعة انفعاله بالهواء ، وأضاف الدرعي أنّ هذه الآبار محدثة ، إذ أخبره أحد كـبراء أعـراب تـلك الناحية أنّ الذي عمل على إنشائها هو الأمـير إبراهيم الفكـاري ، (هكذا) [٢] بعد أن رأى طيب الماء بهذه البقعة عند حجه ، فأوصى أخاه إن هو مات أن يعمل على حفر آبار هنا ، وقد نفذ أخوه وصيته ، إذ توفى الأمير إبراهيم بعد حجه . [٣]

وزاد أبو مدين والزبادي ، على مـا سبق ، : «أنها سـبخة » [٤] ، ونقل الورثيلاني وصفها عن الدرعي [٥] حيث كان النقل عن الرحلات السابقة ، وخاصة في الوصف الجغرافي والعمراني ، هو ما درج عليه الرحالة المغاربة ، وخصوصاً عند إحساسهم أن سابقيهم قد أوفوا الموقع حقه من الوصف وأنهم لن يضيفوا

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٨٣ .

٢ ـ إبراهيم بك ابن ذي الفقار تولي إمارة الحج بعد وفاة أبيه الأمير ذوالفقار ، وقد تولاها ستة سنوات من عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م إلى عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م . خاض ضد العرب الحجازيين في أواخر سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م وقعة عظيمة ، قتل منهم الكثير ، ونهب أرزاقهم ومواشيهم وخاض معركة أخرى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م مع العرب بالشرّفة ، وأوقع بهم كـذلك . وقد اكتسـب من جراء ذلك هيـبة . أنظر عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الأثار في التراجم والأخبار ، ج١ ، ص ٤٣ ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت ؛ الرشيدي : حُسن الصفا والابتهاج ، ص ٢١١ ، هامش ١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد، ص ١٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقيه ، ص ١١٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ١٦٧ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٤ .

٥ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧١ .

جـديداً ، أو إذا لم يتسن لهم التدقيق فيـه ، أو من لم تسعفهم الذاكرة عند تسجيلهم لرحلتهم ، فكانوا يبادرون إلى النقل عن سابقيهم للشيء الذي اشتركوا في رؤيته. [١]

وقبل أن يصل ركب الحجيج إلى موقع **الأزلم** يعترض طريقه مضيق يُسمى **بشق العجوز** ، عدّه الجزيري من ضمن مناهل الدرب الحجازي ، كما أشار إلى مَوْرِدَي مـاء بهما آبار عذبة داخل الوادي ، يسمى الأول **كفافة** ، والآخر **سلمى** [٢] . فكفافة جبل سبق أن وصفه العبدري ، حيث أشار إلى أنه على يسار الطريق ، وبه نتوءات شبهها لقربها من بعضها بالأضراس ، وأوضح أن بأسفل الجبل مياهاً عذبة غزيرة صافية ، متجمعة تحت الرمال ، يُحفر لاستخراجها ، وسمى هذا الموضع وادي سلمى . [٣]

كما أشار الرحالة المغاربة أيضاً إلى مضيق شق العجوز ، المفضي للأزلم ، وشاهدوا بالقرب من شاطيء البحر أعراباً تبيع العلف والغنم ، وقطعوا بأن الكفافة وسلمى منتصف الطريق من مصر إلى مكة المكرمة [٤] ، وقد سبقهم بهذا الجزم ابن رشيد . [٥]

عدّ الجزيري **الأزلم** من جملة مناهل الدرب ، وذكر أن قلعتها بُنيت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وأعيد بناؤها في عهد السلطان الغوري عام ٩١٦هـ/١٥١٠م ، وعلل سبب هذه التسمية ، لخبث أرضها وسباختها ، وكثرة أفاعيها ، وملوحة مائها ، وقلة نباتها ، وقد عدّد بها أربعة آبار مالحة الماء ، نبتت على جدرانها أوراق السنا المُسْهِل . وكانت قلعتها في زمنه تعج بالعسكر .

---

١ ـ نواب : الرحلات المغربية ، ص ٧٧ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٨٤ ـ ١٣٨٥ .

٣ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦١ ؛ نواب : الرحلات المغربية ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ .

٥ ـ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٧٩ .

فالأزلم في ذلك الوقت كانت من المناهل الكبرى ، المعدة لاستقبال الحجاج ، ومكاناً مهماً لخزن ودائعهم ومؤنهم استعداداً لإقامة سوق كبير . [١]

ويبدو أن الأزلم لم تستمر في الإنتعاش طويلاً ، وأغلب الظنّ أن خرابها حدث بعد الربع الأول من القرن العاشر الهجري ، أي بعد زمن الجزيري ، حيث أجمع الرحالة المغاربة على خرابها ، بعد أن شاهدوا تهدّم منازلها ، وتثلّم بعض سورها ، فهي على حدّ تعبيرهم تقرب إلى الخلاء ، كما أكّدوا على مرارة مائها الذي وصفه اليوسي بقوله « ماؤه همّ وغمّ، لا يساغ بوجه » فلا يستخدم إلا للغسل ويتناوله فيما عدا ذلك الجمال والدواب ، ومن اضطر إليه لشدة الظمأ » .

وحدد الرافعي بجانب الأزلم بندراً قديم البناء ، تسكنه العرب ، لهم به إعتناء . أما العياشي فقد ذكر أنّ في الأزلم ثلاثة أبار كبار مالحة ، متقنة البناء ، وعلى يسار البندر ، على بُعد من الأبار ، أحساء محفورة في الأرض مائها أفضل ، إلا أنه قليل ، ولا يَعْرِفُ موضعه الكثيرُ من الناس . [٢]

واتفق النابلسي والورثيلاني في وصفها ، ووصف الطريق إليها مع الرحالة المغاربة ، إلا أن النابلسي وصف شق العجوز بالعقبة الشاقة ، كما أنه قد مرّ على ضبا ، وذكر أن بها آباراً عذبة ، ومنها سلك وادياً به أعشاب كثيرة ، ومراعي غزيرة ، إلى أن نزل بالقرب من قلعة الأزلم . [٣]

ويتابع الركب سيره بين الجبال ماراً بالمضائق والعقبات ، إلى أن يخرج على **وادي الأراك** الذي أخذ إسمه مما وجد به من شجر الأراك الكثير الأخضر الناعم. ثم يعاود المسير بين المضائق والعقبات إلى أن يصل إلى **اصطبل عنتر.** [٤]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٨٨ ـ ١٣٦٩ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١، ص ١٦٧ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٣ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٠ ـ ٣١١ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧١ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ،ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ .

ووصف الجزيري الإصطبل ، بأنه فضاء صغير ، بين جبال ووعر وحدرات ومضائق ، وبالقرب منه حفائر ماء حلو ، وبوسط وادي الأراك جبل بُنِيَ عليه حصن . [١]

واتفقت أوصاف الرحالة المغاربة حول إصطبل عنتر ، من وجود ثلاثة أبار متقنة البناء بحجر منحوت ، وماؤها عذب إلا أنه قليل سرعان ما ينفذ ، فيبقى آخر الركب بلا ماء ، وعندما وصل الزبادي إليه نطق بأبيات شعرية مليئة بالتحذيرات لمن يمر عليه . [٢]

واتفق البكري والنابلسي والورثيلاني مع الرحالة المغاربة في وصفه ، إلا أن النابلسي حدد أباره بخمسة ، بينما الورثيلاني حددها بثلاثة . [٣]

ويبدو أن إصطبل عنتر تارة يحوز على الإهتمام وتارة يُهمل ، ومما يدلنا على ذلك زيادة وتناقص عدد آباره ، والجدير بالذكر أن إصطبل عنتر ورد في كتاب الملامح الجغرافية باسم بركة عنتر ، وأورد إسم منزل بدرب الحاج الشامي باسم إصطبل عنتر أيضاً بعد هدية [٤] . وهذا المنهل المتطابق في المسمى والمختلف في الموقع يبعد عن المدينة المنورة بحوالي مائة وثلاثة عشر كيلو متر ، ولا يظهر من سياق الحديث أنه يريد التفريق بين المنزلين . [٥]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٩٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ، ٦٧ . انظر ما سبق ص٢٥٧ .

٣ ـ البكري : رحلة البكري : ص ١٨/ب ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٢ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٢ .

٤ ـ (هدية) منزل ذكره ابن بطوطة والبلوي ، يقع آخر وادى العطاس ، ماؤه إحساء ، وصفاها بالمرارة، تستخرج بواسطة الحفر ، وبعدها تبدو أعلام المدينة المنورة . ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٧٩ .

٥ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١١٠ ـ ١٣١ ، ١٣٤ ، ٢٠٩ .

ونحن لا نستبعد إطلاق إسم واحد على موقعين مختلفين ، الأمر الذي لم يشر إليه مؤلف الملامح الجغرافية .

وكان الرحالة المغاربة يمرون بعد رحيلهم من إصطبل عنتر على وادٍ لشجر الأراك الأخضر الناعم ، ويستمر الطريق بين مضائق وجبال آخذا في الصعود والهبوط إلى منزلة الوجه . [١]

وبعد أن كان يأخذ الحجاج استراحتهم ، يتابعون المسير **إلى الوجه** ، الذي يتطلب الوصول إليه ـ كما ذكر الجزيري ـ السير في فضاء وأوعار وجبال ، وأوضح أن الوجه هو الوادي ، وبه آبار عذبة حفرت في أول عهد الدولة العثمانية ، وأما الرحبة ففيها البئر المالح ، وتعذب مياه الوجه عقب السيل . وقد سمى الجزيري عين ماء بأعلى الوجه بالكرُ ، وأشار لوجود حامية عسكرية بها . [٢]

ويقال إن سبب التسمية بالوجه لاشتقاقها من المواجهة ، والمراد مواجهة الركب عند عودته بالأخبار الآتية من مصر . [٣]

وتوالى مرور الرحالة المغاربة بالوجه ، وكان كل منهم يضيف إلى وصفها شيئاً لم يسبق إليه من قبل ، حتى إكتمل لدينا الوصف ، فالعياشي والدرعي ، ذكرا حصناً منيعاً ، مبني على طرف وادٍ كبير ، يأتي من بين جبلين ، وقد اعتاد الركب النزول على جوانب الوادي المرتفعة خوفاً من السيول الآتية من أماكن بعيدة ، وأشارا إلى وجود عدة آبار للماء بعضها أحسن من بعض ، ونبها على أنّ التي فوق البندر أفضل ، كما شاهدا داخل البندر بئراً يُرفع ماؤها بواسطة البقر، لتصب بعد ذلك في ثلاث برك خارجة ملتصقة بسوره ، إحداها وهي الوسطى

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٣٩٧ ، ١٣٩٩ .

٣ ـ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

الأكبر حجماً ، من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه ، والأخريتان من بناء مملوكه غيطاس[١] عندما تولى بعده إمارة الحج ، ونبّه العياشي إلى أنه في أعلى الوادي، في موضع بين جبلين ماء عذب يسمى الزعفران [٢] ، ولكنه قليل . وبالوجه يخزن الحجاج مؤنهم لحين عودتهم فالعياشي قال : « أنه قد يسبق الحجاج في العودة الملاقية ، فيرتفع سعر الفول والطعام لدرجة عجز الحجاج عن الشراء » . كما أكد العياشي والدرعي على وجود حامية وأمير بها . [٣]

ولا يختلف وصف الوجه عند الرحالة المغاربة المتأخرين عما سبق وصفه ، إلا ما ذكره اليوسي والغنامي من أمر يظهر مدى سيطرة الجند المصري على أماكن الماء واحتكارها لأمير ركبهم ، حيث ذكرا أن البئر الموجود بالوجه يحرسه عسكر من الترك ، يمنعون عنه الأركاب الأخرى ، بحجة أنه للركب المصري وأميره ، ولا يستطيع أحد الإقتراب منه ولو بذل جهده . [٤]

وقد تغيّر حال الوجه زمن رحلة الزبادي ، ولم يعد مكاناً مأموناً يَعْتَمِدُ عليه الحجاج في خزن مؤنهم ، وإنما كان جلّ اعتمادهم على العقبة والمويلح وينبع ، وحتى الماء أصبحوا لا يردونه بها إلا عند الحاجة الشديدة . [٥]

---

١ ـ غيطاس بيك أحد مماليك الأمير رضوان بيك الفقاري ، تولى سنجقية جدة ، ووقعت مصادمة بينه وبين الشريف زيد بن محسن عام ١٠٦٠هـ/ ١٧٤٧م وهزم بها ، ثم تولى إمارة الحج في السنة التالية . انظر الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ . وكما نرى تغفل كتب التاريخ بعض الأمور التي لابد من إستكمالها من كتب الرحلات المغربية، الأمر الذى يوضح مدى أهميتها في إستكمال سلسلة تاريخ الحجاز في أدق أموره كبيرها وصغيرها .

٢ ـ انظر ما سبق ، ص ٣٠٤ ، واختلاف اسمها عند الجزيري .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ .

٤ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ .

٥ ـ المصدر السابق والصفحة .

ومن الوجه يواصل الحجاج طريقهم إلى **أكرا** [١] ، التي وصفها الجزيري بالفضاء الواسع ، والأرض المدورة ، وأشار إلى وجود مرعىً بها ، وأن ماءها حفائر مالحة جداً ، ومنها دون ذلك ، وتقل ملوحتها عقب السيل . وقد نبه أيضاً على أن أرضها سبخة رديئة ، مع كثرة الأفاعي السامة بها . [٢]

أما الطريق إليها فيصفه العياشي والدرعي بالطول ، وهبوب رياح السموم به ، فيشتد تبعاً لذلك الحرّ والعطش . [٣]

ولا تختلف أقوال الرحالة المغاربة المتأخرين عن سابقيهم ، إلا ما أضافه الزبادي : « أن المسافة إليها أصبحت تعرف بالعشارية لأنها عشرة مراحل لا إقامة فيها » . [٤]

واتفق العياشي في وصف أكرا مع الجزيري ، مع ملاحظته لكثرة آبارها ، وأشجارها الرعوية الممتدة إلى **بين الدركين** [٥] . وكذلك ذمّ اليوسي أكرا ومائها وقال : « إنه كريه كاسمها » ، ورحل منها في طريق لم يَرَ فيه الماء إلى أن وصل بين الدركين . [٦]

وإتفق الدرعي مع سابقيه ، وأكد على كثرة آبارها ، التي كان جلّ ومائها وقت رحلته جيداً لقرب مرور السيل عليها ، وعندما وصل بين الدركين شاهد أعراباً تبيع ماءً للركب [٧] . وأكد الغنامي والحضيكي على أن موقع ما بين الدركين خلاء ، ولا ماء به [٨] . وأغلب الظن أن هذا الموقع هو ما يسمى بالحنك

---

١ ـ يطلق على الموقع الآن اسم بئر القصير . انظر سيد بكر : الملامح الجغرافية ،ص ١٣٧ .

٢ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الحجازية ، ج١ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

٤ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ .

٦ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ .

٧ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

٨ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ .

الآن ، فوصفه مطابق لما ذكره الجزيري ، بأنه فضاء واسع كبير ، به مرعى وآثار عمارة ، وبئر ليس بها ماء ، وأضاف أن وادي حزبان فضاء بطريق محاطب وشجر وعقبة سوداء الحجر وعرة تدعى الحريرة ، وفي هذا المكان بالضبط تحضر ملاقية أمير ينبع بخيولهم ورجالهم لإستقبال وحراسة الركب . [١]

وقد وافق أبو مدين غيره من الرحالة المغاربة ، في مشقة الطريق إليها ، وهبوب رياح السموم بها ، ولكنه نفى مصادفته لتلك الرياح ، معلّلاً ذلك بأن رحلته كانت زمن الشتاء . [٢]

ونجد الزبادي يصف إحساس القادم إليها ، بقوله : « أرض أكرا لا ترتاح إليها النفوس ، ولا ينفكّ طارقها من العبوس » وأكد أيضاً قول مَنْ سبقه من الرحالة المغاربة في وصفها . [٣]

وتتطابق أقوال البكري والنابلسي والورثيلاني عنها مع ما ذكره الرحالة المغاربة ، إلا أن النابلسي ذكر ، أنه شاهد أعراباً على ساحل البحر بأكرا ، تحفر بجانب البحر ، فيخرج لهم ماء عذب ، شرب منه ، وقد شبهه بماء الحوراء . واستثنى الورثيلاني منها بعض الآبار العذبة المحفورة من جهة الشرق ، وحدد بئراً عذبة بين أشجار وسط الوادي . وقد أيد إستثناءه بقوله : « إن أفراداً من الركب وجدوا بئراً عذبة » ، ومع هذا أبدى تعجبهَ فأكرا على حدّ قوله: « من أصعب منازل الدرب ، لمرارة مائها ، وكثرة حرّها ، وسخونة رياحها » ، وقد نصح بترك هذا المنزل ، وعدم تناول مائه ، لأنه من أخبث ما في الدّرب [٤] . فإجتماع العوامل السابقة على الحجاج أدى إلى هلاك الكثير منهم بالعطش على مر السنين .

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ .

٣ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٧ .

٤ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٠/أ ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٢ .

ويكثر بهذا الموقع أشجار الطلح والكلأ الذي ترعاه الإبل ، إلا أن الموقع خالٍ من الماء . [١]

ثم يصل الركب إلى **منطقة الحوراء** ، الذي كان يغص بقوارب صيادي السمك ، بالإضافة إلى أنها محطة هامة للمراكب المتجهة إلى موانيء الحجاز الأخرى وموانيء مصر ، فمنها يتزودون بالماء ، بالرغم أن الجزيري ذكر أن مائها حفائر مالحة تُسهل البطن ، ولكنه قال : أنه يصبح عذباً إذا سال واديها ، ونبّه إلى أنها من قرى الحجاز المشهورة ببيع العجوة ، وأن بها شجر الأراك والحيوان المعروف باسم الظربان ، وبها معدن البرام ، كما أشار إلى وجود حفيرة ماء عذبة تسمى **الركزة** ، بالقرب من الحوراء . [٢]

لقد تفاوت الرحالة المغاربة في وصف الطريق إلى الحوراء ، وأوصافهم في مجملها تعطي صورة واضحة عن معالم هذا الدرب ، فالطريق إليها يمرّ على **العقبة السوداء** ، والمسافة هذه كالتي قبلها يشتدّ بها الحرّ ، حيث أنها أرض سهلة ، تشاهد الجبال على اليسار والبحر عن اليمين ، وتنتشر فيها أشجار الطلح ، فهي أرض رعوية ، إلى أن يصلوا العقبة السوداء التي وُصفت بالصّغر ، في أرض عبارة عن حرة سوداء ذات أشجار وأحجار ، ويجتازونها بسيرهم بمحاذاة البحر ، إلى أن ينزلوا الحوراء . [٣]

لم يسهب الجزيري في وصف الحوراء ، أما الرحالة المغاربة فقد فصّلوا في ذلك ، كقولهم : عما وُجِدَ بها من أشجار على ساحل البحر ، وأن ماءها حفائر على الساحل ، وفيه ملوحة قليلة ، وما حُفر حديثاً أجود ، وتقل ملوحته عقب السيل . وقد نصحوا بعدم الإكثار منه لما يسببه من إسهال ، فهو لا يُشرب منه إلا للضرورة . وأرجع اليوسي السبب الذي يؤدي إلى متناول مائها بالإسهال إلى نوع من الحشائش ، نبتت هناك ، وامتدت جذورها ممتزجة به، فتتأثر الماء بمادتها.

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢١/أ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٢ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٨ ، ٧٣ .

وذكر الرافعي أنهم كانوا يحفرون في محل الرّمل ، فينبع منه ماء متنوع ، منه العذب والمالح والحامض ، وأشار إلى وجود قبّة بأعلى المحلّ ، ذات أربعة أبواب متواليات لم يُعْرف أصلها . [١]

واتفق بعض الرحالة من غير المغاربة ، مع الرحالة المغاربة في صفة الطريق المسلوك إليها وصفة الماء ، إلا أن البكري خالفهم في ذلك ووصفه بالعذوبة ، وأضاف النابلسي مشاهدته لشجر القصب بها . [٢]

ويمكننا القول ، أن وصف البكري لعذوبة ماء الحوراء ناتج عن أن رحلته كانت عقب هطول الأمطار وسيلان الأودية ، فالرحالة المغاربة وقبلهم الجزيري أشاروا إلى أن عذوبة ماء الدرب متوقفة على ذلك .

وبعد مسافة قصيرة يصل الحجاج إلى **وادي العقيق** ، أو ما يسمى أحياناً **بالنبط** ، وذكر الجزيري أن العقيق من مضائق الحجاز المشهورة ، ففيه ينبت نوع من الشجر سماه البيلسان [٣] البري ، الذي أخذ منه ومن مدرج عثمان

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ ـ ٨٥/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٨ ، ٧٣ .

٢ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢١/ب ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٥؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٣ .

٣ ـ (شجرة البيلسان) أو البلسم تشبه شجر الآس وكان السلعة التي تباع بوزنها ذهباً لملوك الفرنج ، إذ أن التنصير لديهم لا يتم إلا بوضع شيء من دهنه في ماء المعموديه . وكان يزرع في المطرية ، وانقطعت زراعته في أوائل عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م . فأحضر من بعض أماكن الحجاز وهو في طينه ، فأُعيد زراعته بالمطرية فأنتج . ويقال أن شجره لا يوجد في أي مكان آخر ، وإذا زُرع فإنه لا يكون بجودة ما يزرع بالمطرية ، وإذا نجح فإنه لا يُنْبت الدهن . وطريقة إستخلاص دهنه ، أنه إذا كبر وحان قطافه ، تجذع أغصانه ، ويربطون على المكان المقطوع زجاجة ، تمتليء بمادة صمغية تتسرب من الأغصان ، وعندما يتم إفراغ تلك المواد في الأواني الزجاجية تيبس الشجرة ، وتُحمل أعوادُها لتباع في المدينة ، وهى أعواد سميكه يخرج منها طعام يشبه اللوز . وكانت المزرعة التي تنتج شجر البيلسان ملك السلطان وحده . انظر أبومعين الدين ناصر خسرو القبادياني المرزوي : سفرنامه رحلة ناصر خسرو القبادياني ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ عمادة شؤون المكتبات ، الرياض ، جامعة الملك سعود ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ؛ ابن أياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٤٩ ؛ د/ نعيم فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٢ .

في أوعية من الطين وحُمل إلي مصر لزراعته هناك . وقد سمى الجزيري **النبط بالمغيرة** أيضاً ، وقال عنها : « من المناهل المشهورة ، بها ثلاثة آبار عذبة ، جُدّدت بعد عطلها عام ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ، وحُملت مستلزمات عمارتها من أحجار ونورة من ينبع » ، وأشار إلى نمّو نوع من الأعشاب ، يسمى النجيل ، عقب سقوط الأمطار ، وذكر أن بالنبط سوقاً يباع به الشواء والعجوة ، والبطيخ ، والفجل المجلوب من ينبع . وقال : « إن الطريق بعدها يمرّ بوادي النار ، وهو طريق بين جبال وبطاح ورمل مغبرّ وعر » . (١)

ومرّ العياشي على وادي العقيق ، ومن ثم النبط فذكر أن هناك أربعة آبار محكمة البناء بالحجر ، ماؤها عذب غزير بارد ، وأكد على أن غزارة وعذوبة ماء الدرب الحجازي سببها كثرة الأمطار فلو أمطرت السماء مرة واحدة في السنة وُجد الماء . (٢)

وما ذكره العياشي أكده بقية الرحالة المغاربة ، إلا أن الرافعي لم يذكر بالنبط إلا ثلاثة آبار فقط ، وأشار أيضاً إلى وجود قبّة هناك مثل الموجودة بالحوراء . أما الغنامي فذكر أنّ الماء يقلّ هناك في بعض الأحيان . ونبّه الزبادي إلى كثرة وجود معدن البرام والبرمة . (٣)

وأطنب أبو مدين بوصف معاناته في هذه المسافة ، فقال : أنه مر علي **العقبة السوداء** ومنها إلى النبط ، وأن هذه المسافة كانوا يقاسون فيها الأمرّيْن، ولا يصلون إلى النبط إلا بعد تعب ومشقة وعطش ، إذ يسيرون في أرض وعرة بعدها يمرّون بين جبال عالية تعصف بها الرياح ـ وسواء كانت حارة في الصيف

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٦ ـ ١٤١٠ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ .

٣ ـ القيسي : انس الساري ، ص ٧٢ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٥ .

أو باردة في الشتاء فضررها عظيم ـ إلى الوصول الخضيراء [١] ، وهناك يتم الاستعداد لقطع **الوعرات السبع** ، المؤدية إلى **ينبع** . [٢]

ولا يختلف ما ذكره البكري والورثيلاني عما سبق ، إلا أن البكري لم يشر لوجود آبار بالنبط ، وأشار إلى أن مائها حفائر عذبة . [٣]

وذكر الجزيري طريقة الإنتقال من العقيق إلى **الخضيراء** ، بأنها تتم بعد قطع ثلاث وعرات ، إذ أن عدد الوعرات بهذه المنطقة سبع كبار ، تتبعها سبع صغار ، وقد سميت هذه المنطقة **بالسبع وعرات ، وبالمحاطب** لكثرة الشجر بها ، وقيل لأن أهل ينبع كانوا يجمعون حطبهم منها ، ومن هذه الوعرات ثلاثة كبار ومضائق وحجارة كبار وحدرات . [٤]

ووصف العياشي والدرعي الطريق إلى الخضيراء مع وصف حالة الجو فذكرا : إنه إذا اشتد الحر بالنهار ، حَجَبت الجبالُ عن الوادي هواءَ البحر ، فينعكس غربياً أو شرقياً ، صاعداً من الوادي أو هابطاً ، فيصبح سموماً محرقاً ، بالإضافة الى انعدام الماء في هذه المسافة من النبط إلى **ينبع** ، وربما يموت الناس هناك إما عطشاً أو حراً ، ثم يقطعون باقي الوعرات السبع ، فيتغيرّ عندئذ مسار الهواء ، فيصبح بحرياً ، بعد ما يخرجون إلى متّسع من الأرض وحتى ينبع . [٥]

واتفق الرحالة المغاربة في وصف منطقة **وادي النار** ، وتكلم كلّ منهم عمّا عاناه ، فالرافعي عندما مرّ على **وادي النار** ، ووصفه بالصعوبة لمشقة السير فيه . وعندما عبره اليوسي قال : « فيه ريح كالنار » ووصف ماء الخضيراء بأنه كماء البحر . وكذلك الحضيكي . أما الزبادي ، فذكر أنَّ الطريق بعد

---

١ ـ (الخضيراء) من أعمال ينبع وعلى مرحلة منها شمالها . الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١١ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص ١٣٥ .

٢ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٤ .

٣ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢١/ب ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٣ .

٤ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١١ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

الخضيراء يصبّ في مرتفعات ومنخفضات ، وسماها **بالسبع الوعرات** أيضاً ، وقال : « هـي عور معترضة في الطريق ، يضطرون للصعـود إلى أعلاها ، ومن ثمَّ الإنحدار منها ، ثم يتابعون سيرهم في أرض مستوية » ، إلى أن يتم اجتياز جميع الوعرات السبع ، وذكر أن أصعبها الأولى والأخيرة ، وأضاف معلّلاً تسميتها بوادي النار بأنه مفازة كبيرة كثيرة الحرّ والرمال والأوعار ، ينعدم به الماء ، إضافة إلى كثرة أخطاره ، بعدها يخرجون إلى أرض فضاء واسعة ممتدة إلى ينبع . [١]

ومن الخضيراء يستمر الركب في طريقه إلى **ينبع** ، وقد وصف الجزيري الينبعين (**ينبع النخل - يُنبع البحر**) وصفاً مطولاً ، فقال عن **ينبع النخل** : « بها عيون ماء جارية ، منها عين خارجها جهة الشرق تمرّ خلال المدينة ، وهناك عيون أخرى في غربها تمدها أيضاً بالماء ، فازدهرت زراعتها ، وكثرت بساتينها من النخيل ، والخضروات كالملوخية والباذنجان والفجل ، إضافة إلى الحمضيات كالليمون ، كما يوجد بها شجر اللبان ، ويكثر بها الغنم ، وتبعاً له السمن ، وعسل النحـل ، الذي يبدو أن هناك من يقوم على تربيتـه ، وكذلك الدجاج ، والقليل من الأوز » [٢] ، ومجمل القول أن ينبع نعمت بالكثير من الخيرات سواء منها الموجـود بهـا ، أو المجلوب إليـها مع الحجـاج ، أو ما يأتيـها من مكة المكرمـة ، وأشار الجزيري إلى أنّ بها سوقان أحدهما : دائم يقع بداخلها ، ويحوي بعض دكاكين للصناعة ، وتجار القماش وما يحتاجه أهلها ، وأهل القرى الواردين عليها ، والمسافرون ، ويزداد عمران هذا السوق أيام الموسم ، أما السوق الآخر فهو موسمي يقام خارجه ، يباع فيه كافة المأكولات ، والدقيق ، والفول ، والبضائع المختلفة ، والعلف . وكان أهل ينبع هم القائمين على عملية البيع والشراء بهذا

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٢/أ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي، ص ٨٢/ب ـ ٨٦/أ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١٥ .

السوق ، بالإضافة إلى إشتراك أمير الحج بالبيع معهم بما فاض من أزواده ، وبعمله هذا يعمّ الرخاء وتتنوّع السلع ، وتكثر وترخص الأسعار لوفرة ما يطرح بسوقها ، أما إذا منع أمير الحاج أهل ينبع من البيع ـ وهو الأمر الذي كان غالباً ما يحدث حتى يتم بيع جميع ما لديه ـ فتغلوا بذلك الأسعار [١] . وعمل أمير الحاج هذا المراد منه الكسب السريع له ، دون النظر إلى ما يعود بالرفق على الحجاج .

وبما أن ينبع من المناهل الكبيرة والمهمة في درب الحجاز ، يترك الحجاج بها ما فاض من مؤنهم لحين عودتهم ، ومن ضمن الخدمات المتاحة بها الخانات ، والأفران والبيوت التي أشار الجزيري إلى خراب كثير من عمارتها واندثارها ، حتى تعسرّ الإستدلال على معالمها أو أصلها . وأضاف ، أن هناك اثار باب خرب ذُكر له أنه كان يسمى فيما مضى بباب المشانيق ، وفي مقابل الخراب شاهد داراً جميلة لم يرَ أحسن منها ، تعود ملكيتها لأحد أشرافها بني عام ٩٥٩هـ/١٥٥١م ، مبيض بالنورة من داخله وخارجه .

وأمدنا الجزيري أيضاً بأوصاف عن **ينبع البحر** فقال : أنها تقع على ساحل البحر غربي ينبع النخل ، وبها خان وقلعة عامرة بالجند ، وجماعة تتبع شريف ينبع ، من حاكم وكاتب ، مهمتهما أخذ رسوم على المراكب الكثيرة المارة بها ، فقد اعتاد أميرها على أخذ تلك الرسوم لكي يستعين بها على تسيير أمور إمارته الاقتصادية ، كما أشار إلى وجود جامعين بها ، ولكنهما معطلان عن الخطبة ، وأن غالب أهلها على المذهب الزيدي لأن بنو قتادة كانوا يعتنقونه . [٢]

وعندما نزلها العياشي ، قال : « إنها تشمل على قرى كثيرة ، ومزارع نخيل عديدة ، وعيون ماء جارية ، وأن عمران وادي ينبع متصل لثلاثة أيام ، أما القرية التي ينزلها الركب فهي آخر القرى التي من ناحية البحر ، وبعدها ينبع

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤١٦ ـ ١٤١٧ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٤١٥ ـ ١٤١٩ .

البحر الميناء » . ويظهر من كلام العياشي عن ينبع النخل أنها كانت عماد إقتصاد باقي القرى المحيطة ، إذ أشار إلى أن معظم أهالي القرى يأتون إليها للتسوّق معهم ، إذ يقام سوق كبير يشتمل على ما يحتاجه الحجاج ، حيث يجلب إلى سوقها البضائع والسلع الثمينة ، إضافة إلى أنواع الثمار والفواكه والحبوب والفول الشيء الكثير ، إلى جانب الرطب ، كما أن الحجاج يخزنون بها مؤنهم لحين العودة . وأضاف إلى ذلك وصفه لجبل رضوى فقال عنه : « أنه المشرف على ينبع ، وهو أكبر جبال تلك المنطقة » . كما أشار إلى مسجدها الجامع المسمى بمسجد العشيرة ، وهو الذي صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . [١]

ولا تخرج أوصاف باقي الرحالة المغاربة عما ذكره العياشي ، ولكن أخطأ الرافعي واليوسي إذ يسميان عيناً بها بعين الأزرق ، الموجودة بالمدينة المنورة ، كما يحذر اليوسي من أكل ثمرها ، وينصح بعدم الإكثار منه لما يسببه من ألم . [٢]

وعندما نزل بها البكري ذكر كثرة حدائقها وزروعها ، وسوقها الكبير ، وما أعد لخدمة الحجاج من الأفران والمقاهي والحيشان ، وقال : إن بها جامع واسع وبيوت فسيحة آل أمرها إلى الخراب . [٣]

أما النابلسي فإنه نزل ينبع البحر ، ورأى قلعتها المقامة على الشاطىء ، وأشار إلى أمر هام لم يذكره أحد من الرحالة قبله ، وهو إفتقارها للماء العذب ، فقد تعوّد أهلها جلب الماء صباحاً من ينبع النخل . وقد تجول النابلسي وتنقل بين قرى ينبع ومنها بطبيعة الحال ينبع النخل ، وأكد على وفرة المياه العذبة الجارية ، التي وصفها بالنهر الكبير المتشعب المنصوبة عليه السواقي ، بالإضافة إلى كثرة بساتين النخيل والموز والفواكه . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/أ ـ ٨٧/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

٣ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٢/ب .

٤ ـ النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ .

وذكر الجزيري أن طريق الركب يمر بعد ينبع على **الدهناء** ، وهي سبخة كانت قرية عامرة بالبيوت والمساجد والحدائق والأشجار ، وعيون الماء الجارية ، فسعى أهلها بالفساد واتحدوا مع ابن سبع ، فخربت ديارهم بعد الحملة التي أعدها السلطان الغوري فقضت على حركة ابن سبع .

ثم يمر الرّكب على أرض فضاء ، يصلون بعدها إلى مضيق رمل ، ثم يمرون بين جبلين أسماها الجزيري **الأبرقين** ، الشرقي منهما رمل ، والغربي رمل مختلط بالحجارة ، وهما مشرفان على جسر طويل ، ويبدو مسجد الغمامة موضع العريش الذي أقيم للنبي صلى الله عليه وسلم **ببدر** ، يوم بدر ، أما محلّ نزول الركب فيقع بين نخل ، ومنازل بجانب عين جارية ، وفسقية كبيرة عليها قبة مستحدثة من بناء السلطان الغوري عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م واستمرت الدولة العثمانية تصرف على ملئها وصيانتها ، كما بنى هناك الشريف أبو نمي مسجداً عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م ، وأكد الجزيري على أن بدراً من المناهل الحجازية الهامة ، وحنين أمامها ، ووضّح أنها ليست حنين الواردة في القرآن الكريم ، وإنما هي عين ماء بهذا الأسم . [١]

وما أورده العياشي لا يختلف عن الجزيري كثيراً إذ ذكر : إنهم بعد رحيلهم من ينبع كانوا يسيرون في طريق رملي ، قليل الأشجار ، إلى أن ينزلوا موضعاً سماه **السقائف** أو **دار الوقدة** ، ثم يمرون بين جبلين كبيرين ، أحدهما عن اليسار من رمل مشرف على بدر ، والآخر عن اليمين ، وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش ، يزعمون أنه موضع العريش الذي بنى للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وقد نفى صحة ذلك ، ومنه يفضون إلى بدر ، التي وصفها بالحُسن ، بعد أن تجول بأزقتها وشاهد بساتينها ونخيلها ، وعيون مائها ، وأكّد على وجود بركة ماء كبيرة تكفي لسقيا الأركاب كلّها ، وتُملأ من عين هناك ، كما تعجّب من رخص أسعارها بالرغم من أنها بلدة صغيرة منقطعة عن المدن الأخرى ، وحدّد موضع نزول الركب خارجها بالقرب من **قبور شهداء** بدر ،

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٢٣ ـ ١٤٢٦ ؛ انظر مناقشة موضوع العين بإفاضه في نواب : الرحلات المغربية ، ص ٢٢١ ، وحنين الواردة في القرآن الكريم هي غزوة حنين .

التي بنى حولها جدار قصير ، كما شاهد مسجد الغمامة وأهمل وصفه ، وقال : أن الناس يخزنون ببدر ما يحتاجونه من طعام وعلف لحين عودتهم . [١]

ولفت نظر القيسي عمارتها الكثيرة ، والأخصاص المعدّة للرعّاة ، وقال : « إن مسجد الغمامة هناك تقام به الجمعة » ، أما أبو مدين فإنه شاهد حوشاً محوطاً عليه بالأحجار بجانبه أثر نيران توقد . أما بقية الرحالة المغاربة فقد ذكروا كما ذكر العياشي . [٢]

أما البكري والورثيلاني فقد أكّدا الأوصاف السابقة ، إلا أن الورثيلاني وصفها بالقرية العظيمة وروضة من الرياض ، سُكانها من الأشراف [٣] . فبدر مكان للنزول والراحة والتزود بالماء وخزن المؤن . [٤]

ومر ركب العياشي على سبيل ماء ، بمكان سماه **البزواء** ، وهي عبارة عن صحراء واسعة ، خلاء لا ماء بها ، وهي بذلك ليست محلاً للنزول ، وإنما كانت موضعاً للعبور [٥] ، وينسب هذا السبيل للشريف زيد ، وهناك سبيل آخر يمرّ عليه الركبُ ينسب للشريف محسن بن زيد . [٦]

---

١ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

٢ ــ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٦ ، ١٧٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ــ ٣٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١٦ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٧ ــ ٧٨ .

٣ ــ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٣/ب ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٦ .

٤ ــ القيسي : انس الساري ، ص ٨٩ ــ ٩٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الأس ، ص ٩٩ ؛ الدرعي: الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ .

٥ ــ القيسي : أنس الساري ، ص ٨٩ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ .

٦ ــ القيسي : أنس الساري ، ص ٨٩ ــ ٩٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج٢ ، ص ٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ .

وأهمل بعض الرحالة المغاربة وصف البزواء ، ومنهم مَنْ ذكرها كالدرعي الذي تطابق وصفه لها مع العياشي ، فقال : « قاع ، لا يظفر غائصه بقاع ، ولا يرى المسافرون نظيراً له في البقاع ، ولا يرى من الناس إلا مطرق مطرب .. فهو حقّ قاع صفصف .. لا ترى فيه عوجاً ولا أَمْتا ، ولا تجد فيه إلا السماء سمتاً » . [١]

وهذا يطابق ما وصف به الرحالة السابقون البزواء ، فقد حذر ابن جبير والعبدري وابن بطوطة من سلوكها ، فهي مجهولة المسالك ، معدومة المعالم [٢] . وكأن يد النسيان والإهمال تعاهدتا على عدم الإهتمام بها ، فلم توضع علامات تشير إلى الطريق الصحيح ، ولا ندري لما عدم الاهتمام بهذه المنطقة برغم أهميتها .

وبعد البزواء ينزل الركب **مستورة** ، وقد شاهد بها العياشي بركة مطوية بالحجر المنحوت ، قد علاها الرّمل ، وحوله عمارة قليلة [٣] . فكان أول مَنْ ذكرها من الرحالة المغاربة ، وأشار إلى ضآلة نشأتها ، ولكن مع مرور الزمن عُمر بئرها قليلاً في زمن أبي مدين ، وإن كان موقعها لا يزال خلاء . وقد استُحْدثت قبةٌ بُنيت فوق أكمة هناك ، وقد وصف ماء البئر بالعذوبة ، إلا أنه قليل . [٤]

وأشار الموسوي ، أنّ مائها حفائر ، يَحْلو مع المطر . وعندما مرّ عليها الورثيلاني بعد ذلك ، أصبحت إحدى القرى العامرة ، إذ وصفها بالبلدة الطيبة [٥] . كناية عن العمران الحاصل بها .

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

٢ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ، ٥٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ .

٥ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٢٤٢ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٧ .

ومن مستورة كان الركب يتحرك حتى محطة **رابغ** ، التي حدد الجزيري موقعها بالقرب من البحر ، وهي قرية بها سبيل ماء وعُشش ومزارع ، وقوام عيش أهلها التسببُ زمن الموسم مع الحجاج ، إذ يبيعونهم الحشيش والعلف للأغنام والإبل ، والحطب ، والشواء ، والبطيخ في أوانه .[١]

وأشار العياشي والدرعي ، إلى وجود بركة كبيرة فيها مملوءة بالماء ، تعين الناس على التزود منه ، والغسل بيسر وسهولة . ووصفاها بالقرية المليئة بالنخيل والآبار الكثيرة ، وحدّدا موقعها في وادٍ تأتيه السيول من بعيد ، كما لفت نظرهما كثرة مزروعاتها من المقاثي ، والدخن ، والذرة . ووصفا وادي رابغ بأنه من أخصب أودية الحجاز ، وأشارا إلى بيع النعال بها إلا أنها غالية الثمن .[٢]

وقد ذكر الرافعي أنه أشترى من رابغ نعاله[٣] . أهمل بعض الرحالة المغاربة ذكرها ووصفها كاليوسي ، ومنهم مَنْ لم يأت بجديد ، ومنهم مَنْ أضاف أو خالف مَنْ سبقه . فقد انفرد الحضيكي والزبادي بقولهما « أنها تقع على ساحل البحر »[٤] . وخالفهما أبو مدين ـ الذي يبدو أنه وصلها وقت انقطاع المطر ـ ، في عذوبة مائها ، وذكر أنه يورث الإسهال ، لأن به شيئاً من الملوحة . ولكنه أكّد على وجود سوقها ، وغلاء النعال التي كانت تشتهر بها رابغ .[٥]

وذكر الموسوي ، أنه يؤتى إليها بالسمك الطازج الطري ، لقربها من البحر ، ليباع على الركب[٦] . ولا يختلف وصف البكري لرابغ عما أورده

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٤٥ ـ ١٤٤٦ ، ١٤٤٨ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨١ .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٤ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/أ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٣ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ .

٦ ـ الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ٢٤٢ .

الجزيري ، إلا أنه أضاف أنه شاهد مزارع البطيخ ، ومسجد قديم الأثر [١] . ووصفها الورثيلاني بعد ذلك ، ووصف سوقها بالعظمة ، كناية عن اتساعها ، إذ حوى سوقها مختلف السلع ، وكذلك أكَّد على وجود النعال الغالية الثمن بها ، بالإضافة إلى المباني الكثيرة ، والنخل المنتشر ، ومزارع المقاثي ، والمياه العذبة . [٢]

ومن وصف الجزيري الذي عاش في القرن العاشر الهجري ، والرحالة المغاربة المتأخرين عنه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، نرى الفرق الشاسع ، فقد أصبح بها آباراً كثيرة ، وبركة ماء واسعة ، وسبيل للماء ، ومزارع النخيل ، وبساتين المقاثي والحبوب ، بالإضافة إلى وفرة السمك ، وسوقها الكبير ، كل ذلك يدلّ على انتعاشها الإقتصادي ، وكثرة سكانها حيث كانوا في رغد من العيش ، الأمر الذي يؤكد إستقرارها .

وبعد رابغ بمسافة قصيرة يصل الركب **الجحفة** ، وكان الجزيري قد وصفها بالخراب ، إذ لم يستطع ان يميز شيئاً من عمرانها ، إلا أثر مسجد ، رأى أنقاضه بالأرض [٣] . وقد أكد الحضيكي خرابها . ولكن هذا الخراب لم يستمرّ طويلاً ، إذ أمتد إليها شيء من العمران ، فقد ذكر أبو مدين إستقرار بعض السكان بها ، وتقع الجحفة على يسار طريق الركب بجانب أكمة هناك . [٤]

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٥/ب .
٢ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩ .
٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦١ ـ ١٤٦٢ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/أ ـ ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ـ ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

وذكر الجزيري أن الركب يصادف بعد رحيله من الجحفة أرضاً واسعة ، كثيرة المحاطب والمرعى والحشيش أيام المطر ، استعداداً لصعود **عقبة السويق أو السكر** ، والتي يُطلق عليها **المشلل** [١] . وهي عبارة عن جبل ، ورمال كثيرة ، وأوعار . [٢]

وقد وصف الرحالة المغاربة هذه البقعة بأنها طريق رملي ، تتوسطه عقبة كبيرة ، عبارة عن رمال متراكمة في أصل جبل صغير من الصخور ، وهي صعبة الاجتياز ، وأقيم على الجانب الأيمن منها بناء منقوش لم يوضح ماهيته ، وعلى الجانب الأيسر بناء داثر أيضاً ، يظهر أنه مسجد خرب ، إذ قيل للحضيكي أنه أحد المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، مما يشير إلى أنه لا يشبه المسجد لشدة خرابه ، ولو لم ينبه إليه لما عرفه . [٣]

لقد علل الجزيري تسمية العقبة بالسويق ، أو السكر ، بواقع الحال ، أي بسقيا السويق والسكر بها ، إذ تواتر أمراء الركب على سقى الحجاج السويق مع السكر بها ، لذا تسمى أحياناً عقبة السكر أو السويق . [٤]

وكان العبدري أقدم من ذكرها ، وعزا سبب التسمية لمرور الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليها ، ولما لم يجدوا طعاماً أخذ من رملها وأعطى أصحابه فشربوه سويقاً . [٥]

---

١ ـ (المشلل) : انظر قديد ، ص ١١٠ ، هامش (١) .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ،ص ١٤٦١ ـ ١٤٦٢ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/أ ـ ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ـ ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٤ ـ الجزيري : الدر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦١ ـ ١٤٦٢ .

٥ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٦ ؛ نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

وبعد السويق يمر الركب على أرض صلبة ، سماها الرحالة المغاربة **بطن هرشا** [١] ، وقد شاهد الدرعي سبيل ماء غربي **قديد** ، التي وصفت بأنها قرية أكثر أبنيتها حيشان [٢] (الأعشاب اليابسة) ، يكثر بها المقاهي ، بالإضافة إلى سوقٍ يبيع الفول والفواكه ، كما أشاروا إلى إنعدام الماء بها ، إلا ما يجلب من بعيد . وشاهد العياشي هناك قرية لم يذكر إسمها ويبدو أنها **الكديد** ، فقال عنها : « ذات مزارع كثيرة ومقاثي » ، ونبه العياشي إلى الطريقة المتبعة في الزراعة بتلك الأماكن ، وهي « الزراعة عقب السيل » [٣] ، وخاصة المقاثي التي تزرع على ماء المطر في المواضع التي يستنقع بها الماء ، وأُخبر من بعض الأشخاص هناك أن كثيراً منها ينبت في البرية من غير إستنبات . ولفت انتباه الرحالة المغاربة كثرة الدلاع (الحبحب) الجيد الرخيص الثمن ، إذ أنه لا يكاد ينقطع وجوده لا صيفاً ولا شتاءً إلا في السنة المجدبة .

ويبدو أن بعض الرحالة المغاربة نزل الكديد دون البعض الآخر ، فقد نزل الحضيكي وأبو مدين بالكديد [٤] ، ويظهر أن عدم النزول بها يعود لإفتقارها للآبار العذبة ، إذ تعتمد الكديد في زراعتها على ماء المطر [٥] . فإذا هطلت الأمطار توفّرت المياه ، إذ شاهد الحضيكي عين ماء جارية هناك . وأشار العياشي والدرعي إلى وجود قّبة ضخمة بجانب بركة عظيمة أسفل القرية ، وذكر الحضيكي أنهما قبتان ، وشاهد أبو مدين مسجداً بالقرب من البركة ،

---

١ ـ (بطن هرشا) تقع على ثمانية عشر كيلومتر شمال رابغ بها مسجد محجر يقال أن الرسول ﷺ صلى به ، وهي عبارة عن ثنية يُرى منها البحر ولها طريقان يفضيان إلى نفس البقعة . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٦٩ ، ١٧١ .

٢ ـ الحشيش يابس الكلأ ، والمراد هنا أنها مبنية من الحشائش اليابسه . انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٦ ، ص ٢٨٢ .

٣ ـ وهو ما يسمى عثرياً ، وما يزرع بالسقي يسمى مسقوى .

٤ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ .

٥ ـ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٧ ، ص ٢٠٥ .

قيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلّى به . ويلي هذا الموضع أرض خصبة صلبة ، بها غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل وغيره ، وكما أن الكديد لم يكن بالمنزل الدائم ، كذلك القديد ، فالعياشي قد تجاوزه إلى موضع سبيل قرب رابغ ، وقد حددوا ثلاثة أميال بين هذا الموضع و**خليص** . (١)

وما كان ذكره البكري ـ وإن كان مختصراً ـ يوافق ما ذكره الرحالة المغاربة (٢) ، وأكد الورثيلاني وجود المعالم التي تحدّثوا عنها . (٣)

ومن المنازل المهمة في درب الحجاز **خليص** ، والتي كان ينزلها جميع الحجاج عند القدوم ، وقد أهمل بعض الرحالة المغاربة ذكرها عند الذهاب إلى المدينة المنورة ، ومنها كان يتم التزود ، بالماء ليكون عوناً لهم للمنهل القادم . (٤)

ووصف الجزيري الطريق إلى خليص ، بأنه فضاء واسع عامر ، حيث أقيم حصن على جبلٍ هناك ، بالإضافة إلى المحاطب ، والمزروعات الكثيرة ، من خضر وبطيخ ، وبعض أشجار الكرم ، وأشجار الليمون ، كما وجد الأغنام ، والحشيش لعلف الإبل . وأشار إلى بركة خليص وأرجع إنشائها إلى أرغون النائب (٥) ، وبعد خرابها عرض أمر تعميرها عام ٩٣٨هـ/١٥٣١م

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/أ ـ ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ـ ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٢ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٦/ب ـ ٢٧/ب .

٣ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ج٢ ، ص ١٧٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ص ٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ .

٥ ـ أرغون النائب الدوادار الناصري نائب السلطنة . أحد المماليك المنصورية ، اشتراه السلطان قلاوون صغيراً ، ورباه مع ولده الناصر محمد ، تولّى الكرك عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م . ثم أصبح نائب السلطنة بمصر بعد بيبرس المنصوري وحج سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م . انظر الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦١ ـ ١٤٦٢ .

على السلطان سليمان القانوني ، الذي أصدر أمره إلى باشا مصر ، فأُصلحت عام ٩٤٠هـ/١٣٣٩م على يد أمين جُدة ، الذي أنشأ بجانب البركة قبة تشرف عليها . [١]

لقد أجمع الرحالة المغاربة على روعة جمالها ، ووصفوا مائها بالطيب ، أو العذب الفوار ، وإنفرد الدرعي بقوله : أنه سخن ، بالرغم من عذوبته . أما مزروعاتها ، فذكروا منها بساتين النخيل الكثيرة ، والمقاثي ، والدخن ، والحبحب . وأهم ما لفت انتباههم بها ، بركتها الهائلة الكبر ، المبنّية على هيئة دائرة شديدة العمق ، حتى أنهم ذكروا أنّ مَنْ لم يحسن العوم يغرق بها ، كما لفت نظرهم هندسة بناء القنوات ، التي تمدّ البركة بالماء من إحدى العيون هناك ، إذ بنيت بإحكام شديد ، وروعيَ في إنشائها ومدها الكشف عنها في عدة مواضع ، لتيسير تناول الماء لمن أراد السقي والوضوء ، فبداية هذه القنوات من العين منتهية بالبركة ، التي يوجد لها مخرج آخر لخروج الماء إلى المزارع القريبة من البلدة ، وبذلك يتم تجديد الماء بها باستمرار .

كما وجد بخليص سوق كبير ، وقهاوي ، وأبنية . وقد أشار اليوسي إلى نوعية البناء المتبعة بأنه من الأخصاص . [٢]

وأضاف الدرعي ، أنه شاهد مسجداً ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم في حالة مزرية ، ممتلئاً بالأوساخ ، لدرجة أنه أصبح إصطبلاً للدواب . ولم يستطع السكوت على ذلك ، فكلم في شأنه أمير الحاج المصري الذي وعد بإصلاحه . [٣]

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٤٩ ، ١٤٥٧ ـ ١٤٥٨ ، ١٤٦٠ ـ ١٤٦٢ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ ، ٨٦ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ .

وقد اقتصر البكري في وصف خليص ، بقوله : « أن بها فسقية ماء عذبة كبيرة» [١]، وأكّد الورثيلاني على ما أورده الرحالة السابقون ولم يضف جديداً [٢]. مما يدلّ على عدم تغيّر أوضاعها في زمن رحلته .

وكان الركب يتابع سيره إلى **مدرج عثمان** ، إذ ذكر الجزيري أنهم يهبطون من هناك على **بئر عُسفان** ، الذي شرب منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصف المدرج بأنه كثير الأوعار ، صعب السلوك ، كثير التعاريج ، وقال : أن **عُسفان** كانت قرية جامعة ، ينبت بها شجر البلسان البري بكثرة . [٣]

ومما ذكره الجزيري نرى أن عُسفان لم تكن ذات شأنٍ كبير ، إذ لم يسهب في وصف ما وجد بها من عمران أو زرع ، مما يدل على تردي شأنها في ذلك الوقت ، بالمقارنة مع أوصاف الرحالة المغاربة عنها بعد ذلك .

ونلحظ أن الرحالة المغاربة أجمعوا على مشاهدتهم للبئر التي تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم ، فالعياشي قال : أنه شرب منها ، ووجد مائها عذباً . كما وُصفت عُسفان بالقرية ذات السوق والآبار المتعددة ، ولكثرة ما وجد بها من البساتين والزرع وصفها الرافعي بالجنان الحسان . [٤]

وأكد البكري والورثيلاني أيضاً على ما ذكره الرحالة المغاربة ، حول ما وُجد بها من آثار . [٥]

---

١ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٧/ب .

٢ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٨٠ .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦٢ ـ ١٤٦٣ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٦ .

٥ ـ البكري : رحلة البكري ، ص ٢٧/ب ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٨١ .

وعند الخروج من مكة المكرمة والإتجاه إلى المدينة المنورة ، ربما يتجاوزها بعض الأركاب ، فالعياشي لم ينزل بها ركبه ، ونزلها باقي الرحالة المغاربة واستقوا منها الماء وحملوه معهم إلى المرحلة التالية . [١]

ومن المنازل التي يمكن الإستغناء عن النزول بها **برقة** [٢] ، والتي وصفها العياشي بالأرض الطيبة ، ذات بساتين المقاثي والمزارع ، وأشار إلى وجود سبيل للماء هناك ، ولعل عدم نزول الركب بها في بعض السنين يعود إلى وجود الماء معهم وعدم قلته لديهم ، أو لرغبتهم الشديدة في الإسراع للوصول إلى الأماكن المقدسة .

أما آخر المنازل قبل الوصول لمكة المكرمة **مر الظهران ، أو وادي الشريف ، أو وادي فاطمة** ، إذ وردت بهذه الأسماء مجتمعة لدى الرحالة المغاربة ، وهو آخر المنازل عند القدوم لمكة المكرمة ، وأولها عند الخروج منها ، فمن الرحالة المغاربة من أغفل وصفها وقت المجيء ، وتدارك ذلك أثناء العودة ، أو أعاد جزءاً من وصفها ، وهي من المنازل التي يحمل منها الماء إلى المنزل التالي . [٣]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ،ص ٨٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ .

٢ ـ (برقة) عين مندثرة بطرف مر الظهران من الجنوب ، حفرت بها آبار ، فحسنت زراعتها ، بها قرية تعرف بهذا الاسم ، تُرى من أبي عروة جنوباً ومن الجموم شرقاً . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ،ص ٨٩ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٨ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٤ .

ومِمن أغفل وصفها من الرحالة المغاربة اليوسي والحضيكي . وممّن أسهب العياشي والدرعي وأبو مدين والزبادي ، فمما ذكروه : وصولهم إلى موضع يسمى **وادي العميان ، أو جبل العميان** ، وعللّوا سبب هذه التسمية ، لأن الفقراء يتعرضون هناك للأركاب طلباً للصدقة . وذكر الرافعي أنّ الناس يخرجون هناك رجالاً لتهنئة الركب بسلامة الوصول ، فيعطى البشارة مَنْ استطاع من أفراد الرّكب ، ومَنْ لم يستطع يرد عليه السلام . ثم يجتازون هذا الموضع إلى مرّ الظهران الذي وُصف بالوادي الكبير ، المشتمل على قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون جارية عذبة ، وأكبر هذه القرى هي التي ينزلها الركب ، إذ يقام هناك سوق كبير ، وكان أكثر ما يزرع في هذا الوادي الدلاع (الحبحب) ، وشجر الكادي الذي تنتشر رائحته على مسافات بعيدة . [١]

وكان جلوس الفقراء عند جبل العميان منذ زمن الجزيري ، الذي أمدّنا بوصف طريف الجالسين فقال : « إن من يحضر هناك هم فقراء مكة المكرمة ، وغالبهم من العميان ، لسؤال الحجاج ، وطلب الصدقة منهم ، وجرت العادة أنّ كل جماعة من هؤلاء الفقراء العميان تشعل النيران حولها ، ولكلّ حلقة شخص يترجم للغات الحجاج المختلفة بما معناه أنهم مستحقون للصدقة ، ويساعدونه بقولهم بلسان واحد : يا الله ـ يا الله » . [٢]

ونستنتج مما ذكره الجزيري أنه كان يوجد في ذلك الوقت بمكة المكرمة مَنْ يتقن عدة لغات غير العربية ، وهذا عائدٌ إلى مركزها الديني الذي يستقطب المسلمين من كافة أقطار الأرض ، لذا كان لابد من وجود مَنْ يفهم لغات مَنْ يقدم إليها لتسهيل أموره ، وهذا ما نراه الآن ، وخاصة من التجار الذين يكون تعاملهم واحتكاكهم أكثر من غيرهم من أهل مكة المكرمة باستثناء المطوفين .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ؛ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٨٦ ـ ٨٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٢ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ص ج١ ، ص ١٤٦٤ ـ ١٤٦٥ .

ولم يتبدل حال وادي فاطمة منذ عهد الجزيري في القرن العاشر الهجري ، الذي أكد على كثرة العيون والحدائق والبنيان ، كما أشار إلى وجود مسجد ، وعين ماء غزيرة هناك [١] . وأكد الورثيلاني كذلك على أقوال الرحالة المغاربة في أوصاف وادي فاطمة ، وما وُجد به من عيون جارية ، وبساتين ومزارع الفواكه المختلفة ، وحدّد موقع جبل العميان ، بأنه مشرف على الوادي . [٢]

وينتقل الركب من وادي فاطمة إلى **سرف** [٣] ، وبها شاهد الرحالة المغاربة قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها ، وبجانبه مسجد متهدم ومنه يصلون إلى **ذي طوى** . [٤]

وأتى جميع الرحالة المغاربة على نفس هذا الدرب ، فيما عدا الرافعي ، الذي انتقل مباشرة من وادي فاطمة إلى **الجعرانة** ، التي سماها العمرة القديمة ، وأشار إلى وجود بناء باقٍ بها ، ثم انتقل منها إلى ذي طوى . [٥]

والطريق الذي سلكه الرحالة المغاربة ، يوافق ما قد كان ذكره الجزيري ، إذ بعد الإنتقال من وادي فاطمة يمر على سرف ، فقد أشار إلى قبر السيدة

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦٤ ـ ١٤٦٥ .

٢ ـ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

٣ ـ (سرف) واد كبير من روافد مر الظهران ، يقطعه طريق مكة المكرمة إلى المدينة المنورة شمال مكة المكرمة ، على تسعة كيلومترات من مسجد العمرة التنعيم ، به قبر السيدة أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها ، وقد بنى على قبرها حائط من الطوب لا يزال إلى اليوم ، انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص ١٩٣ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٨٦ ـ ٨٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٥ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها والمسجد بجواره ، وأشار إلى مسجد السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها **بالعمرة** (**التنعيم**) ، كما سمي السبيل الذي وجد **بالزاهر** بسبيل الجوخي .[١]

ومما سبق نخلص إلى أنه خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، ويمكننا أن نلحق بهما القرن العاشر الهجري ، لم يتغير مسار ركب الحاج الآتي من مصر سواءً في خط سيره ، أو في المناهل والقرى التي يَرِدُها ، ولم يطرأ تغيير يذكر عليها ، اللهم إلا في خراب بعضها بسبب الثورات مثل ثورة ابن سبع ، أو هجمات الأعراب لإستخلاص حقوقهم . وأما ما عدا ذلك فظلّ ذلك الطريق كما هو ، وإن حظي في بعض الفترات بنوع من الإصلاح ، وإستمر تدفق الحجيج خلاله على مرّ السنين ، ولم يثن عزمهم مشاقه وأخطاره الكثيرة عند سلوكه ، مدفوعين بقوة إيمانهم ورغبتهم في أداء الركن الخامس من أركان الإسلام بكل عزم وإصرار .

ولعلنا نستطيع القول أنه بسبب ما وجد بهذا الدرب من أخطار ومشاق تصدّر الرحالة المغاربة لملء جزء من رحلاتهم للكتابة عنه ، وتحديد المنازل تباعاً ، وما يوجد بها الماء ونوعه ، والتحذير من المواضع التي يكثر بها الأخطار ، تنبيهاً لغيرهم والقادمين بعدهم ، فتركوا لنا سجلاً ينطق بما عانوه ، وحيزاً مليئاً بالمعلومات .

---

١ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦٤ ـ ١٤٦٥ ؛ والجوخي هو : زين الدين عبدالباسط بن خليل الدمشقي ثم القاهري ، ولد سنه ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بدمشق ونشأ بها في خدمة كاتب سرها البدر محمد بن موسى ، قدم مصر وترقي وسلك طريق العظماء ، حج مراراً ، أحسن فيها لأهل الحجاز ، له مآثر جليله أجلها ما صنعه بدرب الحجاز ، بنى سبيل ماء بالزاهر عرف بأسم سبيل الجوخي توفي عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م . انظر السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٢٤ ـ ٢٦ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٣ ، ص ١٨٧٢ ـ ١٨٧٦ .

أما **الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة** التي سلكها الرحالة المغاربة في زيارتهم للمدينة المنورة ، فالرحالة المغاربة والزوار الذين يقصدون الذهاب إلى المدينة المنورة ، يمرون عبر مناطق متعددة ، ينزلون فيها للراحة ، ثم يستمرون في المسيرة ، وأول منزل كانوا ينزلونه بعد الخروج من مكة المكرمة مر الظهران ، يليه برقة ، ثم عُسفان ، ثم خليص ، ثم الكديد ، وبعدها قديد ، ثم عقبة السكر ، ثم مستورة ، ثم البزواء التي تلافى العياشي المرور بها ، إذ فضل سلوك طريق القوافل ، فهو أقصر من الطريق المعتاد بمدة يوم ، وهذا الطريق لا يمر ببدر وإنما يمر **بالصفراء** ، التي وصفوها بذات العمران ، والمزارع ، والنخيل ، والعيون الكثيرة . وطريق القوافل هذا مليء بالتلال والكثبان الرملية الكبيرة ، وقد رأى العياشي بئراً حديثة الحفر ، مليئة بالماء العذب ، قام بحفرها ووقفها أحد فقهاء الحنفية المقيمون بالمدينة المنورة ، كما شاهد الكثير من المقاهي المنتشرة على يسار طول الطريق . ومنها يميل الطريق يميناً ، بين شعاب ، وبطاح ، ورُبى ، وآكام مختلفة ، إلى أن يصلوا الجديدة ، وقد ذكر العياشي والدرعي أنه ليس في بلاد الحجاز أشد حراً من هذه الأخياف .

والجديدة قرية تقع بين جبلين ، ذات نخل وماء عذب غزير ، فعيونها جارية وبساتينها تحتوي على الفواكه الصيفية والخريفية ، بالاضافة إلى الخضر ، فهي قرية كبيرة يُودعُ بها الناس ما فاض من أزوادهم لحين العودة من المدينة المنورة ، وقد شاهد القيسي بها الكثير من أعشاش الرعاة ، كما شاهد بها العياشي بركة كبيرة من بناء أحد امراء الركب الشامي ، ذات مياه غزيرة ، بُنيت بعد عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ، فالعياشي لم يرها في تلك السنة وهي سنة حجته الأولى ، وتحدث عن الرّفق الكبير الذي أحدثه بناؤها للحجاج ، فقد أشار إلى أن القرية التي ينزلها الحجاج قليلة الماء ، وربما غار في بعض الأحيان ، عندئذ يكون عمادهم عليها ، ويوجد بالقرية مسجد جامع حسن البناء من إنشاء الأمير

رضوان ، ويجري من تحته عين ماء . كما شاهد العياشي سبيل ماء بمكان سماه **النازية** [١] بعد القرية بمسافة . [٢]

وذكر الرحالة المغاربة أن المسافة من الجديدة إلى **شرف الروحاء (قبور الشهداء)** خلاء ، أما موضع قبور الشهداء فبين جبال وأوعار ، وعلى قارعة الطريق بين الجديدة وقبور الشهداء مسجد الغزالة ، الذي وصفه القيسي بأنه محوط ومفروش برمل أبيض دقيق وله محراب . وذكر العياشي أنه استقى من بئر مائها قليل ولكنه عذب ، وحوله بركة خربة . أما اليوسي فقال : إن الموضع لا ماء به . وأجمع الرحالة المغاربة على سبب تسمية الموضع بقولهم : أن قوماً قتلوا هناك ظلماً ، ولم يوضحوا سبب قتلهم . وبشرف الروحاء آثار تشير إلى أنه كان هناك في السابق قرية عامرة لم يبق منها شيئاً ، وهناك كانت الأعراب تنتظر الأركاب لبيعهم الماء والعلف . [٣]

وكان ينتقل الركب من شرف الروحاء إلى بدر ومنها إلى **جبل مفرح** ، وهو جبل بالقرب من المدينة المنورة ، يتحرق الحجاج شوقاً للصعود عليه لمشاهدة

---

١ ـ (النازية) من النزو وهو الإرتفاع ، أرض منبسطة في وادى الصفراء ، بين المسيجيد وربع المستعجلة ، وهي إلى المدينة المنورة أقرب . أنظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٢ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٨٩ ، ٩١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٥٤٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٨٩ ـ ٩٠ ، ٩٩ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٥٤٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٦ .

نخل وقباب وأسوار المدينة المنورة [١] . ومنه يوافون **آبار علي أو ذي الحليفة** ، وهي ثلاثة آبار مشيدة البناء ، واسعة الفناء ، كثيرة الماء العذب الزلال ، لها أدراج من أعلاها إلى أسفلها ، وبالقرب منها مسجد كبير ، وعليه نخيل . وبين ذي الحليفة (آبار علي) والمدينة المنورة ما يقرب من خمسة أميال ، وهذا الموضع مكان منخفض . وهي آخر منزل ينزله الحجاج قبل دخولهم إلى المدينة المنورة . وهي أول المنازل عند الخروج منها في طريق عودتهم إلى أوطانهم [٢] ، ومن الرحالة المغاربة من أشار إلى أن أول المنازل **شرف الروحاء (قبور الشهداء)** [٣] ، ومنهم من أشار إلى أنها المنزل الثاني . [٤]

وسواء كانت المنزل الأول أو الثاني فقد كانوا ينتقلون منه إلى **الجديدة** ، حيث يأخذ الحجاج ودائعهم ، ويتزوّدون بالماء ، ويجتازون **الصفراء** ، ثم يعدلون في طريقهم يميناً للوصول إلى **ينبع** ، وهذا الطريق مليء بالشعاب الوعرة ، حتى يوافوا **الدهناء** ، فيجدون بركة مملوءة بالماء ، وأضاف الدرعي أن هناك بناء بالقرب من البركة على سفح جبل ، ووجد أعراباً تبيع الحشائش والدلاع ، وأشار

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ،ص ٨٩ ـ ٩٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٥٤٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ـ ٩٢ ؛ ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ١٠٠ ، ١١١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ، ١٠٣ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، ١٧٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٣ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٩١ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٤ .

إلى أن مـاء البئـر عذب بارد . وشاهد الحضيكـي حصـنـاً منيعـاً مرتفعـاً . وذكر اليوسي أنهم وصلوا بدراً ، ومن هناك عدلوا يميناً على طريق ينبع وقـال : إن ذلك يسمى عند الحجاج بالدورة . [١]

لقد التقطت أعين الرحالة المغاربة أوصـاف ما مرّوا عليه بدقة شديدة ، كما التقطت آذانهم أسمائها ، وإن أخطأوا في بعضها مثل خطأهم في عُسفان (عزفان) ، ومستورة (مسيتيره) ، والجديدة (أخديدة) . وهذه الأخطـاء البسيطة تعود لكونهم غرباء عن المنطقة . وقد تركوا لنا وصفاً تصويرياً رائعاً للمسافات التي قطعوها ، مع ملاحظة أن كل منهم يضيف على سابقه ما استجد ويستدرك ما أهمل ، فأفـرز كل ذلـك لوحة وصفية متكاملة الجوانب ، تضاهي ما جاء في الكتب الجغرافية حول نفس الأماكن .

ومن هنا تبرز أهمية كتب الرحلات المغربية في رصدها لهذا الجانب .

وخلاصة القول : أننا عرفنا من أوصافهم وأقوالهم بدايات بعض مسميات استراحات المسافرين مثل المقاهي ، التي لم يرد لها لها ذكر في القرن العاشر ، حيث كان أول ظهور لمسمياتها في القرن الحادي عشر الهجري ، وربما يعود ذلك إلى إنتشـار شرب القهوة والشاهي ، بحيث أنه خصصت لها أماكن خاصـة لاحتسائها ، فسمي المكان بواقع ما يُعمل فيه .

وعليه تظهر أهمية كتب الرحلات المغربية وتتصدر كمصدر مهم لتاريخ وجغرافية الحجاز لما حوته من معلومات على قـدر كبير من الأهمية ، توضح بصورة جلية أحوال هـذه المنطقة من جميع جوانبها . مع الأخذ بالإعتبار المقارنة فيما أورده هؤلاء الرحالة المغاربة للخروج بنتائج صحيحة .

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٢٠٣ ؛ اليـوسي : رحلة اليـوسي ، ص ٩٥/ب ؛ القـادري : نسـمـة الآس ، ص ١١١ ـ ١١٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ الغنامي : رحـلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الحضيكي : رحـلة إلى الحرمـين ، ص ٩٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازيـة ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ؛ الزبـادي : بلوغ المرام ، ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

ب ـ الأسواق والنقود وأهم السلع
ـ الصناعة المحلية وأهم الصناعات ـ

لم يفرد مؤلف ـ على حد علمنا ـ تناول إقتصاديات الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، إذ لم تنل هذه الناحية العناية الكافية . بل كتب عنها بطريقة مبعثرة في العديد من المؤلفات التاريخية العامة أو الخاصة ، ولعل ما سنقدمه في هذه الناحية يسهم ولو بشكل بسيط في إلقاء الضوء على اقتصاديات الحجاز خلال القرنين وهي مُشْرِفَةٌ على أعتاب العصر الحديث .

الأســواق :

لا شك أن جزءً كبيراً من إقتصاديات الحجاز كان يقوم على التجارة ، سواء منها الداخلية أو الخارجية ، منذ القدم ، ولأهمية التجارة لدى أهل الحجاز عامة وأهل مكة المكرمة خاصة ، نزلت سورة قريش ، متحدثة عن رحلتي الشتاء والصيف التجاريتين ، حيث أن الوضع الطبيعي لمنطقة تجارية كالحجاز إقامة الأسواق لتبادل السلع والمنتجات الداخلية والخارجية ، والتي يتم بعد ذلك تصريفها ، فأسواق الحجاز كانت بمثابة الوسيط التجاري ، والواجهة الإعلامية لعرض مختلف سلع المعمورة ، خاصة وأنه يفد إليها من الجموع البشرية المتعددة الجنسيات مالا يفد على أي قطر آخر في الأرض خلال فترة الحج ، ولهذا الوضع الخاص أقيم نوعان من الأسواق هما :

الأسواق الدائمة والأسواق الموسمية :

ففي مكة المكرمة تركزت الأسواق الدائمة حول المسجد الحرام ، وهي ذات نظام محدد بوجود الحوانيت التي تعرض السلع [١] . ومن هذه الأسواق التي ذكرها الرحالة المغاربة بل وأشهرها **سوق المسعى** [٢] ، الذي كان يقع على جانبي الصفا والمروة ، وقد ارتفعت أصوات الرحالة المغاربة بالشكوى من وجوده هناك ، فقد تضرر الساعون من شدة الزحام به ، وتمنوا لو يأمر الحكام بمنع

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ .

٢ ـ أزيل هذا السوق بالكامل في توسعة الحرم المكي الشريف الذى بدأت عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م وأدخل في التوسعة .

الناس من التسوق هناك خلال أيام الموسم على الأقل ، ليتفرغ الساعون لأداء نسكهم [١] . ولكن هيهات من إجابة تلك الأمنية لأنه سوق أختص ببيع المواد الغذائية من حبوب ولحم وتمر وسمن وفواكــه ، وغيرها من المتطلبات المنزلية اليومية . [٢]

وذكر الجزيري في أحداث عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م قيام المنادين بتحذير أصحاب الدكاكين بالمسعى ، بإزالة بضائعهم الممتدة خارج حوانيتهم ، وأوضح أن مَنْ لا يستمع لهذا التحذير ويمتنع عن تطبيــقه ، فإن المحكمــة بالتعــاون مع نائب جدة تعطي أوامرها بإزالة ما يخرج عن حدود الحوانيت بالقوة ، مما أدى في النهاية إلى سعة المسعى مؤقتاً لأنه سرعان ما عادوا لما كانوا عليه . [٣]

وهذا يكشف لنا أن الساعين كانوا يعانون من شدة الزحام في ذلك الوقت وقبله ، مما حدا بالحكام إلى التدخل ، والأمر بإزالة كل ما من شأنه إعاقة الحجاج عن أداء نسكهم . وموضع هذا السوق قديم منذ عهد الإسلام الأول [٤] . وقد تتابع الرحالة بالإشارة إليه ، ووصف الإزدحام به وما يباع فيه . [٥]

ومن الأسواق الدائمة أيضاً **سوق المدّعى** [٦] . الذي قيل في سبب تسميته أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف به مودعاً أهل مكة المكرمة يوم

---

١ ـ العياشي: ماء الموائد ، ص ١٥٢ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٧ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ١٨٠ ، ١٨٩ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨٠ .

٢ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤١ .

٣ ـ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ٩٢٧ .

٤ ـ سعاد إبراهيم محمد الحسن : النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، رسالة ماجستير لم تنشر ، مقدمة لجامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٥ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٨٥ ؛ جمال الدين أبوالفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي : تأريخ المستبصر ، ص ١٢ ـ ١٣ طبع بريل ـ ليدي ، ضبط وتصحيح أوسكر لوفغرين ، ١٩٥١م ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٧ .

٦ ـ لا يزال هذا السوق قائم إلى اليوم وبنفس الأسم ، ويباع به مختلف أنواع السلع التجارية الضرورية منها والكمالية الغالية منها والرخيصة .

خروجه في حجة الوداع عام ١٠هـ / ٦٣١م ، وقيل بل وقف به الرسول صلى الله عليه وسلم داعياً لأهل الحجون ، ويقال أيضاً بل هو الموضع الذي وقف به سيدنا إبراهيم عليه السلام داعياً الله تعالي بقوله : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فأجعل أفئدة من الناسَ تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ . [١]

ونلاحظ : إختلاف الروايات على واقعة معينة . كما أنه : لم يؤْثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقوفه بهذا الموضع مودعاً أو داعياً ، ولا يُعرف على وجه التحقيق أين موقف دعاء خليل الرحمن عليه السلام ، علاوة على أن مسمى المدّعى لم يرد لدى الأزرقي مؤرخ مكة المكرمة في القرن الثالث الهجري ، وكل ما ذكر حول هذا الموضع ، أنه المكان الذي ردمه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفاظاً على المسجد الحرام من دخول السيل إليه ، فهو أول من جعل تلك البقعة عالية لكثرة ما وضعه بها من الصخور العظام بعد سيل أم نهشل [٢] الذي داهم المسجد الحرام . [٣]

---

١ ـ سورة إبراهيم ، ١٤/ ٣٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١١٦ .

٢ ـ سمى بسيل أم نهشل لذهابه بأم نهشل بنت عبيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس . أنظر الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ١٦٧ .

٣ ـ دخل هذا السيل المسجد الحرام ، واقتلع المقام من موضعه ، ولم يوجد إلا أسفل مكة المكرمة . أنظر المصدر السابق والجزء والصفحة ؛ محمد بن محمد ابن أحمد إبن الضياء المكي : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ص ٧٨ ، تحقيق عادل عبدالحميد العدوى ، مكة المكرمة ، المكتبة التجارية ، ط١ ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ؛ علي بن عبدالقادر الطبري : الأرج المسكي ، ص ١٠٦ ، الكردي : كتاب التاريخ القويم ، ج٢ ، ص ٢٠٧ .

أما سوق باب إبراهيم [١] ، فقد كان موقعه في الفسحة التي أمام رباط الموفق [٢] ، الذي أوقف عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، أسفل مكة المكرمة بالقرب من باب إبراهيم [٣] . أحد أبواب المسجد الحرام .

ومن الأسواق الدائمة **سوق الشاميين أو الشامي** [٤] . الذي يقع ناحية الباب الذي يلي دار الندوة من جهة باب الزيادة قريباً من جبل قيقعان [٥] . ومسمى هذا السوق بالشامي أو الشاميين يرجح لدينا أن هناك تجاراً كانوا يأتون من البلاد الإسلامية لممارسة التجارة بمكة المكرمة ، ولكثرة مزاولة التجار الشاميين التجارة بها سمى الموضع بأسمهم ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من قدوم تجار البلاد الإسلامية إلى الحجاز وبقائهم مدة قد تطول أو تقصر ، ما ذكره العياشي ، من أنّ له صديقاً من التجار التونسيين كان مجاوراً بمكة المكرمة ، وقت مجاورته على جانب كبير من الثراء [٦] . وهذا يقودنا أيضاً إلى الإعتقاد ، أنه لم تكن هناك قيود تحدّ من نشاط التجار المسلمين وممارستهم التجارة بمكة المكرمة ، بل كان هناك نوع من التشجيع من قبل الدولة العثمانية والأمراء الاشراف لهم في تلك الفترة ، وإلا لما قدموا بتجاراتهم ، وأقاموا بصورة شبه مستمرة .

---

١ ـ ما جاء في وصف مكان هذا السوق يطابق موقع ما كان يسمى بسوق الصغير ، وقد ذكره ابراهيم رفعت . وهُدم هذا السوق وأُدخل في توسعة ساحة الحرم المكي الشريف عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م . ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ .

٣ ـ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٥٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١٢٢ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٣٦ .

٤ ـ يطابق وصف موقع هذا السوق ما يعرف اليوم بأسم سويقة ، وهو لا يزال إلى اليوم بالقرب من الشامية التي لا تزال تحمل نفس الاسم ، الذي ربما يرجع سبب تسميتها لسكن التجار الشاميين به، ويباع به السبح والأقمشة الهندية والتركية وفصوص الفيروز والياقوت . انظر ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ١٨١ ، ويباع به اليوم زيادة على ما سبق الملابس والعطور والأدوات الكهربائية والكتب وجميع أنواع الخردوات ، بالإضافة إلى وجود المطاعم .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٥ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٠ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٥ .

ووجد **سوق للبزازين والعطاريـن** ، يقعـان عند بـاب بنـى شيبـه [١] .

ووجد أيضاً أسواق **للنساخين والخياطين** [٢] ، **وسوق للدقاقين** [٣] بأجياد [٤] ، وسوق يسمى **بسوق الليل** يباع به الفواكه وما يلزم الحجاج [٥] ، كما وُجدّ به داراً للحدادين [٦] . وسوق **للسماكين ، والبقالين ، والحذائين ، والحماريـن ، والفواكه والرطب ، والدقيق ، والغزالين ، والصيارفة ، واللبانيين ، وبائعي الجلود ، والوراقين** . [٧]

وأحاطت هذه الأسواق بالمسجد الحرام من جميع جهاته ، تسهيلاً لأمور البيع والشراء على أهل مكة المكرمة والحجاج وعدم تكليفهم مشقة السير إليها ، وفضلوا قرب الأسواق من مكان أداء عباداتهم بالمسجد الحرام مركز البلد وقلبه النابض .

وبجانب هذه الأسواق القريبة التي امتازت بوجود المستلزمات اليومية من مأكولات ومشروبات وملبوسات ، كانت هناك **أسواق بعيدة مثل الأسواق التي بالزاهر** [٨] ، والتي ربما يعود سبب إقامتها هناك لخدمة المعتمرين .

---

١ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤١ .
٢ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢ ، ١٣٩ .
٣ ـ بائعين البهارات .
٤ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ .
٥ ـ ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ١٧٨ .
٦ ـ الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٢٥٦ .
٧ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ ، ٩١ ، هامش ٦ ، ص ٧٥ ، ١٦٨ ، هامش ١ ، ص ٢٣٩ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، ٢٦٣ .
٨ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٩ .

كمـا وجـدت **أسـواق لبـيع الحطب** [١] **والعلف** [٢] **واللبن** [٣] **والغنم** [٤] **والبقر** [٥] **والجمال** . [٦]

ولعلنا نتصور مدى الحركة التجارية بمكة المكرمة بما ذكره إبراهيم رفعت في الربع الأول من القرن الثالث عشر عن عدد الدكاكين الموجودة بها ، إذ حدد عددها بثلاثة آلاف دكان . [٧]

وبالمدينة المنورة أسواق أشارت إليها كتب الرحالة المغاربة ، فالعياشي وأبو مدين أشارا إلى **سوقٍ غربي باب السلام** [٨] . وحُدد موقع **سوق قديم غربي المدينة المنورة** ملاصق لسورها . [٩]

وكان هنـاك أيضاً سوق لم يحدد العياشي موقعه ، إعتاد الأعراب النزول به لبيع منتجاتهم من اللبن والجبن والسمن والغنم ، وهذه المجلوبات كان يتلقاها منهم بعض التجار سمـاهم البرغازيين ، تعوّد الأعراب البيع لهم ، وهم بدورهم يبيعون ما اشتروه لأهل المدينة المنورة بربح قليل ، وإعتادوا هذا الوضع لصعوبة

---

١ ـ يوجد هذا السوق بما يعرف اليوم باسم الهجلة . انظر الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٢٣٢ ، هامش ٧ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٢٨٤ .

٢ ـ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٤٠٨ .

٣ ـ المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٧ .

٤ ـ كان هذا السوق يقع بما يعرف اليوم بالجودرية . انظر الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٧١ ، هامش ١ ؛ الفاسي : شفـاء الغرام ، ج١ ، ص ٤١٨ ؛ ابن الضياء : تاريخ مكة المشرفة ، ص ٧٥ .

٥ ـ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ١١٩ .

٦ ـ ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٢، ص ٢٤٥، تحقيق د/ عبدالكريم علي باز ، طـ١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ؛ سعاد الحسن : النشاط التجاري في مكة المكرمة ، ص ٢٤٧ ، رسالة ماجستير لم تنشر ، ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع . انظر المرجع نفسه ، ص ٢٧١ ـ ٢٨١ .

٧ ـ ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ١٨٤ .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون ، أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .

٩ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٨٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٠ .

تعاملهم مباشرة مع الأعراب لجفائهم وغلظ طباعهم ، وانعدام المساومة ولغة التفاهم معهم ، لذلك استسهلوا الشراء بواسطة البرغازيين ، بالإضافة إلى رفض الأعراب أنفسهم البيع مباشرة لأهل المدينة المنورة ، وإذا حصل وباعوا لهم باعوه بأضعاف ما يشتريه البرغازيون منهم ، إذ يبدو أن الأعراب وثقوا بالبرغازيين الذين يعرفون كيف يساومونهم ، لتماثلهم في الطباع كما ذكر العياشي [١] . وربما كانوا أعراباً مثلهم ممن استوطنوا المدينة المنورة .

أما أسواق جدة فقد كانت ممتدة على طول شاطئ البحر ، وكانت أغلب حوانيتها مبنية من الأخصاص ، واسعة ، لكل منها واجهتان الأولى إلي جهة البحر ، والثانية ناحية البلد ، بالإضافة إلى وجود الوكالات التجارية التي تستقبل السلع المتنوعة من التحف والبز الهندي والصيني . [٢]

وفي الطائف وجدت أسواق أساسية لم يحدد العياشي موقعها ، وأغلب الظن أنها في مركز البلد ، وحول مسجدها الجامع ، كان يباع فيها ما يلزم سكانها من الطعام والشراب والملابس . [٣]

كما وجد بها سوق كبير يخدم أهل الطائف وما حولها إلى أطراف نجد ، ويبدو أن هذا السوق كان يقع خارجها ، وكان يُجلب إليه أحمال الحبوب والثمار والزبيب والعسل وغيره الشيء الكثير ، لدرجة أن العياشي تعجّب من كثرة وتنوع السلع فقال : « قضينا العجب من كثرته ، بحيث يخيل إلينا أننا لم نَرَ مثل ذلك في الكثير من أسواق الأمصار العظيمة » . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٣ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٦ ؛ انظر تنوع تجارات جدة . ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١١ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

وقد نعجب نحن أيضاً من إقامة مثل هذا السوق الضخم في بلدة كالطائف ذات الكثافة البشرية القليلة ، إذا ما قورنت بمكة المكرمة أوالمدينة المنورة ، ثم ماذا تستفيد بلدة كالطائف منه ؟!

ونلمح الاجابة من خلال ما كتبه العياشي ، فالطائف كانت في تلك الفترة وسيطاً ، ومركزاً ، لتلقى سلع ومنتجات القرى المجاورة ، والتي يُعاد تصديرها إلى مكة المكرمة ، إذ يقدم إليها التجار لتلقي تلك السلع والتي تُحمل على الجمال إلى مكة المكرمة . وقد تعجب العياشي من تمكّن الإبل وهي بتلك الأحمال الثقيلة من النزول من طريق الجبل ، مع كثرة أوعاره وصخوره المعترضة بالطريق ^(١) . وأشار غير واحد من الرحالة المغاربة ، إلى ورود الأرزاق والفواكه والخيرات من الطائف إلى مكة المكرمة [٢] . ولعل السرو الذين كانوا يقدمون إلى مكة المكرمة في القرن السادس الهجري ، محملين بمنتجات بلادهم [٣] ، فضلوا طرح منتجاتهم بالطائف بدلاً من مكة المكرمة في تلك الفترة .

ومن الأسواق الدائمة في المشاعر المقدسة سوق منى ، حيث كانت أيام عيد الأضحى ملتقى لأعداد كثيرة من مختلف الشعوب الإسلامية ، فكان كثير من الحجاج يأتون بمنتجات أوطانهم كهدايا [٤] ، أو لبيعها ، ويتم ذلك بدعاية وجدانية دينية لطيفة ، إذ كانت الدعاية الأكثر رواجاً في ذلك الوقت لتصريف البضائع كقولهم : « مَن اشترى شيئاً مِنْ منى ، وجعله في تجارته ، وجد بركته وظهرت له ثمرته » [٥] . فكان لهذا القول مفعول نفسيٌّ ساحر ، لأن كل تاجر يريد زيادة أرباحه ، فيكثر الإزدحام ، ويقبل الجميع على البيع والشراء ، وكأن منِى في تلك الأيام القلائل كانت تمثل واجهة إعلامية عالمية لتلك البضائع .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٦ .

٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ .

٣ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ،ص ١٥٧ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٩ .

وحدّثنا العيّاشي والدّرعي عن هذا السوق ، وكثرة سلعة وتنوعـها ، وكان لا يعمر إلا في تلك الأيام فقالا : « عمرت الأسواق ، وكثر الإنفاق ، وخرجت البضائع ذوات الأثمان ، وصنوف التجارات ، وتَزاحم الناس على الشراء بركةُ ذلك المكان » [١] . ووصف العياشي مِنى في أيام العيد بقوله: « ومِنى في أيام الموسم، هـي الدنيا بأسرها قصورها عالية [٢] ، وأسواقها حافلة ، وجنود مجندة، وملابـس فاخـرة ، وأطعمة شهـية ، ومراكب هنّـيه ، وبضائع غير معدودة ، ومتاجر ثمينة » [٣] . ووصف الرافعي سوقها ، بقوله : « سوق عظيم فـيه كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين .. من كلّ الفواكه والأرزاق ، يتداولونه كلّ الرّفاق ، أما الأمتعة والسلاع (هكذا) فبموضعها أين تباع ، فكم هناك من أمتعة فاخرة ، وتحفاً تبقي القلوب والأعين من حسنها باهرة »[٤]. بينما اكتفى القادري والزبادي بالإشارة إلى سوقها [٥] . أما الحضيكي فقد ركز على تعداد ما وجد بالسوق ، فقال : « أظهروا من الزينة ، والحلي والحلل ، وأنواع الملابس، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، من نسيج اليمن ، والعراقين ، والهند ، والروم، وخراسان، وأنواع الطيب ، واختلاف ألوانه .. هبّ به الريح من كل جانب ، ويفوح به الهواء ، وأنواع السلع وأنفسها ، وتشريف اللحوم بأطايبها ، وأبرزوا تجارتهم بأصنافها » . [٦]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٩ .

٢ ـ وهنا إشارة إلى المباني العالية بها ، الأمر الذي لم يكن موجوداً في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وإنما هي مباني مستحدثة بعد ذلك . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٩٨ ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ؛ ابوالعباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر محب الدين الطبري المكي : القرى لقاصد أم القرى ، ص ٥٤٣ ، تحقيق مصطفى السقا ، ط٢ ، مصر ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣١٥ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥١٠ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٦ .

٤ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٠ .

٥ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٧ .

٦ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٤ .

ونجد أن مجمل ما ذكره الرحالة المغاربة كان يحكي حال تلك السوق وما حواه من بضائع متنوعة ، منها ذات الأثمان الغالية ، والتحف العجيبة ، فهذا السوق لم يكن وليد وقته بل قبل ذلك بكثير ، إذ سبق ابن جبير الرحالة المغاربة في وصفه ، وتعداد ما به من خيرات وغرائب ، في القرن السادس الهجري .[١]

وإذا ما عدنا إلى زمن الجاهلية، وجدنا أنه كان يقام خلال الأشهر الحرم، وخاصة في أشهر الحج ، ثلاثة أسواق كبرى هي عكاظ [٢] وذي مجاز [٣] ومجَنّة [٤] . وهي أسواق عامة لأهل الجزيرة . يحمل إليها من كل بلد تجارته [٥] . لذا نجد أن إقامة الأسواق في أيام الحج له جذور موغلة في القدم ، واستمر

---

١ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٧ .

٢ ـ (عكاظ) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، كانت قبائل العرب تجتمع به كل سنة ، ويتفاخرون فيه ، ويحضرها شعراؤهم لإلقاء قصائدهم الشعرية ، ثم يتفرقون . وهو أعظم أسواق قريش والعرب ويستمر طوال شهر شوال . وعكاظ نخل من وادٍ بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة المكرمة ثلاث ليالٍ . وهو أرض واسعة شرق الطائف ، بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفة به ، وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة ٣٥كم تقريباً. انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٤ ، ص ١٤٢ ؛ جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٣٧٨ ، ط٢ ـ بيروت، دار العلم للملايين ، بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٨م ؛ حمد الجاسر : موقع عكاظ ، مجلة العرب ، رمضان ١٣٨٨هـ/ كانون الأول ديسمبر ١٩٦٨م ، ج٣ ، ص ١١٣٨ ـ ١١٥٨ .

٣ ـ (ذو مجاز) موضع سوق بعرفة ، على ناحية كبكب ، عن يمين الإمام ، على فرسخ من عرفة ، وتقيم فيه العرب في الجاهلية ثمانية أيام ، من ذي الحجة بعد انصرافهم من سوق مجنة . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٥٤ ؛ جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٣٩٠ .

٤ ـ (مجنة) اسم سوق للعرب كان في الجاهلية ، وهو بمرّ الظهران قرب مكة المكرمة ، يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة المكرمة على قدر بريد منها ، وكان العرب يقيمون فيه عشرين يوماً من ذي القعدة . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٣٨٠ .

٥ ـ سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، طـ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ولمزيد من التفصيل حول هذه الأسواق الثلاثة . انظر نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ـ ٣٥٥ .

الحال بعد الإسلام ، وخاصة بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالى آية قرنت الحج بالتجارة ، وكان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتحرجون من التجارة وإقامة الأسواق في موسم الحج ، وبعد نزولها تغيرت نظرتهم وإنمحى إحساسهم بالحرج ، فجمعوا بذلك رضى الله سبحانه وتعالى في أمر الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ . [١]

وفي عرفات كان يقام بها سوق عظيم القدر ، فالعياشي ذكر أن الناس كانت تخرج إلى عرفات من اليوم السادس ، وتقيم بها يومي السابع والثامن ، بالإضافة إلى التاسع ، ويكون لهم بها سوق عظيم ، يلبي جميع احتياجات الحجاج ورغباتهم ، ويبدو أن هذا السوق كان قاصراً على أنواع الأطعمة ، إذ ذكر أنه « يجلب إليها طرائف الأطعمة ، كما هو عادتهم من الفواكه وغيرها ، من كل مكان » [٢] . وهذا السوق أيضاً لم يكن وليد تلك الفترة ، إذ أشار إليه العبدري في القرن السابع الهجري . [٣]

ومما سبق يتبين لنا أن مكة المكرمة بأسواقها الدائمة ، ومنى وعرفات بأسواقها الموسمية ، قد حققت الغرض من إقامتها ، وقامت بتلبية جميع الطلبات والأذواق ، فقد أجمع الرحالة المغاربة على وصف عظمها ، ورضاهم عما وُجد بها، وإعجابهم بما حوته . فالرافعي قال : « ومكة أسواقها معمورة ، وخاناتها بالمتاجر معمورة ، عذبة الماء ، بها أصناف الفواكه والخيرات والأرزاق الممنوحة في كل الأوقات » [٤] ، ولكثرة ما وجد اليوسي من تنوع أصناف الأطعمة والفواكة بمكة

---

١ ـ سورة البقرة ، ٢/١٩٨ ؛ أبوعبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٢ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ ، د.م ، د.ت .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٢ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٦٤ .

٣ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٥ .

٤ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٩ .

المكرمة ، قال واصفاً مدة مكثه بها بأنها : « عيشة رغدة ، ونعمة شاملة ، ووجدنا بها عنباً وسفرجل ، يأتي به من الطائف ، من وادي العباس ، ليس لذلك نظير في الدنيا أصلاً بلا ارتياب » . إلا أنه أشار إلى غلاء أسعارها ، وأنه لا يشتري منها إلا من كَثُرَ مالُه . وفي المقابل أشار إلى كثرة اللحم الغنمي ، والسمن ، ورخص أسعارهما ، إذ يستعيض ذوو الأموال القليلة بتناولهما بدلاً من الفواكه . [١]

وقد يظنّ ظانّ أن أسواق مكة المكرمة تقفل أبوابها أيام عيد الأضحى لانتقال التجار إلى منى ، ولكن الصحيح لا تقفل ، إذ حدثنا الدرعي عن شرائه بها الخبز والسمن والعسل ، يوم عيد الأضحى بها بعد طوافه . [٢]

ووُجد بمكة المكرمة مطاعمُ تخصصت في بيع رؤوس الغنم المشوية التي كان الحجاج يقبلون على شرائها [٣] . وأشار الحضيكي إلى أن أهل مكة المكرمة في نعيم بسبب تنوع أسواقها ، ورواجها مدة إقامة الحجاج بها . [٤]

ولأهمية التجارة وفاعليتها ومدى استفادة الحجاج منها داخل أسواق مكة المكرمة ، وكثرة البيع والشراء ، وكان الحجاج يستعجلون النزول من مِنَى ليتمكّنوا من شراء الأقمشة وغيرها من البضائع ، كما ذكر العياشي [٥] . إضافة إلى أن قوافل الحجاج لا تخرج من مكة المكرمة إلا بعد تصريف ما حملوه ، وشراء غيره، ليتم بيعه بعد عودتهم لأوطانهم . [٦]

ولعلنا نلقى بصيصاً من الضوء عمّا كان يباع بالحرمين الشريفين من بضائع متنوعة وخاصة العلف وغلاء ثمنه ، قال العياشي : « ولقد شاهدنا في أيام المواسم بالحرمين العجب مما يباع فيهما ، من الهشيم اليبس وكثرته ، مع غلاء الأسعار ، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب الألف بعير في كل يوم ، فلا يمس

---

١ ــ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ .

٢ ــ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٨ .

٣ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٤ .

٤ ــ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٥ .

٥ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٧ .

٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٦٩؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨١ .

شيء من ذلك ، وشاهدنا حمل جمل يباع بدينار ذهب ، وأُخبرتُ أن العرب يستعدّون لذلك من أول السنة ، فيحصدونه في البادية إبان الربيع ، وييبسونه ، وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتي الركبان ، فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم » . [١]

وكان هناك سبب مهم لكثرة بيع العلف بمكة المكرمة ، وهو أن حرّها وشمسها لا يجعل جبالها منتجة للأعلاف مثل المناطق الأخرى ، كالطائف مثلاً ، والجبال المحيطة بها ، ولهذا فالمواشي في مكة المكرمة ، وبالأخص أثناء موسم الحج ، تحتاج لها بكميات كبيرة ، مما جعل الإستعدادات لمثل هذا الأمر حاصل من قِبَل سكان المناطق المحيطة بمكة المكرمة ، خاصة وأن بيعها بها يدرّ عليهم أرباحاً وفيرة .

وعلّل العياشي سبب غلاء الأسعار في الحجاز أيام مجاورته لقلة المطر . فذكر أنه بمجرد هطولها ترخُصْ الأسعار ، وتتوفر السلع بكثرة ، مثل اللّبن والجبن واللحم والسمن . [٢]

وقد صادف الدرعي وقت مجيئه إلى الحجاز رخاءً عميماً ، بسبب هطول الأمطار المتوالية ، حتى عُدَّ ذلك من العجائب بسبب رخص الأسعار بجميع أرجاء الحجاز [٣] . وفي كلتا الحالتين سواء غلاء الأسعار أو رخصها ، يقبل الجميع على البيع والشراء ، ولا يغادرون أرض الحرمين إلا بعد بيع جميع ما معهم ، وشراء غيره ، فالغلاء لم يكن مانعاً من الإقبال على الشراء .

وإلى جانب التجارة تعددّت مصادر اقتصاد سكان مكة المكرمة ، فهناك عائدات كراء المنازل ، التي لم تكن بالرخيصة [٤] ، إضافة إلى تدفق الصدقات

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ، ٣٩٦ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ ، ٣٩٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٨ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩١/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٩ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٠ .

والهبات عليهم [١] . علاوة على الأعمال اليدوية كطحن الغلال ، والعمل في مهنة الطوافة ، فالرافعي تقدّم إليه أحد أبناء الأشراف ، وقاده في الطواف ، وامتدح عمله وأخلاقه [٢] ، أما اليوسي فقد عاب من إمتهنها لإساءة تصرف بعضهم ، فهم على حد قوله : « لا يتركون لك رأياً ، ولا عقلاً ، وتراهم يتسابقون إلى الحجاج ويُطوفونهم ، ويطلبون منهم الفلوس » [٣] . وقد بدأ هذا الأمر كعادة حسنة لأهل مكة المكرمة ، فقد أخبر ابن رشيد في القرن السابع الهجري ، أنهم يخرجون أطفالهم لاستقبال الحجاج ، ومساعدتهم في أداء المناسك ، وإرشادهم إلى الطرق الصحيحة لأداء الفريضة بدون مقابل [٤] . فتطور الأمر إلى أن أصبح عملاً ، يسترزق منه بعض أهل مكة المكرمة .

وذكر الزبادي أن هناك من يقوم بحراسة النعال على أبواب المسجد الحرام ، فيحصل من جرّاء ذلك على دخل يعيش عليه هو وأسرته . [٥]

وفي المدينة المنورة ، حدثنا العياشي عن الأسواق ، القلب النابض للنشاط التجاري ، فصوّر لنا صورة تكاد تكون ناطقة ، خاصة أيام الموسم ، وقدوم الأركاب ، وبالأخصّ الركب الشامي ، الذي كان يقدم إليها محملاً بمختلف أنواع السلع ، التي خصصت للبيع بالمدينة المنورة وحدها ، حيث يمكث بها عشرة أيام تُنْصب خلالها الأسواق المحتوية على جميع البضائع والسلع والأرزاق ، وذكر أن أهل المدينة المنورة كانوا لا يستفيدون من ركبٍ قدر انتفاعهم واستفادتهم من الركب الشامي ، الذي يقدم بتجارات كثيرة من الطعام والزيت والأشربة لبيعها هناك . [٦]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٤ .
٢ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٨ ، ١٣٣ .
٣ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ١/٩٣ .
٤ ـ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٨٠ ، ١٢٩ .
٥ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٣ .
٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٠٣ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٧ .

وكما كان للركب الشامي سوق خاصّ به ، كان للركب المصري مثله ، وكان مكانه خارج سور المدينة المنورة عند باب المصري ، وقد إحتوى على الكثير من الوكالات التجارية المتنوعة . (١)

وتحدث العياشي عن سوق رجب الذي كان يُعقد في شهر رجب ، بالقرب من مشهد حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، فكانت تقدم أعداد غفيرة من جميع أقطار الحجاز كمكة المكرمة والطائف وجدة وينبع ، ويتعداها إلى اليمن وما والاها ، ونجد لشهود ما يسمى بالرجبية بالمدينة المنورة ، وقد وَصَفَ هذا السوق بالضخامة ، وعُدَّ من الأسواق العظيمة . كما كان هناك سوق الخميس يقام كل يوم خميس ، ولكنه لم يكن بضخامة سوق رجب . (٢)

ولكثرة الأسواق بالمدينة المنورة وعظمها ، وتعدد مناسبات إقامتها ، درج الجميع هناك على ممارسة التجارة ، حتى النساء ، وقد عاب العياشي هذا الأمر على رجال المدينة المنورة في خروج النساء المخدرات سواء منهن الشريفات أو الوضيعات ليمارسن البيع والشراء مباشرة ، فيشترين ما طاب لهن من الطيب ، وما يختصّ بأمورهن ، ولا يستطيع الرجال منعهن ، ويمدّوهن بالمال الكثير الذي ربما قد لا يملكونه ، فيضطرون إلى الإستدانة لتلبية رغباتهن . (٣)

كما وجد في المدينة المنورة أسواق مخصصة لبيع الأزهار والرياحين ، إذ أشار العياشي إلى أنّ نساء المدينة المنورة تعوّدْن الشراء منه يومياً ، ولكنه لم يحدد موقع هذا السوق . (٤)

لقد وصف العياشي إستعداد أهل الحرمين لإستقبال الموسم التجاري في أيام الحج ، وأشار إلى أنه يبدأ من اليوم السابع عشر من ذي القعدة ، إذ تستوفي الديون وتفصل الشراكات ، وتنتهي مدة الكراء . فهذه الأيام كانت على حد قوله « مظنة ارتحال قاطن ، وقدوم غائب ، واجتماع الناس من الآفاق » .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٥ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩١ ـ ٩٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٣ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٠٣ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

لقد وصف العياشي إستعداد أهل الحرمين لإستقبال الموسم التجاري في أيام الحج ، وأشار إلى أنه يبدأ من اليوم السابع عشر من ذي القعدة ، إذ تستوفي الديون وتفصل الشراكات ، وتنتهي مدة الكراء . فهذه الأيام كانت على حد قوله « مظنة ارتحال قاطن ، وقدوم غائب ، واجتماع الناس من الآفاق » . فيشتغل أهل الحرمين بقبض الأوقاف ، والمخصصات المالية التي تأتيهم من الآفاق ، فيرحل إلى مكة المكرمة مَنْ يريد النسك ، أو التجارة ، بحيث لا يبقى بالمدينة المنورة إلا القليل ، إذ يهب الجميع لمباشرة أمور التجارة ، كيف لا وأهل الحرمين في أيام الموسم يجمعون مؤنة سنتهم خلالها ، فهم أثناء تلك الفترة لا يتعاملون بسعر معلوم ، ولا مكيال وافٍ ، ولا ميزان صحيح ، وكلّ هذا كان يحدث تحت سمع وبصر الولاة الذين لا يحرّكون ساكناً إلا إذا حدث أمر جلل ، ومتى انتهت أيام المواسم تهدأ حركة الأسواق ، ويصفو الجو بعد رجوع الأركاب ، فيعودون إلى ممارسة حياتهم العادية ، من فلاحة ، وتسعير في الأسواق ، وتصحيح للمكاييل والموازين [١] . فالموسم هو فرصتهم لجني أرباح طائلة . [٢]

ومن الأسواق الدائمة والموسمية بدرب الحجاز ، وجد سوق بالعقبة [٣] . **وبشرفات بني عطية** [٤] . ويتصدر الأعراب في **مغاير شعيب** عليه السلام للإتجار مع الركب . [٥]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٠٦ ، ١٩٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ احمد عمر الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ، ٣٠١ ـ ٤٨٧هـ ، ص ١٦٣ ؛ جامعة الرياض ، نشر عمادة شئون المكتبات ، ط١ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ٢٠٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ج٢ ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ،ج١ ، ص ١٦٣ .

٥ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ، ج٢ ، ص ١٠٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ .

وبالأزلم شاهد الدرعي بعض الأعراب يبيعون العلف والغنم [١] . وذكر اليوسي والغنامي أن **بإصطبل عنتر** وردت أعراب لبيع الحجاج ما يحتاجونه من زاد وعلف وماء . [٢]

كما خُصّ **المويلح** خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين بعناية خاصة من قبل الدولة العثمانية ممّثلة في مصر ، إذ بادرت بتعميره بالبناء والسكان ، لذا وجد به سوق دائم لخدمة الموجودين بها ، ولتزويد المراكب التي ترفأ إلى مرساه . وسوق آخر موسمي يقام على باب الحصن ، خُصِّص لخدمة الحجاج ، كان به جميع احتياجات الحجاج والمعتمرين ، من طعام وشراب وغيره ، سواء في الذهاب أو القفول ، بالإضافة إلى قدوم الأعراب الذين يشاطرون تجار المويلح في التّكسّب من الرّكب ، ببيعهم السمن والعسل والضأن ، فالمويلح أمدّت الحجاج بمنتجاتها المحلية من المزروعات ، وما يأتيها من مصر بالمراكب . علاوة على الملاقية التي تنتظر مقدم الحجاج لتقديم الهدايا والحلويات ، وبالأخص لِمَن لهم معارف ، وأهل وأصدقاء بمصر فيستقبلونهم بها [٣] . كما كان بعض الأعراب يعترضون الركب في **شق العجوز** ببعض الأحمال وخاصة العلف . [٤]

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/ب ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج الرقية ، ص ١١٦ ، ٢٠٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ ، ٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ ، ٢٠٠ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ .

وبالوجه كان في زمن رحلة العياشي سوقان ، احدهما دائم وآخر موسمي . [١]

وفي موضع **بين الدركين** المعروف بندرة الماء يقف هناك الأعراب للركب لبيعهم الماء . كما يتلقاهم الأعراب في **العقبة السوداء** لبيعهم السمن واللبن والخراف . [٢]

وأما **ينبع** فقد نالت نصيباً من إهتمام الدولة العثمانية الممثلة بمصر ، ومن حكامها الأشراف . [٣]

وبالنبط سوق للأعراب [٤] . أما **بدر** مع صغرها وانقطاعها عن أمهات مدن الحجاز الكبرى ـ كما ذكر الرحالة المغاربة ـ فقد وجد بها سوق وأسعاره رخيصة ، يباع به الرطب بثمن زهيد . [٥]

وأشار الرافعي إلى سوق صغير **بالخضيراء** [٦] وسوق **بالجديدة** [٧] . وآخر **بالدهناء** يباع به العلف والحبحب [٨] . وفي **رابغ** سوق به معظم إحتياجات الحجاج . [٩]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ، ٥٥١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ، ٢٠٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ١١٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ ـ٦٧ .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢١ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٨ ، ١٧٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ .

٦ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

٧ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ، ١١١ ـ ١١٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢ ، ١٠٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٩٢ .

٨ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ .

٩ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٤ ، ١٧٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

وكان بقديد سوق تتوفر فيه الخضروات والفواكه ، وخاصة الحبحب الذي لا يكاد ينقطع صيفاً ولا شتاءً إلا في السنة المجدبة [١] . ووجد **بشرف الروحاء** سوق [٢] ، **وبالصفراء** سوق يباع به العلف والحبحب [٣] ، كما وجد سوق **بمستورة** [٤] ، وآخر **بعُسفان** الذي وجد به الرياحين [٥] . وكذلك **ببرقة** يباع به الحبحب والمقاثي [٦] . أما **خليص** فوجد بها الكادي بكثرة [٧] ، وأخيراً **بمرّ الظهران** [٨] المرحلة الأخيرة قبل دخول مكة المكرمة والمرحلة الأولى بعد الخروج منها .

ونخلص مما سبق إلى أنّ أسواقاً كبرى كانت في المحطات المهمة الواقعة على طريق ركب الحاج ، كالعقبة ، والمويلح ، وينبع ، وهناك أسواق صغرى انتشرت على طول الطريق ، وربما ذكر بعض الرحالة المغاربة أسواقاً من التي كان الأعراب يتولّون البيع فيها لم يذكرها الآخرون ، الأمر الذي يوضح عدم إستقرارها ، فما وجد في زمن رحالة مغربي قد لا يوجد في زمن رحالة غيره ، ونستنتج من هذا أيضاً ، أنّ بعض الأعراب إلى جانب دورهم السلبي في إخلال الأمن ، أسهم بعضهم بدور إيجابي في رواج اقتصاديات الحجاز وخاصة

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢١ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٦ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج٢ ، ص ٩٤ ؛ الطبعة الحجرية .

٦ ـ المصدر والجزء والصفحة .

٧ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٨٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٤ .

بالتجارة في أماكن استقرارهم أو نزولهم . وكانت سلع ومؤن الأعراب تتوقف على نزول الأمطار وكثافتها ، فمتى أنعم الله تعالى بالأمطار غزر الإنتاج ، وإذا قلّتْ شحّ أو انعدم ، وهذا ما لاحظناه في متون بعض كتب الرحلات ، مثل العياشي ، واليوسي ، والدرعي ، إذ أشار الأخير إلى إحدى رحلاته السابقة ، والتي صادفت قلة الأمطار بالحجاز . وبالرغم من كل ذلك كان للأسواق المنتشرة في درب الحجاز شأن كبير لقوام حياة ركب الحجاج ، بعكس من نفى ذلك . [١]

النقود :

كانت التجارة مصدر توفر النقود بالحجاز ، وكان هناك كراء المنازل بمكة المكرمة [٢] . والمدينة المنورة [٣] ، وفي بعض القرى التي ينزل بها الحجاج [٤] . إضافة إلى كراء الرواحل [٥] ، واستئجار مخازن لوضع مؤن الحجاج لحين العودة . [٦]

كما ساهم في توفر النقود المكوس التي فرضها أشراف الحجاز على الحجاج الذين يفدون من مناطق لا تتبع السلطان العثماني ، كعراق العجم [٧] ،

---

١ ـ جميل حرب محمود حسين : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، ص ١٤٠ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، الكتاب الجامعي ، تهامة للنشر .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ ، ١٥٨ ، ٣٩٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٨ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩١/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٩ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٠ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ، ٤٠١ ، ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ، ٥٥٠ ؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص٢٢٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص١٧١ـ١٧٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٤٣ ، ١٧٢ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧١ ، ٤٠٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٨٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

(إيران) والهند [١] . وتدفقت النقود على أهل الحجاز أيضاً عن طريق الصدقات [٢] والهبات [٣] والأوقاف [٤] ، إضافة إلى الزراعة [٥] التي لم تخلو بقعة خصبة من وجودها ولو بشكل بسيط كزراعة المقاثي والفواكه والخضروات والرطب والأزهار والرياحين .

وكان تحصيل النقود أيضاً عن طريق الأدلاء ، الذين يقومون بهذا العمل لقاء أجرة يأخذونها ، مقابل مساعدة الزوار للوصول إلى المشاهد الإسلامية البعيدة [٦] . وحُصلت النقود أيضاً عن طريق حفظ النعال بالأجر عند أبواب المسجدين المكي والمدني[٧]. إضافة إلى الطوافة بالمسجد الحرام[٨]، علاوة على دفع الأموال للقائمين على المشاهد الإسلامية ، حيث تدفع لهم النقود من قبل الزائرين لقاء السماح لهم بالدخول لمشاهدتها [٩] . كما وجدت مهنة الحلاقة والتي كانت تنشط أيام المواسم وخاصة بمنى ، إذ يتقاضون أجراً على حلاقة رؤوس الحجاج والتي لم تكن تتم بصورة صحيحة لرغبتهم في حلاقة أكبر عدد ممكن من الرؤوس . [١٠]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٩٠ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٩١ ، ٢٣٠ ؛ المخطوط ، ص ٥٠٢ .
٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٢ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٧ ؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٣٠ ، تحقيق أمحزون .
٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ١٤٩ ؛ الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٠ ، ١٩٧ ، تحقيق : أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ .
٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٥ ، ٤٠٩ .
٧ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ١٠٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٣ .
٨ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٣٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٣/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٣ .
٩ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٦ .
١٠ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ .

وبذلك كان للحجاز مصادر دخل متعددة ، تنشط في وقت المواسم وإن لم يكن الدخل ثابتاً ، وتتوقف كثرة النقود وقلتها على أعداد الحجاج القادمين إلى الحجاز ، وكثرة الحجاج أيضاً كانت متوقفة على سلامة وصولهم ، وعدم تعرضهم للسلب والقتل أثناء طريقهم ، مما يقودنا إلى نتيجة سبق الوصول إليها وتأكدت هنا أيضاً وهي أن رخاء الحجاز كان مرهوناً بأمن طرقه وهطول الأمطار عليه .

لقد تحدث الرحالة المغاربة عن جملة من النقود المستعملة في الحجاز خلال تلك الفترة ، والتي سُكّتْ من الذهب والفضة والنحاس . وكانت النقود المسكوكة من الذهب والفضة تستعمل في المعاملات التجارية ذات القيمة النقدية العالية ، أما النقود المسكوكة من النحاس فاستعملت في المعاملات ذات القيمة النقدية المتدنية ، لاسيما في النفقات المنزلية ، كشراء الخضر والبقول ونحوها [١] ويطلق على المسكوكات النحاسية لفظ فلس أو فلوس [٢] . فالدرعي ذكر أنه يمكن التعامل بالفلوس المصنوعة من النحاس [٣] . مما يشير إلى تواجدها ومعرفة أهل الحجاز لها .

واستعمل أهل الحجاز مسكوكات الذهب المسماة بالدينار [٤] الذهب . وذكر العياشي أنه كان يسمى شريفياً أو سلطانياً [٥] . وقد يطلق على الدينار

---

١ ـ د/ عبدالرحمن أحمد فهمي محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٩٢ ، مكة المكرمة ، المكتبة الفيصلية ، د. ت .

٢ ـ (فلوس) جمع فلس ، وأصلها أفلس وهي تعريب من اليونانية ، وقيل تعريب من الرومية ، ولا يعنى بالضرورة أنها من النحاس ، إذ كان الهدف من ضربها تسهيل إجراء العمليات التجارية البسيطة . انظر الكرملي : النقود العربية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، هامش ٢ ؛ فهمي : النقود العربية ، ص ٩ ـ ١٠ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٦ .

٤ ـ (الدينار) كلمة رومية من Denarius بتقدير Nummus ومعناها « نقد ذو عشرة آسات » جمع آس As ، لأنه كان في أصل وضعه من الفضة . وورد الدينار بمعنى النقود من أي سعر أو جوهر كان، وجاء الدينار بمعنى وزن ثقله والدينار ضرب من المعاملات القديمة وأصله دِنَّار . وأُختلف في أصله فقيل فارسي وقيل عربي ويسك من الذهب ويوزن باثنان وسبعين حبة من الشعير الوسط ويساوى أربعة وخمسة وعشرين بالمائة جرام. انظر الكرملي : النقود العربية الإسلامية ، ص ٣٠ ، هامش ١ ، ص ١١٩ ؛ د/ ضيف الله يحي الزهراني : زيف النقود الإسلامية ، ص ١٦ ، ط١ ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، د. م .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢١٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق : أمحزون .

الذهب لفظ أحمر[١] أو مثقال ، والأخير يسمى إسماعيلي أو شريفي مع إختلاف صرفهما ، فالإسماعيلي يصرف بـأربعمائة فضة والشريفي بخمسة وتسعين .[٢]

وأشار العياشي واليوسي إلى أن الأموال التي كانت ترسل من قبل السلطات العثماني لتصرف على أمور الحرمين كانت بالدنانير الذهب .[٣]

وكان كراء المنازل يتم أيضاً بدنانير الذهب[٤] وأحياناً بالفضة مع الذهب[٥] . كما كان يباع نوع من الحمير السريعة ذات مواصفات معينة بأثمان غالية قد يصل سعر الواحد منها بمائة دينار ذهب[٦] . وتعامل أهل المدينة المنورة بدنانير الذهب ، وكذلك البيع والشراء في عرفات .[٧]

أما في درب الحجاز فقد حرص الأعراب على قبض الأثمان بالدنانير الذهبية والمثاقيل الذهب ، حيث ذكر أبو مدين أن كراء الرواحل كان يتم بمثاقيل الذهب ، وتراوح الثمن للراجل بستين أو سبعين مثقالاً ، ولراكب الإبل مائة مثقال ، ولراكب البغال مائة وخمسين إلى مائتين مثقال ، وربما زادت أو نقصت هذه الأسعار تبعاً لتغير الأحوال والزمن[٨] . وعندما يقل وجود الماء أو يندر يسارع الأعراب لبيع القِربة الواحدة منه بعدد من الدنانير أو المثاقيل الذهبية ،

---

١ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩١/ب .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٩٥/ب .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/أ . وما ذكر عن إرسال الدولة العثمانية مصاريف الحجاز بالدنانير الذهب يناقض ما ذكر من ارسالها بالكيسه والكيس يساوي ٢٥٠٠٠ نصف فضة فالكيس والكيسة : وحدة حسابية بدأ استعمالها في القرن السابع عشر وتنقسم إلى قسمين كيسه روميه وهي تساوى ٥٠٠٠٠ أقجة وكيسة مصرية وهي تعادل ٦٠٠٠٠ أقجة أو بمعنى آخر الكيسة الواحدة تساوي ٥٠٠ قرش والقرش = ٤٠ بارة ، والأردب وحدة وزن معروفة في مصر والحجاز والأردب الواحد يساوي ١٥٠ كيلوغرام من الحنطه و١٤٠ كيلو من الذرة والأقجة وحدة وزن شاع استخدامها في الدولة العثمانية وهي تساوي ١,٢٨٣ كيلو غرام . د/ نبيل رضوان : النفقات على الحرمين ، ص ٥ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي : ص ٩٥/ب .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٨ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠١ .

٧ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/ب .

٨ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٤٣ .

مستغلين حاجة الحجاج إليه لدفع ما يطلبونه ثمناً له . كذلك فضل الأعراب عند قضائهم حاجة طرأت للحجاج ولمسوا ضرورتها لهم ، أخذوا مقابلها الدنانير أو مثاقيل الذهب . وعادة ما يكون الحجاج محمّلين بأحمال من الذهب بعد الإنتهاء من الحج ، وربما يسرق منهم بعض الأحيان في عودتهم [١] . وشراء الحجاج للذهب من الحرمين الشريفين بهذه الكميات الكبيرة يؤكد توفره بهما في تلك الفترة .

وإلى جانب العملة الذهبية التي كانت هي مدار التعاملات التجارية ، كانت الفضة تتصدر التعاملات التجارية اليومية ، فاليوسي أشار إلى أن التعامل بالحجاز كان أكثره بالفضة ، إلى جانب الذهب وقال : « ومَنْ أراد صرفه بالذهب يمكنه ذلك » . [٢]

وقد أمدّنا الرحالة المغاربة بمسميات عديدة للنقود الفضية في تلك الفترة ، ومن تلك المسميات الريال الذي راج استعماله وتداوله بين أهل الحجاز ، والذي سُمّي قرشاً [٣] . وأيضاً القيراط [٤] المسكوك الذي يسمى محلقاً . [٥]

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٩ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٧/ب .

٣ ـ (القرش) وينطق غرش وأصله نقد ألماني وهو Groschen ، والقرش ، غرشان : قرش صاغ وغرش رائج ، فالقرش الصاغ يساوى أربعين بارة ، والقرش الرائج يساوي رُبعه أي عشر بارات ، ويجمع على قروش . انظر الكرملي : النقود العربية الإسلامية ، ص ١٩٧ . وانظر البارة نفس المرجع ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

٤ ـ (القيراط) من الذهب وهو جزء من أربعة وعشرين جزءً من الدينار ، ويختلف قيراط الذهب عن قيراط الفضة بحيث يمثل الأخير ١٢/١ من درهم الموزونة ، ونصف الدرهم الجزئي ، وبذلك يعتبر القيراط ذا قيمة عددية في نظم الفضة وذا قيمة وزنية في نظام الذهب . أنظر عمر أفا : النقود المغربية ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٥ ـ (المحلق) نوع من العملة المسكوكة من الفضة ، كان أهل الحجاز يتعاملون بها في القرن الحادي عشر الهجري . وقد بدأ ظهوره عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨ ـ ١٤٧٩م ، وتقرر سعر صرفه بـ ١٢ درهم مسعودي ثم لم يلبث أن ارتفع إلى ٢٠ درهماً . انظر ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٣٩ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢١٧ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق : أمحزون ؛ ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص ١٩٦، الرياض ، منشورات عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود ـ ، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

كما راج في عمليات البيع والشراء عملة سماها العياشي المائدية [١] وقال : إن أهل المدينة المنورة يسمونها حرفاً [٢] ، وشاع لديهم أثناء التعامل قولهم : عشرة أحرف وعشرين حرفاً قاصدين بذلك أن كل أربعين قيراطاً من الفضة المسكوكة يعد حرفاً ، وذكر العياشي أن هذا خلاف ما عُرفَ بالمغرب عن هذا المقدار ، ففي المغرب يقصد به المثقال الذهب [٣] . وأضاف أن الريال يصرف بالمائدية وهي القراريط من دون وزن بل بالعدد ، وجرى الجميع على هذا العمل إلا القليل . [٤]

وضرب لنا العياشي العديد من أمثلة معاملات البيع والشراء ، التي كانت تجرى يومياً بالمدينة المنورة ، ومن ذلك قوله : « أن مبيعات الطعام تتم بالمائدية ، فسعر رمانة واحدة في آخر موسمها خمسة مائديات » كما اشترى رطل [٥] عسلٍ بثلث ريال ، والسمن دون ذلك . [٦]

---

١ ـ (المائدة) يظهر من نص العياشي أن المائدية الواحدة تعادل قيراطاً من الفضة في ذلك الوقت .

٢ ـ (الحرف) يتبين من نص العياشي أنه أحد النقود التي يتعامل بها أهل المدينة المنورة ويساوى ٤٠ مائدياً أو أربعين قيراطاً ، من الفضة المسكوكة .

٣ ـ ذكر الكرسيفي « أن الدينار عند الناس اليوم ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م ، إنما يقال للمثقال المضروب من الذهب لا المضروب من الفضة » . أنظر عمر أفا : النقود المغربية ، ص ٤٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢١٧ ـ ٢١٩ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

٥ ـ (الرطل) رطل مكة المكرمة أو رطل الكيل : فالرطل كلمة يونانية Litre ، ويستعمل وحدة للوزن ووحدة للكيل معاً غير أن استعماله وحدة للوزن هو الغالب ، ووزن الرطل إثنى عشرة أوقية ، وكان وزن الرطل الحجازي في القرن الحادى عشر الهجري ٤٠٨,٢٣غرام . العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٤ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، هامش ٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الكرملي : النقود العربية الإسلامية ، ص ٣١ ، ٤٥ ؛ عمر أفا : النقود المغربية ، ص ١٤٤ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٤، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون .

وعندما تغلو الأسعار بسبب الجدب بالحجاز ، ذكر العياشي أن القمح كان يباع كل ثلاثة أصواع [١] بريال ، وهذا الصاع يساوي ما يقرب الثلاثة أصواع بصاع الزكاة ، كما بيع التمر كل أربعة أصواع بريال ، والشعير لم يكن بينه وبين القمح تفاوت [٢] ، وأضاف بأن الصاع يسمى ربعياً ولجزئيه كيله . [٣]

وحدد العياشي سعر الفواكه في موسمها ، ومنها العنب الذي بيع الرطل منه بثلاث مائديات [٤] ، وعندما هطلت الأمطار رخصت الأسعار ، وكثرت المنتجات الحيوانيـة ، مثل اللبن والجبن والسمن واللحم مع هزاله قليل في الأسواق ، وقد تم بيع الجـبن عند أول طرحه بالسوق ، الرطل بثمانية مائديات ، ثم لم يلبث أن رخص وبيع الرطل منه بمائدتين .

وذكر العياشي أن المصروف اليومي لنساء المدينة المنورة كان ريالاً [٥] . أما كراء الجمال من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فبعملة القرش ، فقد أكترى العياشي جملين لحمله وأغراضه بثلاثة عشر قرشاً [٦] ، كما استأجر رواحل لنقله من جُدة إلى مكة المكرمة بمائة وثلاثين ريالاً [٧] . وإشترى العياشي بطيخاً رخيص الثمن في الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، كل خمسة بطيخات بمحلق [٨] .

---

١ ـ (الصاع) المدني النبوي : هو وحدة القياس التي تستعمل لكيل الحبوب والفواكه الجافة والزيوت وأشباهها ، ولفظ الصاع يذكر ويؤنث فالمؤنث يجمع على أصوع ، والمذكر يجمع على أصواع ، ويمكن جمعه على صيعان ، ويساوي الصاع أربعة أمداد والمد رطلاً ، والصاع خمسة أرطال وثلثا ، ومقدار الصاع في الوزن حوالي ٢ كلغ . أما الرطل فيساوي ١٢ أوقية والوقية (الكيلة) ١١ درهما الا ثلث . أنظر عمر أفا : النقود المغربية ، ص ١٤٤ ، ص ٧٨ ، هامش ١٣٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٢٢٤ ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق أمحزون

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩١ .

٧ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠٦ ، المخطوطة .

٨ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية .

كما تم شراء ما ينقص الركب من العلف وسمن ولحم بالريالات [١] . وقد اعتاد التجار الملاقية الذين يتلقون الحجاج بالمؤن البيع لهم بالعملة الفضية [٢] . وفي المحطات المهمة بدرب الحجاز كان التعامل التجاري يتم بالذهب والفضة وبعملة تسمى نصف [٣] . بالإضافة إلى أن السلع الوافدة كانت تباع بالريال كالبن . [٤]

لقد تكرر لدينا لفظ عملة الريال ، إذ لم تخل رحلة تقريباً من ذكره في فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين . ويظهر تدفق النقود الأوروبية على البلاد الإسلامية في تلك الفترة ، وأصبحت من النقود المتداولة والمرغوبة ، فالدرعي قد امتدح النقد المسكوك في بلاد النصارى ، وسماه الريال ، وقال : « إن الغالب عليه جودة الجوهر » [٥] . الأمر الذي يوضح لنا سبب انتشار الريال في بلاد الحجاز ورغبتهم في التعامل به . كما تعامل أهل الحجاز أيضاً بنقد الدرهم [٦] بجانب العملات السابقة . [٧]

وإلى جانب النقد في التعاملات التجارية ، كانت المقايضة في الحجاز ، فقد أشار أبو مدين إلى مناطق لم يحدد موقعها تتعامل بالمقايضة . وذكر عدداً من السلع المفضلة والمرغوبة في المقايضة ، مثل العطر ، والكتان ، والتبن، والتمر ،

---

١ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢٠٥ .

٢ ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٧ .

٣ ـ (نصف) نقد مصري أختلف سعره بإختلاف السنين وكان الواحد يساوي ٧ قروش أو أقل أو أكثر . أنظر الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ الكرملي : النقود العربية الإسلامية ، ص ٢٠٣ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٣٧ .

٥ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٣٨ .

٦ ـ (الدرهم) وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية أشتق أسمها من الدراخمة اليونانية وحدد وزنها الشرعي بـ ٢,٩٧جرام ووزن الدرهم إلى الدينار هي ٧:١٠ أى أن الدرهم كان يمثل ١٠/٧ الدينار . أنظر فهمي : النقود العربية ، ص ٩ ؛ الزهراني : زيف النقود الإسلامية ، ص ١٦ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٠٤ .

والجلد الأحمر ، والثياب وأواني النحاس ، وأحسن ذلك كله حمل دنانير الذهب ، فهي على حدّ قوله : « يرغبها كلّ الناس » . ولكنه في المقابل شدّد في الحذر من زيفها ، لشيوع التزييف في تلك الفترة ، وقال : « إن مَنْ لم ينتبه لذلك يشتريها على أنها ذهب ، وعند احتياجه لبيعها يكتشف أنها نحاس » [١] . ونصح اليوسي الذاهبين إلى الحجاز للخروج من مأزق الغش ودائرة التزييف ، بحمل تجارة معهم ، ومَنْ لم يفعل ذلك يقع في الحرج ، للتفاوت الكبير بين صرف العملات ، الذي يؤدي إلى الخسارة ، وقال : « إنّ الأولى لهم التعامل بالمراطلة ، ولكنها كانت غير معروفة لديهم » ، وعرف المراطلة بقوله : «بيع الذهب بالفضة » . وقال : « إن مَنْ لم يحمل تجارة ، ولم يستعمل المراطلة ، يقع فيما لا خير فيه » . [٢]

وعاب الدرعي طريقة الصرف ، التي نعتها بالبلوى العامّة ، وخاصة في صرف الريال بالمائدية ، وغيرها من أجزائه الرائجة ، إذ يبدو أن هذا الأمر كان موافقاً عليه من قبل الولاة ، وقد ضرب لنا مثلاً لذلك بقوله : « أن الشخص إذا أراد إستبدال مثقالاً من الذهب ، يستبدله أو يأخذ بدلاً عنه أربعة وعشرين قيراطاً معدودة بغير مراطلة » ، وعلل عملهم هذا بقولهم : « إن الشيء إذا وزن مجتمعاً ثم فرق زاد أو نقص » . [٣]

ومما سبق نجد شيوع عملية تزييف النقود في تلك الفترة ، كما أن الحجاز بموقعه وتدفق الحجاج إليه من جميع أقطار العالم الإسلامي ، تبعه بالضرورة تدفق مختلف أنواع العملات النقدية إليه ، وإن كان أكثر تعاملهم يتمّ بنقد الفضة وجزء منه بالذهب للسلع الغالية الثمن . أما النحاس فقد وجد له مساحة للتعامل ، وخاصة لمصاريف الأمور اليومية . ونلحظ أن الرحالة المغاربة أغفلوا الإشارة إلى وجود دور سك النقود ، ولكننا نرجح وجودها لأنه في تلك الفترة عمّ في البلاد الإسلامية تعدد أماكن ضرب النقود ، والحجاز من ضمن

---

١ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٢ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٨/أ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٣٨ .

البلاد الإسلامية ، التي ربما لم تشذ عن هذا الأمر ، وإن وجد ، فالغالب أنه ضربت من الفضة والنحاس ، حيث إنفرد الحجاز بأسماء لعملات لم نجد لها ذكراً في غيره مثل المائدية والمحلق والحرف .

ونجد أنه حسب روايات الأقدمين فإن الحجاز لم يعان من قلة النقود ، والذي يثبت ذلك وجود الكثير من الصيارفة منذ القدم ، وتوفيرهم لأنواع العملات المتدفقة عليهم من الحجاج . [١]

أهم السلع :

كان المحور الذي تدور عليه السلع المعروضة للبيع بدرب الحجاز ، هي المؤن الغذائية بكافة أنواعها ، كالخضر والمقاثي [٢] . وأيضاً السلع الحيوانية كالإبل [٣] والغنم [٤] ومنتجاتهما من لحوم [٥] وألبان [٦] وأجبان [٧] وسمن [٨] وبيض . [٩]

---

١ ـ الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٢٦٠ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩، ج٢، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٤٨ .

٤ ـ القيسي : انس الساري ، ص ١٢٧ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .

٥ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٦ ـ القيسي : انس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٣٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ١٧١ ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥، ١٧٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ على سبيل المثال ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج٢ ، ص ١٠٨ .

٨ ـ اليوسي : رحلة اليوسي : ص ٩٢/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٧١ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٩ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٩ .

وكان العسل والحلويات من ضمن السلع التي رغب الحجاج شراءها [١] . بالإضافة إلى مختلف أنواع الفواكه ، مثل العنب وخاصة الأسود منه [٢] . والتفاح [٣] والإجاص [٤] والزبيب الأحمر [٥] ، ونال البطيخ رواجاً شديداً [٦] . وكذلك التمر والرطب [٧] واللوز والموز والسفرجل والرمان . [٨]

وحظيت الحبوب بنصيب وافر في البيع من فولٍ [٩] ودقيقٍ [١٠] وشعير [١١] ، علاوة على السكر والادام [١٢] . ومن السلع التي كانت

---

١ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ، ١٧٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٢ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ١٥٠ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ــ ١٩٦ ، ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ــ ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٢ ، ج٢ ، ص ١٠٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ، ١٢١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٦ .

٣ ــ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ، ٩٧/أ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ .

٤ ــ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب .

٥ ــ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٦/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٦ ، ج٢ ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ .

٦ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ ، ج٢ ، ص ٩٤ الطبعة الحجرية ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/أ ، ٩٧/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٧ ــ القيسي : أنس الساري ،ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ، ١٧٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ .

٨ ــ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٥٨ .

٩ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٨ ــ ١٠٩ .

١٠ــ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٨ .

١١ــ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٨ ــ ١٠٩ .

١٢ــ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ .

مطلوبــة بكثـرة المـــاء [١] والعلــف [٢] ولوازم الإحــرام من رداء ونعــال [٣] وغيرهـــا .

وأشـتملت الأسـواق في الحـرمين الشريفـين والمدن الحـجازيـة الأخرى كجدة والطائف وينبع على كافة أنواع السلع من الدر النفيس والمتاع الرخيص . ولم يفصل الرحالة المغاربة كثيراً في أنواعها .

ففي مكة المكرمة ذكرت كتب الرحلات المغربية عدداً من أنواع التجارة كالكماليات مثل القماش الفاخر وخاصة البز [٤] والبن [٥] والطيب [٦] والند [٧] والخشب لاسيما الساج [٨] ، وكذلك الشمع [٩] وأيضاً كل ما يلزم السفر من شقادف [١٠] ورواحل [١١] ، ومن اللوازم المنزلية كالخصف . [١٢]

١ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ، ١٧٠ ، ٤٠١ ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ج٢ ، ص ١٠٥ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٢ ، ١٧٠ ، ٤٠١ ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٨ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص١٢٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ،ص ١٨١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٥ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٣٧ ، ١٨٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٣ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٠٣ ، تحقيق أمحزون ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٣٣ .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٦ .

٩ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

١٠ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

١١ـ المصدر السابق ، ص ٣٩١ ، ٤٠١ .

١٢ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٧ .

أما المأكولات فقد تعددت أنواعها فمنها الحبوب كالقمح [١] والدقيق [٢] والشعير [٣] والفول [٤] ، ومن المأكولات المطبوخة الخبز [٥] ورؤوس الغنم المشوية [٦] ، كما ذُكر التجارة في التمور [٧] والزبيب [٨] والسمن [٩] والعسل [١٠] واللبن [١١] والجبن [١٢] واللحوم [١٣] والفلفل [١٤] ، علاوة على الفواكه المتنوعة [١٥] كالعنب والسفرجل . [١٦]

ولم تقتصر السلع المتداولة على الاستخدام الآدمي ، بل وجد علف الحيوانات بكثرة [١٧] لتلبية حاجة السوق منه في أيام المواسم ، إذ هو بمثابة الوقود لرواحل السفر .

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥، ١٤٩، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون.

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٨ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٢٣٤ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون .

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٥٤١ ، المخطوطة ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٥٦ .

٩ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٣/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٩٨ .

١٠ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٨ .

١١ـ المصدر السابق والجزء ، ص ١٧١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٣ .

١٢ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون .

١٣ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ .

١٤ـ العياشي : ماء الموائد ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية .

١٥ـ المصدر السابق ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص٩٢/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١، ص ١٦٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢١ .

١٦ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ـ ٢٢٤ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ .

١٧ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ، تحقيق أمحزون .

وما وجد بمكة المكرمة ليس بغريب عليها ، إذ سيقت لها الخيرات من جميع الأقطار تحقيقاً لدعوة خليل الرحمن عليه السلام في قوله تعالى ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ [١] . كما أكد الله تعالى على جلب الثمرات إليها في قوله تعالى ﴿ **أوَ لم نمكّنْ لهم حرماً آمنا يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء** ﴾ . [٢]

وحفلت أسواق المدينة المنورة أيضاً بالعديد من السلع ، فالمدينة المنورة ذات أرض خصبة غنية بالمياه العذبة ، لذا توفر بها تبعاً لذلك الكثير من أنواع الخضر ، مثل الجزر والبقلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت ، والخضر البرية مثل الخبيز [٣] . كما وُجد بأسواقها الأزهار والرياحين [٤] ، بالاضافة إلى العديد من الحبوب مثل الفول [٥] والشعير [٦] والدقيق [٧] والقمح [٨] والارز [٩] . وحظي العسل [١٠] بجزء من سوق المدينة المنورة . وكان للسلع المطبوخة نصيب في أسواقها كالخبز [١١] والثريد . [١٢]

---

١ ـ سورة ابراهيم ، ٣٧/١٤ .

٢ ـ سورة القصص ، ٥٧/٢٨ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون ؛ الطبعة الحجرية ، ج٢ ، ص ٩٤ .

٤ ـ المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٤ ، الطبعة الحجرية .

٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٧ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون .

٩ ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

١٠ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٨ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

١١ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ،ص ١٩٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٤١ .

١٢ـ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ .

واشتملت أسواقها على الفواكه [١] بأنواعها مثل الرمان [٢] وكذلك اللحوم [٣] والسمن [٤] واللبن والجبن[٥] والزيت[٦] والادام[٧] والخبز والعسل .[٨]

ولم يكن ما ذكره الرحالة المغاربة هو ما وجد بأسواق الحجاز فقط ، بل حفلت بالغريب ، والطريف ، والغالي ، والرخيص ، وإلى غير ذلك من الأمتعة الفاخرة . [٩]

وخلاصة القول أن أسواق الحجاز زخرت بالعديد من السلع الغذائية ، والكمالية المستوردة ، التي أمسك بزمامها تجارها ، الذين استفادوا مما كان يصل إليها من مختلف البضائع ، فبادروا بالشراء ، ومن ثم بالبيع مرة أخرى على الحجاج .

وكان لوجود ميناء جُدة بالقرب من مكة المكرمة دوره البارز في تعدد السلع التجارية ، القادمة من الهند والصين ومصر وجاوه [١٠] ، إذ هي محطة هامة للمراكب التي تقل السلع المختلفة ، فيقام بها موسم تجاري هام قبل موسم الحج ، تُباع فيه البضائع المجلوبة . وبفضل اشتغال أهل جُدة بالتجارة كوَّنوا ثروات ضخمة [١١] . بالإضافة إلى ما يحمله الحجاج القادمين إليها والذين

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٤١ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

٧ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٢ .

٨ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٤١ .

٩ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٠ .

١٠ـ الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، ج١ ، ص ٢٧٦ ؛ أحمد عمر الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٧٧ .

١١ـ مورتيل : الأحوال السياسية ، ص ٧٥ .

اعتادوا استبدال سلعهم في أسواقها ، ومن ثمّ التهيؤ لدخول مكة المكرمة ومتابعة تجارتهم بها .[١]

الصناعة المحلية وأهم الصناعات اليدوية :

يرتبط قيام أي صناعة توفر مقوماتها ، المتمثلة في المواد الخام والأيدي العاملة الخبيرة والتي قدمت إلى الحجاز إما للمجاورة أو الاستقرار . وفي منطقة الحجاز وجدت بعض المواد الخام ، والأيدي العاملة الماهرة ، والإستقرار السياسي النسبي ، فازدهرت بها العديد من الصناعات اليدوية الدّالة على تمرّس أصحابها في مزاولتها .

وضمت الحجاز مجموعة بشرية ، تحتاج إلى صناعات تخدمهم ، فظهر منها ما يلزم لقوام حياة المستقرّين بها ، من صناعة بناء ونجارة وحدادة ونحت وتذهيب ، وهناك صناعات إرتبطت بالزراعة والرعي والتجارة والبحر . وسنكتفي بذكر ما أشار إليه الرحالة المغاربة في اماكن متفرقة بين دفتي متون رحلاتهم ، وما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية الأخرى .

فمن الصناعات المرتبطة بالزراعة : ذكر العياشي مشاهدته لمحاريث وفؤوس[٢] ، مما يدل علي وجود مَنْ يقوم بصناعتها ، لاستخدامها في الزراعة إلى جانب الكثير غيرها كالمناجل[٣] والغرابيل[٤] ، وقامت على الإنتاج الزراعي بعض الصناعات مثل الحبال[٥] والوسائد[٦] ، التي وجدت صناعتها منذ القرن

١ ـ عائشة عبدالله باقاسي : بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ ، ص ٦٤ ، دار مكة للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م د. م .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ .

٣ ـ سليمان عبدالغني المالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، ص ١٠٣ ، الرياض ، دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٥ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ .

٦ ـ محمد بن محمود بن النجار : أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة ، ص ٣٧ ، تحقيق صالح محمد جمال ، ط٣ ، مكتبة الثقافة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، د. م ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٦ .

السابع الهجري [١] وربما قبله . كما أتقن أهل الحجاز صناعة العطور المستخرجة من الأزهار والورود التي زرع منها الشيء الكثير [٢] ، وخاصة في منطقة الطائف المشهورة بصناعة العطور المستخرجة من الورد .

كما أبدعوا في صناعة الحلويات المصنوعة من الفواكه والعسل [٣] ، وكان قد أشار إليها ابن جبير وامتدح مذاقها وجودتها [٤] . كما اتقنوا صناعة الخصف والحصر [٥] ، والمكانس . [٦]

أما الصناعات المرتبطة بالثروة الحيوانية فهناك صناعات عديدة ، منها ما هو مأكول كالسمن [٧] والجبن [٨] ، ومنها غير ذلك كالدلاء [٩] ، والقِرب [١٠] ، والنعال [١١] المصنوعة جميعها من

---

١ ـ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٣ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٧ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٤ ، ج٢ ، ص ٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٨٣ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٥٦ ، ٥٩ .

٤ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٧ ، ٥٠٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٥٤ ؛ المالكي : بلاد الحجاز ، ص ١٠٣ .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٨ ، ٤٠٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٥٤ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٣/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ١٩٨ على سبيل المثال .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، تحقيق أمحزون ، على سبيل المثال .

٩ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠١ ، المخطوطة .

١٠ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٦/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١، ص ١٧١ ، ج٢، ص ١٠٥ .

١١ـ العياشي : ماء الموائد ، ص١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص١٢٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

الجلود المدبوغة ، وهناك ما هو قائم على صوف الحيوانات مثل الأغطية [١] والخيام [٢] والمظلات [٣] والبسط [٤] والفرش . [٥]

وهناك صناعات ارتبطت بالبناء ، فقد عُرف عن أهل الحجاز إتقانهم مهنة بناء المنازل بالحجارة المقطوعة من الجبال بمكة المكرمة والمتميزة بتعدد أدوارها وارتفاعها ، والمنازل المبنية باللبن والحجارة ذات الطوابق المتعددة بجدة . [٦]

ومما إرتبط بالبناء أيضاً التذهيب والطلاء والزخرفة ، حيث شاهد العياشي العمال المهرة بالمسجد الحرام الذين ارسلتهم الدولة العثمانية وهم يعيدون طلاء وزخرفة ما محاه السيل ، عندما دخل المسجد الحرام في وقت مجاورته . [٧]

وكانت هناك صناعة النجارة [٨] ، كالأبواب والأثاث [٩] والكراسي الصغيرة والكبيرة التي تشبه الأسرة والمنسوجة بشريط المسد بإحكام [١٠] .

١ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩١ .

٢ـ المصدر السابق . ص ٣٩٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٤ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٨ ، ٥٣ .

٥ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٧٢ .

٦ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ، ٨١ ، ١٢٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ ، ١٦٦ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص١٨٩ ؛ جميل حرب : الحجاز واليمن ، ص ١٢٧ .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩١ ، ٣٩٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٧/ب .

٨ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٦ .

٩ ـ المالكي : بلاد الحجاز ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

١٠ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ .

كما وجدت صناعة الشباري [١] والشقادف : وهو محمل كبير لم يوجد إلا بالحجاز ، وهو ذو شقدفين ، يوضع كل واحد على جنب البعير ويقرب بينهما بحبال وثيقة على ظهره [٢] . وقد أشار التجيبي في القرن السابع الهجري إلى الشقادف . [٣]

وراجت صناعة الفخار لعمل الدوارق والأكواز . سواء للإستخدام المنزلي أو للمسجدين المكي والمدني [٤] . وتفنّ أهل الحجاز في صناعة الرّحى لطحن الغلال ، منها الصغير المستعمل في المنازل ، أو الكبير الذي وُجد في أماكن طحن الغلال العامة . [٥]

ولتوفر الذهب والفضة ، قامت صناعة الحُلْي ، التي أدهشت الرحالة المغاربة لجمالها وغرابة أشكالها [٦] . والتي كانت ذات أثمان عالية .

وكان بالحجاز صناعات قائمة على البحر ، ومن أهمها صناعة السفن ، والقوارب والشباك ، وقد رأى العياشي بُجدة سفناً وقوارب أعجب بمتانتها وشدة تحملها وقدرتها علي حمل الأثقال الكثيرة ، بالرغم أنه لم يستخدم في صناعتها إلا الألياف والخشب . [٧]

وهناك صناعات أخرى بالحجاز لم يتطرق إليها الرحالة المغاربة لعدم رؤيتها أو معرفتهم بها .

١- (الشباري) جمع شبرية ، وهي سرير من الخشب والحبال ، له جوانب تمنع السقوط ، يستعمل لحمل العجزة في الطواف ، ويحملها شخصان أو أربع أو على الدواب في المسافات الطويلة . ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٢٩٦ ، هامش ١ ، ولا تزال الشباري موجودة إلى الآن وتستخدم لحمل العجزة للطواف بهم .

٢ - العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٢ ، ٥٤٤ .

٣ - التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٢ .

٤ - المصدر السابق ، ص ٤٦٣ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٨ .

٥ - الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٨ .

٦ - العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٦ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٠ ؛ الحضيكي رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٤ .

٧ - العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ .

جـ - مواطن الزراعة وأهم الحاصلات ومصادر المياه ومشاريعها

مثلت الزراعة بمنطقة الحجاز إلى بجانب التجارة والرعي ، رافداً إقتصادياً لفئة كبيرة من سكانه ، لاسيما الذين أقاموا في منطقة غنية بالمياه الجوفية ذات الآبار ، أو العيون أو التي تتساقط عليها كمية من الأمطار تكفي لإنشاء نطاق زراعي بها . فالحجاز كما هو معلوم لم يَحْظَ بوجود أنهار ، وليس به عيون ماء مستمرة ، لذا إنحصر إعتماد سكانه في الزراعة على المِياه الجوفية أو مياه الأمطار .

تناول الرحالة المغاربة الإشارة إلى الجانب الزراعي في المناطق التي شاهدوها وذكروا أحياناً الطريقة المستخدمة في ريّ تلك المزروعات ، مع ذكر أسماء بعضها .

فقد شاهدوا **مناطق زراعية بدرب الحجاز** ، حيث إنتشرت زراعة النخيل في أماكن متعددة بالدرب ، والتي ارتبطت أماكن وجودها بموارد المياه ، فأشار الرحالة المغاربة إلى كثرة نخيل **العقبة** [١] ، وتوفره **بحفائر النخل** الذي وصف رطبه بالجودة ، إذ يبدو أن الزراعة حظيت بعناية السكان هناك ، فقد أشار الرحالة المغاربة إلى تركز منابت النخيل على ساحل البحر في حدائق وبساتين منظمة ، بالإضافة إلى وجود النخيل والفواكه ، وأرض واسعة خصبة بالقرب منها . [٢]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

أما منطقة **مغاير شعيب** وجد بها أنواع متعددة من الزروع ذكر منها الرحالة المغاربة أشجار الطرف والدوم [١] الذي يخيل للناظر إليه من كثرته أنه نخيل ، علاوة على النخيل ، والعديد من أنواع الفواكه مثل الرمان والأجاص والعنب ، وخاصة الأسود منه ، والذي يثمر مرتين سنوياً ، ويبدو أنه لقى العناية في زراعته فقد أُنشئت له العرائش المتعددة في مزارع خاصة ، كما وُجدت المراعي الخصبة حول المنطقة ، وفي مقابل مغاير شعيب على الساحل أرض خصبة ، زرعت بها أشجار الفواكه . [٢]

واختصت **عيون القصب** بزراعة القصب ، الذي يبدو أنه أخذ اسمه مما يزرع به ، بالإضافة إلى زراعة النخيل والديس [٣] ، وأيضاً وجدت أرض صالحة للزراعة أعلى وادي عيون القصب ، علاوة على وجود المراعي الخصبة الواسعة بالقرب منها . [٤]

وشهدت **المويلح** نهضة زراعية لا بأس بها ، فقد أقيمت بها البساتين الكثيرة وكان فيها النخيل ذو الرطب الجيد ، بجانب ما وُجد بها من بساتين المقاثي . [٥]

---

١ ـ (الدوم) شجر معروف ، ثمره المقل وهي قعيل وتسمو ولها خواص النخل ، وتخرج أقناء كأقناء النخلة ، فالدوم شجر يشبه النخل إلا أنه يثمر المقل ، وله ليف وخوص مثل ليف النخل ، أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٢ ، ص ٢١٨ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧١ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٤/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ، ج٢، ص ١٠٧ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٢ .

٣ ـ (الديس) نوع من أنواع الحشائش ، ويطلق على موقع نمو هذه الحشائش الديسه . انظر الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٦٢ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ، ٥٥٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

أما الأودية الواقعة بعد المويلح فنبت بها أشجار الأراك في مساحات واسعة ، لدرجة حملت الأودية إسم الأراك ، فأطلق مسمى (وادي الأراك) على عدة أودية ، إضافة إلى إنتشار شجر الأثل **بأودية الحوراء** ، وأحيط به نبات الديس بكثرة . [١]

ومن أنواع النباتات التي انتشرت بدرب الحجاز ، شجر الطلح وغيره من الأشجار الرعوية ، إذ امتد ذكر هذه الأشجار من **أكره إلى الحوراء** ، والمعروف أن الطلح من أنواع الكلأ الجيد ترعاه الإبل بكثرة ، وهذا ما جعل درب الحجاز من أجود المناطق الرعوية ، التي شملت إلى جانب أشجار الطلح الكثير من الشجيرات الملتفّة التي تظهر بسرعة عقب سقوط الأمطار . [٢]

أما ينبع : فقد أجمع الرحالة المغاربة على كثرة زراعة النخيل بها ، الذي إشتهر بجودة رطبه ، وقد استخدم مزارعو ينبع المساحات الفاصلة بين النخيل لزراعة المقاثي ، وغيرها [٣] . والغريب أن اليوسي حذر من أكل ثمار ينبع عندما قال : « وأحذّرك غاية الحذر أن تجنب أكل ثمره ، فإنه قتّال فإن كان ولابد فلا تكثر منه » . [٤]

وربما يعود تحذير اليوسي من أكل أثمار ينبع إلى تعوّد الرّكب على نمط معّين من الأكل خلال رحلتهم ، وعندما يتم تغييره يحدث نوعاً من الألم بالمعدة ،

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٨ ، ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٣ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ، ١١٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٣ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٣ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ .

٤ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/ب .

أو أن ظروفاً صحية حدثت لليوسي عندما أقام في ينبع ، واعتقد أنّ سببها ما أكل هناك . ولهذا لا يمكن أن نقول برداءة ثمار ينبع بسبب حالة معينة حدثت لأحد الرحالة ، فلو حدث إجماع من كل مَنْ عبر هذا البلد على ذلك ، فقد نسلم بذلك بعد مناقشته .

ولفتت إنتباه الرحالة المغاربة كثرة مزارع النخيل **ببدر** ، ورخص أسعار ثمارها بالإضافة إلى العديد من المزارع الأخرى ، فبدر كما وصفها الرحالة المغاربة مشتملة على قرى عدة [١] . وما وجد ببدر من نخيل ومقاثي وفواكه ، وُجد أيضاً **بالجديدة والصفراء وقبور الشهداء** ، فقد أشار الرحالة المغاربة إلى أن بساتين النخيل والفواكه تحف بالجديدة من جميع جنباتها ، فذكر القيسي كثرة جنانها المحتوية على مختلف الفواكه ، الصيفية والخريفية التي تنتج في وقت واحد ، وقد تزوّد من ثمار تلك الفواكه ولكنه لم يحدّد أنواعها . [٢]

أما منطقة **رابغ** فقد ازدهرت فيها الزراعة واشتد عودها كثيراً ، الأمر الذي تبيناه من خلال وصف الرحالة المغاربة المتعاقبين على المرور عليها ، وما ذكروه عن الجانب الزراعي يعود على الأرجح إلى استيطان السكان فيها ، خاصة ممن له معرفة زراعية ، فمن جملة ما وجد بها النخل الكثير ، ومزارع الدخن والذرة ، والكثير من مزارع المقاثي والفواكه ، حيث أجمع الرحالة المغاربة على أن وادي رابغ من أخصب أودية الحجاز ، وأنه كثير الفواكه والخير والإنعام . [٣]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٥ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص٩٩؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٩٩ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٧ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣٨ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ١٨١ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٣ .

امتدت المساحات الزراعية من رابغ ، ففي **قديد** زُرع الكثير من الفواكه والمقاثي والحبحب . [١]

ووجد **بخليص** الكثير من المزارع ، التي تُمدّ مكة المكرمة بما تحتاجه من الخضروات والفواكه والرياحين ، كما انتشر بها زراعة النخيل ، والدخن والمقاثي ، بجانب العديد من أشجار الأثل والأشجار البرية والحبحب الذي وصف بالحلاوة . [٢]

ولم تعدم **عُسفان وبرقة** من دوحات الأشجار الملتفة من الأثل ، التي زرعت بينها المقاثي والدخن والخضروات ، لدرجة أن الرافعي وصف عُسفان بالجنان الحسان ، بالإضافة إلى أنواع من الأزهار والورود ذوات الروائح العطرة ، فكانت مزارع عُسفان وبرقة لكثرة ما يزرع بها من المقاثي والخضروات تمد مكة المكرمة وجُدة بما تحتاجانه . [٣]

أما وادي فاطمة: فقد تحدث الرحالة المغاربة عن كثرة نخيله ، ومزارعه، وتعدد ثماره ، وخضرواته ، بالإضافة إلى العديد من مزارع البطيخ ، واختص مزارعو وادي فاطمة بزراعة الأزهار والورود ، وخاصة شجر الكادي وانتشرت المزارع الكثيرة الخاصة به ، الأمر الذي أدىّ إلى انتشار رائحته الشذية التي لفتت إنتباه الدرعي . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماد الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٢ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ ، ٨٦ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ج٢ ، ص ٤٩ ، الطبعة الحجرية ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٦ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٧ .

وقد وجد بين مكة المكرمة وجُدة العديد من البقع المزروعة ، التي شاهدها العياشي ، مثل حداء [١] التي شاهد بها أشجار الأثل ، والمزارع التي لم يسمّ ما زُرع بها ، بجانب العشب الكثير ، كما وجد بعدها بمسافة مزرعة ، ذكر أنها من المزارع المشهورة التي اختصت بزراعة الحبحب الجيد الذي يجلب منه إلى مكة المكرمة كميات كبيرة [٢] . ولعل هذه المزرعة هي التي كانت تعرف بعين سليمان في القرن السادس الهجري . [٣]

وشاهد العياشي بين مكة المكرمة والطائف بوادي نعمان الكثير من شجر الأراك ، والعديد من الأزهار البرية ، أما جبل كرا فنبت به شجر العرعر بكثرة ، علاوة على ما وجد بالهدا من مزروعات كثيرة لم يسمّها العياشي ، أما وادي محرم ففيه أشجار من مختلف أنواع الفواكه داخل بساتين وحدائق . [٤]

أما الطائف فكانت عبارة عن جنان حافلة بالنخيل [٥] ، والكثير من أنواع الفواكه ،كالأعناب ، والسفرجل ، ووصفهما اليوسي بأن لا نظير لهما . [٦]

وفي المدينة المنورة إنتشرت الزراعة إنتشاراً واسعاً ، وخاصة زراعة النخيل ، حيث كان القادمون إلى المدينة المنورة يرونه ابتداءاً من جبل مفرح وذي الحليفة . يحيط بالمدينة المنورة كاحاطة السوار بالمعصم . ثم أن الداخل إلى المدينة المنورة كان يشاهد النخيل على جانبي الطريق مضفياً ظلاله

---

١ ـ (حداء) : عين جارية بمر الظهران يمر بها طريق مكة المكرمة إلى جُدة على ٢٩كم بين الحديبية وبحرة وهي حداء وليست حدة ، انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص ٢٤١ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٢ .

٣ ـ ابن المجاور : تأريخ المستبصر ، ص ٤١ ؛ نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ، ص ٢٤١ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ .

٥ ـ وهو أمر مستغرب لأن الطائف لا تشتهر بزراعة النخيل .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٤١١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٦٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ .

عليها ، واعتاد أهــل المدينة المنورة الخروج للتــنزه ببساتين النخــيل الكثيرة . كما كثر بها عرائش العنب والفواكه والرمان ، بالإضافة إلى العديد من الخضر كالجزر والبقلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت ، والخضر البرية مثل الخبيز ، علاوة على الرياحين والأزهار . وقد أنتشرت المزارع والحدائق سواء منها الكبيرة أو الصغيرة حول جبل أُحد والبقيع وما حولهما . وأحاط النخيل بقباء من أكثر جهاته ، وكذلك وجد النخيل بالقرب من باب الشامي ، وخارج المدينة المنورة جهة باب المصـري ، وعلى طريق العـقـيق ، وفي عـوالي المدينة المنورة التي وصُـفت حدائقها بالجمال ، كما وجد بالحرة الغربية والشرقية ، وعموماً فالمدينة المنورة كانت عبارة عن حديقة كبيرة انتشرت بها أنواع النباتات المختلفة التي كانت تسدّ حاجة السكان .

ويبدو أن الذي ساعد على ازدهار الزراعة كثرة المزارعين من غير أبناء المدينة المنورة ، إستقروا بها وامتلكوا المزارع ، وألفوا كتباً في الفلاحة .[١]

أما مكة المكرمة فلم تخلُ من الزراعة ، فقد وُجد بها مساحات من الأراضي المزروعة ، حدد أماكن بعضها الرحالة المغاربة وغيرهم من المؤرخــين ، ومن هذه المناطق الزراعــية الزاهــر الذي وصــف بلفظ بديع يعبر عما وجد به من مزارع وأشجــار وخضـروات بقولهــم « جنان مكة »[٢] . كما وُجد العديد من البساتين بالمسفلة .[٣]

---

١ ـ القيسي : أنس السارى ، ص ٩٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٤٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ـ ١٥٩ ، ١٦١ ـ ١٦٢ ، ١٧٥ ـ ١٧٦ ، ١٩١ ، تحقيق أمحزون ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٧ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ١٠٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٦ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٣٧ ، ١٧٢ ؛ الأنصاري : تحفة المحبين ، ص ٤٢ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٨ .

٣ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ٩٣ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٠٩٩ .

ومما سبق نلحظ أن منطقة الحجاز في بعض بقاعها شملت العناصر الطبيعية المتكاملة لقيام نشاط زراعي بها ، من مطر وحرارة ومياه جوفية وتربة خصبة وعناصر بشرية وحيوانات عديدة ، إذ توفرت البيئة الرعوية جنباً إلى جنب مع البيئة الزراعية . [١]

فشهد الرعي والزراعة فترات من الإزدهار الملحوظ ، وخاصة في المناطق التي تقع على طريق الحج أو الموانيء التي كانت تمثل أسواقاً في نفس الوقت ، كالمويلح وينبع .

وقد أيد المؤرخون والباحثون ما ذكره الرحالة المغاربة عن الزراعة وحاصلاتها بالحجاز ، وأضافوا ذكر بعض أنواع الحاصلات الزراعية والخضر والفواكه ، وحددّوا أماكنها . [٢]

الثروة الحيوانية :

وكما وجدت الأراضي الزراعية وجدت بجانبها المراعي ، التي ساعدت على تكاثر الثروة الحيوانية ، ولم يغفل الرحالة المغاربة ذكر أماكن المراعي الخصبة ، مثل ذكرهم لمغاير شعيب ، ثم عيون القصب ، وبين الدركين . وأشار الرحالة المغاربة أيضاً إلى وجود مراعٍ شاسعة ببدر وما حولها ، حتى أن القيسي شاهد أعشاش الرعاة متناثرة بها . [٣]

---

١ ـ د/ عمر الفاروق السيد رجب : الحجاز ـ المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ـ أرضه وسكانه ـ دراسات ايكولوجية ، ص ٢٧٢ ، جدة ، دار الشروق ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٢ ـ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ؛ جميل حرب : الحجاز واليمن ، ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ؛ الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

ومارس الرعاة من الأعراب التجارة جنباً إلى جنب مع أفراد الرّكب ، ويقبضون مقابل ما يبيعونه نقوداً ذهبية وفضية . [١]

وقد امتدح العياشي حمير الحجاز ، التي لم يَرَ لها نظير في سرعتها ، وغلاء أسعارها [٢] . كما توفر الخيل والبغال والحمير والبقر بمكة المكرمة [٣] . ووجد البقر بالوجه أيضاً . [٤]

وحازت لحوم الحجاز سمعة طيبة ، إذ نالت إعجاب الرحالة المغاربة ووصفوها بأنها في غاية الجودة ، وطيب المذاق ، سواء في حالة هزالها أو سمنها . [٥]

والجدير بالذكر أن نمط الرعي بالحجاز إرتبط ارتباطاً قوياً بموسم الأمطار ، وظروف المكان الطبيعية ، حيث كان لهذين العاملين أكبر الأثر على ازدياد وتطور مهنة الرعي المعروفة منذ القدم . [٦]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٧ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ، ٢٢٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ، ١٧١ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٩ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠١ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٣٩٥ ، ٤٠٥؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٩٨ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٦ .

٥ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ ـ٩٩ ؛ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٦، تحقيق أمحزون ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٢/أ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٤ .

٦ ـ د/ عمر رجب : الحجاز ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .

ولـم يقتـصر أهل الحجاز علـى تربية الحيوانـات والاستفادة منها ، بل تعـداه إلى تربيـة الحشرات المفـيدة ، إذ لقيت تربيـة النحـل اهتمامـاً بالحجاز منذ القدم ، فقد استخدم النحل لأغراض دفاعية وهي اطلاق النحل على الاعداء ، واقتصاديـة فـي الجاهلية [١] . أما بعد ذلك فأقتصرت تربيته على الناحية الاقتصادية . [٢]

مصادر الماء بالحجاز :

كان جُلّ اعتماد أهل الحجاز في شربهم وزراعتهم على المياه الجوفية ، من عيون وآبار ، بالإضافة إلى ما يستنقع من مياه الأمطار الموسمية ، أو مجاري سيولها . وحيثما وُجد الماء وجدت الزراعة كما في العقبة ، وحفائر النخل ، ومغاير شعـيب ، وعيـون القـصب ، والمويلح ، وينبع ، وبدر ، والجـديدة ، والصـفـراء ، وخليص ، وعُسفان ، ومر الظهران ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والطائف .

ويعتبر المطر المصدر الرئيسي لمياه الرّيّ اللازمة للزراعة بالحجـاز ، حيث اعتـمد على ٥٣,٩١٪ من جملة المساحة المزروعة بالحجاز ، وذلك فـي منطقة الطائف . أما المصدر الثاني للمياه فكانـت الآبار ، إذا إعـتمدت في زراعتها نحو ٣٨,٦٢٪ من جملة المساحة المزروعة خاصة في المدينـة المنورة . أما المصدر الثالث فهي العيون ، ولا تزيـد نسـبة الأراضـي الزراعية المعتمدة عليـها عن ٧,٤٧٪ من جملة المساحة المزروعة وبشكل كبير في المدينة المنورة وينبع . [٣]

---

١ ـ ابن المجاور : تأريخ المستبصر ، ص ١٤ .

٢ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٦ ـ٩٨ ؛ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٢٤، تحقيق أمحـزون ؛ الدرعي : الرحـلة الناصريـة ، ج١ ، ص ١٩٨ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٧ ، ٩ .

٣ ـ د/ عمر رجب : الحجاز ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٧ .

مشاريع المياه :

أقامت الدولة العثمانية في منطقة الحجاز بعض مشاريع المياه الضخمة ، التي خدمت أهلها والوافدين عليها ، كما أسهم أشراف الحجاز في إقامة مشاريع صغيرة للمياه [١] ، بالإضافة إلى مساهمة بعض المجاورين الموسرين [٢] ، الذين اكتفوا بإنشاء ما يناسب قدراتهم المالية ، من بناء أسبلة للماء [٣] ، أو حفر للآبار في المناطق التي تفتقد إليه لتيسير عبورها بدون مشقة [٤] ، كما وجدت بعض جهود ذاتية وقتية ، لتوفير الماء ، والتي تنتهي برحيل القائم بها عن المنطقة [٥] . وساهم أمراء الحج أيضاً في بناء البرك على درب الحجيج من أجل الحصول على الماء بسهولة . [٦]

وبالرغم مما وجد بالحجاز من مشاريع للمياه ، إلا أنها لم تكن كافية ، فقد ارتفعت أصوات الرحالة المغاربة بالشكوى من نقص الماء في أماكن عديدة ، لأن معظم تلك المشاريع الصغرى كانت تؤول إلى الخراب بعد فترة من الزمن لقلة الإهتمام بمتابعتها وصيانتها .

وخُصَّت المدينتان المقدستان بالإهتمام الأكبر لتوفير الماء بهما ، **ففي مكة المكرمة** وُجِد بئر ماء بالتنعيم ، اقتصر استعماله على الاغتسال والوضوء للمعتمرين هناك [٧] . كما أنشيء بالزاهر سبيل ماء سماه الرحالة المغاربة بسبيل الجوخي . ولتوفر الماء هناك أقيمت المقاهي كثيرة ، للإستراحة

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١١٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ .

٥ ـ المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، ١٧١ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٩؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٦٦ .

٧ ـ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٠٧ .

والتزود بالماء سواء عند الذهاب للعمرة ، أو عند الرجوع منها [١] ، وما قيل حول الزاهــر في هذه الفـتـرة سبق أن قاله ابن بطوطة والبلوي في القرن الثامن الهجري . [٢]

وخصّ الرحالة المغاربة بالذكر آبار ذو طُوى [٣] التي ذكرها قبل ذلك ابن جبير [٤] ، وكانوا يغتسلون منها قبل دخولهم لمكة المكرمة إقتداءً بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . [٥]

ورأى الرحالة المغاربة بالجعرانة [٦] بئرين كبيرين مبنية بالحجر المنحوت ، وأقيم حولهما بساتين غناء ، وماؤهما عذب غزير . [٧]

وأجمع الرحالة المغاربة على ندرة الماء **بمنى وعرفة** ، إذ على الذاهب لإحداهما التزود بالماء من المشعر الحرام وحمله إليهما ، وقد تجشم العياشي مشقة حمله إلى عرفة في حجته الثالثة ، فوجد أن أحد كبار رجال الدولة العثمانية الـذي لم يذكر إسمه ، قام بتسبيل الماء بها ، إذ كان يبعث مَنْ يحضره طوال يوم

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٤ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٨ .

٢ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٩ .

٣ ـ تعرف اليوم بجرول ، ولم يبق هناك إلا بئر واحدة ، ذكر أن الرسول ﷺ اغتسل وتوضأ منها ، ومياهها اليوم غير صالحة للشرب ، ويقع البئر اليوم أمام مستشفى الولادة بمكة المكرمة .

٤ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٧ ؛ روى البخاري في باب الإغتسال عند دخول مكة المكرمة عن ابن عمر ، أنه كان يبيت بذي طوى ، ثم يصلي به الصبح ، ويغتسل . ويحدّثُ أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك . أنظر البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج١ ، ص ٢٧٤ ، انظر رسم رقم (٢) .

٦ـ أصبحت الجعرانة الآن من ضواحي مكة المكرمة القريبة العامرة بالسكان ، وبها البئر الذي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتسل منه عندما دخل مكة المكرمة محرماً بالعمرة بعد غزوة حنين ، وهذا البئر الآن غير صالح للشرب ، ويقع خلف المسجد المقام هناك للإعتمار . انظر رسم رقم (٣) .

٧ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤٠٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٣٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج١ ، ص ٢٠٧ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٦٨ .

عرفة ، فانتفت حاجة الحجاج للماء الذي حملوه معهم ، وأشار الحضيكي إلى وجود عين ماء تجري بعرفة [١] . مما يدل على وجود الماء وقت رحلته .

واتفقت أقوال الرحالة المغاربة على توّفر الماء **بالمشعر الحرام** ، إذ اعتمد الحجاج عليه سواء كانوا بمنى أو عرفة ، ويبدو أنه كانت هناك عين ماء أو بئر غزيرة ، حيث أقيمت ساقيتان نصب عليهما الدلاء ، وهذه البئر أو العين دون مستوى الأرض ، إذ ينزل إليها بدرج ، وكان هذا الماء يخدم عموم الحجاج . [٢]

ويظهر أنه قد أنشئت بركة ماء كبيرة فيما مضى **في وادي مِحَسّر** ، ليتمكن الحجاج من التزود بالماء منها ، ولكن وصفها الرحالة المغاربة بالخراب طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، مما يعني عدم الإهتمام بإصلاحها خلال هذه الفترة ، كما وجدت بركة ماء يتزود الحجاج منها بالماء بين منى ومكة المكرمة . [٣]

وكانت أهم مشاريع المياه بمكة المكرمة مشروع عين زبيدة ، التي أوصلها العثمانيون إلى داخل مكة المكرمة عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م ، والتي بدأ العمل بها عام ٩٦٩هـ/١٥٦١م [٤] . وقد أطنب العياشي في وصف عظمة بنائها واعتناء الدولة العثمانية بصيانتها باستمرار ، فقال : « انه عندما ذهب إلى الطائف سلك الطريق الذي مُدَّت به » . وقال : « أن منبعها من أصل جبل الكُر وهي مارة بعرفة ، ثم بالمشاعر المقدسة ، منتهية بمكة المكرمة ، وكان إعتماد أهل مكة المكرمة عليها في

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤٩ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٠/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٥ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٣ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٥ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٣ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٩٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٣١ .

٤ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ٧٥ ، ٩٢ ، ٩٤ .

وقت رحلته . وقد لفت نظره طريقة بنائها التي قال عنها : إنها تدل على عظمة وفخامة ملك آل عثمان وعظم اعتنائهم بأمر الحرمين ، إذ شاهد عند كل غلوة أو غلوتين جزءاً مكشوفاً منها ، عليه بناء محكم ، والعمال مجدّون في إصلاح ما قد تهدم منها ، وتنظيف ما تهدم ، وقد ركب عليها ساقية يجري ماؤها على وجه الأرض . [١]

وأضاف الحضيكي ، أن مياه هذه العين قد سدت إحتياجات أهل مكة المكرمة ، إذ خرجت تمديداتها بين منازلها ، وأستخدمت مياهها في ملء بركة ضخمة بنيت بالمعلاه لمساعدة الحجاج على الإستقاء والغسل بيسر ، كما أوصلت هذه العين إلى سقاية أنشئت بالمروة ، إضافة إلى مد ميضأة المسجد الحرام بالماء [٢]. كما وجدت سقاية داخل المسجد الحرام سماها الغنامي سقاية العباس الخاصة بزمزم . [٣]

وما أورده الحضيكي ورد عند الطبري الذي قال : إن عين زبيدة أو عرفات ، أوصلت إلى المدعى ، ثم المروة ، من جهة سويقة .. وعطف بها على سوق الصغير ، ثم بُني لها سبيل ماء عند سوق المعلاة . كما أشار إلى وجود خدم لهذه العين كما ذكره العياشي قبل ذلك ، حيث قال : « إن أصل وجودهم كان بسبب ناظر العين والقائم على العمل بها ، إذ اشترى عبيداً سوداً وجوارٍ سود بمال السلطنة ، وزوجهم ، وجعل لهم ما يكفيهم من خزينة الدولة ، وصاروا يتوالدون طبقة بعد طبقة ، ومهمتهم الأساسية هي العمل على إصلاح العين باستمرار . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٤١٠ ، ٤١٦ .

٢ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٤٣ .

٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٤٤ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ .

٤ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ٩٤ ، ٣٤ .

وكما وجدت مشاريع لإيصال الماء لمكة المكرمة ، وجدت أيضاً مشاريع لتصريف المياه ، وخاصة تلك التي كانت تتجمع بالحرم المكي عقب السيول ، فبنيت قنوات صغيرة مهمتها تصريف الماء منه ، وقد وُجدت منذ القرن السابع الهجري وربما قبله بكثير ، إذ أشار إلى وجودها كلٌّ من العبدري ، والتجيبي ، اللذين شاهداها وهي مكشوفة ، لإصلاحٍ إحتاجت إليه في ذلك الوقت . [١]

وهناك قنوات أضخم من تلك التي شاهدها العبدري والتجيبي مهمتها تصريف مياه السيول ذات الكميات الكبيرة ، فقد ذكر العياشي أنه بعد دخول السيل للمسجد الحرام عام ١٠٧٣ هـ/ ١٦٦٢م ، وامتلائه بالماء ، إحتار الناس في كيفية إخراجه ، لعدم اهتدائهم إلى موضع البلاليع المعدّة مسبقاً لتصريفه ، وبقوا كذلك إلى أن دلهم عليها الشريف زيد ، فغاصوا إلى أماكنها وفتحوها فغار الماء . وأضاف : أنه بعد ذهاب السيل ، نُظّفت مجاري الماء التي ملأها السيل بالأتربة [٢] . وهذا حدث أيضاً في عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م عند وجود أبومدين بمكة المكرمة . [٣]

وما ذكره العياشي أيد وقوعه الطبري في أحداث تلك السنة ، وأضاف محدداً موقع تلك القناة الضخمة ، بأنها عند باب إبراهيم ومنها يتسرب الماء إلى أسفل مكة المكرمة [٤] . وذكر دحلان في حوادث تلك

---

١ ـ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٨٠ .

٤ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ١٥٨ .

السنة وقوع ما ذكره أبو مدين [١] . ولأهمية تلك القنوات كان أمر فتحها بيد شريف مكة المكرمة . [٢]

ففي ذي الحليفة ذكر القيسي وجود ثلاثة آبار ضخمة ، محكمة البناء غزيرة الماء بنى لها درج من أعلاها إلى أسفلها ، ويبدو أن الموقع ناله بعض إضافات معمارية في زمن رحلة العياشي إذ أشار إلى وجود سبيل ماء هناك ، لم يذكره القيسي ، كما أضاف الحضيكي وجود صهريج ماء هناك لم يذكره مَنْ سبقه [٣] . مما يدل على أن إقامة مشاريع المياه هناك كانت تتم على فترات زمنية مختلفة ، وكما كانت المشاريع تقام على فترات زمنية ، أقيمت إضافات على هذه المشاريع لخدمة الموقع ورواده ، على فترات زمنية أيضاً .

واشتهرت **المدينة المنورة** بكثرة آبارها وعيونها ، لذا أقيمت بها السقايات والبرك ، وسُبل الماء ، في أماكن كثيرة منها ، وقد رصد الرحالة المغاربة أماكنها ووصفوا البناء الذي أقيم عليها ، ومَنْ يقوم على استغلالها وصيانتها .

وتحدث العياشي عن عين الأزرق بالمدينة المنورة ، فذكر : أن منبعها من بئر كبيرة ، موجودة بحديقة ، بالقرب من بئر أريس [٤] الذي يمدها هو أيضاً بالماء ، بجانب آبار آخرى كثيرة . وذكر : أنه قد أُنشيء لهذه العين قنوات تحت الأرض ، محكمة البناء إلى أن تصل إلى بطحان ، ثم إلى غربي المدينة المنورة ،

---

١ ـ أحمد زيني دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبى عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام ، ص ١٩٢ ، بهامش التاريخ المسمى بالإعلام باعلام بيت الله الحرام وهو تاريخ مكة المشرفه حرسها الله ، ط١ ، مصر ، د. ت ، المطبعة الخيرية .

٢ ـ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ج١ ، ص ٩٤ ، ٩٦ ، ١٣٨ على سبيل المثال .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٩٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٧٧ .

٤ ـ (بئر أريس) سقط به خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان رضى الله عنه وعرفت ببئر الخاتم . أنظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤١ ـ ٤٣ . انظر رسم رقم (٤) .

وقد قسمت إلى جداول ، فأدخل ما احتيج منها إلى داخل المدينة المنورة على شكل مناهل متعددة ، بُنيت بإتقان شديد ، يهبط إليها بدرج ، قُدّر عددها بثلاثين درجة، بُنيت ورُصفت بدقة ، علاوة على سعة الممشى ، وتلك المناهل كانت عماد أهل المدينة المنورة في السقي ، وقد رأى الرحالة المغاربة عدة مناهل ، منها :

أولاً : شرقي المسجد النبوي بينه وبين باب البقيع في مكان يسمى الحرة .

ثانياً : خارج باب السلام من الناحية الغربية عند سوق المدينة المنورة بالبلاط .

ثالثاً : شامي المسجد ، وبعيداً عنه إلي ناحية باب الشامي .

رابعاً : شرقي جبل سلع وفي قبلة مسجد هناك ، حيث يوجد مجرى للعين ، بالقرب من شهد حمزة رضي الله عنه غربي المسيل جهة القبلي .

كما ظهرت في أماكن متعددة خارج المدينة المنورة وهي حيناً تقرب من سطح الأرض وحيناً تبعد داخلها إلى أن تخرج قريباً من الغابة شرقي مسجد رُومة ، حيث توجد مزارع تروى منها ، وشاهد العياشي منها جدولاً قريباً من مسجد الراية يهبط إليها بثلاث درجات . وأشار إلى أن جميع الأسبلة الموقوفة بالمدينة المنورة إنما هي من عين الأزرق ، وذكر أن الدوارق التي توضع بالحرم النبوي للشرب إنما تملأ منها ، وأضاف أن الدولة العثمانية قد اعتنت بهذه العين ، إذ خصصت لها أوقافاً وأميراً وأتباعاً ، مهتمهم تفقّد أحوالها ، والعمل على إصلاح ما قد يتهدم منها ، ولولا ذلك لدثرت كغيرها من عيون المدينة الأخرى .[1]

واشارة العياشي والدرعي وأبو مدين عن مناهل عين الأزرق أيد مواقعها وطريقة بناء قنواتها وسقاياتها الخياري .[2]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ ، تحقيق أمحزون ، ج٢ ، ص ٩٩ ، الطبعة الحجرية ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٨ ، ٣٠ ، ٣٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ ، ١٥٠ .

٢ ـ أحمد ياسين أحمد الخياري : تأريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ، ص ٢١٠ ـ ٢١٤ ، تعليق وإيضاح وإضافة وتخريج عبيدالله محمد أمين كردي ، طـ١ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ، المملكة العربية السعودية ، دار العلم للطباعة والنشر .

وإنفرد القيسي بذكر عين تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووصفها بقوله : إن عليها بناء ، مستديراً ومنبع العين من وسطها ، كأنه الحوض المستطيل ، وتحته سقايتان مستطيلتان ، وبين كل سقاية والحوض حاجز ، وينزل اليها بدرج عددها خمسة وعشرون درجة ، وماء العين غزير .[١]

وقد حدد ابن جبير والبلوي موقعها سابقاً ، حيث قالا : « إنها بين المدينة المنورة والخندق على يمين الطريق » ، واتفقا في وصفها مع القيسي ، وأضافا أن أهل المدينة المنورة يستخدمون مائها في شربهم وغسل ملابسهم ، وأشار ابن جبير أنهم يستعملون طريقة الإستقاء لتناول الماء حفاظاً على نظافته[٢] . وأمدنا ابن النجار بقصة ابتداء أمرها ، فقال : « كانوا أيام الخندق يخرجون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخافون البيات ، فيدخلون به كهف بني حرام فيبيت فيه ، حتى اذا أصبح هبط ... ونقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العينية التي عند الكهف فلم تزل تجرى حتى اليوم .. أن هذه العين ظاهر المدينة وعليها بناء وهي مقابلة المصلى » .[٣]

ولم تعد تعرف هذه العين زمن السمهودي إذ دُثرت ومحي أثرها ، وقد ناقش السمهودي قضية أن تكون إحدى مناهل عين الأزرق ، ورجح أنها العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، معللاً ترجيحه اتفاق ابن جبير وابن النجار في وصفها ، لذا أبعد كونها عين الأزرق .[٤]

أما الفيروز أبادي فأكد على أنها عين الأزرق[٥] . بينما ذكر علي حافظ أن الكهف معروف الآن عند أهل المدينة ، ولكنه لم يوضح ما إذا كان به ماء أم لا .[٦]

---

١ ــ القيسي : أنس الساري ، ص ١٢٠ .

٢ ــ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ ــ ١٧٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٩٠ .

٣ ــ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٩ .

٤ ــ السمهودي : وفاء الوفاء ، ج٣ ، ص ٩٨٥ .

٥ ــ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٢٩٥ .

٦ ــ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة ، ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، د. ت .

ومما سبق نستغرب وصف القيسي لهذه العين المطابق تماماً لما أورده ابن جبير قبل قرون ، مع الأخذ في الإعتبار أن السمهودي الذي عاش في القرن العاشر الهجري يؤكد على أنها دثرت ومُحي أثرها فالقيسي بعد أكثر من قرن يذكرها بوصف مطابق لابن جبير ؟ فلعل القيسي نقل وصفها من ابن جبير ولم يشر لذلك ، وهذا هو التفسير المنطقي ، مع ملاحظة إغفال باقي الرحالة المغاربة ذكرها الامر الذي يؤكد إندثارها .

وُجد بالمدينة المنورة **سقايات ومياضيء** ، إذ ذكر القيسي أن بها ثلاث سقايات داخل باب الحديد ينزل إليها بدرج ، وماؤها عذب نمير ، وهي على مقربة من المسجد النبوي .[١]

وأشار الرحالة المغاربة إلى وجود بناء متسع بالقرب من مشهد حمزة رضي الله عنه ، بداخله بئر ، وأخلية للوضوء ، متصلة بالسطح ، كما أشاروا إلى وجود بئر أخرى كبيرة هناك ، بجانبها بناء يشبه المسجد ، وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج [٢] . وأكد وجودها القيسي قبل ذلك وذكرها بلفظ سقاية .[٣]

وذكر إبراهيم رفعت أن الأشْرفَ قايتباي كان قد حفر خارج البناء بئراً بدرج يفضي إلى الماء [٤] . ويبدو أن هذا البناء هو الذي وصفه الرحالة المغاربة .

وحدّد العياشي أخلية للوضوء ، بجانب بئرين بالقرب من مشهد إسماعيل ، وفي موضع آخر ذكر أن هناك بئراً تنسب له ، وبئراً ثالثه ، في الرحبة الواسعة خارج المشهد .[٥]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٢ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٧؛ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص١٢٧ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية، ج٢ ، ص ٢٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٠ .

٣ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٧ .

٤ ـ إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ٣٩٢ ؛ الخياري : تأريخ معالم المدينة ، ص ١٣٧ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٩٥ ، ١٧٥ ، تحقيق أمحزون .

وقد وجد تحت المئذنة السليمانية أمكنة للخلاء ، وبئر للوضوء ، وشرب الماء [١] . وحدّد الدرعي موقع ماجل ماء ، ينزل إليه بدرج بالقرب من مسجد أبى بكر رضى الله عنه وعند الباب المعروف بباب علي . [٢]

وشاهد الرحالة المغاربة ميضأة كبيرة آخر المسجد النبوي بها بئر كبيرة ، وأخلية للوضوء يفتح بابها على المسجد النبوي ، واستخدامها قاصر على أغوات المسجد النبوي ليلاً بعد قفلهم لأبوابه . [٣]

الآبار بالمدينة المنورة :

كان بالمدينة المنورة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين آباراً كثيرة ، ذكر الرحالة المغاربة بعضها .

ومن هذه الآبار المهمة **بئر أريس** الواقعة بحديقة ، غربي مسجد قباء ، وقريباً منه ، ولغزارة مائها أنشيء بقربها بركة يرفع ماء البئر إليها ، كما تمدّ هذه البئر الحديقة بما تحتاجه من ماء والتي زرع بها مختلف أنواع الفواكه والأشجار . [٤]

ولا يختلف ما أورده الرحالة المغاربة في مجمله عما أفاض فيه مؤرخو المدينة المنورة في وصف بئر أريس ، وإبتداء أمرها ، والتجديدات المتوالية عليها، وفضلها [٥] . وتحدث عن هذه البئر المؤرخون ، ومنهم عبدالقدوس الأنصاري ، الذي ذكر أن البئر ليس بها ماء عام ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م ، وأن عمقها ١٢م وتبعد

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٧٨ ، تحقيق أمحزون .

٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٢٣ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ٢٣٢ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٥٣ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٠ ، تحقيق أمحزون .

٥ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤١ ـ ٤٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٤٨ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٢٥ ـ ٢٩ .

عن مسجد قباء نحو ٣٨م [١] ، وأضاف علي حافظ أن ملكية البئر آلت إلى البلدية بعد قيامها بانشاء ميدان مسجد قباء في أواخر سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م . وتبعد البئر عن باب المسجد بحوالي ٤٢م جهة الغرب ، وهي الآن ناضبة ، ويمكن إخراج مائها بالإرتواز [٢] . وحدد الخياري موقعها الآن بأنه مقابل الباب الغربي الأوسط لمسجد قباء على بعد خمسين متراً تقريباً ، وتحت الرصيف المتوسط بين جانبي خط الاسفلت . [٣]

وذكر القيسي أن بئر أريس بالقرب من مسجد قباء وعلى طريقه مقابل مسجد قباء في غربه ، وقع فيها خاتم النبي صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه . وأشار إلى أن متولي العمارة للسبيل والبركة المقابلتين للمسجد ، قد رفعا جدار البئر نحو ثلاثة أذرع ، وله درج . كما أشار إلى بئر كبيرة عذبة أمام باب مسجد قباء وفي صحنه ، ومنها يأتي الماء إلى المدينة المنورة [٤] . وهذا البئر أشار إليه سابقاً ابن جبير والبلوي [٥] ، وهي ليست من الآبار المشهورة إذ لم يذكرها مؤرخو المدينة المنورة ، إلا في كتاب المغانم المطابة نقلاً عن ابن جبير . [٦]

وقد أجمع الرحالة المغاربة المتأخرون على عذوبة ماء بئر أريس وتحديد موقعها بقباء ، في وسط حديقة كبيرة . [٧]

---

١ ـ الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

٢ ـ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

٣ ـ الخياري : تأريخ معالم المدينة ، ص ١٨١ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠٥ .

٥ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٨ .

٦ ـ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ . وهذا يؤكد نقله عن ابن جبير في أماكن عدة لم يشر إليها .

٧ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ١٠٦ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ، ١٦٦ .

أما عن **بئر حا** [١] فقد ذكرها القيسي وحدّد موقعها في قبلة المسجد ، بحديقة معروفة ، وقال : « إن البخاري أورد ذكرها » [٢] . وأفاض العياشي في تحديد موقعها أكثر ، فقال : « إنها في حديقة صغيرة قريبة من سور المدينة المنورة الشمالي ، بينهما الطريق ، وأقرب أبواب المدينة المنورة إليها باب البقيع ، وهي بينه وبين باب الشامي ، أما الحديقة الموجودة بها البئر فهي تُسقى بمائها [٣] . وذكر أبو مدين الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إليها ، فقال : « يمشي مع سور المدينة المنورة شمالاً دائراً به ، حتى يصل إليها في حديقة صغيرة قريبة من السور وعندها بناء يُصلّى فيه » . [٤]

ولا يختلف وصف الرحالة المغاربة عما أرّخه ابن النجار [٥] . ومع مرور الزمن اندثرت جميع المعالم الدالة على موقع البئر ، ويبدو أنها دخلت في نطاق التوسعة الشمالية للمسجد النبوي الشريف ، وقد أشار الأنصاري إلى تهدم المسجد المقام قربها بسبب انصراف الناس عن الصلاة فيه لقربه من المسجد النبوي . [٦]

---

١ ـ (بئر حا) كانت ملكاً لأبي طلحة الأنصاري ، وكانت أحب أمواله إليه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدخلها ليشرب منها لعذوبة مائها ، وكانت مستقبلة المسجد وعندما نزلت آية ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ تصدق بها وجعلها في قرابته . انظر البخاري : صحيح البخاري ، ج٣ ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ؛ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي : تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص ٣٨١ ، تصحيح نخبة من العلماء ، بيروت ، دار الفكر، د. ت .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ١٠١ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٧ ، تحقيق أمحزون ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢، ص ٣٩ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٧ .

٥ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤١ .

٦ ـ الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨٤ ؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨٨ .

وحدد العياشي **بئر البُصة** [١] ، بأنها قريبة من البقيع على طريق قباء في حديقة نخل ، على طريق بطحان ، ولون مائها أخضر ، وأشار إلى وجود بئر أخرى أصغر منها ، وأورد عدة أراء في أيهما بئر البُصة مع ترجيحه للصغرى ، وقد بُني للصغرى درج ينزل إليها ، وقد شرب منها العياشي واغتسل ، وتوضأ مراراً ، كما بُني بجانبها مسجد ، واكتفى الحضيكي بذكر البئرين ، ولم يرجح أيهما بئر البُصة . [٢]

واتفق ابن النجار والفيروز آبادي والسمهودي مع العياشي ، حول موقعها ووجودها بين نخل ، وحيث أصبحت في زمن الفيروز ابادي والسمهودي حديقة مسورة ، وقد رجح ابن النجار والفيروز آبادي البئر الكبرى ، بينما رجح السمهودي البئر الصغرى . [٣]

ووصف علي حافظ حالة البئر ، بأنها مزرية بالرغم من غزارة مائها ، إذ تحتاج إلى تجديد لا يقوى عليه مالكها ، وهي في طريقها إلى الإندثار ، أما الخياري فحدد موقعها بأنها في بستان على يمين المتجه عبر الجسر من العوالي إلى العنبرية ، مقابل مبنى بنك الرياض ، وأن مدخل البستان من الجهة الغربية في مواجهة موقف السيارات شمال الجسر . [٤]

---

١ ـ (بئر البُصة) يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم غسل رأسه بسدر وصب غسالة رأسه ومذاقه شعره في البُصة . أنظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٦ ، أنظر رسم رقم (٥) .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ، تحقيق أمحزون؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٣٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٦ .

٣ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٥٤ ـ ٩٥٥ .

٤ ـ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨٨ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨٦ .

وذكر الرحالة المغاربة **بئر بُضاعة** [١] ، غربي بئرحا إلى جهة الشمال ، وتقع في حديقة كبيرة ذات نخل ، وأقرب أبواب المدينة المنورة إليها باب الشامي ، عن يمين الخارج منه قليلا ، وبجانبها مسجد وبركة ماء . [٢]

وأضاف أبو مدين أن الحديقة الموجودة بها بئر بضاعة ، زُرع بها مختلف أنواع النباتات التي تُروى بمائها ، وأن مالك الحديقة يقوم ببيع ما يزرعه ، ووصف الحديقة بالكبر وكثرة النخل ، وتقع على يمين الخارج من باب الشامي ، يصل إليها بعد المشي مع سور المدينة المنورة قليلاً ، ثم العدول شمالاً بحيث يمرّ بين حديقتين فينتهي إليها . [٣]

وقال ابن النجار أنها تقع في بستان ، وماؤها عذب، ولونه أبيض صافي ، ولم يحدّد موقعها . بينما الفيروز آبادي قال : أنها وراء سور المدينة المنورة ، بجانب حديقة ، شمالي السور وغربي بئرحا إلى جهة الشمال ، وقد شرب منها فوجدها عذبة ، وأكد السمهودي ما أورده الفيروز آبادي . [٤]

أما المؤرخون المتأخرون ، فذكروا أنها لا تزال موجودة إلى الآن ، وقد بني بالإسمنت المسلح ، عدا فتحة لخروج المواسير التي يضخ الماء منها ، والبئر موجود داخل منزل ، ويعود ملكيته لأحد الأشراف . [٥]

---

١ ـ (بئر بُضاعة) بصق فيه النبي صلى الله عليه وسلم ودعا ، وقال فيه « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » . ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٤ ، أنظر رسم رقم (٦) .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٣٨ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ .

٣ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

٤ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٣١ ـ ٣٥ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٥٦ ـ ٩٥٩ .

٥ ـ الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٤٦ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨١ ـ ١٨٣ ؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ؛ غالي محمد الأمين الشنقيطي : الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ ، جدة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، بيروت ، مؤسسة علوم القرآن ، ط٣ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

وهناك **بئر رُومة** [١] التي ذكرها العياشي ، وقال : « إنها بعيدة ، وتقع أسفل العقيق قرب مجمع السيول ، والطريق إليها يمر على مساجد الفتح ، ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبلتين ماراً تحته قاصداً العقيق ، وبقربها مزارع . ولم يزد الحضيكي عن أنها وسط العقيق . [٢]

وأكد ابن النجار قول العياشي في بُعدها عن المدينة المنورة ، ووجود المزارع حولها . ولم يزد الفيروز آبادي عما أورده ابن النجار إلا في إيراد أخبار عمارتها بعد ابن النجار . كما لم يختلف وصفها لدى السمهودي عما جاء لدى العياشي [٣] . وهذا يعني بقاؤها على حالها بدون إضافات هذه الفترة الطويلة . وكانت تارة تهمل وتارة تجدد [٤] ، وهي ضمن أوقاف المسجد النبوي مع مزروعتها ، وقد تم استئجارها من قِبَل وزارة الزراعة والمياه التي جعلتها حديقة عامة ، أما البئر فقد ذكر علي حافظ أن مائها قارب على الجفاف ، لحفر وزارة الزراعة بئرين بقربها ، أما الطريق إليها فمن المناخة تتجه شمالاً إلى طريق سلطانة ، وبعد الوصول للجبل الأسود المنفرد الواقع يمين الصاعد ، وتتجه يميناً في طريق تحت الجبل ثم تتجه غرباً إلى بئر رومة . [٥]

---

١ ـ (بئر رُومة) إبتاعها عثمان بن عفان رضى الله عنه وتصدق بها . أنظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٨ ، أنظر رسم رقم (٧) .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، تحقيق أمحزون ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .

٣ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٤٠ ـ ٤٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٦٧ ـ ٩٧١ .

٤ ـ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١٦١ ـ ١٦٦ ؛ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، ج١ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ عنى بطبعه ونشره اسعد طرابزوني الحسيني ، د. ت .

٥ ـ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٩٠ ـ ١٩٣ ؛ الأنصاري : اثار المدينة ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

وتحدث العياشي كذلك عن **بئر اليسيرة** [١] وقال : « إنها تعرف ببئر العهن ، وهي معروفة بالعوالي ، جيدة الماء ، منقورة في الأرض وعندها سدرة ، وهي بالقرب من مسجد بني قريظة ، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة ، ملك لبعض المغاربة المجاورين » . [٢]

وذكر الفيروز آبادي أنها بئر معروفة بالعالية ، في وسط حديقة غنّاء ، عندها سدرة يانعة ، وهي غزيرة الماء ، ولم يذكرها ابن النجار . وقال السمهودي: « إنها لا تعرف إلا باسم العهن ، وهي بئر جاهلية كانت تسمي العسرة فسماها النبي صلى الله عليه وسلم اليسرة » . [٣]

وهذه البئر اليوم معطلة ، قليلة الماء جداً ، وهي معروفة باسم العهن ، في داخل بستان يحمل اسمها بالعوالي كما قال علي حافظ . [٤]

وتقع **بئر غرس** [٥] شرقي قباء ، على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال ، وقد بُني لها درج للنزول إليها ، وحولها حديقة ، وبجانبها مسجد ، وقد زارها العياشي وشرب منها مراراً . [٦]

---

١ ـ (بئر اليسيرة) يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف عليها ، وسأل عن إسمها ، فقالوا عسرة فقال لا ولكن إسمها اليسرة ، وبصق فيها . أنظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٨٢ . انظر رسم رقم (٨) .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٥٩ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٣٩ .

٣ ـ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٤٥ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٧٧ ـ ٩٧٨ ، ٩٨٢ ـ ٩٨٣ .

٤ ـ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨٩ .

٥ ـ (بئر غرس) يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء انس بن مالك بقباء ، وسأل عن بئرهم ، فدلوه عليها ، فدعا بدلو من مائها فتوضأ منه ، ثم سكبه فيها ، فما نزفت بعد . انظر ابن النجار : أخبار المدينة المنورة ، ص ٤٥ ، أنظر رسم رقم (٩) .

٦ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٦٠ـ ١٦١ ، تحقيق أمحزون ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٦٧ .

وحدد ابن النجار المسافة بينها وبين مسجد قباء بنصف ميل أيضاً ، وقال : إنها تقع وسط شجر ، وقد خربها السيل ، وماؤها أخضر اللون ، إلاّ أنه عذب ، وأكد الفيروز آبادي خرابها ، ومن ثَمَّ عمارتها بعد المائة السابعة ، وكذلك أكد على غزارة مائها وعذوبته . وقد أضاف السمهودي على ما سبق ، تجديدها سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ، وتسوير حديقتها ، وعمارة الدرج النازل إليها ، وإنشاء مسجد بجانبها [١] . وهو الوصف الذي أورده العياشي ورآه في القرن الحادي عشر الهجري .

وأوضح الأنصاري أن البئر اليوم معطلة ، والحديقة التي حولها لا تزال موجودة ، وتحمل اسم البئر ، وهي وَقْف ، ولا تزال أطلال مسجدها قائمة ، والطريق إليها من المدينة المنورة على باب العوالي ، فطريق قربان مع ميل إلى الشرق ، وفي زقاق ضيق يوجد البئر . وقد أكد على قلة مائها علي حافظ الذي يضخ لسقي البستان الذي حولها . وحدد الخياري والشنقيطي موقعها الحالي بقولهما : انها أمام معهد دار الهجرة ، يفصل بينهما شارع ، وهي ملاصقة للمعهد من الناحية الغربية . [٢]

وتقع في آخر منزلة النقا **بئر السقيا** [٣] على يسار الذاهب لآبار علي ، بالحرّة الغربية ، وحولها بركة عظيمة لورود الحجاج أيام نزولهم هناك . [٤]

---

١ ـ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٧٨ ـ ٩٨١ .

٢ ـ الأنصاري : آثار المدينة ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٨١ ـ ١٨٣ ؛ الشنقيطي : الدر الثمين ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

٣ ـ (بئر السقيا) يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستقى له الماء العذب منها . أنظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٧٢ . انظر رسم رقم (١٠) .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٦١ ، تحقيق أمحزون ؛ المخطوط ، ص ٥٤٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

وأيد السمهودي موقعها ، وقال : إنها بئر مليحة كبيرة ، وقد رأى بجانبها ما يدل على وجود بركة لورود الحجاج ، قد جددت في حدود عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م، ولم تلبث أن تهدمت ، فجُدّدت مرة أخرى في حدود سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م [١] . ويظهر أنها خربت مرة أخرى ، لأن السمهودي رأى أطلالها ، ولكنها جُدّدت بعده ، لأن الرحالة المغاربة شاهدوها في هيئة حسنة .

وذكر الخياري ، أن البئر على يسار الخارج من باب العنبرية ، وعلى يمين الداخل للمدينة المنورة ، وليس بها ماء في الوقت الحاضر ، وتقع ضمن أرض تملكها أمانة المدينة المنورة في سوق الخضار والفاكهة جنوب الاستصيون ، ولم يضف الأنصاري جديداً ، بينما قال علي حافظ : « أنه عند تسوية طريق العنبرية من ميدان العنبرية ، دفنت البئر ، والمنتظر إعادة حفرها ، والمحافظة عليها ، للإستفادة من مائها في ري حدائق العنبرية . [٢]

أما **بئر زمزم** [٣] فتقع بالقرب من بئر السقيا على يمين الطريق ، وهي بئر جيدة ، بوسط حديقة نخل ، وبجانبها بركة ماء وبناء ، وذكر العياشي أنها ملكُ لأحد المغاربة المجاورين ، وقد أكل من ثمر حديقتها وشرب من مائها ، وهي ذات ماء عذب ، وتقع في غربي المدينة المنورة مما يلي الحرة . ولم يزد الحضيكي على أنها بين الطريق المؤدي إلى العقيق . [٤]

---

١ ـ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٧١ ـ ٩٧٦ .

٢ ـ الأنصاري : آثار المدينة ، ص ٢٤٧ ؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

٣ ـ (بئر زمزم) بالمدينة المنورة لا يعتمد فيها أثر وتعرف ببئر أهاب أيضاً . أنظر الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ١٧٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص ٩٥٢ ـ ٩٥٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، ص ١٦٢ ، تحقيق أمحزون ؛ المخطوط ، ص ٥٤٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤٠ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

وأكد الفيروز آبادي على أنه لا أثر يعتمد عليه في نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن أهل المدينة المنورة ينقلون مائها للآفاق ، أما السمهودي فأشار إلى أنها تُعرف ببئر أهاب [١] وهذا وهم من الناس في ذلك الوقت ، إذ حرصوا على فعل شيء ليس له سند يعتمد عليه ، إلا ما شاع بينهم .

وذكر الخياري أنها لا تعرف اليوم إلا بإسم بئر زمزم ، وهي بالحرة الغربية ، وبجانبها آثار بناء قديم . [٢]

ومما سبق نجد أن وصف الآبار المشهورة بالمدينة المنورة ، وما وُجد حولها من بناء ، لم يتغير منذ عهد ابن النجار ، ومروراً بزمن الفيروز آبادي والسمهودي ، وإنتهاءً بزمن الرحالة المغاربة ، مما يؤكد أن ما تم لهذه الآبار من إصلاح أو تعمير إنما كان يتم على أيدى الموسرين من المجاورين أو مالكي هذه الآبار ، لذا لم نلحظ أي إختلاف في أوصافها الأساسية ، لعدم إستطاعة المصلحين لها صرف الأموال الكثيرة ، بحيث تكون لها عمارة شاملة تُعطى لهذه الآبار شكلاً مختلفاً عما كانت عليه سابقاً ، بل ظلّت على ما هي عليه ، الأمر الذي يقودنا إلى القول بأن هذه الآبار لم يتغير وصفها أثناء حكم الدولة العثمانية ، وإنما ترك أمرها لمن هي بأيديهم واكتفت الدولة العثمانية بالعناية بالمشاريع الكبيرة ، كما نلحظ وجود جالية مغربية بالمدينة المنورة امتلكت بعض الآبار المأثورة واشتغلت بالزراعة ، أي أن المغاربة قد أسهموا بنصيبهم في اقتصاديات المدينة المنورة عن طريق عملهم بالزراعة التي اشتهرت بها ، ويقودنا وجود الجالية المغربية وإستقرارهم بها إلى أنه لم تكن هناك قيود تحدّ مَنْ إقامة من أراد الإقامة بل كانت أبواب المدينة المنورة مشرعة للراغبين في الإستقرار دون قيود .

أما عن مشاريع المياه القائمة بدرب الحجاز ، فقد ذكرها الرحالة المغاربة بشيء من الإيجاز ، مع ذكر العناية بالآبار والاصلاحات إن وجدت .

---

١ ـ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ١٧٢ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ،ص ٩٥٢ ـ ٩٥٤ .

٢ ـ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

ففي **وادي الشريف** ، على الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة إتفق الرحالة المغاربة على كثرة مياهه وعذوبتها ، ولكنهم أغفلوا وصف ما به من المنشآت التي عُملت خصيصاً لحماية الآبار والعيون . [١]

وعن **عُسفان** ، أجمع الرحالة المغاربة على كثرة آبارها العذبة ، والكثيرة الماء، وأهملوا الإشارة إلى ما أقيم عليها من بناء [٢] . ووجود هذه الآبار بهذه الكثرة يدل على العمارة لها ، والاعتناء بحفرها وصيانتها .

وفي **عقبة السكر والمشلل والكديد** ، شاهد العياشي سبيل ماء ، ولكنه قليل المياه ، كما أشار الدرعي إلى وجود قبة هناك ، بجانبها بركة ماء ضخمة . وأضاف الحضيكي أنّ بها عين ماء جارية ، وحولها قبتان وصهريج . واكتفى أبو مدين بذكر بركتها . وأكد الزبادي على وجود العيون بها . [٣]

وانفرد العياشي عن غيره من الرحالة المغاربة بذكر سبيل ماء موجود ، بعد برقة بقليل . [٤]

وأغفل بعض الرحالة المغاربة وصف ما وجد **بخليص** من المنشآت ، التي تخدم تسهيل الحصول على المياه ، واكتفوا بالإشارة إلى وفرة عيونها وعذوبة مائها فقط [٥] . بينما باقي الرحالة المغاربة دقّقوا في وصف هذه المنشآت وتركوا

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٦ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ، ٩٤/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٦ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٦ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٥ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٥ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٥ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص٤٠ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٢؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص٧٦ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٥٠ ؛ ج٢ ، ص ٩٤ .

٥ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٨/ب ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٧٥ .

لنا صورة دقيقة عنها ، فمن ذلك وجود بركة ماء بنيت أسفل القرية ، ذات شكل مربع ، متقنة البناء ، ضخمة جداً ، بحيث يغرق فيها مَنْ لا يحسن السباحة ، وقد سيق إليها ماء إحدى العيون ، وروعيَّ في هندسة بنائها وصول الماء إليها في قنوات محكمة البناء ، كُشف عنها في عدة مواضع على شكل أحواض صغرى ليسهل على الحجاج إستعمالها للسقي والوضوء ، وامتدت هذه القنوات إلى البركة ، مغذية إياها بماء عذب زلال ، ومن ثمَّ يعاود الماء خروجه عبر قنوات أخرى للمحافظة على تجديد ونظافة الماء ، ويُستغلُّ ماؤها الفائض والخارج منها في سقي المزارع القريبة من القرية . [١]

وفي رابغ شاهد الرحالة المغاربة آباراً كثيرة ، وأشار القيسي بأنها مليئة بالماء [٢] . واستحدث بها بعد ذلك في زمن رحلة العياشي بركة ماء كبيرة ، تُملأ من تلك الأبار الكثيرة ، شاهدها باقي الرحالة المغاربة بعده . [٣]

وذكر القيسي والعياشي ، وجود سبيل ماء بعد رابغ ، وقد أخطأ القيسي في اسم الأول ، إذ سماه سبيل حسن والأصح سبيل محسن ، نسبة لبانيه الشريف محسن بن زيد ، والد الشريف زيد الذي بنى هو الآخر سبيلاً آخر ، سماه القيسي سبيل السلطان ، وكان سبب بناء السبيلين حسب رواية العياشي أنه في سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م هبت رياح شديدة في فصل الشتاء ، قضت على الكثير من الناس ولأن هذا الموقع الذي هبت فيه الرياح معروف بقلة الماء وموت العابرين به من شدة العطش فقد بنى الشريف محسن والد الشريف زيد سبيل ماء بعد مستورة ، وبنى إبنه زيد سبيلاً آخر بعد بدر . وذكر العياشي أن المسافة

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٥ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٣ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٥، ١٣٥ .

٢ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٣ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ٩٤ ، ١٨١ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨٤ .

بين بـدر ومستورة ، والتي تسمى البزواء ، قُسمت تقديراً إلى ثلاثة أثلاث ، حيث كان العابر يجد الماء ببدر ثم بالسبيل الذي بناه الشريف زيد ، ثم مستورة ، ثم السبيل الذي بناه الشريف محسن . وقد شاهد القيسي به سقاية ضخمة متقنة البناء ، وخُصص لهذا السبيل أوقافٌ تُصرف لِمَنْ يقوم بجلب الماء إليه على ظهور الإبل من أماكن بعيدة ، لذا كان ماؤه قليلاً ، لقلة ما يُحمل إليه من ماء لبعد المسافة .[١]

ونبه إلى هذه المسافة الرحالة المغاربة منذ قرون طويلة ، لقساوة جوها وتشابه مسالكها وإندثار معالمها .[٢]

ونلحظ هذه الأسبلة لم تلق العناية الكاملة بسبب موت منشئيها ، ولهذا فأعمال البر من هذا النوع كانت تنتهي أو يقل شأنها بمجرد وفاة أصحابها أو إنشغالهم بأمور أخرى .

وفي **مستورة** شاهد الرحالة المغاربة بئر كبير بُني بالحجر المنحوت ، يوجد به الماء أحياناً [٣] ويقل أخرى .[٤]

وبُني **ببدر** بركة ماء ضخمة تملأ من عين ماء هناك [٥] . حيث عرفت بدر بوفرة مياهها وعذوبتها [٦] ، ووجد بها عين ماء مشهورة ، سماها الحضيكي بدر وحنين .[٧]

---

١ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ، ١٧٠ ، ٣٩٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٨١ .

٢ ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٨٠ .

٤ ـ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٢٠ .

٥ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٨ ، ١٧٠ ، ٣٩٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٨ .

٦ ـ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٠ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٧ .

٧ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ انظر ما سبق ، ص ٣٣٠ .

أما الطريق الآخر الواقع على يسار طريق البزواء الذي لا يطرق كثيراً ، فقد رأى فيه العياشي بئراً حديثة الحفر ، لأحد فقهاء الحنفية المستوطنين بالمدينة المنورة ، إذ اختار مكان حفرها في موضع منقطع ، كثير الرمال [١] . فأدت الغرض المنشود من حفرها ، وروت عطش السالكين لهذا الدرب ، ونلحظ أن بعض مشاريع المياه في هذا الدرب قام بها مجاورون بالحرمين الشريفين ، وأدت هذه المشاريع إلى تعمير الدرب بالسكان تدريجياً .

وبالجديدة بركة عظيمة البناء ، بناها أحد أمراء الحاج الشامي ، وهي معروفة بغزارة مائها ، وقد انتهى بناؤها بعد عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ولم يشاهدها العياشي في تلك السنة ، وقال : إنها أعانت الناس على ملء القِرب ، وسقي الإبل ، كما وُجد بها عين ماء عذبة ، جارية فوارة ، وقد رأى العياشي سبيل ماء بمكان يسمى النازية . [٢]

وفي شرف **الروحاء** رأى العياشي بئر ماء عميقة ، عذبة ، قليلة الماء ، وبجانبها بركة ضخمة ولكنها جافة ، وتمنّى لو أنها تعمر ، ويقيض الله لهذا الموضع مَنْ يساهم في إعماره ، لما يقدمه من إعانة للحجاج . وعندما مرّ مرّة أخرى على البركة بعد هطول الأمطار ، شاهدها مملوءة بماء المطر ، ورآها الدرعي معطلة ، والبئر جافة ، بعد حوالي خمسين عاماً . [٣]

وشاهد العياشي في **قبور الشهداء** سبيل ماء مجدّد البناء ، وذلك خلال رحلته الثانية . وذكر اليوسي أنّ الموقع لا ماء به . [٤]

---

١ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٤٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧١ ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ٩٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٩٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٦ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧١ ؛ ٣٩٢ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ٤ .

٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٧١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٤/أ .

ولم تخلو **العقبة** من آبار كثيرة عذبة المذاق[١] . وتوفر الماء **بظهر الحمار** ، ولكن الرّحالة المغاربة لم يذكروا مصدره أكان من الآبار أم من العيون . [٢]

وأشار الرحالة أبو مدين إلى وجود آبار كثيرة في **مغاير شعيب** ، وأغفل الرحالة المغاربة الباقون الإشارة إلى الآبار ، مع تأكيدهم على وجود الماء العذب بكثرة ، إذْ منه ما هو احساء . ولم يوضح الرحالة المغاربة ما وُجد بها من منشآت . [٣]

أما **عيون القصب** فكل ما ذكر الرحالة المغاربة لا يعدو قولهم : أن بها ماء عذب جار . [٤]

وحدد الرافعي عدد آبار **المويلح** بثلاثة ، ووصف ماءها بالعذوبة والبرودة ، وذكر وجود حراس مهمتهم حراسة تلك الآبار . بينما ذكر باقي الرحالة المغاربة كثرة آبارها [٥] . وهذا يدل على قيام مَنْ تولى حفر العديد من الآبار خدمة للحجاج ، وإن لم يُعرف القائم بذلك .

---

١ ـ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٠ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤١ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ .

٣ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٦ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١٠٨ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٤ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

٥ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٦ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٤ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٣ .

وتفـاوت الرحالة المغاربة في تحديد عدد **آبار السلطان** ، فالرافعي حددها بالثلاثة ، ووصفهـا بأنها في غاية الكبر والعذوبة ، وتقع علـى قارعـة الطريق . بينما أشار الحضيكي إلى أنها بئر واحدة ، لا بأس بمائها ، أما باقي الرحالة المغاربـة ، فـأشـاروا إلى أنها عدة آبار محدثة [١] . مما يدل على إهمال هذا الموقـع تـارة والنهوض لإعماره تارة أخرى ، كما أننا لا نعلم مَنْ تولى إعمار هذه الآبار .

وفي **الأزلم** ثلاثة آبار ضخمة ، متقنة البناء ، ولكن مياهها غير عذبة . ومع عدم إستخدام الحجاج لمياهها يبدو العناية الكبيرة في البناء . وأشار الرحالة المغاربـة إلى وجود أحسـاء مـاء ، على يسار الأزلم إلى الداخل ، مـاؤهـا طيب ، ولكن لا يعرفه كثير من الناس . [٢]

وفـي **إصطبل عنتـر** أجمـع الرحـالة المغـاربة على أن بهـا ثلاثة آبار ، محكمـة البناء ، بُنيـت بالحجـر المنحوت ، مـاؤها غاية في العذوبة ، إلا أنه قلـيل سرعان ما ينضب ، لكـثرة الأخذ منه . وإنفرد أبو مدين في إشارته أن مائها خلق [٣] . كما وجد بالوجه آبار كثيرة ، بين الجبال في مناطقه الخارجية ، ونّبه العياشي على تفاوت عذوبة آباره ، كما وجد بداخله بئر كبيرة ، نُصبت عليها ساقية ، وذكر إستخدام البقر لرفع الماء منها للسّقيا ، وكانت هناك ثلاث برك ملاصقة لسور الوجه ، يتم ملؤها بالمياه [٤] . وبناء البـرك فـي درب الحجـاز ،

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٨ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٥/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٤ .

٢ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٧ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٥ .

٣ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٨ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ١١١ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٦٥ .

٤ ـ القيسي : أنس الساري ، ص ٧٢ ؛ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٣ ؛ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١١٩ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٦٨ ؛ أبومدين : الرحلة الحجازية ، ص ٢٠٥ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ١٦٦ .

إنما يدل على عناية الدولة العثمانية بهذا الدرب وفعل ما بوسعها لما يخدم الحجاج .

اكتفى الرافعي بذكر بئر واحدة في **اكرا** وقال : « إن ماءها قبيح » ، أما الدرعي ، فقد أشار أن بها عدة آبار قبيحة الماء ، وتحسن عقب السيل [١] . ويظهر أن زيادة عدد الآبار ربما تكون في حالة تحسن طعم الماء عندئذ تحفر آبار جديدة ويستخدم ماؤها .

وأغفل الرحالة المغاربة ذكر أي مشروع مياه في **الحوراء** ، ولم يذكرها سوى الدرعي ، عندما قال : « أن مائها عبارة عن أحساء ، به ملوحة قليلة ، والقريب الحفر أجود » . [٢]

وتحدث الرحالة المغاربة عن المياه في **ينبع** ، وقالوا : أن بها مياه كثيرة عذبة ، وفيها عيون جارية . وأهملوا الحديث عن أي مشروع للمياه . [٣]

وعند مرور الرحالة المغاربة **بالدهناء** ذكروا وجود بركة كبيرة ، قالوا بأنها تكون مملوءة [٤] في بعض الأحيان وفارغة [٥] أحياناً أخرى ، وأشاروا أيضاً إلى بئر كبيرة مياهها عذبة . [٦]

---

١ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٠ .
٢ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧١ .
٣ ـ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢١ ؛ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٨٦/ب ـ ٨٧/أ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٣ ، ج٢ ، ص ١٠٥ ؛ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .
٤ ـ العياشي : ماء الموائد ، ص ٥٥٠ .
٥ ـ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج٢ ، ص ١٠٥ .
٦ ـ اليوسي : رحلة اليوسي ، ص ٩٥/ب ؛ القادري : نسمة الآس ، ص ١١١ .

وفي **وادي النبط** حدّد بعض الرحالة المغاربة آبارها بأربعة آبار ، متقنة البناء ، وأستخدم في بنائها الحجر المنحوت [١] . ومنهم مَنْ أشار إلى أنها ثلاثة فقط [٢] . ومنهم مَنْ لم يحدد عددها [٣] ، وإتفقوا على عذوبة الماء مائها .

ومما سبق نجد أن المشاريع المقامة في درب الحجاز تضمنت تجديد الآبار القديمة ، وبناء البرك التي ساهم في إنشائها أمراء الحج المصريين أو الشاميين ، حسب إمكانيات ذلك الزمن ، واستمرت مشاكل الماء على طول تاريخ سلوك درب الحج ، لضخامة من كان يسلكه من المسلمين الذين يقدمون إلى الأماكن المقدسة ، كما نلاحظ إندثار بعض هذه المشاريع لقلة الإهتمام بصيانتها ، والبعض الآخر إستمر وجوده لفترات طويلة ، مما يدل على الإهتمام بها وصيانتها من قبل فئات معينة .

ونلحظ أننا في أغلب المناطق لم نحظ بمعلومات دقيقة عن القائمين على البناء ، وفي أي السنين ، حدث لندرة مَنْ تصدى لرصد تاريخ هذا الدرب بعد الجزيري ، وساهم الرحالة المغاربة في سلوكهم لهذا الدرب وتدوينهم ما لاحظوه إمدادنا بمادة تاريخية بينت لنا وضعه ، مع الأخذ في الإعتبار أن الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم كانت رحلاتهم متباعدة ، وليست كل عام ، مما يؤدي إلى قلة المعلومات عن أحداث كثيرة حدثت خلال فترات ، وهذا بالتالي يجعلنا نُقارن ونتأمل ونتتبع الرحلات ونربط المعلومات ونستوفيها من كل رحلة فتصبح الصورة واضحة عن العصر الذي عاشه الرحالة . فكل رحلة متممة للأخرى ، وهذا ما أدى إلى معرفة جوانب من تاريخ الحجاز وحضارته من واقع تلك الرحلات التي كانت أشبه بسلسلة متصلة الحلقات مع الأخذ في الإعتبار المقارنة والنقد بينها وبين كتب التاريخ الأخري .

---

١ ــ العياشي : ماء الموائد ، ص ١٤٤ ؛ الدرعي : الرحلة الناصرية ، ج١ ، ص ١٧٢ ؛ الزبادي : بلوغ المرام ، ص ٧٤ .

٢ ــ الرافعي : المعارج المرقية ، ص ١٢٠ .

٣ ــ الحضيكي : رحلة إلى الحرمين ، ص ٣٧ ؛ الغنامي : رحلة القاصدين ، ص ٨ .

وكانت بعض الرحلات أقوى من غيرها في نقل الصورة الصادقة عن تاريخ الحجاز ، فكل صاحب رحلة له مزاجه وله ملاحظاته ، وله إهتماماته الخاصة ، واعتناوءه بجوانب معينة لفتت انتباهه . ولكنهم مع ذلك تمم بعضهم بعضا ، ومعلوماتهم قائمة على المشاهدة والاحساس بالقضايا وتعايشهم معها . لذلك فهي مفيدة إذا أخضعت للنقد والمقارنة ، وإلاّ قد تضلل أحياناً ! .